كلية الكوت الجامعة
مركز البحوث والدراسات والنشر

ISBN: 978-9922-612-39-3

سعيد بن جبير
التابعي الثائر

الدكتور
صالح الطائي

٢٠٢١م

منشورات

مركز البحوث والدراسات والنشر

كلية الكوت الجامعة

١ / ٩٢٢

ط ٢٩٩ الطائي , صلاح .

سعيد بن جبير التابعي الثائر / صلاح الطائي . ـ

بغداد : مطبعة الرفاه , ٢٠٢١ .

٣٧٦ ص . , ٢٤ سم .

١ . رجال الدين ـ تراجم . ٢ . سعيد بن جبير (تابعي)

ـ أ ـ العنوان .

م. و.

٢٠٢١ / ٢٦٨٩

تصميم الغلاف : رائد مهند امير

المكتبة الوطنية / الفهرسة اثناء النشر

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

٢٦٨٩ لسنة ٢٠٢١ م

مطبعة الرفاه

07902823204

الإهداء

إلى . . .

كل من يرى أن الإنسان هو فرصة الكون الأكيدة

وأن الكون لا يستقيم إلا بالمحبة، محبة الإنسان لأخيه الإنسان، واحترام

الرابط الإنساني بينهما

وأن في كون هؤلاء رجال أخلصوا لمبادئهم، فتحولوا إلى حافز للمحبة

الإنسانية المشتركة

إليهم جميعا أهدي مسيرة ابن جبير رجل الثورة العقائدي

والعبد الصالح

المقدمة

في أجواء الكوفة الفريدة والمضطربة، وفي حقبة خلافة الإمام الحسن بن علي (عليه السلام) وفي عهد فوران الدم في القرن الهجري الأول؛ ولد التابعي سعيد بن جبير في عائلة فقيرة، فرضع من ثدي الإيمان لبن التمرد وروح الثورة، وكان واحدا من الذين حملوا أخشابهم على ظهورهم يبحثون عمن يصلبهم عليها، إلى أن تعثر الحجاج بأذياله الطاهرة فضمخها بالدم الزكي، لكن رأسه الشريف حتى وهو مفصول عن الجسد؛ بقى يردد "لا إله إلا الله" ليمثل ملحمة العشق الإلهي، عشق المؤمن للحقيقة، وعدم خوف المؤمن من بطش الجبارين، لتتكرر حكاية انتصار الدم على السيف.!

في أجواء مدينة جبل أهلها على التمرد، ولد التابعي مالئ الدنيا وشاغل الناس سعيد بن جبير؛ الذي أحبه البعض فقدسه، وكرهه آخرون فنعتوه بأسوأ النعوت، وجاء المؤرخون وكتاب السير فنقلوا كلا القولين إلينا، فتوحدنا به سرا، واختلفنا به جهرا! وذلك أن مؤرخينا القدماء تأثروا بطريقتين، لم تكن الحيادية من ضمنهما، وكانتا ولا زالتا تُنتهجان عند البحث أو الكتابة عن الشخوص والحوادث التاريخية منذ أن عرفنا الكتابة وإلى الآن، وهما: -

- الطريقة الولائية: وهي الطريقة التي سنجد أن سعيدا وصف من خلالها انه كان يقرأ القرآن كاملا في ركعتين أو بين صلاتي المغرب والعشاء، وهي مبالغة كبيرة مقتبسة من مبالغات سابقة قيلت بحق بعض الرموز الأولى.
- الطريقة العدائية: وهي التي أتهم سعيد من خلالها انه أفتى بجواز لعب الشطرنج وبأنه كان من المرجئة مثلما قال عنه الخطيب البغدادي، وانه خرج على إمام زمانه فاستحق الذبح شرعا.

وكلتاهما الولائية والعدائية تفتقدان غالبا إلى العلمية والحيادية، وتحتاجان الكثير من المصداقية، ولذا تخرجان في الغالب عن أطر البحث العلمي، وتدخلان في باب المهاترات الفارغة التي تفضي إلى الخلاف. أما سبب ذلك فهو الخلاف الأول الذي شجر بين المسلمين، ذلك الخلاف الذي خلق نوعا من الإحجام جعل كلا منهما لا يتقبل الآخر، ولا

يقبله كما هو، ولا يعطيه فرصة قبول، ولا حتى فرصة الدفاع عن نفسه، فأصبح الولاء والعداء هما المتحكمان بنتائج الدراسات وخلاصة البحوث، مما أسهم ويُسهم في بقاء حالة النزاع على حالها عبر التاريخ. ومن هنا ولدت الحاجة إلى طريقة علمية في البحث، بعيدة عن تشنج الولاء بنوعيه السالب والموجب، مع أن ما أفرزه النزاع وما خلقه من تداعيات، يضع الباحث المحايد أمام كم كبير من المشاكل والإشكالات المعقدة؛ إذا ما أراد الكتابة وفق المنهجية العلمية عن أي شخصية تاريخية.

وواحدة من تلك المشاكل أن الطريقة العلمية المحايدة والبحث الأكاديمي لا يلقيان سوقا رائجة عند الناس؛ فسوقهما كاسد، لأن الناس يبحثون عادة عما يرضي ذائقتهم، ويتلاءم مع توجهاتهم، ويدعم قيمهم التي يؤمنون بها دون تشكيك، ولهذا السبب تجد سوق الدراسات الفئوية واسعة الرواج على خلاف الدراسات الرصينة. ويعني هذا أننا ـ في سبيل توصيل المعلومة إلى طيف واسع من الناس على اختلاف ثقافاتهم ـ نحتاج إلى الموائمة بين الطرق الثلاث (الولائية والعدائية والعلمية) للخروج بطريقة بحث جديدة تجمع خلاصة تلك الطرائق، وتنتقي منها الأقرب إلى نبض الإنسان وعقله وذائقته، تكون الأصدق علميا والأكثر إفادة، ومن ثم تقدم كل ذلك إلى الباحثين على طبق من الحياد، لكن مع نزف الدم قد تتغير القناعات، فالألم يُخرج المرء عن طوره، والأعداء يسعون إلى إثارة النعرات لكي يستمر جريان الدم ولا تأتلف القلوب..

وأنا أقف اليوم أمام مشكلة من هذا القبيل، وأغامر بالكتابة عن حقبتين تاريخيتين تمتد الأولى من ٣٢ ولغاية ٨١ هجرية، وتمتد الثانية من ٨٢ ولغاية زوال حكم الأمويين سنة ١٣٢ هجرية بتأثير ما حدث في الحقبة الأولى، وبسبب مخرجاتها، ولاسيما نتائج تعامل الأمويين مع التابعي الكوفي الكبير سعيد بن جبير (رضوان الله عليه) وأثر انضمامه إلى ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على الأحداث بما أسهم في القضاء على حكم الأمويين.

إن أغلب الذين كتبوا عن سعيد منذ القدم كانوا: إما موالين، وإما معارضين، وكتاباتهم جاءت إما مقصورة على الجانب السردي التاريخي، أو قاصرة عن إدراك حقيقته، ولذلك أسباب كثيرة بعضها عقدي لا يجازف الإنسان بالخوض فيه، فنحن مع كبير الدعوات الذي

تحاصرنا وتمنعنا عن الحديث عما شجر بين الصحابة بالرغم من أن كل مشاكلنا المعاصرة تعود إلى ما شجر بينهم يومذاك؛ نجابه بمشكلة أخرى لا تقل عنها خطورة، إذا ما أردنا الكتابة عن احد التابعين أيضا، لأنهم يكادون أن يكونوا بنفس درجة القدسية المصطنعة التي يتمتع بها جمع كبير من الناس ذوي المشارب المختلفة؛ تبعا لحديث: "خير الأجيال جيلي ثم الذي يليه ثم الذي يليه" بمعنى أن التعامل مع المقدس كان ولا زال يؤثر في طرائق تناولنا للمواضيع التاريخية الدينية، ويتحكم بالنتائج التي نتوصل إليها، وهذا يعني بدوره أننا نراوح في مكاننا، ونرفض ان نتقدم إلى الأمام.

ولذا يجد الباحث غالب ما كتب ويكتب عن هاتين الحقبتين وعن سعيد بين جبير ودوره في الحقبة الأولى منهما، وتأثيرات دوره على الحقبة الثانية؛ يكاد يتشابه من حيث المضمون، ولا يخرج عن السرد التاريخي التوثيقي، حتى لو اختلفت مضامينه، وتعارضت رؤاه، وكأن تلك الشخصيات العظيمة التي خلقت تاريخنا؛ لم تعمل أكثر من أن تصوم وتصلي وتُحَدِث وتفسر وتموت. لا أبدا، لا يرضى الله أن نوقف حياة هؤلاء عند هذه المواقف، ونحصرها في هذه المساحات الضيقة، فهم لو لم يكونوا عظماء ومتميزون في مجمل حياتهم بما فيها الجانب الثوري؛ لما خلدهم التاريخ، أما العبادة والحج ورواية السنة فهي ليست إلا جزءً بسيطا من سير العظماء. وسعيد فضلا عن تدينه وتقواه وعلمه؛ كان ثائرا شجاعا تحدى جبروت الظالمين، وقدم نفسه إلى مذبح الحرية طائعا بسخاء.

إن الحديث عن سعيد وعن أحداث القرن الهجري الأول المشحون بالحراك يطول ويتشعب، ولذا سنأخذ بعضا مما قالوه أنموذجا ونبني عليه استنتاجاتنا لنعرف أثر استشهاد سعيد على زوال حكم الأمويين. ومن خلال البحث سنمر بعُجالة على نسب سعيد، تدينه،علمه، اشتراكه في التمرد، واستشهاده، وأثر كل ذلك على سقوط الأمويين، حيث نجد الكثير من الخلط والتعارض والتحريف المقصود غالبا. ومن الضرورة بمكان أن نتحدث بداية وبشكل موجز عن مجموعة مطالب لها علاقة وثيقة ببحثنا نضعها تحت عنوان (بدايات تنوع الخط الديني) بجزئيات مثل:

- ولادة التشيع.
- هل تعني الولادة انفصالا عن الأصل أم تركيزا لخلاصته؟

- الإفادة والضرر من التقسيم.
- ملامح الخط العلوي ووضوحه أم ضبابيته في ذلك العصر.
- الصحابة والخط العلوي.

حيث سيقودنا ما تقدم إلى الحديث عن (العلاقة بين الصحابة فيما بينهم) لأن ذلك هو ما شجع على ولادة توجهات فكرية وفئوية داخل الإسلام فكرا ومجتمعا، وأثَّر على الأحداث اللاحقة التي امتدت طيلة حكم الأمويين. ثم التحدث بعد ذلك عن تفرّق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة كمحصلة حتمية لابدية، وكيف أسهم الأمويون في إنضاج هذا التشتت الكبير. ولما كان ثمة علاقة وثيقة بين الأجيال المتتابعة القريبة من بعضها بسبب التواصلية الموجودة بين نهاية الأول وما ادخره من خزين، وبداية الثاني وشغفه بمعرفة ما لدى الذين سبقوه؛ فمن المؤكد أن شجون الحديث سوف تمر بالجيل الثاني، (التابعون) والحديث عن التابعين سوف يقودنا إلى الحديث عن الموالي ثم عن القراء ودورهم في الحياة العامة، الذي سيعود بنا بدوره إلى الحديث عن سعيد بن جبير، فكل طرقنا تؤدي في النهاية إلى حيث يقف هذا التابعي الكوفي الذي تضاربت فيه الأقوال والآراء حد التعارض. ومن محصلة ذلك ندخل إلى بدايات القرن الثاني الهجري وصولا إلى ثلثه الأول بما في هذا الثلث من أحداث ومنها زوال حكم الأمويين.

ولما كانت خلاصة بحثنا قد أكدت وفق منهج البحث التاريخي أن التشيع هو الذي تسبب بمقتل سعيد فقد يكون من المستغرب أن نتحدث عن شهيد من شهداء التشيع من غير أهل البيت (عليهم السلام) أو الملتحقون بهم علنا، المقاتلون في صفوف جيوشهم، الرافعون عقيرتهم في مدحهم والثناء عليهم، المحاربون علنا لأعدائهم؛ في هذا الوقت المبكر من عمر الإسلام، ولكن الغرابة تتلاشى حينما نعرف أن التشيع كان في ذلك العصر فاعلا ومتفاعلا، وكان أعداؤه مهيئون للوقوف بوجهه، وجادون في مجاريته ومتابعته ومنع انتشار مبادئه وقيمه من خلال تحجيم رجاله وإشغالهم بهمهم، أو من خلال مطاردتهم وقتلهم، لأنه أخذ جانب المعارضة بدوريها السلمي والمسلح، فأقلق بال الحكام وأقض مضاجعهم.

أن من حقائق التاريخ المسكوت عنها أن السيف في قرن الدماء لم يكن مسلطا على الشيعة وحدهم وإن كان لهم القدح المعلى فيه، فقد ربض على عتبة التاريخ؛ بين سنة ٣٢ وسنة ١٣٢ للهجرة قرن من سنين الخبال، جرت به الدماء على وجه الأرض أكثر من جريان سيول المطر، وانتهكت فيه أعراض النساء إلى حد المهانة والتهتك، وسلبت فيه الأموال عنوة، وشوه فيه الدين، فتحول إلى كيان قميء لا يرتوي إلا بسفك الدم البريء، بعد أن كان مشعلا للتآخي والتسامح والوئام والمحبة. وعلى طول هذا القرن، انتصرت الدماء على السيوف، وهزمتها في كل الوقعات والمعارك، إلى أن أودت بها إلى الهاوية مع حلول سنة ١٣٢ هجرية.!

أما سعيد فالمدهش فيه أنه كان أنموذجاً فريداً للإنسان الذي صنعه الإسلام، فهو بالرغم من فقدان مسحة الجمال من هيئته مثل أغلب الأحباش الآخرين، حظي بمحبة الجميع واحترامهم.. وبالرغم من ميوله العقدية إلى فئة من المسلمين، إلا أنه تواصل مع جميع المسلمين، وتعلم على أيديهم، فأصبح مثلا للتسامح، وبالرغم من كرهه لأبن الأشعث إلا أنه اشترك معه في الثورة للقضاء على الأمويين.

أما البحث فقد قسمته على قسمين، تغطي فصول القسم الأول منهما؛ وعددها سبعة المدة بين ٣٢ ولغاية ٨١ هجرية، وهي مرحلة الإعداد لإسقاط حكم العصبية القبلية. وتغطي فصول القسم الثاني منهما وعددها سبعة هي الأخرى المرحلة من ثورة عبد الرحمن بن الأشعث ولغاية سقوط الأمويين سنة ١٣٢ هجرية.

هذا هو الهيكل العام الذي قدمنا البحث من خلاله وفي أطره، وهو واقعا هيكل حددته طبيعة وأهمية البحث، وأسأل الله أن يكون الحظ قد حالفني، والجهد والتعب قد ساندني في تحقيق الهدف، ومن الله التوفيق

القسم الأول

من سنة ٣٢ ولغاية سنة ٨١ للهجرة

الفصل الأول

الخط الديني

مقدمات لدخول البحث

سوف نمر في هذا الفصل على مجموعة حقائق نتخذها ميزانا معياريا ومدخلات لموازنة مخرجات الآراء التي سوف نتوصل إليها في هذا الكتاب ولاسيما قولنا المسند بالدليل القاطع إن سعيد بن جبير تابعي كوفي قتله تشيعه، بما يعني أن التشيع كان في ذلك العصر المتقدم من عمر الإسلام فاعلا ومؤثرا ومخيفا لدرجة أن الحكام والولاة كانوا يخشونه ويتعاملون معه بقسوة مفرطة، وقولنا الآخر: إن دم سعيد وباقي الدماء البريئة التي سفكها الأمويون، كانت السبب في تعجيل سقوطهم. ومن الحقائق والاستنتاجات التي سوف نحصل عليها ممكن أن نستدل على السبب الحقيقي الذي دفع الحجاج بن يوسف الثقفي إلى ذبح التابعي سعيد بن جبير. وأهم ما يجب الخوض فيه هو التاريخ الحقيقي للتشيع أو بالأحرى:

- معنى التشيع
- تاريخ ولادة التشيع
- نشأة الشيعة
- هل تعني الولادة انفصالا عن الأصل وتقسيما، أم تركيزا لخلاصته؟
- الإفادة والضرر من الصورتين: التركيز والتقسيم
- ملامح الخط العلوي وضوح أم ضبابيته.
- الصحابة والخط العلوي

وقبل الخوض في غمار المعاني والولادة والملامح، أود التنويه إلى أني حينما أورد هذه المعلومات، إنما أوردها لأغراض البحث والتوثيق العلمي لا أكثر، والغاية من ذلك تبيان المواطن التي كانت بؤرا لصنع الأحداث في عالمنا الإسلامي، ولا أبغي من وراء ذلك الترويج لفكر معين لأن ولادة التشيع في ذلك الوقت المتقدم تبدو هي الأخرى واحدة من فقرات المشروع الإلهي، وضرورة ملحة أرادها الله تعالى لتقف قبالة ملامح الانحدار التي بانت في المجتمع الإسلامي مع دخول الطلقاء إليه، وتبوؤهم مناصب كانوا يحلمون بها، لدرجة أن بعض الناس شعروا بعد عصر البعثة أن التغيير الذي وقع كان غالبا مظهريا أكثر منه جوهريا، متمثلا بالقيادات السياسية التي كانت تقود المجتمع الجاهلي

بالقوة والعسف والجور والاستغلال؛ تلك القيادات التي عادت لتتحكم بمصائر المسلمين باسم الإسلام، بعد أن كانت تتحكم بهم في الجاهلية؛ وكأن الإسلام لم يغير شيئا.

وهذا لا يعني أنهم كانوا أحرارا في عمل كل ما يشاؤون لأن الرقابة عليهم كانت شديدة، لكن التعاطف معهم كان شديدا أيضا ولاسيما بعد عزفهم على وتر العصبية. أما أثر توازن القوى بوجود النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) بين ظهرانيهم فإنه هو الذي ضبط سلوكهم وحدده في مجالات دون غيرها، ومن كان يرفع رأسه منهم كان النبي (صلى الله عليه وآله) يخفضه له، لكن بعد وفاة النبي ومقررات مؤتمر السقيفة؛ الذي أشَّر أول علامة من علامات تشظي المجتمع الإسلامي، عادت لهم الحظوة بحدود، ثم رافقها تنام وتطور في القدرات الفكرية والمادية، ربما كان اكبر كثيرا مما هو عليه في الإسلام الذي بدأ يشعر بوطأة المنافسة وثقل الصراع، وخلال ثلاثين عاما من تاريخ الهجرة نجح الخط السياسي ببناء قواعد الانطلاق نحو المستقبل، واستغل خلافة عثمان بن عفان(رض) ليعلن عن وجوده صراحة، ويتخلص من التمويه الذي كان يعتمده. ومع أن جميع الدلائل تشير صراحة إلى وقت الإعلان عن النفس والإشارة إليها، إلا ان خطبة سعيد بن العاص بالكوفة كانت تقريبا أجرأ التصريحات، فسعيد حينما ولاه الخليفة عثمان بن عفان الكوفة، دخلها شابا مترفا ليست له سابقة، فرقى المنبر، وقال: "إنما هذا السواد بستان لأغيلمة من قريش"([1])

هنا في هذه المحطة بالذات، وبحدود سنة اثنين وثلاثين للهجرة؛ بدأت الحقبة الأولى من قرن الدماء والنساء، وكان أغلب ضحاياها الإسلام عقيدة والمسلمين بشرا.

معنى التشيع

بقدر التخبط الذي وقع فيه من تحدث عن تاريخ ولادة التشيع، كان التخبط في معنى التشيع نفسه، فتراهم يتنقلون بين القواميس اللغوية والكتب الفقهية والمجلدات التاريخية والقصص

[1] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٥، ص٣٢، ترجمة سعيد بن العاص. والأغيلمة هم الفتية الصغار وهي تصغير غلمان.

الخرافية وما يتاح لهم ويقع أمام أنظارهم، مع ان الاسم بحد ذاته يشير صراحة إلى المعنى.

نعم أنا لا أنكر أن تعريف مفردة (شيعة) وردت في أغلب قواميس اللغة ولكن ذلك لا يعني أن الموضوع ينبغي أن يصل إلى درجة التأزيم؛ التي هو عليها سابقا وحاضرا، بما ينبئك أن هناك متصيدين بأكثر المياه عكرة أملا بالوصول إلى مبتغى دنيء، فتراهم يستنبطون للتشيع تعريفا لغويا، وتعريفا قرآنيا، وتعريفا من السنة، وتعريفا عند أرباب الفرق، ثم يربطون ذلك بنظرتهم العدوانية إلى كيان التشيع، لكي يطعنوا فيه ويوهنوا جانبه، وقد ساعد على تنامي تلك الطروحات الفئوية الضيقة سكوت المسلمين أنفسهم، وتطوع مسلمين آخرين؛ هم المتطرفون التاريخيون للعمل بما جاء فيها، لا حرصا على الدين ولا حبا له ولكن لتحقيق المصالح الدنيوية .

ولكي تصل إلى إيجاز بمحصلة تلك الأساليب الملتوية أحيلك إلى ما جاء به أحدهم وهو المدعو (أبو الحسن حافظ بن غريب بن حافظ) مؤلف كتاب (فتح الإله في فضح الشيعة وفرخها حزب الله) الذي قال: "الشيعة لفظه لها معاني كثيرة ومتعددة، ففي القاموس المحيط يقول الفيروز آبادي: "شيعة الرجل بالكسر: أتباعه وأنصاره، الفرقة على حدة، ويقع على الواحد والاثنين والجمع, والمذكر والمؤنث، وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولى عليا وأهل بيته حتى صار اسما له خاصا".([1]) بعد قوله هذا الذي حدد فيه علاقة الشيعة بالإمام علي (عليه السلام) عاد ليقول وفق ثقافة التحريض على الكراهية: "وكما يقول العلامة شمس الدين ابن القيم في كتابه بدائع الفوائد تحت عنوان بديعة لطيفة: "قوله عز وجل: {ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا} فالشيعة الفرقة التي شايع بعضها بعضا أي تابعه ومنه الأشياع أي الأتباع فالفرق بين الشيعة والأشياع أن الأشياع هم التبع والشيعة القوم الذين شايعوا أي تبع بعضهم بعضا وغالب ما يستعمل في الذم ولعله لم يرد في القرآن إلا كذلك كهذه الآية، وكقوله:{إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً} وقوله:{وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ} وذلك والله أعلم لما في

[1] فتح الإله في فضح الشيعة وفرخها حزب الله، أبو الحسن حافظ بن غريب بن حافظ، المطلب الأول - تعريف الشيعة وفرقها وأبرز الشخصيات عندهم وأماكن تجمعاتهم، ص ٣.

لفظ الشيعة من الشياع والإشاعة التي هي ضد الائتلاف والاجتماع ولهذا لا يطلق لفظ الشيع إلا على فرق الضلال لتفرقهم واختلافهم".([1])

ثم عاد ليقول تحت عنوان (لفظ الشيعة في السنة): "كما ورد لفظ الشيعة في السنة المطهرة بمعنى الأتباع: روى الإمام ابن أبي عاصم الشيباني، قال: عن محمد بن علي بن حسين([2]) وعن عبد الله بن أبي نجيح، أنه قال: تكلم يومئذ رجل لم يسمه إلا محمد بن علي، قال: هو ذو الخويصرة رجل من بني تميم، فقال: يا محمد فقد رأيت ما صنعت في هذا اليوم، فقال رسول الله (ص): أجل فكيف رأيت؟ فقال: لم أرك عدلت، فغضب رسول الله، فقال: ويحك إذا لم يكن العدل عندي فعند من؟ فقال المسلمون: يا رسول الله أفلا نقتله؟ فقال رسول الله: دعوه، فإنه سيكون له شيعة يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية ينظر في النصل فلا يجد شيئا ثم ينظر في القدح فلا يوجد شيء ثم ينظر في الفوق فلا يوجد شيء سبق الفرث والدم". ([3])

ولا يكتفي بما وصل إليه وإنما يستعين بأرباب الفرق، ليقول تحت عنوان (تعريف الشيعة عند أرباب الفرق): "وقد عرَّف الشهرستاني الشيعة قائلا: "الشيعة هم الذين شايعوا علياً (رض) على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته: نصاً ووصية إما جليا وإما خفياً. واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، أو بتقية من عنده؛ قالوا: وليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة وينتصب الإمام بنصهم، بل هي قضية أصولية وهي ركن الدين لا يجوز للرسول (عليه السلام) إغفاله وإهماله ولا تفويضه إلى العامة وإرساله؛ ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر والقول بالتولي والتبري قولاً وفعلاً وعقداً إلا في حال التقية"([4]) ويستشف من مجموع هذه الأقوال وجود رغبة جامحة في الطعن قدر الإمكان.

---

[1] المصدر نفسه، فتح الإله.

[2] يقصد به الإمام محمد الباقر (عليه السلام).

[3] فتح الإله في فضح الشيعة وفرخها حزب الله، أبو الحسن حافظ بن غريب بن حافظ، ص٣.

[4] المصدر نفسه، فتح الإله في فضح الشيعة وفرخها حزب الله ، ص ١٣١.

إن قول الدكتور الشيخ أحمد الوائلي: "فالشيعة بالمعنى اللغوي هم الأتباع والأنصار، وقد غلب هذا الاسم على أتباع عليٍّ (عليه السلام) حتى اختص بهم وأصبح إذا أطلق ينصرف لهم"([1]) وتحدثه عن المعنى الاصطلاحي للتشيع، فضلا عن ورود المفردة في القرآن الكريم، يؤكد اكتشاف العقلاء لحقيقة تلك النوايا السيئة للذين يريدون الطعن بالإسلام عن طريق الطعن بالتشيع من خلال معانيه اللغوية والاصطلاحية، فهم يريدون لي عنق المعلومة لتخدم توجهاتهم الطائفية العدوانية التي تسهم في تفريق الأمة.

ومن المسَّلم به أن كل مصطلح معروف لابد وأن توجد له معان لغوية واصطلاحية وحتى فقهية إذا ما كانت له علاقة بالفقه، ولكن ذلك لا يمكن أن يُطوع المصطلح ليحوله من أداة تعريف إلى أداة تهديم، هذا إلا إذا ما كان هنالك من له غايات ومقاصد لا تمت إلى أصول البحث العلمي بصلة. فهناك شبه إجماع على أن ولادة مصطلح التشيع بمعناه الفقهي جاءت من أصل مشايعة بعض الصحابة لعلي (عليه السلام) إي إتباعه وتقديمه على غيره والاعتقاد بإمامته، أو ما لخصه النوبختي بقوله: "الشيعة هم فرقة علي بن أبي طالب؛ المسمون بشيعة علي في زمن النبي ومن وافق مودته مودة علي"([2])

أما ربط المفاهيم بالجانب الأسوأ فهي محاولة خبيثة من قبل بعض المغرضين، يرتد خورها إليهم قبل غيرهم، فهم مع دفاعهم الوهمي عن الصحابة الكرام (رضوان الله عليهم) نسوا أن مصطلح (صحابي) فضلا عن كونه ترجمة لمعنى المسلم الذي رأى النبي (صلى الله عليه وآله)([3]) له معان أخرى في النص القرآني، فهو: إشارة إلى النبي نفسه كما في إشارة صاحب الحوت، في قوله تعالى: {فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت}([4]) وهو إشارة إلى أحد الطغاة كما في قوله تعالى: {فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك

---

[1] هوية التشيع، الدكتور أحمد الوائلي، ص ١١.

[2] فرق الشيعة، أبي محمد الحسن بن موسى النوبختي، ص١٥.

[3] كما في تعريف ابن حجر في مقدمة الإصابة: "الصحابي من لقي النبي (ص) مؤمنا به، ومات على الإسلام. فيدخل في من لقيه، من طالت مجالسته له أو قصرت، ومن روى عنه أو لم يرو، ومن غزا معه أو لم يغز، ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه، ومن لم يره لعارض كالعمى". ينظر: الإصابة، ابن حجر،ج١/ص٧.

[4] القلم: الآية ٤٨.

مالا}([1]) وقوله: {قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب}([2]) وهو إشارة إلى المجرم عاقر الناقة كما في قوله تعالى:{فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر}([3]) وهو الزميل صاحب السجن: {يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار}([4]) وقوله سبحانه وتعالى: {يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا}([5])

ولادة التشيع

واقعا يبدو للمنصف المحايد أن ولادة التشيع كانت مقرونة بولادة الإسلام نفسه، وهو في نشأته لم يختلف عن المذاهب الأخرى فحسب، وإنما سبقها بزمن ليس بالقليل، ليكون وجها آخر للإسلام يحمل كل خلاصة الأصل. وفي الرجوع إلى سرديات التاريخ الإسلامي ومصادره نجد المؤرخين يختلفون في وقت ولادة التشيع، ولهم في ذلك آراء وأقوال كثيرة تتضح من خلالها مجموعة حقائق أهمها:

أن التشيع عربي الولادة والنشأة، ولد من رحم الإسلام الأول في عصر البعثة، أو بعده بزمن يسير جدا، قبل أن تأتي فكرة تأسيس المذاهب الإسلامية الأخرى بزمن طويل. ومن المؤكد أن اختلاف المؤرخين لا يقع في حقيقة السبق التاريخي للولادة بقدر وقوعه في ساعات سبق الولادة بالتحديد، حيث أكد أكثر من واحد أن ولادة التشيع كانت في زمن البعثة المباركة وبعلم رسول الله (صلى الله عليه وآله) وتشجيع منه. وهذا السبق لا يدعو إلى الغرابة بقدر ما يدعو إلى السؤال عن سبب ولادة التشيع من رحم إسلام البعثة، وهل كانت الولادة المبكرة تعني انسلاخا عن الإسلام، أم تأكيدا لنهجه وخطه، تمييزا له عن الخطوط التي ستتفرع عنه مستقبلا؟

فضلا عن ذلك هناك آراء أخرى ذهب بعضها إلى أن التشيع ولد بعد عصر البعثة بمدة وجيزة جدا أثناء وبُعَيد مؤتمر السقيفة، وذهب بعضها الآخر إلى أنه ولد في حقبة حكم الخليفة الراشد عثمان بن عفان(رضي الله عنه)، أو في زمن خلافة الإمام علي (عليه

[1] الكهف: الآية ٣٤.
[2] الكهف، الآية ٣٧.
[3] القمر: الآية ٢٩.
[4] يوسف: الآية ٣٩.
[5] يوسف: الآية ٤١.

السلام)، أو في بداية عصر الدولة الأموية، ولا توجد أي رواية تتجاوز هذا التاريخ أو تقرن ولادة التشيع بولادات المذاهب الإسلامية الأخرى؛ اللهم إلا غريب الحديث عن كون التشيع ظاهرة طارئة في المجتمع الإسلامي، وقطاع تكون على مر الزمن نتيجة أحداث وتطورات اجتماعية معينة أدت على تكوين فكري ومذهبي خاص([1]).

وعن الولادة المبكرة أقول: لا شك أن شخصية علي بن أبي طالب المتفردة المتميزة جذبت خلص الصحابة، فمالوا إليه، ومال إليهم، وتكونت في قلب الإسلام خلية تضم هذه الفئة المخلصة، وكأنها ركزت كل سمات الإسلام في بؤرة واحدة. وقد أشار الكثير من الباحثين إلى هذه الحقيقة، القدماء منهم والمعاصرون، من المعاصرين الدكتور صبحي الصالح أستاذ الإسلاميات وفقه اللغة في كلية الآداب في الجامعة اللبنانية، الذي قال: "عسير علينا تحديد الوقت الذي ابتدأت فيه النواة الأولى للتشيع تبرز إلى الوجود... وحين نأخذ من الوجهة التاريخية بالرأي القائل: إن الشيعة نبتت في زمن النبي وحياته، فإنما نقصد ـ مع كثير من التجوز والتحفظ ـ أن بعض الصحابة أكبروا علم علي وقرابته من النبي وشجاعته وزهده وخدماته الجلية للإسلام، قد اعتقدوا أن من الضروري لأن يكون علي أول من يخلف النبي (ص) ولاسيما بعد أن سمعوا من النبي نفسه كلمات في حق علي تكرمه أعظم تكريم" ([2])

ومنهم أيضا الأستاذة نبيلة عبد المنعم التي أشارت في رسالتها لنيل درجة الماجستير إلى هذا الأمر، بقولها: "إن هناك أشخاصاً عرفوا بميلهم إلى علي بن أبي طالب والوقوف معه، مثل عمار بن ياسر وأبي ذر والمقداد وسلمان، وكان تصرف هؤلاء الأشخاص وسيرتهم دليلاً على تفضيلهم علياً على سائر أصحاب رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم)" ([3])

وأرى أن ما وصل إليه الباحثان على قدر كبير من الأهمية، فهناك في مصادرنا التاريخية ما يعضده، حيث قال المسعودي ([4]) عن الأشخاص الذين مالوا إلى علي (عليه السلام): إنهم لم يعترفوا بنتائج مؤتمر السقيفة، ولم يبايعوا الخلفاء الذين رشح انتخابهم من خلال

---

[1] ينظر: نشأة الشيعة والتشيع، محمد باقر الصدر، ص ١٣.
[2] النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، الدكتور صبحي الصالح، ص ٩٥.
[3] نشأة الشيعة الإمامية، نبيلة عبد المنعم، ص ٤٢.
[4] تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي، جزء٢/ص ١٠٥.

هذا المؤتمر؛ حتى بايع علي بن أبي طالب. أي أنهم شكلوا مجموعة ضغط ورصد وتنظير لها مواقف خاصة بها هي غير تلك المواقف التي يتخذها العامة والسياسيون.

وفي حديثه عن محبة الصحابة أو بعضهم لعلي (عليه السلام) قال صبحي الصالح: "إن الفكرة بدأت محبة، وأن المحبة أصبحت هياما، والهيام استحال عشقا، والعشق غلوا وتقديسا" (١) ولكن إذا فرضنا تساوقا مع رأي صبحي الصالح أن كل من أحب عليا أو فضله على باقي الصحابة أصبح مغاليا فمعنى ذلك أن كثير من الصحابة كانوا من المغالين لأن الكاتب نفسه قال في مكان آخر من كتابه: "وإذا فرضنا أن كل من أحب عليا أو فضله من الصحابة متشيع له فقد كان بين الصحابة حتى في عهد النبي شيعة لربيبه علي، منهم أبو ذر الغفاري والمقداد بن الأسود، وجابر بن عبد الله، وأبي بن كعب، وأبو الطفيل بن وائلة، وعباس بن عبد المطلب وجميع بنيه، وعمار بن ياسر، وأبو أيوب الأنصاري" (٢) فكيف يستقيم اتهامه لهؤلاء الصحابة الكرام بالغلو مع الصحبة التي يرونها عاصمة؟

ومن خلال البحث في أمهات كتب التاريخ والسير والرجال وجدت حقا أن علاقة علي بن أبي طالب بهؤلاء الرجال من مجتمع الصحابة تنطوي على قدر كبير من الاحترام المتبادل والتعلق الخارق لنواميس العلاقات المجتمعية السائدة آنذاك، وهذا بالتأكيد ليس من باب الإدعاء أن عليا كان يتعامل مع باقي الصحابة بنظرة فوقية أو نظرة كره وعداء، بل إن علاقته بهؤلاء الصحابة وعلاقتهم به لها خصوصية لم ترق إليها علاقاته وعلاقاتهم مع الآخرين، وهذه الخصوصية كانت مشخصة حتى من قبل رسول الله (صلى الله عليه وآله) تبعا للحديث الذي أخرجه ابن حجر في صواعقه، بقوله: اخرج الترمذي والحاكم وصححه عن بريدة قال: قال رسول الله (ص): "إن الله أمرني بحب أربعة، وأخبرني أنه يحبهم. قيل: يا رسول الله سمهم لنا؟ قال: علي منهم، يقول ذلك ثلاثا، وأبو ذر والمقداد وسلمان" (٣). وعن ابن بريدة عن أبيه، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): "إن الله أمرني بحب أربعة من أصحابي وأخبرني انه يحبهم. قال: قلنا: من هم يا رسول الله؟ وكلنا

---

١ النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، الدكتور صبحي الصالح، ص ٩٦.
٢ المصدر نفسه.
٣ الصواعق المحرقة، ابن حجر الهيثمي، ص ١٢٢.

يحب أن نكون منهم! فقال: ألا أن عليا منهم، ثم سكت، ثم قال: أما إن عليا منهم ثم سكت"([1]).

إن الصحابة المميزون الذين خصهم الحديث كانوا يعرفون هذه الحقيقة ويتماهون معها ويؤمنون أن حب علي هو وثيقة الشرف التي تجمعهم به، وتجمعهم فيما بينهم، وتجمع بينهم وبين الإسلام، ولاسيما بعد أن جعل النبي الأكرم حب علي عنوانا لصحيفة الإيمان كما في الحديث الذي أوردة ابن حجر الهيثمي، قال: أخرج الخطيب، عن أنس أن النبي (صلى الله عليه وآله)، قال: "عنوان صحيفة المؤمن حب علي بن أبي طالب" ([2]) والحديث الذي أورده مسلم في صحيحه: عن زر، قال: قال علي: "والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبي الأمي (صلى الله عليه وآله) إليَّ: أن لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق"([3])، ومن هذه الأحاديث، وهذه المقدمة نخلص إلى نتيجة مفادها:

- أن التشيع لعلي الذي هو أساس التشيع المعاصر ولد في عصر البعثة المشرفة.
- أن الإسلام والتشيع كيان واحد لا فرق بينهما.
- أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم يعترض على وجود هذا التكتل داخل الإسلام، وإنما باركه.
- إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) هو من وضع بذرة التشيع كما يعتقد

عدد كبير من المفكرين والمؤرخين وعلماء الدين الذين لخص الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء زبدة أقوالهم بقوله: "إن أول من وضع بذرة التشيع في حقل الإسلام هو صاحب الشريعة نفسه" ([4]) وعضدها الشيخ باقر شريف القرشي بقوله: "والشيء المؤكد حسب الدراسات العلمية البعيدة عن العواطف التقليدية والتيارات المذهبية أنها (أي الشيعة)

---

[1] المستدرك، الحاكم ، جزء ٣/ص ١٤١، الحديث رقم ٤٦٤٩/ ٢٤٧.

[2] الصواعق المحرقة،ابن حجر الهيثمي، ص ١٢٥.

[3] صحيح مسلم،كتاب الإيمان، باب حب الأنصار وعلي، حديث ١٣١ـ ٧٨، ص ٩٠، طبعة دار إحياء التراث العربي

[4] أصل الشيعة وأصولها، مقارنة مع المذاهب الأربعة، محمد حسين كاشف الغطاء، ص ١١٨ وقد أسهب الشيخ في كتابه هذا في الحديث عن ولادة التشيع في زمن البعثة المشرفة وأطال، ينظر: الصفحات من ١١٨ إلى ١٣٣

أنشئت وتكونت في زمان الرسول (صلى الله عليه وآله) وهو أول من غرس هذه البذرة ونماها ورعاها في جميع مراحل حياته" ([1]) وأكد عليها بقوله الآخر: "والشيء المحقق حسب الدراسات العلمية التي لا تخضع لهوى ولا تجنح لعاطفة أن التشيع بمفهومه الفكري وأرصدته الروحية والسياسية قد نشأ وترعرع وتكون حينما فجر النبي العظيم (صلى الله عليه وآله) دعوته الخلاقة الهادفة على إقامة مجتمع سليم متوازن في سلوكه"([2])

فضلا عن ذلك، هناك قول آخر لهاشم معروف الحسني يرجع النشأة إلى بداية عصر البعثة في مكة المكرمة، جاء فيه: "إن فكرة التشيع قد تكونت قبل الأزمنة التي حددها أكثر الكتاب، وأنها رافقت فجر الإسلام يوم كان النبي (صلى الله عليه وآله) يغذي بأقواله فكرة التشيع لعلي (عليه السلام) ويمكنها في أذهان المسلمين ويأمر بها في مواطن كثيرة على اختلاف المناسبات، وأول ما بدا بها في مكة المكرمة يوم أنزل الله وأنذر عشيرتك الأقربين"([3])

وقد وجد النبي الأكرم في هذا التجمع المؤمن صورة لمركز الاستقطاب الأقوى لمفاهيم الدعوة وفكر العقيدة؛ الذي كان يأمل أن يكون المجتمع المسلم كله على منواله وفي درجته الفكرية، فاستحسنه وأيده، ولاسيما أن هذا التجمع بدا وكأنه القلب النابض لفكر الإسلام في جسد الإسلام، ولذا استحسنه (صلى الله عليه وآله) وباركه وخصه بالمديح والثناء، بل وأطلق عليه اسمه الذي عرف به على مر التاريخ ولا زال: (الشيعة)، حيث نجد في النقول المعتبرة كثيرا من الروايات التي تؤكد أن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله)، استحسن وجود هذا التكتل ودعمه وأيده، ومن تلك النقول نقلا عن مناقب المغازلي وصواعق ابن حجر والدر المنثور للسيوطي وبداية ونهاية ابن الأثير، ومنها ما رواه ابن الأثير في البداية والنهاية: "قال (صلى الله عليه وآله وسلم) لعلي: "انك ستقدم على الله أنت وشيعتك راضين مرضيين، ويقدم عليه عدوك غضابا مقمحين، ثم جمع يديه إلى عنقه يريهم كيف الاقماح. وفسر ابن الأثير فيها الاقماح : برفع الرأس وغض البصر"([4]). وما أخرجه ابن

---

[1] هذه هي الشيعة، باقر شريف القرشي، ص ١٩-٢٠.
[2] براءة الشيعة من الغلو والغلاة، باقر شريف القرشي، ص ٩.
[3] أصول التشيع عرض ودراسة، هاشم معروف الحسني، ص ١٩.
٤ الشيعة في التاريخ - الشيخ محمد حسين الزبن ط ٢ ص ٢٣.

الصباغ المالكي وابن حجر، قال رسول الله (ص) لعليّ: "هم أنت وشيعتك، تأتي أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين، ويأتي عدوك غضابا مقمحين"([1])

ونقل عن أبي حاتم الرازي من روضات الجنات عن كتاب (الزينة) قوله: "إن أول اسم ظهر في الإسلام على عهد رسول الله (ص) هو الشيعة، وكان هذا لقب أربعة من الصحابة وهم أبو ذر وسلمان والمقداد وعمار، إلى أن آن أوان صفين فاشتهر بين موالي علي (رض)"([2]). وأخرج الحاكم عن ميناء بن أبي ميناء مولى عبد الرحمن بن عوف، قال: خذوا عني قبل أن تشاب الأحاديث بالأباطيل، سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: "أنا الشجرة وفاطمة فرعها وعلي لقاحها والحسن والحسين ثمرتها، وشيعتنا ورقها، وأصل الشجرة في جنة عدن وسائر ذلك في الجنة" ([3])

أما ابن المغازلي المالكي في مناقبه والسيوطي في الدر المنثور وابن الأثير في البداية والنهاية فقد أوردوا ما يقرب من ذلك عن عبد الله بن عباس (رض) والنقل لابن المغازلي في مناقبه: "عن ابن عباس انه قال : سألت رسول الله عن قوله تعالى (السابقون السابقون) فقال: قال لي جبرائيل : ذلك علي وشيعته هم السابقون إلى الجنة المقربون من الله لكرامته"([4]). كما اخرج السيوطي في الدر المنثور أن ابن مردويه اخرج عن علي (عليه السلام)، انه قال : "الم تسمع قول الله تعالى {إن الذين امنوا وعملوا الصالحات} هم انت وشيعتك وموعدي وموعدكم الحوض إذا جاءت الأمم للحساب تدعون غرا محجلين" ([5])

مجموع هذه النقول تحصر ولادة التشيع بزمن عصر البعثة تحديدا، وتشير إلى أن الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) كان أول المنوهين بفكرة التشيع والمباركين لولادته والمشجعين على انتهاجه، وذلك بأمر الله سبحانه وتعالى؛ لأن الرسول ما كان ليبارك هذا الجمع لو لم يكن متساوقا مع الخط الإسلامي العام، ولو كان فيه أدنى خروج على الإسلام

---

[1] الفصول المهمة، ابن الصباغ المالكي، ص ١٢٢ وصواعق ابن حجر، الآية ١١ من الآيات الواردة في فضل أهل البيت من الباب ١١، ص ١٥٩.

[2] الفصول المهمة، ابن الصباغ المالكي، ص ٢٥ هذا وأفاض الشيخ محمد الزبن في الحديث عن بداية نشوء التشيع في الصفحات من ١٦- ٣١.

[3] المستدرك، الحاكم، الجزء الثالث، حديث رقم ٣٥٣/٤٧٥٥.

[4] المناقب، ابن المغازلي، ص ٣٢٠ والدر المنثور، السيوطي، ج ٦، ص ١٥٤ والبداية والنهاية، ابن الأثير،ج١/ ص ٨٤ .

[5] الدر المنثور في تفسير كتاب المنثور، جلال الدين الله السيوطي، ج ٦،ص ٣٧٩ .

أو عقيدته أو فكره، أو حتى مجرد تعارضه من بعيد مع الإسلام، ما كان ليباركه ويشجعه ويحث الناس للالتحاق به.

هنا أود الإشارة إلى جانب مهم التفت إليه الشهيد الصدر الأول وخصه بعنايته وهو أن كثيرا من الباحثين والمؤرخين في المدرستين الفقهيتين ربطوا بين التسمية والولادة زمنيا، أو بين المصطلح والفكر؛ غير ملتفتين إلى أن "ولادة الأسماء والمصطلحات شيء، ونشوء المحتوى وواقع الاتجاه والأطروحة شيء آخر"([1]) فإذا كان مصطلح التشيع غير واضح المعالم في اللغة السائدة في العصر الأول؛ فلا يعني هذا أن الأطروحة والاتجاه الشيعي لم يكن موجودا في ذلك العصر.

غير ما تقدم هنالك نقول أخرى لا تتفق مع فكرة الولادة المبكرة للتشيع، وترى أن التشيع ولد بتواريخ أبعد من هذا التاريخ، ولكنها عند التمحيص تكاد تجتمع على رأي متقارب، يقول: إن ولادة التشيع ـ بأبعد تقدير ـ لم تخرج عن حدود التاريخ المحصور بين مؤتمر السقيفة، أي بعد وفاة الرسول الأكرم مباشرة، وحرب صفين، أي قبل سنة أربعين للهجرة، باعتبار أن الشيعة كان لهم دورا في صناعة الحدث في هذه الحقبة الحرجة من تاريخ الأمة، فقد وقفوا إلى جانب الإمام علي (عليه السلام) يوم السقيفة واعتزلوا البيعة ولم يبايعوا حتى بايع. وكذلك كان حالهم يوم الشورى. ثم نلحظ أنه في المدة المحصورة بين وفاة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) وتولي الإمام علي الخلافة ظهور مؤيدون آخرون لعلي فضلا عن شيعته القدماء، مثل ثابت بن قيس الأنصاري، وخزيمة بن ثابت، وصعصعة بن صوحان، وعقبة بن عمرو، ومالك بن الحارث الأشتر ([2])

وأسأل هنا: هل أنهم وقفوا إلى جانبه تأثرا بحدث وقع في تلك اللحظة كرد فعل مفاجئ أدى إلى تجمعهم للوقوف بجانبه، أي بفعل قريب الشبه أو مشابه لوقوف فرقة الخوارج من التحكيم؛ الذي يعتقد البعض أنه كان مفاجئا، أم أنهم كانوا متفقين على هذا الموقف قبل تطور الأحداث ليعلنوا رأيهم في مثل هذه الساعة؟ أم إنهم كانوا ضمن تجمع يعرف أحقية

[1] نشأة الشيعة والتشيع، محمد باقر الصدر، ص١٥-١٦.
[2] ينظر: نشأة الشيعة الإمامية، نبيلة عبد المنعم، ص ٤٢و٤٣.

علـي بالخلافـة، فلمـا وجـدوها ذهبـت إلـى غيـره، لـم يوافقـوا علـى ذلـك، ووقفـوا بجانبـه معترضين على الأطراف الأخرى؟

وأقول جوابا: إن مجرد وقوفهم مجتمعين إلى جنب الإمـام علـي يعنـي أنهـم كـانوا قبـل هذه الساعة منضوين في تجمع هادف يسعى إلى تحقيق أهداف محددة فلما جاءت النتائج مخيبة اعترضوا عليها بالوقوف إلى جانب علي.

أمـا الحـديث عن المفاجـأة وظهـور تجمعـات فكريـة بـين صـفوف المسلمين مـن دون سـابق إعداد وتنظيم؛ بدفع من أمر مفاجئ طارئ آخر، وهو ما قيل عن ولادة التشيع، وقيل أيضا عن ولادة فكر الخوارج؛ الذين يقول التاريخ عنهم: إن فكرهم وتنظيمهم ولد فجأة في لحظة التحكيم بين علي (عليه السلام) ومعاوية في صفين، فأرى أنـه إمـا أن يكـون حـديث جاهل بحقـائق التـاريخ، أو مغرض مـن فائدتـه ومصـلحته طمس الحقـائق وإخفائهـا، أو هـو خلـط تـاريخي وقـع بـه الكاتـب والمـؤرخ القديم نتيجـة عـدم إتقـان الصـنعة، أو السـهو، أو سـوء التقـدير، أو إنـه مـن فعـل سياسـة التـآمر التـي أثـرت علـى الحيـاة الإسـلامية برمتهـا، وهـو الافتراض الأكثر قربا للحقيقة كما سيتبين لاحقا!

معنـى هذا أن هناك من كان يرى أن التشيع ولـد كفكـرة فـي زمـن البعثـة المشـرفة، ثـم بـرز كاسم بعد وفاة النبي مباشرة، ومن هؤلاء المفكر العربي ابن خلدون؛ الذي قال: "إن الشيعة ظهرت لما توفي الرسول (ص) وكان أهل البيت يرون أنفسهم أحق بـالأمر وأن الخلافة لرجالهم دون سواهم من قريش" ([1])

فالظهور هنا لا يعني الولادة المفاجئة، وإنما يعنى الخروج إلى السطح والعلن أمام النـاس، بعد أن كان ذلك الوجود خفيا لا يعرف حقيقته الكثير، وهو ما يتضح من أقوال ابن خلدون اللاحقة، ومنها قول يؤكد فيه أن التشيع تنظيميا قطع شوطا طويلا من سـاعة ولادتـه وإلـى حين يوم السقيفة التي وضح فيها أمر التشيع كفكر منظم، ومنهـا قولـه: "كـان جماعـة مـن الصحابة يتشيعون لعلي ويرون استحقاقه على غيره، ولما عدل به إلى سواه تأففوا من ذلك وأسفوا له، مثل الزبير وعمار بن ياسر والمقداد بت الأسود وغيرهم ، إلا أن القوم لرسوخ

[1] تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج ٣/ص ٣٦٤.

قدمهم في الدين وحرصهم على الألفة لم يزيدوا في ذلك على النجوى بالتأفف والأسف" ([1])

بل وهناك بين الباحثين والمؤرخين المتأخرين من يتفق مع ابن خلدون في رأيه، ومنهم الكاتب المصري المعروف احمد أمين، الذي قال: "كانت البذرة الأولى للشيعة الجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبي أن أهل بيته أولى الناس أن يخلفوه"([2]).

وقد تأثر الكاتب سعيد رشيد زميزم بهذه الآراء فقال: "من المعروف بأن المئات من الصحابة الأفاضل الذين كانوا قريبين للرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) ساروا خلف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) بعد وفاة الرسول بسبب معرفتهم بمنزلته عند رسول الله" ([3])

بل إن الصدر الأول يرى أن: "الشيعة ولدوا منذ وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله) مباشرة متمثلين في المسلمين الذين خضعوا عمليا لأطروحة زعامة الإمام وقيادته التي فرض النبي الابتداء بتنفيذها من حين وفاته مباشرة، وقد تجسد الاتجاه الشيعي، منذ اللحظة الأولى في إنكار ما اتجهت إليه السقيفة من تجميد لأطروحة زعامة الإمام علي وإسناد السلطة إلى غيره"([4]) كذلك كان (موسى الموسوي) بالرغم من اختلاف غاياته في التحدث عن هذه المواضيع؛ أحد الذين رأوا أن التشيع ولد بعد موت النبي مباشرة، حيث جاء عنه قوله في كتابه (الشيعة والتصحيح): "إن فكرة التشيع لعلي ولدت بعد وفاة النبي واستمرت حتى القرن الهجري الثالث"([5])

ومن الغرابة أن نجد تزاحم الآراء وصراعها حول تاريخ الولادة بالرغم من شدته وعنفوانه يتوقف فجأة بعد تنصيب أبي بكر (رضي الله عنه) خليفة، فلا ذكر لمن يدعي أن التشيع ولد في زمن خلافة أبي بكر أو في زمن خلافة عمر (رضي الله عنه)، حيث غُض الطرف عن الحراك الشيعي في هذه الحقبة رغم ظهور الشيعة العلني، وتأثيرهم في

[1] المصدر نفسه، ج ٣/ص ٣٦٥ .
[2] فجر الإسلام، احمد أمين، ص ٣٦٦.
[3] ثورات الشيعة، سعيد رشيد زميزم، ص ١٣.
[4] نشأة الشيعة والتشيع، محمد باقر الصدر، ص ٧١.
[5] الشيعة والتصحيح، الصراع بين الشيعة والتشيع، موسى الموسوي، ص ١٢.

الأحداث، وتواصلهم مع قائدهم، وقد يكون هذا الموقف ناتجا عن قناعة صارت واضحة للجميع وهي: أن المذهب الشيعي موجود وفاعل، وأن تاريخ وجوده يعود إلى زمن البعثة المشرفة. وربما لهذا السبب قال صبحي الصالح بما يبدو إشارة صريحة إلى هذه الحقيقة، بعد أن تحدث عن المتشيعين لعلي من الصحابة: "لم يتح لهؤلاء أن يظهروا ظهورا صريحا بمذهبهم لا في زمن الرسول ولا في زمن أي بكر وعمر، وإنما بدأ ظهورهم يتخذ شكله الواضح في زمن عثمان" ([1]) فهو بقوله هذا يؤكد وجود التشيع في عصر النبوة ولكن لأسباب خاصة لم يتح للتشيع الظهور رسميا يومذاك!

ويكاد رأي النوبختي في حقيقة تاريخ ولادة التشيع أن يكون أنهض الآراء بالرغم من كونه أظهر التشيع وكأنه ولد بعد البعثة، فهو يقول: "قبض رسول الله (صلى الله عليه وآله) في شهر ربيع الأول من سنة عشر من الهجرة وهو ابن ثلاث وستين سنة، وكانت نبوته (عليه السلام) ثلاث وعشرين سنة . . . فافترقت الأمة ثلاث فرق:

فرقة منها سميت الشيعة وهم شيعة علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ومنهم افترقت صنوف الشيعة كلها.

وفرقة منهم ادعت الإمرة والسلطان وهم الأنصار، ودعوا إلى عقد الأمر لسعد بن عبادة الخزرجي.

وفرقة مالت إلى أبي بكر بن أبي قحافة وتأولت فيه أن النبي (صلى الله عليه وآله) لم ينص على خليفة بعينه" ([2]) فالنوبختي في قوله هذا يؤكد أن التشيع إذا لم يكن قد ولد في عصر البعثة فإنه ولد في يوم وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله)! لكن السكوت عن التشيع والجمود الموقت الذي بدا عليه في حقب خلافتي أبي بكر وعمر ما برح أن اهتز بشكل زلزالي عنيف مع مقتل الخليفة عثمان(رضي الله عنه) والأحداث التي رافقته، حيث عادت الأصوات تتعالى والآراء تتضارب بشأن ولادة التشيع، فظهرت مقالات متنوعة فيها الكثير من التباين ابتداء من هذا التاريخ فصاعدا، ونتيجة اختلاف تلك الآراء، اختلفت وتنوعت آراء من جاء بعد هذا التاريخ، فجاء من لم يثبت على رأي واحد، بل وزع تاريخ

[1] النظم الإسلامية، صبحي الصالح، ص ٢٦.
[2] فرق الشيعة، أبي محمد الحسن بن موسى النوبختي، ص ٢- ٣.

ولادة التشيع على ثلاث حقب، مثل المقدسي في قوله: "إعلم أن الشيعة أتوا في حياة علي ثلاث فرق، فرقة على جملة أمرها في الاختصاص به والموالاة له مثل عمار وسلمان والمقداد وجابر وأبي ذر وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وجرير بن عبد الله البجلي ودحية بن خليفة، والفرقة الثانية تغلو في عثمان وتميل إلى الشيخين مثل عمرو بن الحمق ومحمد بن أبي بكر ومالك الأشتر، والفرقة الثالثة السبأية أتباع عبد الله بن سبأ" (١).

تجد من جهة أخرى أن ابن حزم كان أكثر تحديد، فحصر ولادة التشيع بساعة مقتل عثمان، كما في قوله: "ثم ولي عثمان، وبقي اثنا عشر عاماً حتى مات، وبموته حصل الاختلاف، وابتدأ أمر الروافض" (٢).

وقول آخر نقله محمد حسين الزبن يدعي فيه قائله: "أن الروافض ليسو من المسلمين، إنما هي فرق حدث أولها بعد موت النبي (ص) بخمس وعشرين سنة" (٣).

وكذلك يرى عثمان بن عبد الله بن الحسن الحنفي: "أن افتراق الأمة لم يكن في أيام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وإنما بعد مقتل عثمان ظهرت الرافضة" (٤) وهو الرأي الذي استحسنه عبد العزيز الشناوي، فاعتقد أنه يشير إلى تاريخ الولادة الحقيقي، فقال: "الشيعة، وهي من أقدم الفرق الإسلامية، قد ظهروا بمذهبهم العباسي في آخر عصر أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رض) ونما وترعرع في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)، إذ كان كلما أختلط بالناس ازدادوا إعجابا بمواهبه وقوة دينه وعلمه" (٥). وإذا ما كان الشناوي محقا في قوله عن الإمام علي، وأنا أراه محقا: "إذ كان كلما أختلط بالناس ازدادوا إعجابا بمواهبه وقوة دينه وعلمه" فمن المفروض أن هذا الإعجاب لم يكن وليد الساعة، بل يعود إلى الظهور الأول لعلي على الساحة الإسلامية في عصر البعثة، بما يعيدنا إلى الرأي السابق القائل أن ولادة التشيع كانت في زمن الرسالة. وأنا لا أريد محاكمة النص كله وأكتفي بهذه الجملة فقط لأقول: هل أن مواهب علي وقوة دينه وعلمه وكل سجاياه الساحرة الأخرى لم تظهر للعيان إلا بعد أن تولى الخلافة؟ وأنها كانت خافية

---

١ البدء والتاريخ، المقدسي، ج ٥ ص ١٢٤ ، ونبيلة عبد المنعم، ص ٤٣.
٢ الفصل في الملل والنحل، ابن حزم، ج ٢/ص ٨٠.
٣ الشيعة في التاريخ، محمد حسين الزبن، ص ١٨.
٤ الفرق المتفرقة بين أهل الزيغ والزندقة، عثمان بن عبد الله بن الحسن الحنفي.
٥ الأئمة الأربعة، حياتهم، مواقفهم، آرائهم، عبد العزيز الشناوي، ص ٧٤ ، ق١.

في زمن النبي وأثناء حكم أبي بكر وعمر وعثمان؟ أم أنها من سجاياه التي عرف بها على مر التاريخ الإسلامي؟

فإذا كان جواب السؤالين الأولين: نعم. فذاك مجاف للحقيقة ومخالف للمنطق والعقل، وإذا كان الجواب: كلا، فلماذا لم يتأثر المسلمون بأخلاق علي من قبل؟ لماذا انتظروا حتى توليه الخلافة، ليظهروا إعجابهم الكبير به؟

وتساوق أحمد المختار مع الرأي القائل إن التشيع ولد بعد مقتل الخليفة عثمان، فقال: "لقد أخذت مراكز التسلل الشعوبي في بلاد فارس تظهر نشاطها منذ عهد مبكر مستغلة الأحزاب السياسية التي ظهرت في الدولة إثر وفاة الخليفة عثمان، وما تلا مصرعه من نزاع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان" ([1]).

وقد تأثر المستشرق فلهاوزن بهذه الآراء، فقال: "كان ظهر بمقتل عثمان وانقسام الإسلام إلى حزبين حزب علي وحزب معاوية، والحزب يطلق عليه في العربية أيضاً اسم الشيعة، فكانت شيعة علي مقابل شيعة معاوية" ([2]).

وهناك من تكلم عن سبق ولادة التشيع، ولكنه ادعى أن الفكر الشيعي ولد في حقبة حكومة الخليفة الراشد عثمان؛ لا في الجزيرة العربية، وإنما خارجها، وتحديدا في مصر، ومن هؤلاء الدكتور صبحي الصالح، الذي قال: "وإذا نشأت مبادئ الشيعة في مصر زمن عثمان، فما أتيح لها أن تنتشر هناك، بل أخذت طريقها إلى العراق لأن عليا قد أقام مدة خلافته فيه" ([3]).

ولا أدري على ماذا أرتكز الدكتور صبحي ليستخلص هذا الرأي الغريب، لأن عليا (عليه السلام) سواء كان مقيما بالمدينة أم بالكوفة كان حبه هو الدافع إلى تشيع الناس، وهذا يعني أن التشيع يجب أن يولد حيث يقيم لا أن يولد في بلد بعيد، ثم يفد من هناك إلى حيث يقيم، أو حيث أقام من قبل! ثم إن مصر التي يدعي الباحث أن التشيع ولد فيها لم تشهد منذ أن تم فتحها على يد عمرو بن العاص ولغاية مقتل الخليفة عثمان بن عفان وجودا شيعيا البتة، بل كانت معزولة تقريبا عن الفكر الشيعي بسبب بعدها، وحتى ثورتها على عثمان لم تكن

---

[1] أضواء، احمد محمد المختار، مصدر سابق، ص ١٥.
[2] الخوارج والشيعة، فلهاوزن، ص ١٤٦.
[3] النظم الإسلامية، مصدر سابق، ص ٩٧.

بسبب تشيعها مطلقا. أما البصرة التي اشتركت مع أهل مصر في الثورة على عثمان، فتبدو أقرب منها لهذا الاحتمال لأن فيها عشائر ترتبط بالقرابة والولاء مع أهل مكة والمدينة والكوفة، وهي قريبة من الكوفة ومرشحة أكثر من غيرها لولادة فكر التشيع؛ لو كانت هناك حاجة إلى ولادة هذا الفكر خارج مكة أو المدينة أو الكوفة!

على كل حال رأى آخرون من كتّاب الفرق والإخباريين والمؤرخين من غير هؤلاء أن الولادة كانت أبعد قليلا من تلك التواريخ التي وضعوها، وأنها وقعت في حقبة حكم الإمام علي (عليه السلام)، وأثناء سنوات حكمه، وليس في عصر الخليفة عثمان أو أثناء مقتله. وكان ابن النديم من الذين ادعوا أن التشيع ولد في زمن خلافة علي، كما في قوله: "إن الشيعة تكونت لما خالف طلحة والزبير علياً وأبيا إلا الطلب بدم عثمان وقصدهما علي ليقاتلهما حتى يفيا إلى أمر الله، تسمى من اتبعه على ذلك الشيعة، فكان يقول شيعتي، وسماهم طبقة الأصفياء، طبقة الأولياء، طبقة شرطة الخميس، طبقة الأصحاب، ويفسر معنى شرطة الخميس، أن علياً قال لهذه الطائفة تشرطوا فإنما أشارطكم على الجنة ولست أشارطكم على ذهب ولا فضة" (١). وقد أراد ابن النديم القول: إن التشيع كان ابتداؤه يوم الجمل، كما في قوله: "إن تسمية أتباع علي باسم الشيعة كان ابتداؤه يوم الجمل" (٢) ورأيه هذا جاء متساوقا مع رأي محمد بن إسحاق الذي يرى إنه: "لما خالف طلحة والزبير على علي، وأبيا إلا الطلب بدم عثمان بن عفان، قصدهما علي ليقاتلهما، حتى يفيئا إلى أمر الله جل اسمه، فسمي من اتبعه على ذلك الشيعة، فكان يقول: شيعتي" (٣).

ويتضح من حديث "هنري ماسيه" عن انشقاق الخوارج في صفين، اعتقاده أن التشيع ولد كردة فعل لهجر الخوارج جيش علي بن أبي طالب، فقال: "وقد أطلق عليهم التاريخ اسم الخوارج ... وبعكسهم أصبح المخلصون لعلي هم الشيعة" (٤).

وأرى تلك الآراء بعيدة عن الواقع لأن التشيع في هذه المرحلة كان قد نضج وأكتمل خطه الفقهي، يؤيد ذلك فقرات من حديث الإمام الحسن (عليه السلام) مع حجر بن عدي (رحمه

---

١ الفهرست، ابن النديم، ص ١٧٥.
٢ لقد شيعني الحسين – إدريس الحسيني، ص ١٩ .
٣ لقد شيعني الحسين، المصدر نفسه
٤ الإسلام، هنري ماسيه، ص ٦٥.

الله) عن أسباب الصلح مع معاوية، يبدو من خلالها وكأن الحديث عن الشيعة كان حديثا عن حقيقة معروفة ومسلم بها وواضحة للعيان، والحديث أورده الدينوري، وجاء فيه قول الإمام الحسن (عليه السلام): "إنما صالحت بقيا على شيعتنا خاصة من القتل" ([1]) وأورده ابن قتيبة جوابا على قول سليمان بن صرد الخزاعي (رحمه الله): "فإنكم شيعتنا وأهل مودتنا ... وإني لم أرد بما رأيتم إلا حقن دماءكم وإصلاح ذات بينكم ... وأما قولكم يا مذل المؤمنين فو الله لأن تذلوا وتعافوا أحب إليّ من أن تعزوا وتقتلوا"

مع كل هذه الحقائق، لا ينكر أن هناك خلطا تاريخيا وقع في شراكه ومصيدته الباحثون ممن لم يلتفتوا إلى حقيقة الحراك السياسي الذي كان يدور في الحقبة ما بعد مقتل الخليفة عثمان ولاسيما أثناء حرب صفين وبعد التحكيم، الذي أسهم في توضيح معنى التشيع لعلي أمام لناس؛ الذين صاروا ينظرون إلى هذه الفئة كوجود فاعل مؤثر منظم لا يمكن المرور عليه مرور الكرام، حيث تبين أثر الخطين الشيعي العلوي والشيعي الأموي كلاهما وأخذت لفظة (شيعة علي) مكانها مقابل لفظة (شيعة معاوية) حتى في صحيفة التحكيم التي نصت على: "هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما فيما تراضيا من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه قضية علي على أهل العراق ومن كان من شيعته من شاهد أو غائب، وقضية معاوية على أهل الشام ومن كان من شيعته من شاهد أو غائب" وكذلك في صحيفة صالح الإمام الحسن مع معاوية التي نصت على: "وبعث معاوية عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة إلى الحسن للصلح . . . وأعطياه ما شرطه له معاوية وأن لا يتبع أحد بما مضى ولا ينال احد من شيعة علي بمكروه ولا يذكر علي إلا بخير" ([2]) علما أن معاوية لم يلتزم بهذه الشروط وخالفها بالكامل حيث أخرج الأصفهاني عن أبي إسحاق، قال: "سمعت معاوية بالنخيلة يقول: "ألا إن كل شيء أعطيته الحسن بن علي تحت قدمي هاتين، لا أفي به". قال أبو إسحاق: وكان والله غدارا ([3]). وكلتا الصحيفتين وضعتا الشيعة في الواجهة ككيان بات الحديث عنه من المسلمات البديهية، لأن الناس سبق وأن عرفوه منذ زمن طويل.

---

[1] الأخبار الطوال، الدينوري ص ٢٢٠.
[2] مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الأصفهاني، ص ٧٤- ٧٥.
[3] المصدر نفسه، ص ٧٧.

تجدر الإشارة إلى أن لحديث النوبختي عن الفرق الثلاث الذي تقدم ذكره تتمة قال فيها عن الفرقتين الثانية والثالثة: "ولم يزل هؤلاء جميعا على أمر واحد حتى نقموا على عثمان بن عفان أمورا أحدثها" ([1]) وبما أنه وضع الشيعة في التسلسل الأول ثم ذكر الفرقتين الأخرتين، فكأنه يتحدث هنا عن مؤامرة عصبها برأس الفرقتين من غير الشيعية وهما الفرقتان اللتان قاتلتا الشيعة فيما بعد؛ طلبا بدم عثمان! ويؤكد النوبختي حقيقة وجود التشيع المنظم في العصر الأول بقوله: "فلما قتل علي (عليه السلام) التقت الفرقة التي كانت معه والفرقة التي كانت مع طلحة والزبير وعائشة فصاروا فرقة واحدة مع معاوية بن أبي سفيان، إلا قليل منهم من شيعته، ومن قال بإمامته بعد النبي (صلى الله عليه وآله)" ([2]) أي أن شيعة علي بقوا على مبدأيتهم ولم يتبعوا غيرهم ممن مال إلى جانب الخلافة الأموية.

بعد أن تحدث حامد الإدريسي عن الفتنة التي أدت إلى مقتل الخليفة عثمان بن عفان، وقيام معاوية بالمطالبة بدمه، قال: "ومن هنا انقسم المسلمون إلى طائفتين عظيمتين، طائفة ترى أحقية علي (رض) بالخلافة وترى نصرته والجهاد معه، إعزازا للدين وقياما بواجبهم تجاه إمام المسلمين، فسموا بشيعة علي، أي حزبه وأتباعه.... فبقي اسم الشيعة ملازما لأولئك الزمرة التي ناصرت علي بن أبي طالب وجاهدت معه، وكان أغلبهم من أهل العراق"([3]).

ونحن حينما نكتشف أن الشهرستاني في ملله في سياق حديثه عن التشيع كان قد قال: "وهم خمس فرق ... بعضهم يميل في الأصول إلى الاعتزال، وبعضهم إلى السنة، وبعضهم إلى التشبيه"([4]) فذلك يوحي وكأنه أراد القول إن التشيع ولد في هذه الحقبة تحديدا، ولاسيما وأنه حينما تحدث عن الفرق الخمس ذكر (الكيسانية) أولا، وقال: "كيسان، مولى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) وقيل: تلميذ للسيد محمد بن الحنفية (رض)"([5]) وكأنه أراد القول إن التشيع ولد في هذا التاريخ مع ولادة أولى فرقه وتحديدا بعد موت الإمام علي.! وهذا مخالف لما نص عليه النوبختي بقوله: "قبض رسول الله

---

[1] فرق الشيعة، النوبختي، ص ٤.
[2] المصدر نفسه، ص ٦.
[3] الفاضح لمذهب الشيعة الإمامية، حامد الإدريسي، ص٧- ٨.
[4] الملل والنحل، الشهرستاني، القسم الأول، ص ١٣١.
[5] المصدر نفسه، الملل والنحل، القسم الأول، ص ١٣١.

(صلى الله عليه وآله) في شهر ربيع الأول سنة عشر من الهجرة... فافترقت الأمة ثلاث فرق: فرقة منها سميت الشيعة، وهم شيعة علي بن أبي طالب (عليه السلام) ومنهم افترقت صنوف الشيعة كلها"([1]). أما في حديثه عن الكيسانية، فقال النوبختي: "وفرقة قالت بإمامة محمد بن الحنفية لأنه كان صاحب راية أبيه يوم البصرة دون أخويه، فسموا (الكيسانية) وإنما سموا بذلك لأن المختار بن أبي عبيد الثقفي كان رئيسهم وكان يلقب: كيسان، وهو الذي طلب بدم الحسين"([2]) ولمثله ذهب عبد القاهر البغدادي في كتابه، حيث قال تحت عنوان (ذكر الكيسانية من الرافضة): "هؤلاء أتباع المختار بن أبي عبيد الثقفي... وكان المختار ويقال له كيسان، وقيل أنه اخذ مقالته عن مولى لعلي (رض) كان اسمه كيسان"([3]) أي أن الكيسانية ولدت في عصر متأخر جدا، يعود إلى ما بعد سنة خمس وستين للهجرة، وليس كما أراد الشهرستاني الإيحاء. فضلا عن أن تسمية الشيعة بالرافضة لم تظهر إلى الوجود إلا بعد ثورة الشهيد زيد بن علي رحمه الله) بزمن ليس بالقصير.

وحتى مع هذا الوضوح، وهذه الحقائق الدامغة، التي جاءت في أوثق كتب التاريخ العامة والخاصة للمدرستين الإسلاميتين، نجد آراءً أخرى تعترض وتشكك بصحة وقوع الولادة في تلك التواريخ المتقدمة من عصر البعثة وعمر الإسلام، ليس اعتمادا على منهجية علمية أو تاريخية أو حتى مهنية محايدة، بل تبعا للأهواء والعصبيات والطائفية؛ التي كانت ولا زالت تتحكم باستنتاجات يعتمدها البعض دينا ويتعبد بها، لأنه من خلال التدليس الذي يمارسه يوقع أتباعه بالوهم فلا يعودون قادرين على التمييز بين الصحيح والخطأ. ونجد أوضح صورة لهذه المنهجية الغريبة جدا لدى الشيخ الدكتور راغب السرجاني، فالسرجاني يعترض على من يرى أن التشيع ولد في أيام علي (عليه السلام) أثناء حرب صفين؛ ليس لأنه توثق من هذه النتيجة بالبحث والتمحيص، وإنما لسبب غريب قائم ومبني على نظرية الجدل البيزنطي، وهو أن الاعتراف بصحة هذه المعلومة يعني:

أن أتباع علي (عليه السلام) هم الشيعة، وأتباع معاوية هم السنة.

ولما كان السنة يعتقدون أن الحق مع علي؛ وليس مع معاوية الذي أجتهد وأخطأ.

---

[1] فرق الشيعة، النوبختي، ص ٢.

[2] المصدر نفسه، فرق الشيعة، ص ٢٠.

[3] الفرق بين الفرق، عبد القاهر البغدادي، ص ٢٧.

إذا فالحق مع الشيعة أتباع علي، وليس مع السنة أتباع معاوية.!

وهذا التقسيم يبدو بنظره مجحفا للسنة، ولذا لا يقبل به ولا يعترف بصحته، بل ويرى أن لا أحد يقبل به. وقد أورد هذه النتيجة الانتقائية المتحيزة في قوله: "فالسنة يعتقدون أن الحق في الخلاف الذي دار بين الصحابيين الجليلين (علي ومعاوية) كان في جانب علي، وأن معاوية اجتهد ولم يصل إلى الصواب في المسألة" ويفهم من هذا القول أن السرجاني يرى أن الشيعة كانوا على صواب والسنة كانوا على خطأ! ولهذا السبب بالذات دون كل الأسباب الأخرى؛ ينكر الدكتور السرجاني ولادة التشيع في أيام صفين، لأن الاعتراف بصحة هذا التاريخ يصب في مصلحة التشيع وأهله ويوهن جانب من شايع معاوية وأعانه. ومجمل قوله في هذا الموضوع هو: "والذي يشتهر عند الناس أن الشيعة هم الذين تشيعوا لعلي بن أبي طالب في خلافه مع معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنهما)، ولكن هذا يعني أن أتباع علي بن أبي طالب هم الشيعة، وأتباع معاوية بن أبي سفيان هم السُّنَّة. وهذا لم يقبل به أحد، فالسُّنَّة يعتقدون أن الحق في الخلاف الذي دار بين الصحابيين الجليلين كان في جانب علي، وأن معاوية اجتهد ولم يصل إلى الصواب في المسألة، وعليه فانحياز فكر السُّنة إلى علي بن أبي طالب واضح. كما أن الأفكار والمبادئ والعقائد التي يقول بها الشيعة لم تكن من أفكار ومبادئ علي بن أبي طالب أبدًا؛ ولذلك فلا يصح أن يقال: إن بداية الشيعة كانت في هذا الزمن"([1]).

نستنتج مما تقدم حقيقة طالما حاول المحرفون المتحيزون إخفاءها وهي أن الإسلام الأول كان على ثلاث صور، صورتان كانتا على وفاق هما: الإسلام الشيعي، والإسلام السني، ويختلفون مع الصورة الثالثة وهي: الإسلام الأموي، والذين أوردوا هذه الآراء، تأثروا بالإسلام الثالث، وهو إسلام يرفض الحقائق التاريخية. ويعطينا رأي السرجاني المتحيز صورة واضحة عن أساليب التدليس التي اتبعت مع تواريخ ولادة التشيع، وكيف أن هناك من تلاعب بها تبعا لأهوائه وميوله، لأنها تكشف بعض أسوأ فصول قضيته التي يؤمن بها ويدافع عنها. ونحن مع رفضنا لفكرة أن يكون التشيع قد ولد في هذا التاريخ المتأخر، أي

[1] موقع راغب السرجاني، موضوع بعنوان (أصول الشيعة) نشره في نيسان ٢٠٠٩.

في أيام صفين نجيء بمثل هذه الآراء عادة لنكشف أساليب التعامل العوجاء العرجاء المفعمة بالانتقائية والتحيز التي تتحكم باستنتاجات بعض المتعصبين للباطل.

من هذا التصور، ومن فكرة الرفض الطائفية التي كونها الدكتور السرجاني دفاعا عما يعتقد به؛ ذهب بولادة التشيع إلى ابعد من تاريخ صفين، ربما لأنه كان يرى أنه لا يمكن الانتقاص من عظمة الدوافع التي وقفت وراء ولادة التشيع، الذي جاء كردة فعل صحيحة على فعل سيء يجب الوقوف بوجهه واعتراضه، ولأنه لا يمكن أن يدافع عن يزيد بنفس القوة التي دافع بها عن معاوية، فلا بأس أن يدفع تاريخ الولادة إلى عصر يزيد، ولذا تجده يؤيد الرأي القائل: إن التشيع ولد مع ثورة الإمام الحسين عام ٦١ هجرية، ويقول: "من المؤرخين من يقول: إن بداية الشيعة كانت بعد استشهاد الحسين (رض). وهذا رأي وجيه جدًّا؛ فقد خرج الحسين على خلافة يزيد بن معاوية، واتجه إلى العراق بعد أن دعاه فريق من أهلها إليها، ووعدوه بالنصرة، ولكنهم تخلَّوْا عنه في اللحظات الأخيرة، وكان الأمر أن استُشهد الحسين في كربلاء، فندمت المجموعة التي قامت باستدعائه، وقرروا التكفير عن ذنوبهم بالخروج على الدولة الأموية، وحدث هذا الخروج بالفعل، وقُتل منهم عددٌ، وعُرف هؤلاء بالشيعة. وهذا يفسِّر لنا شدة ارتباط الشيعة بالحسين بن علي (رض) أكثر من علي بن أبي طالب نفسه، وهم - كما نشاهد جميعًا - يحتفلون بذكرى استشهاد الحسين (رض)، ولا يحتفلون بذكرى استشهاد علي بن أبي طالب"([1]). أي أن الدكتور السرجاني حاول إبعاد ولادة التشيع إلى عام ٦١ هجرية وعزا سبب الولادة إلى أسباب غير منطقية بالمرة. لكن من المؤكد أن سبب ولادة التشيع - وهذا يأتي خلافا لأسباب ودوافع ولادة بعض المذاهب الإسلامية الأخرى - كان دينيا بحتا ولا علاقة له بالسياسة التي يحاول البعض الادعاء أنها كانت السبب وراء نشأته، وهو ما أكد عليه الشيخ محمد جواد مغنية، بقوله المعروف: "لكن مما لا شك فيه أن سبب التشيع ديني صرف ولا صلة له بالسياسة" وهو ما سنتوسع في بحثه بعد قليل.

وحتى مع هذا التوجه غير المنطقي، بل حتى مع دعمه للرأي القائل إن التشيع ولد بعد مقتل الإمام الحسين (عليه السلام)، ووصفه لهذا الرأي بأنه: "رأي وجيه جدًّا" نجده يذهب

[1] موقع راغب السرجاني، موضوع بعنوان (أصول الشيعة) نشره في نيسان ٢٠٠٩ .

لأبعد من ذلك بغية دفع تاريخ مولد التشيع إلى أقصى قدر ممكن، فهو في حديثه عن الخليفة المأمون العباسي وموت الإمام الرضا (عليه السلام)، يقول: "مرت السنوات، وهدأت جذور الثورات نسبيًّا، وإلى هذه الفترة لم يكن هناك مذهبٌ ديني مستقل يُعرَف بمذهب الشيعة، إنما كانت حركات سياسية للوصول إلى الحكم، والاعتراض على الحكام لأسبابٍ كثيرة، ليست منها الأسباب العقائدية التي في مناهج الشيعة الآن"([1]) أي انه أنكر وجود المذهب الشيعي حتى في هذا التاريخ المتأخر من عمر الإسلام، ولذا تراه يتعكز على واحدة من الشائعات السياسية الطائفية التي نشرتها السلطة العباسية أثناء حربها للطالبيين وشيعتهم ليثبت من خلالها أن التشيع حركة سياسية بصبغة دينية، ولدت بعد موت الإمام الرضا (عليه السلام)، فيقول: "وهكذا اتحدت جهود الشعوبيين الفارسيين مع طائفة من الطالبيين من آل البيت، لتكوّن كيانًا جديدًا بدأ يتبلور ككيان مستقل، ليس سياسيًّا فقط بل دينيًّا أيضًا" أي أن السرجاني لم يكتف بنشر هذه الآراء المنحرفة وإنما حاول تجريد التشيع من روحه الدينية التي باركها النبي (صلى الله عليه وآله) مدعيا انه ولد بدوافع سياسية لا دينية، فهو بعد أن دفع مولد التشيع إلى أيام ثورة الحسين (عليه السلام) عاد ليقول: "ومع ذلك فنشأة هذه الفِرقة لم تكن تعني إلا نشوء فرقة سياسية تعترض على الحكم الأموي، وتناصر فكرة الخروج عليها، ولم يكن لها مبادئ عقائدية أو مذاهب فقهية مختلفة عن أهل السُّنَّة"([2]). والغريب أن أحد الكتاب المنسوبين إلى التشيع اعتمد نظرية السرجاني، وعدها أحد الأقوال في تاريخ ولادة التشيع، فقال: "تتحرك أربع نظريات لا يرجحها فقهاء التشيع لتحديد زمن ظهوره على مسافة زمنية، لا يبتعد أقصى رأي فيها عن سنة ٦١ للهجرة" ([3])

أما الدكتور عبد العزيز الدوري فقد رسم للتشيع صورة أخرى في كتابه (مقدمة في تاريخ صدر الإسلام) عن طريق تقسيمه إلى قسمين، الأول روحي بدأ أيام البعثة، والثاني سياسي أنطلق بعد مقتل الإمام علي (عليه السلام)، ومن هذا التصور استدل على أن التشيع بمعناه البسيط دون باقي خواصه الاصطلاحية، قد استعمل في صحيفة التحكيم التي نصت على

[1] المصدر نفسه.
[2] المصدر نفسه.
[3] الشيعة والدولة القومية، حسن العلوي.

شيعة لعلي وشيعة لمعاوية، مما يعطي معنى المشايعة والمناصرة فقط دون باقي الصفات والأبعاد السياسية التي حدثت بعد ذلك.

لقد أدى تشتت الأقوال إلى تكوين صورة ضبابية عن تاريخ ولادة التشيع ولاسيما لدى غير المسلمين من المستشرقين وغيرهم بعد أن وجدوا المسلمين يشرقون ويغربون في حديثهم عن تاريخ ولادة التشيع، ولا يرسون على قرار، ومن المستشرقين الذين تلاعبوا في الحقائق؛ كان الألماني "هاينس هالم" حيث تراه يقول بداية: "وقد أطلق اسم (شيعة علي) على الناس الذين وقفوا معه في نزاعه ضد معاوية والسوريين، وبعد اغتياله بقي هذا الحزب قائما"([1]) ثم يتحدث عن الوجود الشيعي وكأنه وحدة متكاملة مع انه كان يعتقد أن التشيع بعد استشهاد الإمام علي كان مجرد حزب في الصراع على السلطة ([2]) وحتى لو سايرناه برأيه هذا فإنه يثبت أن التشيع كان كيانا له مكانته، لكنه عاد فقال: "لم تبدأ المسيرات الدينية لشيعة علي إلا بعد كارثة كربلاء، أي بعد فشلها السياسي... وكان مركز الشيعة السياسي كما الديني والنقطة التي انطلقوا منها المدينة العراقية الكوفة... أي أن الشيعة نشأت في العراق"([3]) بمعنى انه حصر ولادة التشيع في حقبة حكم الإمام علي وجعل ولادته في الكوفة وليس في مكان آخر. ثم عاد ليقول: "يمكن تحديد زمن نشوء الشيعة في الأعوام الواقعة بين مأساة كربلاء (٦٨٠م/ ٦١هـ) ومسيرة الموت التي قام بها (التوابون) الكوفيون في سنة (٦٨٤م/ ٦٤ـ٦٥هـ)"([4]) ثم ختم كل تلك الأقوال بقول: "يمكننا القول إن حركة التوابين الكوفية تشكل المنشأ الحقيقي للإسلام الشيعي"([5]) بما يبدو وكأنه نسي أقواله السابقة وتحدث عن تاريخ جديد لمولد التشيع، يؤكد رأينا ما قاله المستشرق بعد قوله ذاك، ففي كلام آخر له عن التوابين قال: "وانطلاقا من هذا الشعور تشكلت مجموعة من الناس دخلت التاريخ تحت اسم (التوابون) وهي المجموعة التي يمكننا اعتبارها النواة الأولى للشيعة"([6]) وهو حتى في هذا الرأي لم يكن حديا لأنه خلال حديثه

---

[1] الشيعة، هاينس هالم، ص ٢٦.
[2] المصدر نفسه.
[3] المصدر نفسه.
[4] المصدر نفسه، ص ٣٥.
[5] المصدر نفسه، ص ٣٨.
[6] المصدر نفسه، ص ٣٥.

عن التوابين عاد وقال: "قاد هذه المجموعة رجل اسمه سليمان بن صرد، وهو عربي وجيه وشيعي قديم"([1]) فكيف يكون سليمان شيعيا قديما وهو يدعي أن التشيع ولد مع حركة التوابين؟

أما لماذا اختيرتْ هذه التواريخ المتأخرة للقول بأن التشيع ولد فيها؟ فذلك هو السؤال المهم. والذي اعتقده أن الآراء التي أبعدت ولادة التشيع إلى مرحلة الصراع بعد وفاة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) حاولت ربط الولادة بالحراك السياسي الدائر لكي تضفي عليه طابعا سياسيا بعيدا عن المؤثرات الدينية، أي لتدعي أن ولادة التشيع جاءت بسبب الظروف السياسية التي مرت بها الأمة، وليس بسبب الظرف الديني والخلاف العقائدي، والسبب أن بروز أثر الخلاف العقائدي في ولادة التشيع إلى العيان والعلن يدفع الأمة إلى تقصي أسباب هذا الخلاف ودواعيه، فتتكشف أمور مهمة كثيرة لا يرغب كثيرون بأن تظهر إلى العلن، وممن ذهب إلى هذا المذهب الدكتور علي حسني الخربوطلي أستاذ التاريخ في جامعة عين شمس المصرية بقوله: "كانت غاية حزب الشيعة أول نشأته لا تعدو المطالبة بحق علي في الخلافة بعد الرسول" ([2]) أي أن الدكتور الخربوطلي أراد القول: إن ولادة التشيع متأخرة، وأن التشيع كان وليدا للفكر السياسي وليس للفكر الديني، وبذا يكون حركة سياسية أكثر منه حركة دينية! واعتقد أن تأثير العامل الشيعي على حركة الأحداث السياسية التي وقعت في العصر الإسلامي الأول هو الذي دفع الخربوطلي وأمثاله إلى مثل تلك الأقوال،: "فبالرغم من صعوبة الأجواء التي أحاطت بالشيعة إلا أنها لم تستطع أن تلغي عامل التأثير الشيعي على حركة الأحداث السياسية والاجتماعية، فلقد كان الحضور الشيعي فاعلا في محيطه، ومؤثرا فيما حوله حتى شكل موقف الشيعة (زعاماتهم الدينية وقواعدهم الشعبية) قوة أساسية في الحياة السياسية والاجتماعية، وهي ظاهرة تاريخية ممتدة على مختلف حقب الماضي منذ حياة الرسول (ص) وإلى وقتنا الحاضر"([3])

---

[1] المصدر نفسه.
[2] الحضارة العربية الإسلامية، الخربوطلي، ص ٨.
[3] دور علماء الشيعة في مواجهة الاستعمار، سليم الحسني، ص٩.

حقيقة الولادة

انقسم المجتمع الإسلامي بعد موت النبي إلى مجاميع كل منها تؤيد رمزا، وفي تاريخنا الإسلامي قصص كثيرة في هذا الباب منها ما ذكره الأستاذ الخربوطلي: "أن الزبير خرج مع طلحة وعائشة أم المؤمنين غضباً لعثمان وتوبة مما صنعوا من خذلانه واتفق أمرهم على قتال علي واجتمعوا عند عائشة وقالوا: نسير إلى المدينة ونقاتل علياً فقال بعضهم ليست لكم بأهل المدينة طاقة ، قالوا نسير إلى الشام شيعة لعثمان فنطلب بدمه فقال قائل : هناك معاوية وهو والي الشام والمطاع به، ولن تنالوا ما تريدون، وهو أولى منكم بما تحاولون، ابن عم الرجل، فقال بعضهم: نسير إلى العراق فلطلحة بالكوفة شيعة وللزبير بالبصرة من يهواه، فأجمعوا على المسير إلى البصرة"! ويتبين من خلال النص أن هناك مجاميع كانت تسعى لاستغلال مقتل الخليفة للحصول على الخلافة، وإلا لو كان هدفهم المطالبة بدم عثمان لوجه الله تعالى لكانوا مثلا قد أتحدوا مع معاوية وهم يعرفون كما تبين من النص أنه ابن عم الخليفة وأولى منهم بالمطالبة بدمه، فلماذا لا يسيرون إليه ويضمون جهدهم إلى جهده بدل أن يبتعدوا عنه ويسيروا إلى البصرة للمطالبة من هناك بدمه!؟ المهم أننا نستشف من هذا النص أن هناك شيعة لمعاوية، وشيعة لعثمان، وشيعة لطلحة في الكوفة، وشيعة للزبير في البصرة، وكل من هذه الجموع شايعت شخصا ما في حياته فكانت شيعته، ولكنها زالت بزواله وفنيت بموته أو تحولت إلى مشايعة جديدة تسد لها النقص الذي أحدثه غياب القدوة، فلم يعد التاريخ يذكرهم بميزاته الخاصة التي عرفوا بها أولا حيث تغيرت الأسماء والمسميات مع تغير الظروف السياسية.

يتضح مما تقدم أن هناك محاولات متنوعة لصبغ المذهب الشيعي بصبغة تحط من قيمته العقدية والفكرية وتظهره أقرب إلى التشيع القبلي التعصبي منه إلى التشيع الديني، وقد جاءت أقوال الشيعة أنفسهم للرد على هذا المسعى، كما في تعريف الشهيد الثاني في (شرح اللمعة) للتشيع بأنه: "من شايع عليا أي اتبعه وقدمه على غيره في الإمامة"([1]) والشيخ المفيد في (الموسوعة) عرفه بأنه: "من شايع عليا وقدمه على أصحاب رسول الله

[1] هوية التشيع، الشيخ الدكتور أحمد الوائلي، ص١٢.

(ص) واعتقد أنه الإمام بوصية من رسول الله"([1]) والشهرستاني في (الملل والنحل) عرفه بأنه: " الذين شايعوا عليا وقالوا بإمامته وخلافته نصا ووصاية"([2]) ومحمد فريد وجدي في (دائرة معارف القرن العشرين) عرفه بأنه: " الذين شايعوا عليا في إمامته واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عن أولاده"([3]) حيث لا تجد مثل هذا المعنى في أطروحات من شايع غير علي، فالذين شايعوا معاوية لم يشايعوه لأنهم يؤمنون بخلافته وقيادته نصا أو حتى اجتهادا. وربما لهذا السبب بالذات نجد شخصا بمستوى المرحوم عبد العزيز الدوري يقع في أضيق مناطق الوهم في حديثه عن مصطلح التشيع الذي ورد في صحيفة الصلح في صفين معرفا ذلك بأنه يعطي معنى (المشايعة) و (المناصرة) فقط دون باقي الأبعاد([4]).

وفي هذا الصدد، وفي السياق نفسه يروي البلاذري أن الإمام الحسن سار إلى البصرة لدعوة الناس إلى القتال في الجمل فـ"خرج إليه شيعته من أهل البصرة من ربيعة وهم ثلاثة آلاف". وذكر المسعودي في مروجه أن همدان من شيعة علي، فقال: "وشيعته من همدان" وحجر بن عدي الكندي ومعه كنده وقضاعة وحضرموت كانوا من أنصار علي وشيعته أيضا، كما ويذكر المسعودي الأشراط الخمسين وهم الذين بايعوا علياً على الموت ويدخل عمار بن ياسر ضمنهم، ويقول أنهم كانوا خلص شيعة علي. وفي كل هذه التسميات ذات العلاقة بالمشايعة نجد أن معنى الشيعة يعني: الأنصار، أي أنصار ومؤيدي وعصبة الشخص المتحزبين له عقائديا سياسيا أو عنصريا، إلا التشيع لعلي لأنه كان يعني أيضا الإتباع في الاعتقاد الديني دلالة على أن ذلك التشيع العلوي هو أصل التشيع المعروف اليوم.

إن حقيقة ولادة التشيع في هذا الوقت المبكر من عمر الإسلام أربكت حسابات كثير ممن كانوا يرون في التشيع وسبق ولادته تهديدا لمصالحهم الشخصية والدنيوية، ولذا لجأوا إلى الدس والتحريف والتشويه والكذب، وعنهم اخذ المستشرقون، ثم جاء من اخذ عن المستشرقين، وداروا جميعهم في حلقة مفرغة من الأكاذيب التي تصل إلى درجة السخرية

---

[1] المصدر نفسه.
[2] المصدر نفسه.
[3] المصدر نفسه.
[4] ينظر: مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، الدكتور عبد العزيز الدوري، ١.

من العقل المسلم والفكر الإسلامي، ومما جاء به المستشرقون عن ولادة التشيع ما ضمنه "رونلدسن" لكتابه المعنون (عقيدة الشيعة) الذي انبرى له العلماء، وفضحوا أهدافه التخريبية، وكان المرحوم الأميني صاحب موسوعة "الغدير" ممن فندوا ادعاءات هذا المستشرق المغرض، فقال عند حديثه عن تخرصاته: "وما أشبه أساطير رحالة مصر هذا (يقصد دوايت م. رونلدسن) في كتابه (عقيدة الشيعة) بأساطير الرحالة الفرنسية المنشورة في مجلة الأحرار البيروتية (٢٧ تشرين الثاني سنة ١٩٣٠م) وملخصها: "إن على أساس ذبح علي وأولاده في كربلاء ـ قرب بغداد ـ قامت الشيعة في الإسلام، ذلك لان أقرباء علي وحلفاؤه وتلاميذه وعلماء الشيعة وفلاسفتها لم يطيقوا خلافة عمر الذي بسببه أريق دم علي وأولاده، فافترقوا عن السنة واجتازوا جزيرة العرب إلى العجم، تسير في طليعتهم أرملة علي فاطمة"([1]). ويكفي تهافت هذا النص لتبيان الأغراض التي تقف وراء هذا التضارب في الأقوال.

إن أغلب تلك المصادر التي أشرنا إليها من قبل لم تكن شيعية إلا ما ندر، ولذا من الإنصاف أن نورد رأي الشيعة في المسألة كما توصلت إليه كتبهم المعتبرة، فالمصادر الإمامية تذكر أن ظهور التشيع كان على عهد الرسول (صلّى الله عليه وآله)، وعن هذه البداية قال سعد القمي: "فأول الفرق: الشيعة وهي فرقة علي بن أبي طالب المسمون شيعة علي في زمان النبي وبعده ، معروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته" ([2]) ويرى النوبختي في كتابه فرق الشيعة إن أول الشيعة هم المقداد بن الأسود وعمار بن ياسر وأبو ذر وسلمان: "وهم أول من سموا باسم التشيع من هذه الأمة"([3]) وقد جمع الشيخ باقر شريف القرشي أقوال بعض علماء مدرستنا المؤيدة لولادة التشيع في عصر البعثة، منهم الشيخ الصدوق، في صفات الشيعة، فضائل الشيعة، وسعد القمي في المقالات والفرق، والإمام كاشف الغطاء في أصل الشيعة وأصولها، والعلامة المظفر([4])

---

[1] موسوعة الغدير، الأميني، ج ٣/ص ٣١٣.
[2] المقالات والفرق، سعد القمي، ص ١٥ .
[3] فرق الشيعة، النوبختي ص ١٥ .
[4] هذه هي الشيعة، القرشي، مصدر سابق، ص ٢٢-٢٤

وترد في بعض تفاسير الإمامية كلمة شيعة في زمن الرسول (صلّى الله عليه وآله) ذكر فرات في تفسيره لسورة الفاتحة، كما أورد الشيخ الصدوق أحاديث كثيرة يذكر فيها أن الشيعة كانت على عهد رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) حيث أن الرسول دعا لهم وبشرهم بالجنة ([1]). وبهذا تدلل المصادر الإمامية أن التشيع لعلي بدأ منذ زمن البعثة: "وكان الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) من أول المنوهين بفكرة التشيع والمغذين إياها بأوامره المطاعة" ([2])

وهناك أمر بالغ الأهمية لم يلتفت له الكثير من الباحثين والمؤرخين وهو أن المؤرخين والكتاب الذين تحدثوا عن بنود صلح الإمام الحسن (عليه السلام) مع معاوية، لم يذكروا أنه وضع بندا في وثيقة الصلح طلب فيه من معاوية عدم إيذاء شيعته هو بالذات، بل طالبه بعدم إيذاء (شيعة علي)، حيث قال المقدسي: "إن الإمام الحسن طلب من معاوية كواحد من شروط الصلح بينهما أماناً لشيعة علي" ([3]) بمعنى أن مفهوم الشيعة إذا ما كان محصورا بمعنى النصرة وحدها فمن المفروض والأولى بالإمام الحسن أن يطلب الأمن والأمان لشيعته الذين ناصروه ولا يطلبه لمن ناصر الإمام علي! ولكنه في ساعة التمحيص يؤكد أن شيعة الإمام علي هم شيعته، ولذا تجده يقول لحجر بن عدي الذي عاتبه على الصلح: "إنما صالحت بقيا على شيعتنا خاصة من القتل" ([4]) أي على شيعة أبي وشيعتي من بعده وشيعة الحسين من بعدي!

معنى هذا أن ما جاء به الكثير من العلماء عند حديثهم عن اسم التشيع على انه مشتق من المشايعة أو النصرة أو الأتباع أو الإتباع لا يصلح أن يكون معنى روحيا للتشيع، لأن التشيع سمة خاصة تماما كما هي سمة الصلاة خاصة بالصلاة، وسمة الصوم خاصة بالصوم، وسمة الحج خاصة بالحج، وسمة الزكاة خاصة بالزكاة، كذلك سمة التشيع خاصة بالتشيع، ولها كينونة تختلف عن كل المسميات اللفظية الأخرى، لأنها تمتد لتصل إلى بداية الخليقة يوم خلق الله سبحانه وتعالى آدم من تراب، فكان رسول الله (صلى الله عليه وآله)

[1] صفات الشيعة ، فضائل الشيعة ، الشيخ الصدوق، طبع ضمن كتاب علي والشيعة : نجم الدين العسكري، ص ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٦

[2] الشيعة في التاريخ، محمد حسين الزبن، ص ٢٥ .

[3] ينظر البدء والتاريخ، المقدسي، ٥ / ٢٣٦

[4] الأخبار الطوال، الدينوري، ص ٢٢٠

وأبناؤه أئمة الشيعة من طينة خاصة كانت موجودة حتى قبل أن يوجد آدم (عليه السلام)؛ فكان الشيعة من فاضل هذه الطينة: " شيعتنا خلقوا من فاضل طينتنا يفرحون لفرحنا ويحزنون لحزننا"([1])

وقد تكون الحدية والرمزية الموجودة في التسمية هي التي دفعت بعض المعنصريين المتطرفين إلى استنباط مسميات لأنفسهم مغرقة بالرمزية لتدل على التضاد، وتنتزع من التشيع صفة يحتاج إليها، وأقصد هنا تسمية (سنة) التي اختيرت لتطلق على مجموعة أخرى من المسلمين لتبدو لصيقة بمصدر التشريع الثاني (السنة النبوية) وكأن تسمية (الشيعة) تبعد المتسمين بها عن هذا المصدر العظيم. وكم استغربت واستمتعت بجرأة وشجاعة الأستاذ "إياد إبراهيم القطان" مدير المركز الثقافي الملكي الأردني، الذي جاء في نشرة مهمة جدا اسمها "المنتدى" تصدر في المملكة الأردنية الهاشمية، ويشرف عليها وعلى المنتدى الذي أصدرها الأمير الحسن بن طلال ولي العهد السابق، حينما سمى الأشياء بمسمياتها، وكشف دون مواربة عن حقيقة تسمية (سنة) ومصدرها، مؤكدا أنها لم تأت من مسلمين مستقلين معتدلين، وإنما اشتقت بالأصل بدوافع سياسية بحتة من سيرة الشيخين في الخلافة والحكم، وليس من السنة النبوية كما يعتقد البعض، فقال: "إنّ كلمة (سنّي) في تعبير(الفقه السنّيّ) تشير إلى سنّة السلف الصالح في اختيار الخلفاء الراشدين، ولا تشير إلى (السنّة المحمّديّة) كما أصبح شائعًا بين العامّة فيما بعد"([2]). في هذا المحور قال زكريا أوزون: "المقصود بمصطلح الحديث النبوي: أقوال وأفعال وصفات الرسول وكل ما يتعلق بكافة جوانب حياته الفكرية والسياسية والاجتماعية والعسكرية، وعليه فإن كلمة السنة هنا معتمدة ومستمدة مما جاء في التعريف"([3]). وتأكيدا على هذا الجانب قال

---

[1] قال الشيخ صالح الكرباسي عن حديث الإمام الصادق (عليه السلام): "هو ليس نصاً لحديث مروي عن المعصومين (عليهم السلام) بل هو مضمون لحديث مروي عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)، وهو حديث طويل جداً يتحدث عن مواضيع مختلفة و نحن نُشير إلى موضع الحاجة منه وهو: "إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى اطَّلَعَ إِلَى الأَرْضِ فَاخْتَارَنَا واخْتَارَ لَنَا شِيعَةً يَنْصُرُونَنَا، ويَفْرَحُونَ لِفَرَحِنَا، ويَحْزَنُونَ لِحُزْنِنَا، ويَبْذُلُونَ أَمْوَالَهُمْ وأَنْفُسَهُمْ فِينَا، أُولَئِكَ مِنَّا وإِلَيْنَا".

[2] نشرة المنتدى – منتدى الفكر العربيّ برئاسة الأمير الحسن بن طلال ولي العهد، العدد سبعين، المجلد ٦ تموز ١٩٩١.

[3] جناية البخاري، إنقاذ الدين من إمام المحدثين، زكريا أوزون، ص١٣- ١٤.

المستشرق "هنري ماسيه" عند حديثه عن الشيعة: "يهمنا أن نقوم ضد خطأ يقترف بكثرة: إن تعارض عبارتي السنة والشيعة المستمر يقود إلى الظن بان الشيعيين لا يقبلون سنة النبي؛ وان الأمر على عكس ذلك، فالشيعي يبني هذه السنة على سيادة أعضاء عائلة النبي فقط، بينما السنيون يقبلون فضلا عن ذلك بشهادة أصحاب محمد والشيعيون هم بالفعل "شيعة" عائلة النبي باستثناء كل سيادة أخرى"([1])

نشأة التشيع

كنت قد نويت أن أضيف هذا العنوان إلى عنوان حديثي عن تاريخ ولادة التشيع، لأن فيه إشارة رمزية إلى أن التشيع ولد في خلافة علي بن أبي طالب، ولكني أخرته نظرا لأنه ينسب نشأة التشيع إلى شخصية أسطورية مختلف بشأنها. والحديث عن هذه الجزئية جاء في أقوال للدكتور صالح الرقب، أستاذ مشارك بقسم العقيدة في الجامعة الإسلامية في السعودية، أوردها تحت عنوان (نشأة الشيعة الاثنى عشرية)، وجاء في واحد منها قوله: "هناك عدة أقوال في نشأة الشيعة، وأشهرها أقوال ثلاثة في نشأة التشيع، أولاهما وثانيهما لعلماء الشيعة الروافض. وثالثهما للباحثين المحققين الصادقين من أهل السنة وغيرهم.

الرأي الأول: يقول بعض الشيعة الروافض إن التشيع قديم ولد قبل رسالة النبي (ص)، وأنّه ما من نبي إلا وقد عرض عليه الإيمان بولاية علي... الثاني: يزعم كثير من الشيعة الروافض أنّ رسول الله (ص) هو الذي غرس بذرة التشيع وتعهدها بالسقي حتى نمت وأينعت...الثالث: قول المحققين من أهل السنة وغيرهم: نشأت فرقة الشيعة الإثنى عشرية عندما ظهر رجل يهودي اسمه "عبد الله بن سبأ" ادعى الإسلام، وزعم محبة أهل البيت، وغالى في علي (رض)، وادعى له الوصية بالخلافة ثمّ رفعه إلى مرتبة الإلوهية... وهكذا ابتدعت الشيعة القول بالوصية والرجعة والغيبة، بل والقول بتأليه الأئمة إتباعا لابن سبأ اليهودي"([2])

---

[1] الإسلام، هنري ماسيه، ترجمة بهيج شعبان، ص١٩١.

[2] الوشيعة في كشف شنائع وضلالات الشيع، الدكتور صالح الرقب، ص٦-٢٤.

وجاء في أقوال "علي العلي الكعبي"، وفيها: "ولا يخفى على المسلمين أن دين الرافضة أسسه يهودي وهو عبد الله بن سبأ الراسبي الهمداني والتقى في المجوس الحاقدين([1]) على المسلمين الذين فتحوا بلادهم واطفؤوا (هكذا في الأصل) نيرانهم التي يعبدونها من دون الله وأزالوا ملكهم في وقت كانت دولتهم هي الدولة العظمى مع الروم"([2])

وجاء في أقوال "محمد السيد محمد"، ومنها: "لقد قامت الشيعة الرافضة على أسس فاسدة باطلة، قد وضعها عبد الله بن سبأ اليهودي، الذي يعتبر مؤسس تلك الفرقة الرافضة"([3]).

وجاء في أقوال " أبو علي المرتضى بن سالم الهاشمي"، ومنها: " وكتبت رسالة عن التشيع وانتهيت منها عام (١٣٨٦هـ) بينت فيها منشأ التشيع، وأنه من صنع اليهود ـ ولم أنقل إلا من مصادرهم وكتبهم فقط"([4]) تصور أن أحدا ما يدعي أن الشيعة اعترفوا على أنفسهم ان ابن سبأ هو الذي أنشأ مذهبهم.! ومثله قوله الآخر: "لقد كان المسلمون عند وفاة رسول الله (ص) على منهاج واحد، في أصول الدين وفروعه، إلا من أظهر وفاقاً وأضمر نفاقاً، وهم قلة لا يكادون أن يتجاوزوا أصابع اليدين،...ثم حصل خلاف ناشئ عن اختلاف وجهات نظر، واجتهاد في فروع الدين، لا في أصوله، كموت النبيّ (ص)، ومكان دفنه، ويوم السقيفة، وتيسير جيش أسامة (رض)، وقتال المرتدين، ومانعي الزكاة، حتى ظهر عبد الله بن سبأ اليهودي ـ من يهود اليمن ـ وساعده عبد الله ابن السوداء، وهو من يهود الحيرة."([5]).

وجاء في أقوال محمود علي مكي، ومنه: "وقد كان بين التشيع واليهودية صلة قديمة، وتأثر الشيعة منذ نشأتهم بتعاليم الديانة اليهودية، بل إن عبد الله بن سبأ أول من جعل للتشيع صبغة مذهبية واضحة، كان يهودي الأصل"([6]). حيث يتضح من هذه الأقوال أن هناك توجها لإحداث شرخ بين المسلمين، دون النظر إلى ما سيسببه مثل هذا المنهج

---

[1] ينظر كتابنا نظرية فارسية التشيع الذي رددنا فيه هذه الخرافات وابطلناها من صحيح المصادر ولاسيما مصادر ومراجع ومؤلفات مدرسة الخلفاء.

[2] كشف اللثام عن دعوى الرافضة اللئام حب آل البيت الكرام، علي العلي الكعبي، ص ١.

[3] رسالة من أهل سنة الحبيب النبي محمد (ص) إلى الشيعة، جمع وترتيب محمد السيد محمد، ص٤.

[4] أثر اليهود والنصارى والمجوس في التشيع، أبو علي المرتضى بن سالم الهاشمي، ص٧.

[5] المصدر نفسه، أثر اليهود والنصارى والمجوس في التشيع، ص٣٦.

[6] التشيع في الأندلس، الدكتور محمود علي مكي، ص ٤٥.

الإقصائي من مشاكل وما ستترتب عليه من المآسي والنكبات، وهو ما ندعو إلى تجاوزه حفاظا على أمتنا وديننا. ولكن يجب علينا أولا أن نوقف حملات التشويه ومنها الحملة التي تشن تحت عنوان "الشيعة في التفسير".

الشيعة تفسيرا

جاهد المنحازون والخاضعون لشد العصبية وسطوتها ليوهموا أتباعهم ويرسخوا في عقولهم أن معنى التشيع يدل على السوء لا على الخير، وأن هناك شيعة ممدوحة وشيعة مذمومة، والشيعة التي يعرفونها ليست ممدوحة بل مذمومة، لأنها لا تسير على عقيدة النبي (صلى الله عليه وآله)، معتمدين بذلك على ما جاء في بعض كتب التفسير في مدرستهم لكلمة (شيعة) في قوله تعالى: {وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ} ([1])

قال الخازن: "قوله عز وجل: {وإن من شيعته} أي من شيعة نوح، يعني أنه على دينه وملته ومنهاجه وسنته. ([2]) ومثله ذكره الشيخ السعدي في تفسيره، بقوله: أي وإن من شيعة نوح (عليه السلام)، ومن هو على طريقته في النبوة والرسالة، ودعوة الخلق إلى الله، وإجابة الدعاء، إبراهيم الخليل عليه السلام.([3]) ولمثله ذهب الشوكاني في فتح القدير، بقوله: "واخرج ابن المنذر والحاكم وصححه من طريق مجاهد عنه أيضا في قوله:{وإن من شيعته لإبراهيم}قال: من شيعة نوح على منهاجه وسننه"([4]). ولهذا السبب، ولأن الثبات على تسمية الشيعة يعني أنهم القوم الذين يسيرون على هدي علي بن أبي طالب؛ يرى مؤلف كتاب (شيعة ممدوحة وأشياع مذمومة) أن لفظة شيعة لم ترد في القرآن بمعنى المدح سوى مرة واحدة، فقال: "وما أستعمل لفظ الشيعة على سبيل المدح إلا في موضع واحد في القرآن وهو في قول الحق تبارك وتعالى في حق نبيه إبراهيم: {وإن من شيعته لإبراهيم}" ثم أكمل حديث، قائلا: "والشيعة القوم الذين شايعوا أي تبع بعضهم بعضاً

---

[1] الصافات:٨٣.

[2] لباب التأويل في معاني التنزيل، أبو الحسن على بن محمد بن إبراهيم الخازن، تفسير الآية ٨٣ من سورة الصافات.

[3] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تفسير سورة الصافات، الآية ٨٣

[4] فتح القدير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ج٤/ص٥١٢، تفسير سورة الصافات.

وغالب ما يستعمل في الذم، ولعله لم يرد في القرآن إلا كذلك... وذلك والله أعلم لما في لفظ الشيعة من الشياع والإشاعة التي هي ضد الائتلاف والاجتماع ، ولهذا لا يطلق لفظ الشيع إلا على فرق الضلال لتفرقهم واختلافهم".([1]) وعن التفرق والاختلاف نتحدث في الفصل الثاني.

ومن المؤكد أن النبيه يفطن إلى هذه الأساليب التخريبية دون عناء، يكفي أن يرجع إلى أبسط معجم مفهرس لألفاظ القرآن، ليكتشف أن كلمات مثل شيعة ومشايعة وشيع وردت في عدة أماكن من كتاب الله العزيز تشير كل منها إلى غاية وغرض، وتعطي كل واحدة منها معنى مختلفا عن غيره، وأن دفعا للإطالة سأكتفي بذكر الآيات التي وردت فيها تلك الكلمات، لنكتشف تدليس الرجل الذي ادعى أنها جاءت بمعنى المدح مرة واحدة:

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ}([2]).

{ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ} ([3]).

{إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}[[الانعام: ١٥٩

{مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}([4]).

{ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا }([5]).

{إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ}([6]).

---

[1] ينظر: شيعة ممدوحة وأشياع مذمومة، أبو الفتح القشيرى أبو كفاح الدين أحمد بن محمد السعيد العزيزى، ، ص ١٤-١٥

[2] الحجر: ١٠.

[3] الانعام: ٦٥.

[4] الروم: ٣٢.

[5] مريم: ٦٩.

[6] القصص: ٤.

{وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ}([1]).

{إِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ }([2]).

إن هذه الإطالة غرضها التأكيد على أن هناك بيننا كثيرون يراهنون على طيبة البسطاء ويخدعونهم ليوغروا قلوبهم ويحرفوهم عن طريق الحق من خلال المشاكل التي يثيرونها بين الفرق الإسلامية. وأنا لا زلت في طور التمهيد للحديث عن التابعي الجليل سعيد بن جبير(رضوان الله تعالى عليه) وامكانية توظيف نظرة المسلمين لهذا الرمز في توحيد الأمة!.

[1] القصص: ١٥.
[2] الصافات: ٨٣.

الفصل الثاني

التقسيم فوائده ومضاره

غالبا ما تكون لحقبة الولادة ونوعية المؤسسين والأتباع والمعتنقين علاقة وثيقة بمسألة تطوير الوعي المذهبي الفئوي، فضلا عما يضيفه الأتباع أنفسهم فيما بعد تاريخ التأسيس إلى منظومة الفكر والعقائد من موروثاتهم المجتمعية وتقاليدهم، وهي مشكلة لا مناص منها، عانت منها كل المذاهب الإسلامية، بله الفرق الإسلامية الصغيرة الأخرى. ولما كانت ولادة التشيع واضحة المعالم فقد لجأ بعض المنافسين إلى العمل على تشويهها لكي لا تكون دلالة على مبدأ التطور الفكري والفقهي للمذهب بما يسمح بإضافة بعض المنكرات والأكاذيب بدون إثارة الشكوك. ومن هنا جاء التأكيد على وجود علاقة بين التشيع والفرق المسلوخة عنه رغم أيمان المؤرخين بعدم جدية هذه المقولة الشاذة.

إلى هنا نجد أن التشيع كفكر عقائدي وحراك مجتمعي كان موجودا ومشخصا ويشار إليه بالبنان ولا ينكر حقيقته أحد سواء في زمن البعثة في طورها المدني أو بعد عصر البعثة مباشرة، أما كيف تعامل الآخرون مع هذا الوجود فذلك ممكن أن نستشف حدوده من مصادر ومراجع تاريخية تحدثت عن مواقف متحيزة ضد المتشيعين ابتداءً من الساعات الأولى لموت النبي (صلى الله عليه وآله) وصولا إلى عصر خلافة عثمان بن عفان التي كان الأمويون يتحكمون بها والتي ظهر إبانها التحيز ضد الشيعة بشكل واضح وعلني، وامتدادا إلى خلافة علي (عليه السلام) ثم مرورا بخلافة الحسن (عليه السلام) ثم مرحلة ما بعد صلح الحسن وصولا على واقعة الطف، ولا يعني توقفنا عند الطف أن الأمور تغيرت بعدها، بل العكس هو الصحيح حيث ازدادت المطاردة شراسة وأخذت أبعادا عدوانية أخرى فيها الكثير من النكاية والتوحش ولكننا وقفنا هنا لضرورات البحث.

وإذا ما كانت سياسة البطش في حقبة خلافة عثمان بن عفان غير ظاهرة للعيان أو غير مشخصة للعامة بالرغم من وجود حالات كثيرة تعرض خلالها بعض الأعيان إلى البطش والتنكيل بدءاً من نفي أبي ذر الغفاري (رضوان الله عليه) إلى ضرب عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) وتكسير أضلاعه؛ فإنها تسيدت ساحة الصراع إبان حكم معاوية ولاسيما بعد صلح الإمام الحسن (عليه السلام) ثم تحولت بعد هذا التاريخ إلى منهج استمر العمل به بنفس الآلية والأسلوب خلال القرن الإسلامي الأول كله، وارتكبت تحت ظلاله مجازر يندى لها جبين الإنسانية.

هل التشيع انفصال عن الأصل أم تركيز لخلاصته؟

قد يبدو هذا السؤال غريبا بعض الشيء؛ ولكن الذي دفعني إلى تضمينه البحث أني وجدت من يدعي أن هناك في التاريخ تشيعا غير متجانس التكوين، مكونا من فرق مختلفة التسمية وأطروحاتها غير متشابهة، تؤمن بعقائد لا تمت إلى الإسلام بصلة، تبغي تدمير الإسلام، وقد تأخرت ولادته إلى زمن حكومة الخليفة الراشد علي بن أبي طالب (رض) وهو من ابتداع وصنع رجل يهودي يمني يسمى (ابن السوداء) أو (ابن سبأ) ([1]) وهو لم يكن وليدا إسلاميا كما ولدت المذاهب الأربعة في القرن الهجري الثاني، بل كان انشقاقا حقيقيا عن الدين الإسلامي، فله عقيدته الخاصة وقواعده الفقهية التي لا تلتقي مع قواعد الإسلام، والتي جيء بها لتدمير الإسلام والقضاء عليه.!! هكذا بكل جرأة يدلس بعض المسلمين فيشوهون حقائق التاريخ الذي هو مليء أساسا بالتدليس والكذب والتحريف، وهذا التدليس هو الذي زرع العداء بين المذاهب الإسلامية.

ومهما كان رأي علماء المدارس الإسلامية فإن الاختلاف في الرأي وقع وأصبح حقيقة لا يمكن لأحد أن ينكر وقوعها، وبسبب الاختلاف وقع الخلاف، وبسبب الخلاف وقع العداء وقامت الحروب وبدأ الترويج لثقافة الإقصاء الشاذة ولاسيما في زمن الأمويين، وتحديدا في زمن معاوية بعد الخلاف الذي نشب بسبب مطامعه بالسلطة وسعيه إليها، ثم استمر فاعلا إلى يومنا الحاضر. وإذا ما كان الأقدمون من زعماء الخلاف على قدر قليل جدا من الحياء وقدر كبير من العدوانية بما منعهم من التهويش الغبي، ولاسيما وأن السيف أغناهم عن الحديث وعن القلم؛ فإن بعض المعاصرين أسقطوا نقطة الحياء من جباههم كليا، وباتوا يتفننون في التدليس والكذب والخداع والدجل والتحريض، فضلا عن استخدام السيوف وغيرها، فاسمع مثلا ماذا يقول أحد شيوخهم واسمه (السحيم): "وقد علم أعداء الله أن أسهل الطرق للنيل مِن هذا الدين العظيم إنما هو بإسقاط رموزه ، من خلال الطعن المباشر تارة، والتشكيك به وبِحَمَلَتِه تارات أُخر. فعمدوا إلى خرق هذه السفينة بأيدي

[1] لا أروع من كتاب (عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى) تأليف السيد مرتضى العسكري، المجمع العلمي الإسلامي، قم ١٩٩٧، بجزئين، في تناوله لأسطورة عبد الله بن سبأ، أوصي بالرجوع إليه.

تنتسب إلى الدين زورا وبهتانا ذلك أن أهل الدار أعرف بها ، وأدرى بأماكن الضعف فيها؛ وذلك بإدخال أُناس باسم الدين إلى هذا الدين، يُفسِدون في الأرض ولا يُصْلِحون. فكان أول ذلك النتاج النكد: هو نتاج ابن السوداء ابن سبأ اليهودي الذي تدثر بدثار الإسلام فأنشأ قاعدة الرفض، التي غُذيت بلبان الباطنية. ومنذ ذلك الحين والأمة تئن من جرّاء ذلك الفساد، ومعاول الرفض تهدم في صروح أمة الإسلام باسم الإسلام، فتقتل بلا هوادة وتسفِك الدماء البريئة"([1])

وأقرأ ماذا كتب الدكتور السالوس الذي وضع كتابا بـ (٨٣٨) صفحة ليثبت من خلاله أن فروع وأصول المذهب الشيعي لا علاقة لها بالفروع والأصول الإسلامية.!([2])

وتمعن فيما ذهب إليه أبو عبد البر محمد بن كاوا (بالكاف المعجمة) في كتابه (الإمام الشافعي وموقفه من الرافضة) الذي أراد من خلاله القول على لسان الإمام الشافعي إن الشيعة الذين يسميهم (الرافضة) ليسو مسلمين، بل هم دين قائم بذاته وضَمَّن الباب الثالث: (وصف الرافضة وذم عقائدهم وأَنهم شر عصابة) ([3])

إن ما يجب أن نعرفه ونثق به: أن التشيع هو الوجه الأنقى للإسلام، وأن الإسلام والتشيع وجهان لعملة واحدة؛ على أي وجه دفعتها تفي بالتزامك العقدي وفق قيمتها لا وفق وجهها. أما باقي الأفكار والاتجاهات والمذاهب فهي التي افترقت عن الإسلام وابتعدت عنه بعد أن تركت العمل بقوانينه وانضوت تحت قوانين السياسيين الذين قادوا الأمة في أكثر حقبها اضطرابا، فتحولت إلى قطع نقدية، بعضها مزيف مضروب، وتقل قيمة البعض الآخر عن قيمة الأصل، وتتباين قيمتها الخاصة وقدرة وفائها الخاصة بعضها عن بعض، وتجتمع كلها في قيمة لا تصل إلى قيمة الأصل. ولذا تجد بداية الخلاف بين التشيع وبينهم تبدأ في لحظة ركضهم نحو السقيفة وتنكرهم لحقيقة الإمامة التي أوصاهم بها النبي (صلى الله عليه وآله) إذ من المعروف أن هناك مئات الأدلة العقلية والنقلية التي تثبت الوصاية والخلافة لعلي (عليه السلام) بعد النبي (صلى الله عليه وآله)، وهناك بين المسلمين من انقاد

[1] أحكام الروافض، شبهاتهم كيفية التعامل معهم، الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله السحيم،كتاب الكتروني، شبكة مشكاة الإسلامية

[2] ينظر:مع الاثني عشرية في الأصول والفروع، دراسة مقارنة في العقائد، الدكتور علي السالوس

[3] الإمام الشافعي وموقفه من الرافضة، أبي عبد البر محمد بن كاوا

واعترف بهذه الحقيقة طائعا أو مرغما، مثلما هناك من اعترض عليها وأنكرها. والانقياد والاعتراض هما الفيصل بين روح الإسلام وجوهر الدنيا، فمن انقاد تشيع، ومن رفض تَسَيَسَ، وصار من أتباع السياسيين، وهنا تحديدا وقع الانفصال بين جبهة الإسلام الشيعي من جانب وبين جبهة الرافضين للوصية والخلافة من جانب آخر، فإذا ما كان هناك انفصال فهو بكل تأكيد ليس بين الإسلام والتشيع وإنما بين الإسلام ممثلا بالتشيع وبين طلاب الدنيا من السياسيين العرب، والدليل على ذلك جاء في وصفهم لمن تخلف عن بيعة أبي بكر: "قال عمر بن حريث لسعيد بن زيد: أشهدت وفاة رسول الله (ص)؟ قال: نعم، قال: فمتى بويع أبو بكر؟ قال: يوم مات رسول الله (ص) كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة، قال: فخالف عليه أحد؟ قال: لا، إلا من ارتد أو من قد كاد أن يرتد"([1]) وبما أن عليا لم يبايع واعتزلهم في بيته هو وبعض أصحابه؛ بعد أن غصبوا حقه، فهو وفق هذا النقل إما ارتد أو كاد!

ومن المؤكد أننا لو محصنا في الانفصال من حيث الانقياد والرفض، ومن حيث الأكثرية والأقلية سنجد هناك من كان انفصالهم قسريا جبريا، بمعنى أن الانفصاليين لم يكونوا يمثلون منهجا فكريا واحدا، فقد أُجبر البعض على الانفصال تبعا لكثير من المؤثرات سواء كانت طائفية أو قبلية أو عصبية، بدلالة أن خيرة هؤلاء ومتقدميهم وعلمائهم وقرائهم ورواة الحديث منهم كانوا أول المتمردين على ما كان يظن أنهم يروه شرعيا، وقد تمثل هذا التمرد بانضواء القراء تحت راية عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الذي تمرد على الأمويين، بالرغم من أن المدة ما بين انشقاقهم الكلي في عهد عبد الملك بن مروان وعهد ما عرف بعام (السنة والجماعة) الذي ادعوا أن المسلمين كلهم اجتمعوا فيه على تأييد الخلافة الأموية فأصبحت العقائد والفرق فرقة واحدة وعقيدة واحدة، لم يتجاوز عقدين من الزمن إلا قليلا. هذا الانفصال المبكر يؤكد أن هناك الكثير من المفاهيم التي يجب أن يعاد النظر فيها لكي نستخلص من الإعادة إفادة تنفعنا في لم شملنا.

[1] تاريخ الطبري، ج٣، ص١٢٧

لماذا التشيع؟

سؤال كبير بحجم خلافنا مع بعضنا، يتم تداوله مرة ببراءة وسذاجة، ومرة أخرى طلبا للمعرفة، ومرة ثالثة بخبث وطائفية مقيتين. ونحن ممكن أن نصوغ سؤالهم بأسلوب آخر أكثر تعقلا، فنقول: إذا ما كان الإسلام موجودا، فما دواعي ولادة نظام أو تنظيم في داخله، أليس الإسلام كافٍ؟

إن الجواب على هذا السؤال يقودنا إلى الحديث بجدية وجرأة عن مفاصل مهمة من عصر البعثة المشرفة أحجم الباحثون عن التحدث عنها بسبب حساسيتها وخطورتها بالرغم من أهميتها وواقعيتها، وفي جوابي أقول: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قاد خلال عصر البعثة حركة انقلابية لم تكن تهدف إلى تحرير الإنسان من عبادة الأوثان وتعيده إلى الإيمان برب واحد فحسب، وإنما كانت تبغي تغيير أنماط سلوك المجتمع بكليتها؛ وقلع المواريث الفاسدة من الجذور، وزرع أنماط سلوك جديدة تتحكم بحياتهم وعلاقتهم مع الله سبحانه وتعالى، ومع البشر الآخرين؛ مسلمين وغير مسلمين، وكانت الاستجابة لهذه المطالب متفاوتة تراوحت بين (الإيمان) والاعتقاد الكلي، وبين ثقافة (حشر مع الناس عيد) وثقافة (القطيع) وثقافة (التقليد الببغائي) وثقافة (السياسية) والأخيرة منها أوحت لأتباعها أن محاربة الدين الجديد لا تنجح إلا إذا انطلقت من داخله، من خلال تأسلم السياسيين ظاهرا وبقائهم على معتقداتهم في السر، أما باقي الثقافات الأولى فإنها بحكم تكوينها لم تحدث تغييرا ملحوظا في الدين إلا من حيث العدد، ومعنى هذا أن عملية التغيير الشامل التي كان النبي يسعى إليها قد جوبهت بمعرقلات بعضها غاية في الخطورة لدرجة أن العقيدة التي جاء بها وجدت من يعترض عليها علنا أو من خلال الرفض الداخلي، ولم تكن المواقف العدائية غريبة، لأن تنشئة جيل عقائدي من مخلفات جيل جاهلي وثني ليست بالأمر الهين، وهي تجربة قاسية مر بها الأنبياء كلهم، فقد واجه السيد المسيح (عليه السلام) الاعتراضات نفسها حينما كان يريد بناء مجتمع عقائدي مسيحي من أبناء الشعب اليهودي، وعليه تجد أعداد المنافقين تزداد مع تقدم عمر الإسلام لتصل أعداد جيشهم إلى ما يقارب تعداد جيش المسلمين، كما حدث في غزوة تبوك، قال ابن هشام: "قال ابن

إسحاق: وضرب عبد الله بن أبي معه على حدة عسكره أسفل منه نحو ذِباب([1]) وكان فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين، فلما سار رسول الله (ص) تخلف عنه عبد الله بن أبي فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب"([2])

من هذه الأصناف الثلاثة الإيماني والتقليدي والسياسي كان الصنف الأول أكثرها واقعية وتأثيرا وتماسكا وارتباطا بالدعوة، ومن بين أفراد هذا الصنف برزت فئة أخذت على عاتقها الإخلاص الكامل للاتصال الغيبي والرعاية الإلهية والوحي، وكان لاندفاعها واستماتتها في سبيل الدعوة أثره في نفس النبي فأسبغ عليهم منزلة دونها كل المنازل الأخرى، ومن هذا الصنف جاءت الخلاصة لترتبط بأول الناس إسلاما وأكثرهم إيمانا وتعلن ولاءها له مترجمة ولاءها للإسلام فبارك النبي (صلى الله عليه وآله) عملهم لأنهم كانوا النخبة التي سعى لأن يكون المجتمع كله عليها، أي أن الحديث عن الانفصال والتقسيم كما هو عليه اليوم، والادعاء بأن التشيع انفصل عن الإسلام وشذ عنه؛ يبدو أكثر بعدا عن الواقع مما كان عليه حتى في ذلك الزمن الصعب، ولا يراد بالحديث عنه وجه الله تعالى بقدر كونه جاء من أصل العصبية التي أحياها الأمويون، وروج لها وعاظ السلاطين، فرسخت في أذهان الناس.

لقد أشار علماء مدرسة أهل البيت إلى هذه الحقائق، وإلى التقسيم والانفصال، منهم الشهيد الصدر الأول، الذي قال: "إننا إذا تتبعنا المرحلة الأولى من حياة الأمة الإسلامية في عصر النبي (صلى الله عليه وآله) نجد أن اتجاهين رئيسين ومختلفين قد رافقا نشوء الأمة وبداية التجربة الإسلامية منذ السنوات الأولى. وكانا يعيشان معا داخل إطار الأمة الوليدة التي أنشاها الرسول القائد، وقد أدى هذا الاختلاف بين الاتجاهين إلى انقسام عقائدي عقب وفاة الرسول مباشرة شطر الأمة على شطرين، قدر لحدهما أن يحكم فاستطاع أن يمتد ويستوعب أكثرية المسلمين، بينما أقصي الشطر الآخر عن الحكم، وقدر له أن يمارس وجوده كأقلية معارضة ضمن الإطار الإسلامي العام وكانت هذه الأقلية هي (الشيعة)"([3])

---

[1] ذِباب: اسم جبل بالمدينة

[2] السيرة النبوية، ابن هشام، ج٤،ص١٣٥

[3] نشأة الشيعة والتشيع، محمد باقر الصدر، مصدر سابق، ص ٧١

ومما تقدم ممكن أن نتحدث عن فوائد ومضار التقسيم، وأبغي في البدء الإشارة إلى ظاهرة شهيرة وهي أن التفريع الذي ينتج عن الأصل أو وقوع الخلافات في الكليات ـ إن صح التعبير ـ سنة من سنن الله سبحانه وتعالى، فما من دين إلا وقد تفرق أتباعه شيعا وفرقا، سواء في زمن بعثة نبيه أو بعدها مباشرة وحتى بعد عقود من الزمن، سواء نتيجة اختلاف الرؤى أو الفهم أو الاستيعاب وحتى تضارب المصالح وتنامي المطامع وتعاظم الشهوات، بمعنى أن الاختلاف حتمي الوقوع لابدي التحقق شئنا ذلك أم أبيناه، وهناك الكثير من المؤشرات على وجوب وقوعه منها: عقائدية، ومصلحية، وطائفية، وسياسية، ودنيوية. وكانت ولادة التشيع ـ وكما هو معروف لكل منصف ـ بعيدة عن كل هذه المغريات فهي لم تكن لمصلحة ولا لطائفة ولا لدنيا ولا لسياسة بالمرة؛ ولذا لم يعترض النبي عليها بل دعمها وأيدها وباركها.

أما عملية تهميش التشيع وعزله ومحاربته والطعن بعقيدته ومطاردة أتباعه فكانت مصلحية وطائفية ودنيوية وسياسية بامتياز لأن وجود تشيع قوي متماسك في ذلك الوقت المبكر من عمر الرسالة كان يقلق السياسيين المسلمين الذين أرادوا مصادرة العقيدة وفكرها لخدمة مطامعهم السياسية ([1]) والذي اعتقده أن ولادة التشيع كانت بادرة تنبئ بولادات جديدة ليس شرطا أن تكون من سنخه أو من سنخ التشيع؛ بل قد تتعارض معه بالكامل، وهو ما حصل، ولاسيما أن النبي (صلى الله عليه وآله) قدم لهذا الحدث بمقدمات كثيرة اختلف المسلمون فيما بعد بفحواها حتى تعارضت أقوالهم، حيث قبلها بعضهم وعدها صحيحة، ورفضها البعض الآخر وعدها كذبا.

وكان النبي (صلى الله عليه وآله) قد قدم إلى رؤيته بخصوص الافتراق بمقدمات، ومن مقدماته أورد على سبيل المثال لا الحصر ثلاثة مواضيع مهمة، وقبل التوسع في شرح المواضيع أقول: إن المدارس الفقهية الإسلامية اتفقت على:

---

[1] يراجع كتابنا (نظرية فارسية التشيع بين الخديعة والخلط التاريخي والمؤامرة) والجزء الأول من كتابنا (الحسن بن علي الإمامة المنسية) اللذين تناولت من خلالهما الحراك السياسي في عصر الرسالة الأول وأثره على مسيرة الإسلام من خلال سياسة التهميش والإقصاء التي اتبعوها.

أولا: كره عقيدة الإسلام للفرقة التي تفضي إلى التشتت، والآيات والأحاديث الواردة في هذا الباب كثيرة جدا.

ثانيا: تلميح النبي (صلى الله عليه وأله) إلى حتمية وقوع الفرقة، والأحاديث في هذا الباب لا تحصى. إن حديث النبي عن وجوب تفرق الأمة في مفهومه العام يكاد يكون ترجمة حقيقية لما وقع بعد البعثة بدءاً من مؤتمر السقيفة مرورا بولادة المذاهب وولادة الفرق من تلك المذاهب.

ثالثا: تحقق وقوع الفرقة بعد عصر البعثة، ولهم في ذلك أحاديث جمة.

إن الحديث عن افتراق الأمة ورد مضمونه في حديثين شهيرين تتضارب الآراء بشأنهما كثيرين، كلاهما منسوب إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله). في الحديث الأول جاء عنه (ص) قوله: "اختلاف أمتي رحمة". وفي الحديث الثاني جاء عنه (ص) قوله:"تفترق أمتي" أما حقيقة افتراق الأمة وكيف نظرت المدارس الإسلامية إلى هذين الحديثين، فهو ما سنتحدث عنه لاحقا.

إن لابدية وقوع الاختلاف في الأمة كانت ثابتة، ولها أسبابها، وقد دعاهم النبي(صلى الله عليه وآله) إلى القضاء عليها قبل أن تستفحل، ولكنهم لم يفعلوا. وكان المؤسسون لمذهب الخوارج أحد أهم أسباب الخلاف، وفي ترجمة ذي الثدية (حرقوص بن زهير) في إصابة ابن حجر([1]) وترجمة ذي الخويصرة التميمي في أسد الغابة([2]) وحث النبي (صلى الله عليه وآله) على قتل ذي الخويصرة وقتال الخوارج، كما في صحيح مسلم([3]) باب الخوارج شر الخلق، وفي الفصول المهمة عن مسند احمد بن حنبل، وعن أبي يعلى في مسنده حديث حث النبي (صلى الله عليه وآله) أبا بكر وعمر على قتل ذي الثدية أو ذي الخويصرة، وقوله: لو قتل ما اختلف بعده، أو من أمتي اثنان([4]) ما يؤكد لابدية وقوع الخلاف والاختلاف، فبما أن الرجل لم يقتل، وبما أن النبي لا ينطق عن الهوى، فالخلاف واقع لا محال!

---

[1] الإصابة، ابن حجر،م١،ص٣٦٤ ترجمة حرقوص

[2] أسد الغابة، ابن الأثير، م٢،ص١٨-١٩ ، ترجمة رقم ١٥٤١ ذو الخويصرة

[3] صحيح مسلم، باب الخوارج شر الخلق

[4] ينظر: الفصول المهمة في تأليف الأمة، السيد عبد الحسين شرف الدين، ص١٠٨-١١٠

دور التشيع في التفرق

لا خلاف أن كثيرا من عامة الناس يتبعون المنتصر بحثا عن المكاسب والوجاهة والأمن والقوة وأشياء كثيرة أخرى؛ ويتجنبون الاحتكاك بغيره ومن يختلف معه أو يتخلف عنه، لأنهم يفقدون الكثير من المزايا والمكاسب حتى ولو كان المخالف على حق. وفي حديثنا عن ولادة التشيع أوردنا رأي الشهيد الصدر الأول عن افتراضات بعض الباحثين أن التشيع ظاهرة طارئة نشأت تطوريا نتيجة بعض المؤثرات. والواقع أن الشهيد (رحمه الله) التفت إلى هذه الناحية وتعمق بدراستها وخرج بمحصلة مفادها: إن النخبة التي تشيعت لعلي (عليه السلام) كانت من القلة بحيث لم يظهر أثرها في المجتمع بشكل يلفت نظر العامة، نعم كان لهم أثرهم في عقول الخاصة ولاسيما في عقول السياسيين الذين كانوا يحسبون للشيعة حسابا خاصا، ولكن عامة الناس لم يلتفتوا كثيرا إلى موقعهم وفعلهم في المجتمع، وبناء عليه تأثر التقييم بقانون (الأقلي والأكثري) أو الأكثرية والأقلية وأصبح الحجم هو الميزان المعياري، فبدا التشيع وكأنه استثناء، وبدا الآخرون أو الإسلام اللاشيعي بخطيه المحايد والأموي وكأنه القاعدة، بل وصل الأمر إلى درجة تجاهل الوجود الشيعي في المجتمع الأول، ولاسيما بعد التهميش والإقصاء الذي تعرض له فكريا وجماهيريا، فظن كثير من الناس أن التشيع لم يكن موجودا في ذلك المجتمع بعد أن طغت الأكثرية الأموية مضافا إليها المجاميع المحايدة على حراك الساحة.

بالمقابل كان هناك في المجتمع الإسلامي الأول ثلة من الصحابة الكرام الذين استهواهم التشيع فانتموا إليه طائعين، ذكر ابن أبي الحديد في (شرح النهج) والسيد محسن الأمين في الجزء الثاني من (أعيان الشيعة) وكرد علي في (خطط الشام) والسيد حيدر الآملي في (الكشكول فيما جرى على آل الرسول)، ذكر هؤلاء وغيرهم: "أن جماعة من أصحاب رسول الله (ص) كانوا يدينون بالتشيع"[1]

وأفرد الشيخ محمد حسين الزبن في سفره القيم (الشيعة في التاريخ) بابا بعنوان (الذين تشيعوا في عهد النبي والذين ثبتوا على تشيعهم بعده) كان مما جاء فيه، قوله: "من الثابت

[1] الشيعة في الميزان، محمد جواد مغنية، ص ١٩

المتيقن أن كثيرا من الصحابة قد أحبوا عليا في حياة أخيه رسول الله (صلى الله عليه وآله)"([1]) ثم أورد نقولا من كتب مدرسة الخلفاء تؤيد ذلك مستندا إلى بيعة المسلمين للإمام علي (عليه السلام) يوم غدير خم"([2])

وإذا ما كان من الرعيل الأول من الصحابة من التحق بركب التشيع فإن التابعين وتابعي التابعين أولى بالالتحاق به بعد أن تبلور في عصرهم فكرا ومضمونا وأثبت مكانته ومنزلته من العقيدة، ولاسيما أن الكثير من الصحابة كانوا لا يزالون على قيد الحياة، وهم جميعا بقوا على ولائهم لعلي ولم يبايعوا غيره إلى أن بايع، وفيهم من خالط التابعين وعاش معهم ردحا طويلا، منهم الصحابي أبو الطفيل الذي سترد عليكم قصة اشتراكه مع سعيد بن جبير وباقي القراء في حركة ابن الأشعث.

إن الحديث عن ولادة ونشأة التشيع، ثم الحديث عن الفرق والملل والنحل الأخرى، والحديث عن تفرق المجتمع الإسلامي الأول إلى عدد من الفرق إنما جاء كمقدمات للحديث عن: وجود الفرق في الإسلام الأول. ووجود بعض الصحابة والتابعين المنضوين تحت جناح التشيع. ووجود أعداء للتشيع كانت يتخوفون من منافسته لهم.

ووجود عداء حقيقي بين المتشيعين والفرق الأخرى. ووجود عسف ومطاردة وتضييق ضد الشيعة مورس في ذلك التاريخ المتقدم، وهدفنا من هذه الإطالة هو تبيان عقيدة التابعي سعيد بن جبير التي تعرض إلى تلك القتلة الشنيعة بسببها.

---

[1] الشيعة في التاريخ، محمد حسين الزبن، ص ٢٥

[2] الشيعة في التاريخ، المصدر نفسه، ص ٢٦

الفصل الثالث

الصحابة خيارات ومواقف

الصحابة والتابعون

لا أريد الإطالة في الحديث عن الصحابة (رضوان الله عليهم)، لا بخير ولا بشر، علما أني على يقين تام أن خيرهم اعم وأشمل من شرهم، وان الغالبية العظمى منهم كانوا على خير، وقلة منهم أصابهم الانحراف، ولكني أريد من خلال الحديث عنهم بشكل موجز؛ الإشارة إلى وجود بعض الصحابة في التشيع الأول، أو بالأحرى القول إن بعض الصحابة وانتمائهم العقائدي للخط العلوي كان السبب المباشر في ولادة التشيع وانتشاره، ثم القول إن مذهبا أو تجمعا ينجح في اجتذاب ثلة من الصحابة يكون أولى باجتذاب الكثير من التابعين، ليس من طبقتهم الأولى فحسب وإنما من كل طبقاتهم، وليس من عامتهم فحسب وإنما من قرائهم وعلمائهم ومحدثيهم ومفسريهم، وهذا ما حدث بالفعل، ولذا لا غرابة أن يكون أحد كبار التابعين شيعيا بارزا.

لقد مات رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن أكثر من مائة وأربعة وعشرين ألف صحابي، ولو كان التاريخ يتحدث عن همسات وجلسات وأمنيات وتأملات هذا العدد الكبير كله، ما كنا لنملك عمرا يكفينا لقراءة ما كتب في سفر ذلك التاريخ، بمعنى أن التاريخ تحدث فقط عن حراك بعض الصحابة، بما فيه اختلافهم فيما بينهم، واغفل الحديث عن يوميات وحوادث وأحداث الصحابة الآخرين الذين كانت حياتهم طبيعية رتيبة محصورة في السعي الحياتي اليومي للإنسان، تماما كما يحدث اليوم في عالمنا، فالإعلام والصحف والمجلات والفضائيات لا تتحدث عن الإنسان العادي الذي لا يأتي بجديد، والمقيم ضمن حدود روتين الحياة، وهم الغالبية العظمى من البشر، وبالمقابل نجدها تتحدث بكثرة تصل إلى درجة الإفراط أحيانا عن أولئك الذين يؤثرون بالحدث اليومي سياسيا كان أم دينيا أم فكريا أم أدبيا أم فنيا أم رياضيا أم عسكريا.

وهذا معناه أن تاريخنا الإسلامي مملوء بقصص عدد محدود جدا من الصحابة، هم الذين خرجوا على الروتين الحياتي، وخرقوا ناموس التراتبية، وجاءوا بما يستوجب الوقوف عنده، والتأمل فيه، والحديث عنه، فأنت لا تجد في التاريخ مثلا قصة تتحدث عن صحابي ذهب من المدينة إلى مكة للحج وقد اصطحب معه نساءه الأربع، أو تتحدث عن صحابي

آخر أقام وليمة فاخرة بسبب ختان أولاده، أو عن صحابي كان يهوى صيد السمك، أو كان كثير الكلام، أو لا يغتسل إلا مرة واحدة في العام. بينما تجده متخما بالحديث عن الأدوار العظيمة والصغيرة، الصحيحة والخاطئة؛ التي لعبها بعض قليل من الصحابة في الحياة العامة، سواء في السبق إلى الإسلام أو في نصرة النبي (صلى الله عليه وآله) أو في الهجرة أو في الحروب والغزوات أو في حفظ القرآن والسنن أو في مساعدة بعضهم البعض الآخر في الأزمات، وأخيرا فيما شجر بينهم وما شجر بين كل واحد منهم ونفسه.
ولو سكت التاريخ عن هذه كما سكت عن تلك، ما كنا لنملك تاريخا نتحدث عنه أو نقرأه ونتدبره، أي أن كل ما موجود في تاريخنا يكاد يكون محصورا في الحديث عما شجر بين هؤلاء الصحابة، أو بينهم وبين غيرهم، أو بينهم وبين أنفسهم، ولاسيما في عصر ما بعد البعثة. فالتاريخ نقل نتفا عن خلافات وقعت في عصر البعثة، كان آخرها ما عرف باسم (رزية الخميس) ولكنه تحدث بملء فيه عما وقع بينهم بعد ذلك مباشرة؛ ابتداء من يوم الاثنين وهو اليوم الذي توفي فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله)، أي بعد ثلاثة أيام من رزية الخميس، مرورا بتسيير جيش أسامة وما شجر بين الأطراف التي كانت تعترض مسيره، والأطراف التي كانت ترى وجوب تسييره تنفيذا لأوامر رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ومن ثم ما حدث في سقيفة بني ساعدة وما شجر فيها، وحرب مانعي الزكاة والمرتدين وما شجر فيها، وكل تلك الصفحات التي سطرها التاريخ في حديثه عما شجر بينهم، بما وصل إلى درجة سفك الدم المسلم بيد المسلم، مثلما حدث في حرب الجمل ثم صفين ثم نهروان الخوارج، وما تلاها.

إن اختلاف المسلمين في تعريف الصحابي كان أحد الأسباب التي منعت أو أباحت الحديث عما شجر بينهم. فمن يرى أنهم معصومون تبعا لحديث "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم"([1]). ومن يرى أنهم منزهون عدول بمجموعهم، كما في قول النووي: "إن

[1] اختلفت مدرسة الخلفاء في هذا الحديث فمنهم من ضعفه كما في إجابة مركز الفتوى السعودي في فتواه المرقمة (١٠٩٨٦) على سؤال: ما مدى صحة حديث "أصحابي كالنجوم

الصحابة (رض) كلهم هم صفوة الناس وسادات الأمة وأفضل ممن بعدهم وكلهم عدول قدوة لا نخالة فيهم، وإنما جاء التخليط ممن بعدهم، وفيمن بعدهم كانت النخالة"([1]). ومن يتحدث عن اتفاق كلي على عدالتهم، كما في قول ابن حجر: "اتفق أهل السنة على أن الجميع عدول، ولم يخالف إلا شذوذ من المبتدعة"([2]). هؤلاء وهؤلاء كانوا يرون أنه من الواجب الامتناع عن ذكر ما شجر بين الصحابة، مستدلين بحديث آخر مفاده: "الله، الله في أصحابي لا تتخذونهم غرضا، فمن أحبهم فبحبي يحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيشوك أن يأخذه"([3]). والظاهر أنه تبعا لهذا الحديث وضعت قواعد فقهية تتشابه في مضمونها فيها الكثير من الحدة، يكاد قول أبي زرعة أن يجملها كلها، وهو: "إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب رسول الله (ص) فاعلم أنه زنديق"([4]). هكذا دون أن تسأل فيما إذا كان صادقا أم كاذبا، محقا أم مخطئ، عدلا أم باطلا!

إن تعريف الصحابي أحدث هو الآخر لغطا في المجتمع، فالشائع أن هناك تعريفان مهمان جدا للصحابي في فكر مدرسة الخلفاء، نجح الأول منهما في الشيوع والانتشار، لأنه وجد دعما كبيرا من السياسيين الذين قادوا الأمة بعد مقتل الإمام علي (عليه السلام) لكونه

بأيهم اقتديتم اهتديتم؟ حديث: "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم" لا يصح، وقد حكم عليه العلماء بالضعف الشديد، بل حكى بعضهم وضعه. وممن ضعفه الإمام أحمد بن حنبل قال: (لا يصح هذا الحديث) وكذلك الإمام ابن عبد البر قال: "هذا إسناد لا تقوم به حجة" والإمام ابن حزم قال: "هذه رواية ساقطة". ينظر الرابط:
http://www.islamweb.net/fatwa/index.php?page=showfatwa&Option=FatwaId&Id=10986
وهذا مخالف لما قاله المباركفوري: "قال القاري: والمراد بالأخذ بهم التمسك بمحبتهم ومحافظة حرمتهم والعمل بروايتهم والاعتماد على مقالتهم وهو لا ينافي أخذ السنة من غيرهم لقوله (ص) أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ولقوله تعالى فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون وقال بن الملك التمسك بالكتاب العمل بما فيه وهو الائتمار بأوامر الله والانتهاء عن نواهيه" أي أنه صحح الحديث. ينظر تحفة الأحوذي، الجزء ١٠، ص ١٩٦

[1] صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٨/ص ٢٢.

[2] الإصابة، ابن حجر، ج١/ص ٩.

[3] أخرجه الترمذي في كتاب المناقب، باب٩، حديث ٣٨٦٢، وأخرجه ابن حبان في صحيحه، حديث ٧٢٥

[4] الإصابة،ابن حجر، م ١، ج٨/ص١٨.

يعنيهم أكثر من غيرهم، ويخدمهم أكثر من غيره، أما الثاني فقد حجر عليه لأنه يتقارب كثيرا مع المنطق والعقل.

التعرف الأول: يسمى تعريف (أهل الحديث) ممثلا بما ذكره الحافظ ابن حجر العسقلاني والبخاري والمديني، وهو ما وافقهم عليه جمهور المحدثين. قال البخاري: "ومن صحب النبي (ص) أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه" وقد استقى البخاري هذا التعريف من شيخه علي بن المديني، الذي ورد عنه بسنده إلى أحمد بن سيار الحافظ المروزي، قال: سمعت أحمد بن عتيك، يقول: قال علي بن المديني: "من صحب النبي (ص) أو رآه ولو ساعة من نهار فهو من أصحاب النبي". وبالخلاصة اتفقوا على أن أصح تعريف للصحابي، هو أنه "من اجتمع بالنبي (ص)، أو رآه مؤمناً به، ومات على ذلك. فيدخل فيه من ارتد ثم رجع إلى الإسلام: كالأشعث بن قيس. ويخرج منه من آمن بالنبي (ص) في حياته، ولم يجتمع به، ومن ارتد ومات على ردته".

التعريف الثاني: يسمى تعريف (الفقهاء والأصوليين) فالأصوليون، اعترضوا على التعريف الأول بطرحهم إشكالا يقول: "بهذا التعريف يستوي كبار الصحابة مع من رأى النبي (ص) ومن لم يجالسه كالأعراب الذين شهدوا معه حجة الوداع". وتبعا لهذا الفهم كانوا يرون الصحبة لا تنطبق إلا على من صحب النبي الصحبة العرفية، حتى قال أحدهم، وهو سعيد بن المسيب : "لا يعد في الصحابة إلا من أقام مع النبي (ص) سنة فصاعدا أو غزا غزوة فصاعدا". ومنهم من طبق الصحبة العرفية لغةً وعرفاً على الصحبة الخاصة بالنبي (ص) فقالوا: "يشترط في صحة الصحبة طول الاجتماع والرواية عنه معا، وقيل: يشترط أحدهما ، وقيل يشترط الغزو معه ، أو مضي سنة على الاجتماع" وقد رأى أصحاب هذا الرأي أن لصحبة النبي (صلى الله عليه وآله) شرف عظيم لا ينال إلا باجتماع طويل، يظهر فيه الخلق المطبوع عليه الشخص، كالغزو المشتمل على السفر الذي هو قطعة من العذاب ، والسنة المشتملة على الفصول الأربعة التي يختلف فيها المزاج". ويكاد هذا الفهم أن يكون الأقرب إلى فكر المرسة الإسلامية الأخرى، أقصد مدرسة أهل البيت.

وتكاد الحقيقة أن تتجلى أمامك حينما تعرف رأى المتأخرين من المؤيدين للتعريف الأول، الذين يرون أن في التعريف الثاني الكثير من التشدد، لأنه يخرج من الصحبة عشرات الآلاف ممن عدهم التعريف الأول، وعدهم أهل الحديث من الصحابة، مثل ضمام بن ثعلبة؛ الذي بعثه بنو سعد إلى النبي فأسلم، ثم رجع إلى قومه فأسلموا على يديه، ويسقط مئات ممن ذكر تراجمهم ابن حجر في الإصابة وابن الأثير في أسد الغابة وابن سعد في الطبقات. ومن حق هؤلاء الاعتراض ولاسيما أنهم يرون الصحابة كلهم بلا استثناء ولا تقييد ولا مفاضلة ولا سبق؛ يرونهم ثقات، ذوو عدل، تقبل رواية الواحد منهم وإن كان مجهولاً، تبعا لقاعدة متأخرة تقول: (جهالة الصحابي لا تضر)، وتكاد تدرك من خلال اعتراضهم أن الإيمان بصحة الحديث الثاني يسقط قواعد ونظريات وقامات تقوم عليها أصول عقائد بعض المدارس الإسلامية التي ترى في علي (عليه السلام) الذي هو أول من أسلم، ولم يفارق النبي سلما ولا حربا، ومعاوية آخر القوم إسلاما، الذي لم يصحب النبي إلا لمما، تراهم متساويين في المكانة والمنزلة. ويتضح هذا المعنى مما أجمله الحافظ ابن حجر بقوله: "وأصح ما وقفت عليه من ذلك أن الصحابي من لقي النبي (ص)، مؤمناً به ، ومات على الإسلام . فيدخل فيمن لقيه: من طالت مجالسته له أو قصرت، ومن روى عنه، أو لم يرو عنه، ومن غزا معه، أو لم يغز، ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه، ومن لم يره لعارض كالعمى". ويقول ابن المديني شيخ البخاري: "من صحب النبي (عليه الصلاة والسلام) أو رآه ساعة من نهار فهو من أصحاب النبي".

وتبعا لما تقدم نجد أن الضوابط المعتمدة في منح درجة (صحابي) إلى الأشخاص فيها نوع من المطاطية الرخوة التي تتفق كليا مع توجهات أصحاب التعريف الأول، بما يؤكد أن الدافع السياسي، وقف بقوة خلف دوافع أصحاب هذا التعريف، حيث نجد في تلك الضوابط:

- التواتر بأنه صحابي.
- ثم الاستفاضة والشهرة القاصرة عن التواتر.

- ثم بأن يروى عن أحد من الصحابة أن فلانا له صحبة ، أو عن أحد التابعين بناء على قبول التزكية عن واحد .
- ثم بأن يقول هو إذا كان ثابت العدالة والمعاصرة أنا صحابي.

قبالة هؤلاء هناك من يرى أن الصحابة مجرد بشر عاشوا في عصر البعثة المشرفة، يجوز عليهم ما جاز على غيرهم من البشر في كل عصر ومصر؛ كما هي رؤية المدرسة الشيعية التي تجد ملخصها في قول السيد عبد الحسين شرف الدين: "أما نحن؛ وإن كانت الصحبة بمجردها عندنا فضيلة جليلة؛ لكنها بما هي من حيث هي غير عاصمة، فالصحابة كغيرهم من الرجال فيهم العدول وهم عظماؤهم وعلماؤهم، وفيهم البغاة، وفيهم أهل الجرائم والمنافقين، وفيهم مجهول الحال"([1]) وتجد ملخصها في قول السيد مرتضى العسكري: "ترى مدرسة أهل البيت تبعا للقرآن الكريم: أن في الصحابة مؤمنين أثنى الله سبحانه عليهم في القرآن... وكذلك تبعا للقرآن ترى فيهم منافقين ذمهم الله...وفيهم من أخبر الله عنهم بالإفك... وفيهم من قصد اغتيال رسول الله"([2]).

ويكاد من يرى الصحابة بهذا الشكل أن يكون أمام خيارين: إما أن يحكم عليهم كما يحكم على أي إنسان آخر بدون عاصم يعصمه، وإما أن يحكم عليهم وهو يضع نصب عينيه حاكما فضائليا مَنَّ عليهم بمواصفات فرضتها مساحة الزمان والمكان، وكانت مدرسة أهل البيت قد اعتمدت الخيار الثاني فحكمت على الصحابة بالوسطية والاعتدال وبما يبيح التحدث عما شجر بينهم لأن الحديث عنهم لا يحرمهم صفاتهم البشرية التي جبل الله خلقه وعبادة الآدميين عليها، ولاسيما وأن رسول الله نفسه كان وفق ما وصلنا من أحاديث يرتكب الأخطاء الكبيرة التي تلحق الأذى بغيره مثل موضوع تأبير النخل، وهو موضوع

[1] المراجعات، السيد عبد الحسين شرف الدين، ص ٢٢٧.
[2] معالم المدرستين، مرتضى العسكري، ج١/ص ١٢٤- ١٢٥.

رواه جماعة منهم : أنس، وعائشة، ورافع بن خديج، وجابر بن عبد الله، ويسير بن عمرو([1])، وأنه لم يكن معصوما إلا بالتبليغ أما في باقي أمور حياته فهو بشر مثل غيره!.

وما يمكن أن نستخلصه من السنن التاريخية والمسيرة البشرية أن الصحابة مع الفضل الكبير الذي نالهم بسبب رؤيتهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) وتتلمذهم على يديه الكريمتين؛ كانوا أبناء عصرهم، وثقافتهم الدينية تعتمد على درجة ملازمتهم للنبي، ووعيهم لما ألقي إليهم، لا على ثقافتهم المجتمعية أو درجتهم القبلية، فثقافتهم المجتمعية كانت في الأصل ثقافة الجاهلية، ودرجتهم القبلية لم يعترف الإسلام بها وإنما حاربها. وعليه لا يصح عقلا أو علما أن يكون أبناء جيل كامل من البشر على مستوى واحد من الفهم والعلم والإيمان والإخلاص، فذلك من المستحيلات. ومجرد وجود هذا التفاضل بينهم يعني أن درجاتهم ليست متساوية ولا يمكن أن تكون متساوية، فهم أبناء أو طلاب دفعة علمية واحدة، ويستحيل أن تتساوى درجات أبناء الدفعة.

طبقات الصحابة

ومع أن بعض المدارس الإسلامية لا تعترف برأينا هذا وتعده تطاولا على الصحابة الكرام، إلا أن مجرد تقسيم الصحابة إلى طبقات يعني أن هناك من يعترف بوجود التفاضل بينهم، ومتى كان التفاضل موجودا، فذلك يعني وجود الأكثر فضلا والأقل فضلا أو ما يعرف بالفاضل والمفضول، ومتى ما كان في المجتمع من هو بلا فضائل لزم أن يكون فيه من هو من أهل المساوئ، ومتى ما ضم المجتمع كل تلك الأصناف حسنها وقبيحها لا يصح أن نجعل الجميع سواء، ونقول عن الجميع كما قال البعض: " اتفق أهل السنة على أن جميع الصحابة عدول، ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة، وهذه الخصيصة للصحابة بأسرهم، ولا يسأل عن عدالة أحد منهم ، بل ذلك أمر مفروغ منه ، لكونهم على الإطلاق معدلين بتعديل الله لهم، وإخباره عن طهارتهم، واختياره لهم بنصوص القرآن".

[1] ينظر: البحر الزخار المعروف بمسند البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار، ج٣/ص١٥٤.

أما عن تقسيم الصحابة إلى طبقات، وهو ما أشرت إليه قبل قليل، فالمعروف أن القدماء اختلفوا في عدد طبقات الصحابة، فذهب بعضهم إلى أنهم على طبقة واحدة، إلا أن علماء آخرين، ومنهم ابن سعد في طبقاته؛ رفضوا هذا القول، وجعلوا الصحابة على خمس طبقات. أما الحاكم فجعلهم اثنتي عشرة طبقة، وزاد بعضهم على هذا العدد. إلا أن غالب العلماء يتفقون على أن أشهر الأقوال ما ذهب إليه الحاكم في عدد الطبقات، وهي:

١- الطبقة الأولى: أهل السابقة في الدخول إلى الإسلام من أهل مكة.

٢- الطبقة الثانية: أصحاب دار الندوة، وهي الدار التي كان يجتمع فيها أهل مكة يتشاورون في شئونهم.

٣- الطبقة الثالثة: الذي هاجروا إلى الحبشة مثل جعفر بن أبي طالب.

٤- الطبقة الرابعة: أصحاب بيعة العقبة الأولى

٥- الطبقة الخامسة: أصحاب بيعة العقبة الثانية وأكثرهم من الأنصار.

٦- الطبقة السادسة: أوائل المهاجرين الذين وصلوا إلى النبي (ص) وهو بقباء قبل أن يدخل المدينة، مثل أبي سلمة بن عبد الأسد، وعامر بن ربيعة.

٧- الطبقة السابعة: الذين اشتركوا في غزوة بدر.

٨- الطبقة الثامنة: الذين هاجروا إلى المدينة في المدة ما بين غزوة بدر وصلح الحديبية.

٩- الطبقة التاسعة: أهل بيعة الرضوان في الحديبية

١٠- الطبقة العاشرة: الذين هاجروا في المدة بين صلح الحديبية وفتح مكة مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص.

١١- الطبقة الحادية عشرة: الذين أسلموا في فتح مكة، مثل أبي سفيان بن حرب، ومعاوية بن أبي سفيان، وعتاب من أسيد.

١٢- الطبقة الثانية عشرة: الصبيان والأطفال الذين رأوا الرسول (ص) في فتح مكة وحجة الوداع.

وفضلا عما تقدم من تقسيم هنالك قسم آخر اختلفوا فيه، فقال بعضهم: إنه صحابي، وقال آخرون هو تابعي، ويقصدون بذلك من رأي النبي ميتا مسجى مثل خالد بن خويلد الهذلي

أبو ذؤيب الشاعر الذي أسلم وحين أُخبر بمرض النبي (ص) سافر إلى المدينة ليراه فوجده ميتا مسجى، فحضر الصلاة عليه والدفن، حيث قالوا: إنه في الغالب ليس صحابيا، أما ابن مندة فعده من الصحابة وعد تلك الرؤية مجزية للصحبة.

ولكنك تجد هذا التشدد المتعصب يتلاشى عند حديثهم عن التابعي فهم بالرغم من اشتراطهم أن صحة التابعية لا تتحقق إلا برؤية التابعي للصحابي إلا أنهم لم يكتفوا بمجرد الرؤية وإنما أوجبوا أن يتحقق معها أخذ التابعي عن الصحابي، أي التتلمذ على يديه. ومع ذلك لم يشترطوا الإيمان، فقالوا: ولا يُشترط في التابعي أن يكون مؤمنًا حال لقائه الصحابي، فقد يراه وهو كافر. كذلك لم يشترطوا التمييز لتصح التابعية، ذهب لذلك الحافظ ابن حجر في (النزهة)([1]). ولا يشترط أن يكون مميزا، ذهب إلى ذلك السخاوي في فتح المغيث، في قوله: "إنه لا يُشترط أن يكون التابعي حال لقاء الصحابي مميزًا"([2]).

إن تعريف معنى الصحبة دفع كذلك إلى اختلاف الرؤى بشأن التحدث عما شجر بين الصحابة، حيث ترى إحدى المدرستين في مفهوم الصحبة مصطلحا شرعيا عقائديا، ومن خلاله، عرفوا الصحابي بأنه: "كل من لقي النبي مؤمنا به ولو ساعة من نهار ومات على الإسلام صغيرا كان أم كبيرا" ويمنح هذا التعريف عند إضافته إلى ما سبق من الأقوال نوعا من (عصمة) كلية لا يجوز معها الحديث عن كل المجتمع الإسلامي في عصر البعثة في شرق الأرض وغربها إلا بالحسنى دون الحديث عن أي شيء آخر. وقد أثر هذا التابو([3]) كثيرا على دراسة التاريخ والعقيدة، ولاسيما بعد الخوف الذي بثه والذي وصل إلى درجة تكفير المخالف واتهامه بالزندقة، كما في قول أبي زرعة الذي مر علينا.

---

[1] نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، كتاب الكتروني.

[2] فتح المغيث بشرح الفية الحديث، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي ، كتاب الكتروني.

[3] التابو: مصطلح شائع الاستعمال في الدراسات الانثروبولوجية أي: دراسات علم الإنسان الطبيعية والاجتماعية والثقافية، معناه تحريم القيام بأفعال بعينها، أو استخدام أشياء أو ألفاظ بعينها في الحديث خشية التعرض للأذى الذي يكمن في تلك الموضوعات المحرمة، والفكرة شائعة عند معظم أو جميع الشعوب البدائية، ويرجع الخوف= = من التابو إلى الاعتقاد بأن

ويجد من يبحث في القواعد التي وضعوها لأسباب سياسية بحتة وتحولت إلى قواعد دينية بحتة الكثير من التهافت، فمن المعروف أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق البشر متساوين، وحتى أولئك الذين يعتقدون بوجود التشابه، أثبت العلم الحديث خرافة ما يعتقدون به، فكل منا غريب عن الآخر مهما كانت المشتركات بينهما، يقول (تي أس إليوت): "كل شيء في هذا الكون غريب إلا أنت وأنا، وحتى أنت أكثر مني غرابة" كما نلحظ القرآن الكريم في قسمه المدني يخاطب المجتمع الإسلامي بتفاضل غير خاف فما من آية خطاب إلا وتجد المهاجرين مقدمون على الأنصار وهذا يعني أنهم عقديا أكثر فضلا من الأنصار.

ولهذا السبب ترى المدرسة الأخرى أن المصطلح لغوي أكثر منه شرعي، وترى أنه مأخوذ من الملازمة والمعاشرة، فأنت لا يمكن أن تطلق صفة صاحب، أو تقول صاحبي لكل من رآك لدقيقتين أو لمجرد أنه مر بقربك أو رآك واقفا عند باب دارك، ثم أن كل واحد من هؤلاء ممكن أن يصفك تبعا للحالة التي رآك عليها، ولا يمكن أن يفيك حقك إلا من صحبك ولازمك كثيرا وعرف منك وعنك أشياء لا تُعرف إلا بمرور الزمن الطويل والملازمة.

الوعي والتلقي

بقدر كون نقل تعاليم الإسلام والسنة النبوية من جيل الصحابة الكرام إلى الأجيال اللاحقة يعد من أعظم الأعمال وأكثرها روعة؛ إلا أن ذلك قد يكون أحد الأسباب التي أدت إلى فرقة المسلمين فيما بعد، وذلك لأن الصحابة نقلوا ما حملوه طوعا أو حُمّلوه بوصية؛ تبعا لذكائهم، ومدى استيعابهم، ومقدار تحصيلهم وإفادتهم من أيام الصحبة، ومدة صحبتهم، كذلك أسهم كل منهم بنقل رؤاه الخاصة مقرونة بموروث الرسالة الذي يحمله، تبعا لتوجهه الحياتي وهوى نفسه، فما نقله عمار وسلمان والمقداد أو الثلاثة أو الأربعة الذين زكاهم النبي (صلى الله عليه وآله) في أحاديث كثيرة منها: عن أنس،قال: قال رسول الله (ص):

لمس موضوع التحريم يجعل الشخص دنسا ومصدر خطر على كل من يتقرب منه. ينظر: الموسوعة العربية الميسرة، ياسين صلواتي، ج٣/ ص ١٠٦٢ .

"اشتاقت الجنة إلى ثلاثة علي وعمار وسلمان"([1]) يختلف كثيرا عما نقله طلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف، ويختلف ما نقله هؤلاء وهؤلاء عما نقله أبو هريرة مثلا، فبريدة قبل الحديث الذي أخرجه البخاري، من حديث بريدة، قال: بعث رسول الله (ص) عليا رض) إلى خالد، يعني باليمين ليقبض الخمس، فاصطفى علي منها سبية، فأصبح وقد اغتسل، فقلت لخالد: أما ترى إلى هذا؟ وفي رواية: فقال خالد لبريدة: ألا ترى ما صنع هذا؟ قال بريدة: وكنت أبغض عليا، فلما قدمنا إلى النبي (ص) ذكرت ذلك له، فقال: يا بريدة أتبغض عليا؟ قلت: نعم. قال: "لا تبغضه فإن له في الخمس أكثر من ذلك".([2]) ليس كما هو بعد سماع هذا الحديث، فهو ما إن عَمَرَ حبُ علي قلبه حتى بات يتحرى ما يرضى عنه علي حتى ولو أغضب من هم سواه.

تنوع النقل، وتنوع درجات دقته صعودا ونزولا، أدى إلى تنوع مصادر المعرفة الدينية في الأجيال اللاحقة، كما أن درجة أعلمية الناقل أدت إلى تحديد مقدار صحة أو عدم صحة المنقول إلى الأجيال. فضلا عن ذلك نجد أن درجة وعي المتلقي نفسه أدت إلى تنوع درجة وعيه واستيعابه لما ألقي إليه، حيث كانت المعلومة تستقى من فم رسول الله (صلى الله عليه وآله) مباشرة أو عمن سمع منه، أو عمن سمع ممن سمع من الذين سمعوا منه، وتبعا لذلك كان المعلومة أو التعليم يُطَّبع أحيانا بطباع السامع والناقل، وكلما انتقلت المعلومة من واحد إلى آخر كانت تأخذ نمطا من أنماط رؤاه وتُحَمَّل أحيانا أكثر من طاقتها من خلال الإضافة والقطع والتغيير والفهم وأسلوب وطريقة النقل أيضا. ومع كل تلك التباينات كانت هناك مجموعتان رئيستان في العالم الإسلامي:

- الأولى: مجموعة العامة أو الجميع أو الكل، وهي جماعة كبيرة منفتحة على بعضها تتنقل المعلومة بين أفرادها تحت كل المؤثرات التي أوردناها أعلاه، فتتلون باللون الذي يرغبون فيه، أو يحبون أن تكون عليه، ولذا تصبح عرضة إلى التغيير والتبديل والتلوين والترشيق والتسمين.

---

[1] المستدرك على الصحيحين، الحاكم، ج٣/ ص١٤٨، حديث رقم ٤٦٦٦.

[2] زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم الجوزية، ص٦٣٨ فصل في هديه (ص) في الأقضية والأنكحة والبيوع، ذكر أحكام الرسول (ص) في الطلاق.

- الثانية: مجموعة صغيرة عقدت بين أفرادها نوعا من علاقة الصحبة المبنية على حب فكر وعقيدة وإيمان شخص اتخذوه رمزا، وهؤلاء كانوا يستقون المعلومة من رمزهم، أو من فم الرسول (صلى الله عليه وآله) مباشرة ويتداولونها ويتناقلونها فيما بينهم في إطار ضيق لا يتسع ولا ينفتح على العامة إلا بهدف تصحيح ما يرونه خاطئا أو محتاجا إلى التصحيح والتعديل والتقويم.

وبناء عليه نقلت المجموعة الأولى بتفاوت درجاتها علومها وخزينها المعلوماتي إلى عامة الأمة. ونقلت المجموعة الثانية ما في جعبتها من معلومات وسنن قرآن وتفسير إلى المحيطين بها من أهل وأصدقاء وأحباب ومن يتوسمون بهم الخير والصلاح.

هذا التباين في النقل جعل ما نقلته المجموعة الأولى عاما شاملا مشاعا مفتوحا متداولا متناقلا مبثوثا على كل المديات، وخاضعا إلى كل مؤثرات التداول المنفتح خيره وشره. وجعل ما نقلته المجموعة الثانية محصورا في أصغر نطاق وأضيق محيط، وكان أقرب منه إلى التداول الخاص من عمومية التداول؛ لكي يحافظ على نقائه وجديته ووثاقته ومبانيه العقائدية.

تحت مؤثرات منقولات المجموعة الأولى بنيت القاعدة الفقهية والفكرية لمنظومة إسلام الدولة الأولى، أو إسلام الحكام المسلمين الأوائل، وهو الإسلام الذي طغى حتى على معنى المفهوم العام للإسلام الروحي بعد الخلط الكبير بين مفاهيم السياسة ومفاهيم الدين، واستخراج مفاهيم جديدة سياسية/ دينية يَتعبد الناس بها، وانتشر هذا الخليط الذي كان يبدو ظاهرا متجانسا بين صفوف الشعوب التي امتدت إليها سيطرة الدولة وسطوة الحكام، حيث أعيد تشكيل نمط الإيمان العام وفقا لرؤى القيادة السياسية/ الدينية للأمة، ولاسيما بعد أن سيطر السياسيون على مقاليد قيادة الأمة المسلمة وحكموها برؤاهم السياسية تحت عناوين دينية.

أما تحت مؤثرات منقولات المجموعة الثانية فقد بنيت قاعدة الإسلام الجوهر، إسلام التسنن العقدي وإسلام التشيع لآل البيت، ولاسيما وأن قيادتهم الشرعية التي أقرها النبي (صلى الله عليه وآله) كانت لما تزل مقيمة بينهم. في هذه المرحلة انتشر التشيع وتوسعت

قاعدته الشعبية ونقوله الخاصة به؛ لا كما نتصوره بالتأكيد؛ ولكن بشكل أوسع مما كان عليه في مراحله الأولى، وأصبحت جموع من الصحابة على يقين من صحة ووجوب إتباع هذا المعتقد، فآمن به عدد يفوق كثيرا ما كان عليه عددهم في عصر البعثة، ولاسيما بعد أن تحققت مضامين بعض الأحاديث النبوية المستقبلية مثل حديث "يا علي تقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين" وحديث "ويح عمار تقتله الفئة الباغية" وحديث "ذو الثدية" وحديث "تمرق من الدين مارقة يقتلهم أولى الناس بالحق" وغيرها.

فلما فارقهم رمزهم وقائدهم الأول مقتولا على يد المسلمين أنفسهم، وهادن قائدهم الثاني تحت تهديد السلاح، وحوصروا من كل الجهات؛ وعى جيل من التابعين أهمية ما دار وما كان يدور؛ فظهر جيل جديد من الشيعة هو جيل التابعين النابهين من القراء والمتعلمين الباحثين عن المعلومة وعن الحقيقة، وكانت الكوفة هي الروض الذي تفرعت منه هذه الأغصان. وهنا ازداد السؤال عن التشيع وعن معتنقيه وبات التابعون يتحرون أخبار التشيع والمتشيعين، ويتابعون نشاطاتهم ويتأثرون بهم وبدورهم؛ فينضوون إليه ويؤمنون بمشروعه، وهنا بدأت مرحلة البناء الشعبي العقائدي، مرحلة الانفتاح على من يتوسمون بهم الخير، وهم أبناء الجيل الأول من التابعين، ومن خواص الجيل تحديدا، ثم الانفتاح على طبقات الشعب الأخرى ولاسيما الطبقات المسحوقة والمهمشة، غير آبهين للمخاطر التي تنتظرهم من الحكام.!

وكان من نتائج هذا الانفتاح أن جيلا من القراء تأثروا بالتشيع وأخذوا بروايات رجاله وتناقلوها وتداولوها، مما وضع بعض رجال الحديث أمام موقف لا يملكون أكثر من خيارين تجاهه: إما ترك الكثير من السنة النبوية، أو أخذ بعضها اضطرارا عن طريق الرواة الشيعة، وهو ما حصل بالفعل في بعض المواقف، يقول صالح الورداني في كتابه (عقائد السنة وعقائد الشيعة): "وفي فترة التابعين وتابعيهم كثر التشيع، حتى غلب على أكثر رواة الحديث، ولم يكن هناك بد لأي ناقل للحديث أو جامع له من أن يأخذ من الشيعة"([1]). وهذا يؤكد أن لا غرابة في أن يكون أحد التابعين الأوائل متشيعا ومخلصا

[1] عقائد السنة وعقائد الشيعة، صالح الورداني، ص ١٠٨.

لتشيعه، ففي هذا الوقت بالذات تنامى عدد الشيعة وانتشرت عقيدة الشيعة بين الصحابة والتابعين.

إحصاء الصحابة الشيعة

من أسس الخلاف بين المدرستين الفقهيتين الإسلاميتين أن إحداهما تتهم الثانية بالتطاول على الصحابة الكرام(رضوان الله عليهم)، وأرى أن مجرد معرفتنا للعدد الكبير من الصحابة الذين اعتنقوا التشيع يعد حائلا دون التصديق بهذه التهمة، لأنه من غير المعقول أن يطعن الشيعة برموزهم الذين حملوا لهم أسس عقيدتهم، ولاسيما وأن هؤلاء الصحابة تعرضوا جراء إيمانهم بالتشيع إلى أنواع من التهميش والإبعاد وحتى العداء السافر، واضطروا إلى حمل السلاح مع علي (عليه السلام) لكي يدافعوا عن الإسلام.

فضلا عن ذلك يؤكد وجود هذا العدد الكبير من الصحابة في صفوف التشيع أمرين مهمين، الأول: أن التشيع ولد في عصر البعثة فاتبعوه وآمنوا به.

الثاني: أنه ولد في وقت قريب جدا من عصر البعثة قبل أن يموت أغلب الصحابة؛ فاتبعه الكثير منهم، ولاسيما وان بعض الصحابة ماتوا في السنوات الثلاثين التي تلت عصر البعثة.

إلى هنا يبدو حديثنا عن التشيع والمتشيعين قد استوفى أهدافه، ولم يعد لنا سوى الولوج إلى عالم جيل التابعين، ذلك العالم الزاخر بالرجال الأفذاذ الذين اعتنقوا التشيع غير آبهين بالمصاعب والمصائب التي كانت بانتظارهم، والتي كانت دائما تنتهي بالموت ذبحا؛ فلا تشفع لهم صحبتهم، ولا يشفع لهم كونهم من خيرة جيل التابعين. وقد تبين مما مر أن هناك في المجتمع الإسلامي الأول نخبة من الصحابة الذين استهواهم الخط الإيماني العلوي فاتبعوه؛ حياة وعقيدة وسلوكا مخالفين العامة فيما ذهبوا إليه، وأن هناك في جيل التابعين من تابعهم في عقيدتهم وآمن بما يؤمنون به.

وهذه الحقيقة لا تعني أن من خالف التشيع كفر، فذلك قول كبير لا يقره الإسلام الذي آمن بالتنوع منذ أيامه الأولى، ولكنها تعني أن هناك في ذلك المجتمع فئات متنوعة في فكرها

وعقيدتها ودرجة إيمانها وارتباطها برموز الإسلام الذين أوجب الله طاعتهم. فإذا تحدثنا عن التشيع وأثره في تلك الأجيال لسنا مبالغين، وإذا قلنا إن جيلا من أبناء ذلك المجتمع كانوا شيعة حقيقيين لا نجافي الحقيقة، وأن سعيد بن جبير (رض) كان واحدا من هؤلاء!.

الفصل الرابع

التابعون

لا يقل جيل التابعين أهمية عن جيل الصحابة، ولا يقل الحديث عن جيل التابعين صعوبة عن جيل الصحابة إلا يسيرا؛ فالأوامر التي ألزمت الناس بعدم الخوض في حياة الصحابة وما شجر بينهم وأفعالهم أيا كان نوعها، والحديث عن عصمتهم الجمعية مع انه لا يوجد مثلها فيما يخص جيل التابعين، إلا أن المنع يسري عليهم منسحبا من الصحابة الذين علموهم ونقلوا لهم. ومع أنه لا رواية ولا حديث معتمد وناهض ينهى عن الخوض فيما شجر بين التابعين بله الصحابة؛ أو ينهى عن الخوض في وقائع حياتهم؛ إلا اللهم صفة الخيرية التي أسبغها عليهم حديث: "خير الأجيال جيلي ثم الذي يليه ثم الذي يليه": وهو قول تشم فيه رائحة الوضع ولاسيما في قسمه الثالث الذي يجعل رموز الدولة الأموية ثالث ثلاثة من أضلاع مثلث التفاضل القدسي المزعوم؛ مقرونا بجيل الصحابة والجيل الذي تربى على أيديهم وتلاهم؛ في وضع قوانين الأمة ونظرياتها العقائدية، متجاوزا حديث أبي ذر (رض)، قال: سمعت رسول الله (ص)، يقول: " إذا بلغت بنو أبي العاص ثلاثين رجلا، اتخذوا مال الله دولا وعباد الله خولا، ودين الله دغلا "([1]) وهو حديث كان الأمويون أنفسهم يؤمنون به وبصحته وبوجوب تحققه حتى أن مروان بن الحكم احتج به على معاوية مهددا، قائلا: "أنا أبو عشرة...وأخو عشرة"

إن أسباب التقديس السياسي هي التي جعلت المؤرخين والمفسرين يتحدثون عن: نسك وعبادة وإيمان التابعين كثيرا، ويعرضون عن الحديث عن نشاطاتهم المهمة الأخرى إلا ما ندر، حيث تلمس هذه الانتقائية في قول أبي نعيم: "ومن طبقة التابعين المذكورين بالنسك والتعبد والتقلل والتزهد، المعرضين عن الدنيا وغرورها، والمستروحين إلى العبادة وحبورها; جماعة كثيرة اقتصرنا على ذكر نفر من جماهيرهم ومشاهيرهم، بعد أن قدمنا في فضل خير القرون أخبارا وآثارا"([2]).

[1] المستدرك، الحاكم، ج٤/ص٥٢٦، حديث رقم ١٨٦/٨٤٧٨.
[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الإمام الحافظ أبو نعيم، ص: ٧٨.

مَنْ التابعون؟

فمن التابعون؟ وعلى من تنطبق صفة تابعي؟ ما درجتهم وما منزلتهم؟ ما دورهم في بناء العقيدة وفي الحياة الإسلامية العامة؟ وعلى أي الأسس تم بناء نظرية التابعين؟ وما علاقتها بنظرية عدالة الصحابة؟

في كتب التفسير وغيرها، اعتمدت الآية مائة من سورة التوبة لتكون القاعدة التي بني عليها مفهوم التابعية في الإسلام، فالغرابة بين البشر التي تحدث عنها (إليوت) لم تكن اختراعا موقوفا على الرجل بقدر كونه مقلدا أخذها عن غيره وأعاد صياغتها، فالكتاب العزيز قبل (إليوت) وغيره بمئات السنين، أشار في أكثر من موضع إلى هذه الغرابة، في الأقل كما في قوله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}([1])، التي تعني أن هناك غرابة وهناك سابق ومسبوق. فإذا كان المقصود بالسابقين من أسلم أولا، فالتاريخ يثبت أن هنالك سبقا بينهم، فهم لم يسلموا جميعا في وقت واحد ودفعة واحدة، بل أسلموا على امتداد عشر سنين من عمر البعثة قبل الهجرة، ويعني هذا أنهم من حيث الكلية سابقون لمن أسلم بعد الهجرة، ولكنهم من حيث الجزئية يسبقون بعضهم بعضا، بما يعني أن هناك بينهم مفاضلة في السبق، فمن أسلم أولا أفضل ممن أسلم بعده بنص القرآن، وهكذا يكون السابق أفضل من اللاحق، ولاسيما وأن الفارق بين أول من أسلم وثاني وثالث ورابع وعاشر من أسلم لم يكن أياما معدودات ليس لها أثر في النشأة والتقويم، وإنما كانت سنين عديدة.

والملاحظ أن هناك ثلاث آيات وردت قبل هذه الآية تقدم لها من حيث التخصيص، وهي قوله تعالى: {الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا

[1] التوبة:١٠٠.

يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}([1])

وفي الآية المباركة وحديث العشرة المبشرة بالجنة ومجموعة أخرى من الأحاديث الفضائلية ما يؤكد وجود تفاضل بين الصحابة مقياسه السبق إلى الإسلام، بمعنى أن الأسبق يكون على الأغلب هو الأفضل، وأجد أنهم لو لم يفهموا السبق بهذا المعنى الفضائلي لما كانوا قد أجهدوا أنفسهم في إعادة ترتيب الأسبقية لدرجة أنهم قسموها حسب الفئات العمرية، فقالوا عن علي (عليه السلام) إنه أول الفتيان إسلاما وعن أبي بكر(رض) إنه أول الرجال إسلاما، عن عابس، عن مسلم، عن أنس، قال: "أستنبىء النبي (ص) يوم الاثنين، وأسلم علي يوم الثلاثاء"([2]).

ومعنى هذا أن القرآن الكريم وضعنا أمام مفاضلة يجب الانتباه إليها؛ فالسابقون من المهاجرين والأنصار من المرضيين، ولكن هناك بينهم تفاضل في الدرجة. ومن تبعهم من الأجيال اللاحقة بإحسان أقل منهم فضلا، وهم كذلك يتفاضلون فيما بينهم في الدرجة، ولكن المقياس في هذه الحالة هو (الإحسان)، فالإحسان هو الفيصل، بينما كان السبق إلى الإسلام وطول الصحبة أساس المفاضلة بالنسبة إلى الجيل الأول. لكن المفسرين في المدارس الأخرى لم يقفوا عند هذا التفاضل فأعطوا للتابعين مثل ما أعطوا للصحابة؛ ليس لأنهم لم يلتفتوا إلى الآيات التي سبقت، وإنما لأسباب قد يتضح بعضها عند سماع أقوالهم التي ألغت المفاضلة، وعممت الفضل والإحسان بدون ضوابط، فابن كثير قال في تفسيره: "يخبر تعالى عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم المقيم"([3]). وهي إشارة إلى المجتمع كلي العصمة، يفسر ذلك قول الطبري: "على أن التابعين بإحسان غير المهاجرين والأنصار. وأما السابقون فإنهم مرفوعون بالعائد من ذكرهم في قوله : {رضي الله عنهم ورضوا عنه} ومعنى الكلام: رضي الله عن جميعهم لما أطاعوه وأجابوا نبيه إلى ما دعاهم إليه من أمره ونهيه، ورضي

---

[1] التوبة، الآيات ٩٧-٩٩.
[2] تاريخ بغداد، احمد بن علي الخطيب البغدادي، ج١/ص١٤٤ .
[3] تفسير ابن كثير، سورة التوبة، تفسير الآيات ٩٧-٩٩.

عنه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان لما أجزل لهم من الثواب على طاعتهم إياه وإيمانهم به وبنبيه عليه الصلاة والسلام، وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار يدخلونها خالدين فيها لابثين فيها أبدا لا يموتون فيها ولا يخرجون منها"([1]). ثم ليس خافيا أن القرآن نفسه تحدث عن سبق ثلة من أوائل من أسلم ولم يعمم الحالة عليهم جميعا ليتحدث عن سبق الجميع، كما في قوله تعالى: {السابقون السابقون(*) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (*) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (*) ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (*) وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ} ([2]) وقال المفسرون عن كلمة (ثلة من الأولين): إن الأولين هم المجتمع بعمومه، وقال غيرهم: هم أتباع الأمم السالفة والأنبياء قبل محمد (صلى الله عليه وآله). ففي حديثه عن السابقين، قال صاحب تفسير الميزان: "فالمقربون هم النمط الأعلى من أهل السعادة كما يشير إليه قوله: {والسابقون السابقون أولئك المقربون} ولا يتم ذلك إلا بكمال العبودية كما قال: {لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون}([3])، ولا تكمل العبودية إلا بأن يكون العبد تبعا محضا في إرادته و عمله لمولاه لا يريد ولا يعمل إلا ما يريده وهذا هو الدخول تحت ولاية الله فهؤلاء هم أولياء الله." ([4]) وفي حديثه عن الثلة، قال: "الثلة - على ما قيل - الجماعة الكثيرة، والمراد بالأولين الأمم الماضون للأنبياء السابقين، وبالآخرين هذه الأمة على ما هو المعهود من كلامه تعالى في كل موضع ذكر فيه الأولين والآخرين معا ومنها ما سيأتي من قوله: «أإنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون قل إن الأولين و الآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم» فمعنى الآيتين: هم أي المقربون جماعة كثيرة من الأمم الماضين وقليل من هذه الأمة. وبما تقدم يظهر أن قول بعضهم: إن المراد بالأولين والآخرين أولوا هذه الأمة وآخروها غير سديد".([5])

---

[1] تفسير الطبري، سورة التوبة، تفسير الآيات ٩٧-٩٩.
[2] سورة الواقعة، الآيات ١١-١٤.
[3] النساء: ١٧٢
[4] الميزان، تفسير الواقعة، الآيات ١١-١٤.
[5] تفسير الميزان، تفسير الواقعة.

أما القرطبي فقال في حديثه عن السابقين: "روي عن النبي (ص) أنه قال : "السابقون الذين إذا أعطوا الحق قبلوه وإذا سئلوه بذلوه وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم". وقال محمد بن كعب القرظي: إنهم الأنبياء. الحسن وقتادة: السابقون إلى الإيمان من كل أمة. ونحوه عن عكرمة. محمد بن سيرين : هم الذين صلوا إلى القبلتين. وقال مجاهد وغيره: هم السابقون إلى الجهاد, وأول الناس رواحا إلى الصلاة. وقال علي (رض): هم السابقون إلى الصلوات الخمس. الضحاك: إلى الجهاد. سعيد بن جبير: إلى التوبة وأعمال البر. وقيل : إنهم أربعة , منهم سابق أمة موسى وهو حزقيل مؤمن آل فرعون , وسابق أمة عيسى وهو حبيب النجار صاحب أنطاكية , وسابقان في أمة محمد (ص) وهما أبو بكر وعمر (رض). وقال شميط بن العجلان: الناس ثلاثة, فرجل ابتكر للخير في حداثة سنه داوم عليه حتى خرج من الدنيا فهذا هو السابق المقرب, ورجل ابتكر عمره بالذنوب ثم طول الغفلة ثم رجع بتوبته حتى ختم له بها فهذا من أصحاب اليمين , ورجل ابتكر عمره بالذنوب ثم لم يزل عليها حتى ختم له بها فهذا من أصحاب الشمال. وقيل: هم كل من سبق إلى شيء من أشياء الصلاح. والمعنى السابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله" ([1]).

فضلا عن الآيات الشريفة هنالك مجموعة أحاديث نبوية تم اعتمادها لدعم الآية، من بينها حديثان اعتمدا أساسا في التزكية. الأول حديث: "طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني". والثاني حديث: "خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته"

طوبى لمن رآني

أورد الألباني الحديث الأول في صحيح الجامع الصغير، بعدة صيغ اذكرها أدناه لعلاقتها بموضوع خير القرون، ولاسيما وأنها وقعت في نفس التهافت الذي وقع به الحديث من حيث عدم تخصيص وتحديد عدد طوبى، منها:

[1] تفسير الطبري، سورة الواقعة، الآيات ١١-١٤.

٣٩٢٢- عن أبي هريرة: "طوبى لمن أدركني وآمن بي وطوبى لمن لم يدركني ثم آمن بي".

٣٩٢٣- عن أبي سعيد: "طوبى لمن رآني وآمن بي ثم طوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني".

٣٩٢٤ - عن انس: "طوبى لمن رآني وآمن بي مرة وطوبى لمن لم يرني وآمن بي سبع مرات".

٣٩٢٥- عن ابن عمر: "طوبى لمن رآني وآمن بي وطوبى لمن آمن بي ولم يرني ثلاث مرات".

٣٩٢٦ - عن عبد الله بن بسر: "طوبى لمن رآني وآمن بي وطوبى لمن رأى من رآني ولمن رأى من رأى من رآني وآمن بي طوبى لهم وحسن مآب".

٣٩٢٧ - عن واثلة: "طوبى لمن رآني ولمن رأى من رآني ولمن رأى من رآني ولمن رأى من رآني". ([1])

وقال العلماء: إن التابعين في التأريخ الإسلامي شخصيات إسلامية من الجيل الإسلامي الأول، ولكنهم إما عاصروا النبي (ص) ولم يروه، أو ولدوا في أواخر عصر البعثة، وحينما توفي النبي كانوا صغارا لا تصح عليهم صفة صحابي، أو لم يعاصروا النبي (صلى الله عليه وآله) وولدوا وعاشوا بعد وفاته، فعاصروا جمعا كبيرا من الصحابة. وبناء عليه امتد عصر التابعين من زمن البعثة ولغاية حدود سنة مائة وخمسين هجرية. ومن بقي معمرا بعد هذا التاريخ لا يحسب من التابعين، باعتبار أن العلماء اتفقوا على أن: "آخر عصر التابعين هو حدود سنة خمسين ومائة من الهجرة، فمن تأخر موته عن هذا التاريخ لم تقبل منه صفة (التابعي) بل يدخل في طبقة (تابع التابعي) إن كان له من ذلك شيء". ولكنك تجد من يختصر المدة بمائة وعشرة سنوات لا أكثر، باعتبار أن موت الصحابي الأخير وهو عامر بن واثلة الليثي كان في السنة العاشرة بعد المئة من الهجرة، ولذا عدو من تأخر موته عن هذا التاريخ ليس تابعيا ولم تقبل منه دعوى الصحبة أي صحبة

[1] صحيح الجامع الصغير وزياداته، الألباني، ج ٢/ص ٧٢٦، حرف الطاء.

الصحابي. أي أن كل من تأخرت وفاته عن سنة مائة وعشرة أو مائة وخمسين هجرية يعد من القرن الثالث، يسبقه في ذلك قرن عصر البعثة وقرن التابعين. ويقسم أبناء هذا الجيل ممن يحمل صفة تابعي إلى عدة طبقات.

أخذ التابعون علمهم ودينهم من صحابة رسول الله، وقاموا خلفهم بحمل الرسالة والدعوة. قال عمرو خالد: "التابعون هم الجيل التالي للنبي (ص) بمعنى أنهم رأوا الصحابة ولم يروا النبي، والصحابي هو من رأى النبي وكان مسلما، فإن لم يكن مسلماً فليس بصحابي بالطبع، فإذا دخل أحد المدينة بعد وفاة النبي بيوم واحد فلا يكون صحابياً، بل تابعاً"(١) أي أن التابعي هو من أسلم في عصر البعثة ولم يرَ النبي، أو ولد بعد موت النبي في عصر الخلفاء الأربعة. وفي المعنى العام للتابعية، قال الراغب الأصفهاني: "يقال: تَبعه، واتبعه: قفا أثره، وذلك تارة بالجسم، وتارة بالارتسام والائتمار. ويقال: أَتبعه: إذا لحقه"(٢) ورغم كل الموازين الموضوعة، اختلف تعريف التابعي من عالم لآخر، فهو عند ابن حجر: "من لقي الصحابي". وعند ابن الصلاح: "من صحب الصحابي". وتجدهم في تعريفهم هذا يوجبون صحبة الصحابي لتصح التابعية، وهو أمر لم يوجبوه للصحابي فمجرد الرؤية يحقق الصحبة حتى ولو كانت لثانية واحدة.! وفي الموسوعة الميسرة، تابعون: "الجيل الذي يلي الصحابة من المسلمين، أي الذين عرفوا صحابيا ولم يروا النبي.. وتابعوا التابعين من لقوا أحد التابعين. يلي التابعون الصحابة في المنزلة، ويليهم تابعو التابعين"(٣) ويمكن إجمال التعريفات كلها بما يلي: "التابع بإحسان، ويقال للواحد منهم تابع وتابعي. ويكفي فيه أن يسمع من الصحابي أو يلقاه، وإن لم توجد الصحبة العرفية. والاكتفاء في هذا بمجرد اللقاء والرؤية أقرب منه في الصحابي، نظراً إلى مقتضى اللفظين فيهما والتابعي من صحب صحابيا ولا يكتفي بمجرد اللقي بخلاف الصحابي مع النبي فإنه يكتفى بذالك لشرف النبي وعلو منزلته فالاجتماع به يؤثر النور في القلب أضعاف ما يؤثره الاجتماع الطويل بالصحابي وغيره من الأخيار، وذهب الخطيب البغدادي إلى هذا

---

[١] مع التابعين، عمرو خالد، دار نهضة، مصر، ص ٦٢.
[٢] مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، كتاب التاء، ص ١٦٣.
[٣] الموسوعة العربية الميسرة، ياسين صلواتي، ج٣/ ص ١٠٦٢، خرف التاء.

المذهب، بقوله: "هو من صحب صحابيا، ولا يُكتفى فيه بمجرد اللقي بخلاف الصحابي مع النبي (ص) لشرف منزلة النبي فالاجتماع به يؤثر في النور القلبي أضعاف ما يؤثره الاجتماع الطويل بالصحابي وغيره من الأخيار.

ونجد في تعريف آخر، قولهم: "التابعي: من اجتمع بالصحابي مؤمنًا بالنبي (ص) ومات على ذلك". معنى هذا أنهم اعتمدوا الرؤية العيانية لإثبات التابعية، فمن رأى صحابيا فهو تابعي وبخلافة لا يعد تابعيا، تماما كما اعتمدوها في تصنيف الصحابة، فمن رأي النبي مؤمنا به فهو صحابي وبخلافة لا يعد صحابيا.

لكن هناك من ضرب بالشروط الأولى عرض الحائط، وأبدى رأيا مخالفا لم يشترط فيه رؤية الصحابي أساسا لإثبات التابعية، كذلك لم يشترط رؤية النبي (ص) لإثبات الصحبة، كما في قول القرطبي في تفسيره: "واختلف العلماء في التابعين ومراتبهم ; فقال الخطيب الحافظ: التابعي من صحب الصحابي; ويقال للواحد منهم: تابع وتابعي. وكلام الحاكم أبي عبد الله وغيره مشعر بأنه يكفي فيه أن يسمع من الصحابي أو يلقاه وإن لم توجد الصحبة العرفية. وقد قيل: إن اسم التابعين ينطلق على من أسلم بعد الحديبية; كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومن داناهم من مسلمة الفتح ; لما ثبت أن عبد الرحمن بن عوف شكا إلى النبي (ص) خالد بن الوليد؛ فقال النبي (ص) لخالد: "دعوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصفه". وروي عن الحاكم أبي عبد الله قال : طبقة تعد في التابعين ولم يصح سماع أحد منهم من الصحابة ; منهم إبراهيم بن سويد النخعي وليس بإبراهيم بن يزيد النخعي الفقيه . وبكير بن أبي السميط , وبكير بن عبد الله الأشج . وذكر غيرهم قال : وطبقة عدادهم عند الناس في أتباع التابعين . وقد لقوا الصحابة منهم أبو الزناد عبد الله بن ذكوان , لقي عبد الله بن عمر وأنسا. وهشام بن عروة, وقد أدخل على عبد الله بن عمر, وجابر بن عبد الله وموسى بن عقبة, وقد أدرك أنس بن مالك . وأم خالد بنت خالد بن سعيد"([1]).

[1] تفسير القرطبي، الآيات ٩٧-١٠٠ من سورة التوبة.

طبقات التابعين

والتابعون تبعا لبعض الآراء ثلاث طبقات: كبرى ووسطى وصغرى. فالكبرى أو الأولى: من أدرك العشرة المبشرين بالجنة، أو من كان أكثر روايتهم عن الصحابة مثل: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعلقمة بن قيس.، وعثمان النهدي وقيس بن عباد وأبي ساسان حصين بن المنذر وأبي وائل وأبي رجاء العطاردي. وكان سعيد بن جبير من هذه الطبقة بالذات، إذ أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر والسيدة عائشة في المدينة المنورة.

والوسطى: من كثرت روايتهم عن الصحابة وعن كبار التابعين مثل: الحسن البصري، ومحمد بن سيرين، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والشعبي ([1])، والزهري، وعطاء، وعمر بن عبد العزيز، وسالم بن عبد الله بن عمر.

والصغرى: من كان أكثر روايتهم عن التابعين، ولم يلتقوا إلا بالعدد القليل من الصحابة مثل: إبراهيم النخعي، وأبي الزناد، ويحيى بن سعيد، وشريح بن الحرث وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة.

وهناك من ذكر طبقة رابعة تسبق هذه الطبقات كلها، كما في قول القرطبي في تفسير سورة التوبة: "وفي التابعين طبقة تسمى بالمخضرمين، وهم الذين أدركوا الجاهلية وحياة رسول الله (ص) وأسلموا ولا صحبة لهم. واحدهم مخضرم بفتح الراء كأنه خضرم، أي قطع عن نظرائه الذين أدركوا الصحبة وغيرها. وذكرهم مسلم فبلغ بهم عشرين نفسا، منهم: أبو عمرو الشيباني, وسويد بن غفلة الكندي، وعمرو بن ميمون الأودي، وأبو عثمان النهدي، وعبد خير بن يزيد الخيراني بفتح الخاء بطن من همدان، وعبد الرحمن بن مل، وأبو الحلال العتكي ربيعة بن زرارة . وممن لم يذكره مسلم; منهم أبو مسلم الخولاني عبد الله بن ثوب، والأحنف بن قيس"([2]).

---

[1] هناك من عد الشعبي في الطبقة الصغرى.

[2] تفسير ابن كثير، سورة التوبة، الآيات ٩٧-١٠٠.

كذلك هناك من ذكر طبقة خامسة تلي طبقة المخضرمين اختلفوا بشأنها كثيرا، وقصدوا بهم الذين ولدوا في حياة رسول الله (ص) من أولاد الصحابة كعبد الله بن أبي طلحة وأبي إمامة سعد بن سهل بن حنيف وأبي إدريس الخولاني، فذكر بعضهم أن هؤلاء صحابة، وقال آخرون: إن عدم تحقق الرؤية لا يضعهم مع التابعين. وتشعب الاختلاف في طبقات التابعين حيث جعلهم مسلم ثلاث طبقات، وجعلهم ابن سعد أربع طبقات، وجعلهم الحاكم خمس عشرة طبقة.

فكريا لوحظ أن بعض، بل غالبية التابعين كانوا أكثر علما من كثير من الصحابة لأسباب كثيرة منها: كثرة المعلمين، تنوع مصادر المعلومة، الانفتاح المجتمعي، تنوع الرقعة الجغرافية والطبقات الإثنية، تطور الحالة الاقتصادية، وهي أمور لم تكن متاحة للصحابة.

خير الناس قرني

أما الحديث الثاني فقد فاق التخبط فيه ما وقع مع الحديث الأول ابتداءً من الاختلاف في تسمية الحقبة الزمنية الواردة فيه، وصولا على الاختلاف في عدد الحقب نفسها، من خلال تفسير بعض الآيات، والاحتكام إلى بعض الأحاديث. وعن الاختلاف في تسمية الحقبة ومدتها، ورد بداية تسميتها (الجيل)، والجيل هو مرحلة التعاقب الطبيعية من أب إلى ابن، ويعرّف تقليديا على أنه "متوسط المدة الزمنية بين ولادة الآباء وولادة أبنائهم." ومدة الجيل ٣٣ سنة.

إن الجيل هو مرحلة التعاقب الطبيعية من الأب إلى الابن، ويعرّف على إنه: "متوسط المدة الزمنية بين ولادة الآباء وولادة أبنائهم." ومدة الجيل المتعارف عليها ثلاثة وثلاثون عاما، والقرن ثلاثة أجيال.

والجيل لغة: الأُمّة. في مختار الصحاح: الجِيلُ الجِنسُ من الناس أي صنف: فالتُّرك جيل، والرُّوم جيل(١). والجِيلُ ثلث القرن يتعايش فيه الناس. والجيل: أهل الزمان الواحد. وفي

[1] مختار الصحاح، الرازي، ص٨٢.

المعجم الوسيط: الجيل: الأمة، والجنس من الناس، فالترك جيل والروم جيل، والقرن من الزمن، وثلث القرن يتعايش فيه الناس([1]).

وأبقى الزجاج مدة الجيل مفتوحة غير مقيدة بعدد سنين بعينها، فهو في نظره ينحصر في المدة التي يكون فيها نبي موجودا في أمته، أو في طبقة من أهل العلم دون الالتزام بمدة بعينها، فقال: "الذي عندي أن القرن أهل كل مدة كان فيها نبي أو طبقة من أهل العلم سواء قلت السنون أو كثرت".

ومع وجود هذه الآراء في الجيل ومدته، ورد حديث آخر يصف المدة الزمنية بالقرن، كما في حديث: "خير القرون قرني" أو "خير الناس قرني". ومع وجود من قال إن القرن هو الجيل لا فرق بينهما: "والقرن بفتح فسكون، الجيل من الناس، قيل ثمانون سنة، وقيل سبعون". نجد من يرى أن التسمية الأصح هي "القرن" وليس الجيل باعتبار أن القرن يساوي ثلاثة أجيال، وليس كما ورد في القول السابق، بمعنى أنهم عجزوا عن تحديد مدة القرن. وقال النووي في شرحه على مسلم: "القرن: هو من عشر سنوات إلى مئة وعشرين سنة" باعتبار أن جيل الصحابة امتد إلى قرابة مائة عام. وقال الحافظ المناوي في شرح الجامع الصغير للسيوطي: أهل (قرني) أي: عصري من الاقتران في الأمر الذي يجمعهم يعني أصحابي أو من رآني ومن كان حياً في عهدي ومدتهم من البعث نحو مئة وعشرين سنة. قال الزمخشري: "والقرن الأمة من الناس سميت قرناً لتقدمها على التي بعدها (ثم الذين يلونهم) أي يقربون منهم وهم التابعون وهم من مئة إلى تسعين (ثم الذين يلونهم) أتباع التابعين وهم إلى حدود العشرين ومائتين ثم ظهرت البدع". وقالوا: "والقرن: الجيل من الناس قيل ثمانون سنة وقيل سبعون. قال الزجاج: الذي عندي أن القرن أهل كل مدة كان فيها نبي أو طبقة من أهل العلم سواء قلت السنون أو كثرت".

وربما لهذا السبب وبعيدا عن درجة صحة وخطأ حديث (خير الناس قرني) ممكن أن نعتبره من الأحاديث الإستراتيجية المهمة والخطيرة نظرا لما تأسس، وبني عليه من مفاهيم

[1] المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ج١/ص ١٨٥.

ولدت من معناه وتفسيره، وتطورت إلى نظريات فقهية غاية في الخطورة والتعقيد لا زال الناس يتعبدون بها.

فقد بنيت على هذا الحديث حزمة مفاهيم كانت واحدة من موجبات الخلاف والاختلاف بين المسلمين، أهمها مفهوم نظرية عدالة الصحابة، ثم مفهوم نظرية الأمة المعصومة بمجموعها، بل حتى مفهوم سلطة الصحابة في الفهم والتنزيل والرواية والتأويل بني على إستراتيجية هذا الحديث. وللأوائل في ذلك أقوال جمة منها على سبيل المثال قول ابن حجر: "واستدل بهذه الأحاديث على تعديل أهل القرون الثلاثة وإن تفاوتت منازلهم في الفضل، وهذا محمول على الغالب الأكثر، فقد وجد بعد الصحابة من القرنين من وجدت فيه الصفات المذمومة، لكن بقلة، بخلاف من بعد القرون الثلاثة فإنه كثير" وقد استطرد ابن الحجر في حديثه وأورد بحثاً مطولاً كغيره عن الأفضلية التي تترتب على هذا الحديث بكل صيغه وصولا إلى محصلة مفادها أن جيل الصحابة هو أفضل الأجيال([1]). كذلك قال النووي في شرحه على مسلم: "المُكرَّم بتفضيل أمته زادها الله شرفاً على الأمم السابقين، وبكون أصحابه خير القرون الكائنين، وبأنهم كلهم مقطوع بعدالتهم عند من يعتد به من علماء المسلمين". ([2]) وقال أيضا: "اتفق العلماء على أن خير القرون قرنه (ص)، والمراد أصحابه، وقد قدمنا أن الصحيح الذي عليه الجمهور أن كل مسلم رأى النبي(ص) ولو ساعة فهو من أصحابه. ورواية خير الناس على عمومها والمراد منه جملة القرن"([3]) والشوكاني في نيل الأوطار ذهب إلى المعنى نفسه بقوله: "وحديث أبي هريرة أن خير القرون قرنه (ص)، وفي ذلك دليل على أنهم الخيار من هذه الأمة، وأنه لا أكثر خيراً منهم. وقد ذهب الجمهور إلى أن ذلك باعتبار كل فرد فرد. وقال ابن عبد البر: إن التفضيل إنما هو بالنسبة إلى مجموع الصحابة، فإنهم أفضل ممن بعدهم، لا كل فرد منهم. وقد

[1] ينظر: بداية المجلد السابع من فتح الباري حديث خير القرون.
[2] في مقدمة شرح صحيح مسلم، ج١/ص ٣.
[3] شرح النووي على صحيح مسلم، ج١٦/ص٨٤

أخرج الترمذي بإسناد قوي من حديث أنس مرفوعاً: "مَثَلُ أمتي مثلُ المطر، لا يدرى أوله خير أم آخره"([1]).

إن الأهمية الإستراتيجية لحديث خير القرون تتبين من الأقوال المتقدمة، إلا انه مع كل هذا الاهتمام الزائد لم ينج من الأخذ والرد، سواء من حيث الصيغ الكثيرة التي ورد فيها، والتي قالوا عن بعضها: إنها لا تصح، وقالوا عن البعض الآخر: إنها لا تليق بالنبي. بالرغم من كونه نسب إلى أكثر من اثني عشر صحابياً، منهم: أكثم بن جون، عمران بن حصين، بريدة بن الحصيب، النعمان بن بشير، أبي برزة الأسلمي، عمر بن الخطاب، سعد بن تميم، عائشة، ابن مسعود، جعدة بن هبيرة([2])، سمرة بن جندب، جميلة بنت أبي لهب، سعد أو بلال بن سعد، ورد عنهم بصيغ مختلفة، أورد جلال الدين السيوطي ([3])، بعضا منها:

- "خير القرون قرني"
- "خير الناس قرني ثم يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه - ويمينه شهادته - " متفق عليه.
- " خير الناس القرن الذي أنا فيه ، ثم الثاني ، ثم الثالث " رواه مسلم .
- " خير الناس قرني ثم الثاني ثم الثالث ، ثم يجيء قوم لا خير فيهم " رواه الطبراني .
- " خير الناس قرني الذين أنا فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذي يلونهم ، والآخرون أراذل " رواه الحاكم والطبراني .
- "خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي من بعدهم قوم يتسمنون ويحبون السمن، يُعطون الشهادة قبل أن يسألوها " رواه الترمذي والحاكم.

---

[1] موقع الشيخ علي الكوراني.
[2] جعدة بن هبيرة، مختلف في صحبته.
[3] الجامع الصغير من حديث البشير النذير، جلال الدين السيوطي، باب الخاء.

مع ملاحظة أن الحديثين الأخيرين يتعارضان كليا مع حديث آخر يتحدث عمن يأتون بعد الأجيال الأولى؛ فيفضلهم على كل القرون والأجيال وذلك لأنهم آمنوا ولم يرو، وجاهدوا بالرغم من كل المعوقات، بينما تؤكد بعض طرق الحديث على أن الأواخر (أراذل) و(يتسمنون ويُحبون السمن، يُعطون الشهادة قبل أن يُسألوها) و (يخونون ولا يُؤْتَمنونَ) و(يَنْذِرونَ ولا يفونَ) أما الجيل الرابع منهم فيصل إلى درجة من الانحطاط لدرجة (لا يَعْبَأُ اللهُ بِهِمْ شَيْئًا) وكأن الإسلام والإيمان جاء للقرون الثلاثة الأولى وحدها. فهذا طعن صريح بكل الأجيال التي تعاقبت بعد الأجيال الثلاثة وإلى يومنا بل وإلى يوم الدين.!ومن هذا المنحدر الخطير جاء الحديث الذي أخرجه الألباني لينص على أن آخر أمة محمد (صلى الله عليه وآله) (نهج أعوج ليسو مني ولست منهم) وهو الأمر الذي استوقفهم لأنه يتعارض مع وجود المهدي (عج) ونزول عيسى (ع) في آخر الأمة. ولكي يوجدوا حلا لهذا الإشكال، جاء من قال أن أول وآخر الأمة خير ولكن أوسطها (نهج أعوج ليس منك ولست منهم) والحديث أخرجه الألباني أيضا وسيمر عليكم.

اشتهر الحديث بلفظ: (خير أمتي قرني) رواه البخاري عن عمرانَ بنِ حُصَينٍ، قال: قال (ص): "خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم". قال عمران: فلا ادري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة، "ثم بعدكم قوما يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يفون، ويظهر فيهم السمن"([1]) وبلفظ (خير الناس قرني) عن عبد الله: "خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة احدهم يمينه ويمينه شهادته"([2]) وأورده ابن عساكر، بلفظ: (خير القرون قرني)([3]) و(خير الناس أمتي) كما أورده مسلم عن أبي هريرةَ قال: قال (ص): "خير أمتي القرنُ الذين بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم" والله اعلم أذكر الثالث أم لا، قال: "ثم يخلف قوم يحبون السمانة، يشهدون

[1] صحيح البخاري، طبعة دار الفكر بيروت بغداد، ١٩٨٦،كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبي، ج٢/ص ٢٨٧، ومثله في طبعة دار إحياء التراث العربي،٢٠٠١، ص ٦٤٨، حديث رقم ٣٦٥٠.

[2] صحيح البخاري، طبعة دار الفكر بيروت بغداد، ١٩٨٦، ج٢/ص ٢٨٨، ومثله في طبعة دار إحياء التراث العربي، ص ٦٤٨، حديث رقم ٣٦٥١.

[3] رواه كثيرون منهم أبو نعيم في حلية الأولياء برقم ٥٣٣٣.

قبل أن يستشهدوا"([1]) و(خير هذه الأمة) كما في مسلم عن عمران بن حصين: "خير هذه الأمة القرن الذين بعثت فيهم"([2]) علما أن الألباني ضعف حديث (خير القرون، أو خيركم قرني)([3]) والملحوظ أنه بالرغم من كثرة رواة الحديث أنهم اختلفوا في أمرين مهمين:

الأول: اختلافهم في مدة القرن أو الجيل، وقد سبق الحديث عن ذلك.

الثاني: اختلافهم في عدد القرون، فقالوا: هي ثلاثة قرون، كما في حديث:"قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم". وحديث: "القرن الذي أنا فيه، ثم الثاني، ثم الثالث" أو: " قرني ثم الثاني ثم الثالث". وقالوا أربعة: كما في حديث عمران بن حصين: "فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة، قال: ثم يتخلف من بعدهم خلف". والحديث سواء كان قد تحدث عن الجيل فإن مدة الأجيال الثلاثة تساوي مائة عام، وهذا يعني أن كامل حكم الأمويين داخل في المفاضلة، أو كان قد تحدث عن القرن، فإن مدة القرون الثلاثة تعني أن كامل حكم الأمويين وقرنين من حكم العباسيين داخلة في المفاضلة"

ومنه ندرك الغاية الرئيسية التي خلق هذا الحديث من أجلها، فهو جاء لتزكية أنظمة حكم ورجال مجتمع وسياسيين دون النظر إلى موضوع المفاضلة وحقيقتها. وقد فاتهم أن الحديث يبدو في منتهى التشاؤم، وفيه دلالة على الأفول المرتقب للإسلام، فهو يجزم بأن الدنيا والإسلام لن يكونا في سباق تصاعدي، وإنما سوف يستمران في التنازل والنزول من جيل إلى جيل، من الأحسن إلى الأسوأ، فالخير محصور في عصر البعثة أو في مدة القرن التي حددها المناوي والزجاج وغيرهم، ولكنه بالرغم من أفضليته ينطوي على مؤشر بداية الهبوط، فما دام هو الأفضل على الإطلاق فلابد وان يأتي الانحدار في القرن الذي

---

[1] صحيح مسلم، طبعة دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٠، ص ١٠٨٦، حديث ٢١٣/٢٥٣٤.

[2] المصدر نفسه، صحيح مسلم، حديث ٢١٥/٢٥٣٥.

[3] ينظر: صحيح وضعيف الجامع الصغير، محمد ناصر الدين الألباني، حديث ٢٨٩٨، وينظر: موسوعة العلامة محمد ناصر الدين الألباني التي أعدها شادي بن محمد بن سالم آل نعمان الذي نقل عن الألباني اعتراضه على الحديث بقوله: "خير القرون ليس له أصل في السنة، السنة الصحيحة في الصحيحين وغيرهما من مراجع الحديث والسنة مُطْبِقَة على رواية الحديث بلفظ: "خير الناس قرني".

يليه، ويأتي الانحدار الأكبر في القرن الذي يليهما، ثم يحل عصر الانحدار الكلي الذي تنتهي معه القيم التي جاء بها الإسلام في القرن الرابع، وربما الثالث حسب زعم أبي هريرة، كما في حديثه الذي مر علينا.

أسأل هذه الأسئلة بالرغم من يقيني أن الانحراف بدا منذ وقت متقدم من عمر الإسلام، وأنه وصل عام (٦١) للهجرة إلى مستوى متدن جدا.

فماذا يعني ذلك؟ هل يعني أن الإسلام الذي نتعامل به اليوم بعد أربعة عشر قرنا من البعثة، لا يمت إلى الإسلام الأول بصلة، أو أنه محرف تم تغيير قوانينه؟ وهل أن منحنى الانحدار خلال مروره بهذه المدة الزمنية الطويلة على مدى أربع عشرة قرنا قد وصل إلى مستواه السالب؟ وما علاقة هذه النتيجة بالحديث المهدوي القائل: "يقوم القائم بأمر جديد وكتاب جديد وبقضاء جديد" ولاسيما أن بعض العلماء فسروه بنفس المعنى الذي ذهبنا إليه،وفي جانب آخر ضعّف الكثير من العلماء هذا الحديث، بقولهم: "ليس لهذا الحديث سند معتبر بل فيه ضعف"([1]).

تأشير بوادر انحدار الأمة

هناك أكثر من إشارة إلى الانحدار المرتقب؛ ورد بعضها في أحاديث منسوبة إلى النبي (صلى الله عليه وآله) وسواء كانت هذه الأحاديث صحيحة أم ضعيفة، فإن مجرد وجودها في تراثنا يعني أن هناك تصورا عن الانحدار شبة يقيني. أخرج الألباني في الضعيف عن عبد الله بن السعدي: "خيار أمتي أولها، وآخرها نهج أعوج، ليسوا مني ولست منهم". وقال عنه: ضعيف([2]). وأرى أن هذا الحديث حتى لو صح ضعفه فإنه ينطوي على جزء من معنى أحاديث خير القرون. كما أورد حديثا عن عروة بن رويم، مرسلا: "خير هذه

[1] مركز الأبحاث العقائدية،http://www.aqaed.com/faq/١٧٥٣/ .
[2] ضعيف الجامع الصغير وزيادته، الألباني، حديث رقم ٢٨٦٧.

الأمة أولها، وآخرها، وأولها فيهم رسول الله، وآخرها فيهم عيسى بن مريم، وبين ذلك نهج أعوج، ليس منك ولست منهم" وضعفه الألباني([1]).

إن التأكيد على هذه الأحاديث جاء من جهة الفصيل السياسي الإسلامي وأتباعه من وعاظ السلاطين وليس من جانب الفقهاء الحقيقيين، والسبب وجود مجموعة أحاديث أخرى تُقْصِر الأفضلية على عصر البعثة في جانب، وتشير إلى بداية الانحراف في جانب آخر. عن أفضلية عصر البعثة اكتفي بحديث أخرجه ابن سعد في الطبقات عن سعيد، يعني المقبري، عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال: "بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه"([2]). وهو حديث يفضل قرن عصر البعثة على سواه من القرون، ليس لوجود فئة معينة من البشر فيه، وإنما لأنه قرن البعثة المشرفة. فضلا عن ذلك هناك حديث متواتر يتحدث عن تحول الحكم إلى كسروية وملك عضوض، وفيه إشارة إلى أن عصر الخلافة سينتهي بعقد الحسن بن علي (عليه السلام) الصلح مع معاوية، وهو أشهر من أن نثقل عليكم بإيراده وتكراره، ولكن نكتفي بحديث أورده ابن سعد في طبقاته كشاهد لا أكثر، ففي الحديث أن الصحابي والقائد الأموي الضحاك بن قيس جلس مع حبر باليمن، وأن الحبر أخبره بموت النبي (صلى الله عليه وآله) فما لبث أن جاءه كتاب أبي بكر يخبره بموت النبي ويطلب منه البيعة، فعاد الضحاك إلى الحبر، وكأنه أيقن من صدق نبوءاته، فسأله: وكيف نكون بعده (أي بعد موت النبي)؟ فقال: "تستدير رحاكم إلى خمس وثلاثين سنة". ما زاد يوما([3]).

نحن واقعا وعقلا لا نشك أن كثيرا ممن كانوا مع النبي هم من خير الأجيال وخير القرون، ولا نشك أن الكثير ممن تبعهم وأخذ عنهم وتعلم على أيديهم مشمولون بهذا الخير، وغير ذلك هناك من ضرب بحديثي طوبى وخير القرون عرض الحائط، لأنها لا تؤمن بالقواعد التي اشتقت من مضمونها، وقد قال أبو القاسم الكوفي: "وأما ما رووا "أن خير أمتي القرن الذي في عصري ثم الذين يلونه" فنقول وبالله التوفيق هذا مخالف للحقائق خارج عن العدل

[1] المصدر نفسه، ضعيف الجامع الصغير وزيادته، حديث رقم ٢٩٣٠.
[2] طبقات ابن سعد، ج١/ص ٢٥.
[3] ينظر طبقات ابن سعد، ج٤/ص٣٥٢، ترجمة الحارث بن عبد الله الجهني.

والحكمة... وذلك إنا وجدنا القرن الذي كانوا في عصر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والقرن الذي كانوا بعدهم والقرن الثالث ممن كانوا في عصر الفراعنة والطواغيت من ملوك بني أمية الذين كانوا يقتلون أهل البيت (عليهم السلام) ويسبون أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) ويلعنونه على المنابر وأهل عصرهم من فقهائهم وحكامهم إلى غير ذلك منهم، لهم متبعون وبأفعالهم مقتدون وبإمامتهم قائلون ولهم معينون بوجوه المعونة من حامل سلاح إلى حاكم خطيب إلى تاجر إلى غير ذلك من صنوف الأمة وأسباب المعونة"([1]).

أما تأكيد مدرسة فقهية على أهمية هذا الحديث بالرغم من عاصفة التعارض والاعتراض عليه فيؤكد أن المجتمع الإسلامي الأول تعرض إلى رجات قوية جدا، تلاعبت حتى في قواعد فقهه مما أدى إلى تفرق الأمة إلى فرق ومذاهب وملل، والافتراق حدث في وقت متقدم من عمر الدعوة، وبسببه وبسبب تأثيره، ولدت مثل هذه الأحاديث لتمجد فئة ما وفرقة ما، أو في اقل تقدير لتساوي بين المحسن والمسيء.

المهم أن في الحديث إشارة صريحة إلى أن الصحابة هم خير خلق الله أجمعين، وأن جيل التابعين الذي سيليهم يعد من أفضل الأجيال ولكن ليس بدرجتهم، هذه المفاضلة فتحت باب الاحتمال على مصراعيه أمام أبناء الجيل أنفسهم، ليتحدثوا عن التفاضل بشكل كيفي انتقائي. وفي جدل التفاضل نجد الإقصاء واضحا، والأسباب التي جاءت بأحاديث طوبى وخير القرون هي نفسها التي جاءت بالمفاضلة من أجل الإقصاء.

سعيد وأفضلية التابعين

واقعا أنا لا أدري ما الفائدة التي تترتب على حديث المرء عن نفسه في موضوع المفاضلة في عصر كان قريبا إلى القناعة الشعبية المتداولة التي تقول: "من مدح نفسه ذمها"، ولا أدري الأسباب التي تدفع البعض إلى تفضيل أهل جيل ما بعضهم على بعضهم بدرجة تصل إلى حد الكبر والعجب. فقد اختلف العلماء في تحديد أفضل التابعين على عدة أوجه، ولكن

[1] الاستغاثة في بدع الثلاثة، أبو القاسم الكوفي علي بن أحمد بن موسى، ج٢/ص ٨٠-٨١.

بعضهم أحجم عن عد سعيد بن جبير من الفضلاء، كما أحجم عن عده مع الفقهاء السبعة، وهذا يؤكد انه لم يكن مرضيا عنه عند البعض؛ ليس لأنه قليل علم وإنما لأسباب أخرى.

في معمعة التفاضل نجد مثلا قول ابن حبان عن سعيد بن المسيب: "سيد التابعين". وقول ابن المديني: "هو عندي أجل التابعين". وقول أبو حاتم الرازي: "ليس في التابعين أنبل منه". وقول أحمد بن حنبل: "أفضل التابعين سعيد بن المسيب; فقيل له : فعلقمة والأسود؟ فقال: سعيد بن المسيب وعلقمة والأسود". وعنه أيضا: "أفضل التابعين قيس وأبو عثمان وعلقمة ومسروق; هؤلاء كانوا فاضلين ومن عِلية التابعين". وعنه كذلك: "كان عطاء مفتي مكة، والحسن مفتي البصرة، فهذان أثر الناس عنهم; وأبهم. وروي عن أبي بكر بن أبي داود قال: سيدتا التابعين من النساء حفصة بنت سيرين وعمرة بنت عبد الرحمن، وثالثتهما - وليست كهما - أم الدرداء"([1]). وقيل أفضل التابعين أبي عثمان النهدي وقيس بن أبي حازم وعلقمة ومسروق هؤلاء كانوا فاضلين ومن علية التابعين. وقيل: "أهل كل بلد يفضلون ما عندهم، فأهل المدينة يقولون سعيد بن المسيب بن حزن، وأهل الكوفة يقولون أويس القرني، وأهل البصرة يقولون الحسن البصري. والصواب ما ذهب إليه أهل الكوفة من تفضيل أويس لما في مسلم من حديث عمر، قال سمعت رسول الله (ص) يقول: إن خير التابعين رجل يقال له أويس، فهذا الحديث لا ينبغي مع صحته نزاع وأما تفضيل أحمد وغيره لسعيد بن المسيب فلعله لم يبلغه الحديث أو لم يصح عنده أو أراد بالأفضلية الأفضلية في العلم لا الخيرية ونقل الخطابي عن بعض شيوخه أنه كان يفرق بين الأفضلية والخيرية"

ونجد في سير أعلام النبلاء أقوالا أخرى تُقدم عامر بن شراحيل الشعبي وهو الهارب من المختار فرقا([2]) على غيره، منها: عن سعيد بن عبد العزيز عن مكحول قال: "ما رأيت أحدا أعلم من الشعبي". أبو بكر بن عياش عن أبي حصين قال: "ما رأيت أحد قط كان أفقه

[1] تفسير القرطبي، الآيات ٩٧-١٠٠ من سورة التوبة.
[2] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص ٢٧١ ترجمة الشعبي.

من الشعبي. قلت: ولا شريح؟ فغضب، وقال: إن شريحا لم أنظر أمره"([1])، عن أبي مجلز قال: "ما رأيت أحدا أفقه من الشعبي لا سعيد بن المسيب ولا طاووس ولا عطاء ولا الحسن ولا ابن سيرين". عن عبد الملك بن عمير، قال: مر ابن عمر بالشعبي وهو يقرأ المغازي، فقال: "كأن هذا كان شاهدا معنا ولهو أحفظ لها مني وأعلم". أشعب بن سوار عن ابن سيرين قال: "قدمت الكوفة وللشعبي حلقة عظيمة والصحابة يومئذ كثير". ابن عيينة عن داود بن أبي هند، قال: "ما جالست أحدا أعلم من الشعبي"، وقال عاصم بن سليمان: "ما رأيت أحدا أعلم بحديث أهل الكوفة والبصرة والحجاز والآفاق من الشعبي". ومع ذلك نجد من ينظم المفاضلة إقليميا وزمانيا فيقول عن فلان إنه أفضل أهل إقليمه وزمانه وفلان أفضل أهل إقليمه وزمانه، وهكذا، قال ابن عيينة: "علماء الناس ثلاثة ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والثوري في زمانه"([2])

أما سبب التناقض في أقوال المفاضلة فهو أنهم كثيرا ما كانوا يتحدثون عن أنفسهم فيمدح أحدهم نفسه ويشيد بها، أو يتحدث كل منهم عمن يحب، وقد أورد الذهبي، عن عبد الله بن إدريس حدثنا عمي، قال لي الشعبي: أحدثك عن القوم كأنك شهدتهم، كان شريح أعلمهم بالقضاء وكان عبيدة يوازي شريحا في علم القضاء وأما علقمة فانتهى إلى علم عبد الله لم يجاوزه وأما مسروق فأخذ عن كل وكان الربيع بن خثيم أعلمهم علما وأورعهم ورعا([3])

ومن المؤكد والراجح عندي أن هذا التفاضل لم يكن اعتباطيا، وإنما جيء به لأسباب دون سواها. وهكذا يبدو الشعبي فقيها عملاقا في نظر البعض بينما، أورد أبو نعيم في الحلية اعترافا خطيرا على لسان الشعبي نفسه جاء فيه: "حدثنا أبو الجابية الفراء قال: قال الشعبي: إنا لسنا بالفقهاء ولكنا سمعنا الحديث فروياه، ولكن الفقهاء من إذا علم عمل". والظاهر أن التابعين كانوا منقسمين إلى طبقة قراء وطبقة إفتائيين، وكانت الأولى متخصصة بالقرآن وتفسيره والثانية متخصصة بالفقه، يؤكد ذلك بروز ظاهرة المجاميع السباعية. فهناك حديث كثير عن مجموعتين سباعيتين ظهرتا من بين صفوف التابعين،

---

[1] المصدر نفسه، ج٥/ص ٢٧٢.
[2] المصدر نفسه، ،ج٥/ص٢٧٣.
[3] سير أعلام النبلاء، ج٥/ص ٢٧٧ .

المجموعة السباعية الأولى هم (الفقهاء السبعة) من أهل المدينة المنورة الذين أسسوا هيئة مشتركة للإفتاء، قال ابن المبارك: وكانوا إذا جاءتهم المسألة دخلوا فيها جميعا فنظروا فيها ولا يقضي القاضي حتى ترفع إليهم فينظرون فيها فيصدرون. والفقهاء وإن كانوا بكثرة في التابعين فعند إطلاق هذا الوصف مع قيد العدد المعين لا ينصرف إلا إلى سبعة معروفين، قالوا:هم: خارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق وعروة بن الزبير بن العوام الأسدي وسليمان بن يسار الهلالي مولى ميمونة أو مكاتب أم سلمة وعبيد الله هو ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود وسعيد بن المسيب بن حزن القرشي المخزومي، وقد أشكل عليهم السابع ولم يتمكنوا من تحديد اسمه، فذكروا عدة أسماء، رجحوا بعضها على بعض، فهو إما أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، أو ابن المبارك سالم بن عبد الله، أو أبو بكر بن عبد الرحمن.

أما القراء أو الأئمة السبعة؛ فقد تجرد قوم من التابعين واعتنوا بضبط القراءة عناية تامة، وجعلوها علماً، كما فعلوا بعلوم الشريعة وصاروا أئمة يُقتدى بهم ويُرحل إليهم، واشتهر من بينهم سبعة أشخاص عرفوا بالقراء أو الأئمة السبعة؛ تنسب إليهم القراءات إلى اليوم. وهؤلاء هم: عبد الله بن كثير المكي، ونافع بن أبي نعيم المدني، وعبد الله بن عامر الشامي، وأبو عمرو بن العلاء البصري، وعاصم، وحمزة، والكسائي. والجالب للدهشة حقا أنك لا تجد اسم سعيد بن جبير ضمن أبرز مجموعتين في مجتمع القراء، فلا هو مع الفقهاء، ولا هو مع القراء، بالرغم من كونه أحد ابرز التابعين علما وتفسيرا.

تحريم الكتابة

بعد أن بدأت السُّنة الصحيحة تسبب الحرج للسياسيين، وجدوا من الضرورة بمكان أن يحجروا عليها بمنع التدوين من جانب، ومنع التحدث بها من جانب آخر، منع التحدث لكي لا تنتشر بين الناس فيسمعها من لا يريدون له ذلك، ومنع تدوينها لكي لا تبقى حجة تدينهم على مر التاريخ وتفضح مساوئهم، والظاهر أن بعض التابعين من أتباع الفصيل السياسي، أخذوا على عاتقهم إتمام العمل الذي بدأه الأولون فيما يخص الكتابة، ربما بتوجيه من

أساتذتهم، ولذا تجد في أكثر من مكان من كتب التاريخ والسير أقوالا منسوبة إلى التابعين بقسميهم الإقرائي والإفتائي يعيبون فيها كتابة العلم، ويعدون الكتابة من نواقص العلماء، مثلما يتضح مما نقله ابن سعد عن منصور، عن إبراهيم النخعي، قال: ما كتبت شيئا قط ([1])، وفي الطبقات أيضا، عن الحسن بن عمرو، عن فضيل، قال: قلت لإبراهيم إني أجيئك وقد جمعت مسائل فكأنما تخلسها الله مني، وأراك تكره الكتاب. فقال: إنه قل ما كتب إنسان كتابا إلا اتكل عليه، وقل ما طلب إنسان علما إلا آتاه الله منه ما يكفيه([2]) ولكنه عاد بعد حيث ليأسف بشدة على ما فرط فيه بسبب عدم الكتابة، فقال: "لأن أكون كتبت أحب إلي من كذا وكذا"([3]).

غير هذا تجد الذين علموهم ودربوهم كانوا يحثونهم على تجنب الكتابة وكأنها تتناقض مع تحصيل العلم، والظاهر أن ذلك كان بسبب أمية بعض الكبار منهم ممن كانوا لا يجيدون القراءة والكتابة ويخشون أن ينفضح أمرهم، وأنت إذا بحثت في سيرة الشعبي مثلا وهو الذي يفضلونه على جميع التابعين تجده رجلا أميا لا يجيد القراءة والكتابة؛ ولهذا السبب كان يعتمد على ذاكرته في الحفظ بسبب هذا العيب، لكن المداحين اعتبروا امتناع الشعبي ومن هم على شاكلته عن الكتابة مفخرة، مع أن المعنيين كانوا يموهون بأقوالهم عن واقعهم، وهذا يتضح من قول للشعبي، عن ابن شبرمة، سمعت الشعبي، يقول: "ما كتبت سوداء في بيضاء إلى يومي هذا، ولا حدثني رجل بحديث قط إلا حفظته، ولا أحببت أن يعيده علي"([4])، قال هذا وكأنه كان يجيد الكتابة والقراءة، وهو تمويه قال عنه الذهبي: "فكأن الشعبي يخاطبك به، وهذا يدل على أنه أمي لا كتب ولا قرأ"([5]). والغريب أن الشعبي نفسه كان يأمر الآخرين بالكتابة بالرغم من رفضه لها والفخر بالابتعاد عنها، عن الحسن بن عقبة، عن الشعبي، قال: "اكتبوا ما سمعتم مني ولو في الجدار"([6]).

---

[1] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص ٢٧٠.
[2] المصدر نفسه، ج ٦/ص ٢٧١.
[3] المصدر نفسه، ج٦/ص ٢٧٠، ترجمة إبراهيم.
[4] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص٢٧٤.
[5] المصدر نفسه.
[6] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص٢٥٠.

ومثل الشعبي في الأمر والنهي، أي الكتابة ومنعا، كان ابن سيرين يفخر أنه وأبوه وجده كانوا يرفضون كتابة الحديث، عن بكار بن محمد، عن ابن عون، قال: قال محمد بن سيرين: إياكم والكتب فإنما تاه من كان قبلكم، أو قال: ضل من كان قبلكم؛ بالكتب، قال بكار: ولم يكن لجدي ولا لأبي ولا لابن عون كتاب فيه تمام حديث واحد([1])، لكنك سرعان ما تجد بين أصحابه من يفضح مخالفته للمنع ولو بشكل جزئي، أي كأن يكون يكتب ثم يمحو،عن يحيى بن عتيق أن محمد بن سيرين كان لا يرى بأسا أن يكتب الحديث، فإذا حفظه محاه([2]).

والأكثر نكاية من ذلك أنهم كانوا يتحدثون أن الصحابة كانوا يكرهون الكتابة ويمنعون طلابهم من ممارستها، فكرهوا الكتابة سيرا على هديهم وتبعا لهم.! وقد تردد اسم سعيد بن جبير في منظومة المنع، ربما لكي تضيع الحقيقة في الركام غير المتجانس، وهي على مراحل:

الأولى: محاولتهم ربط فكرة امتناع الصحابة عن الكتابة بسعيد وحده، أو تضخيمها في سيرته أكثر من غيره، ولهم فيها روايات، منها رواية عن الحسن بن مسلم، عن سعيد بن جبير: انه كان يُسائل ابن عباس، قبل أن يعمى، فلم يستطع أن يكتب معه، فلما عمي ابن عباس كتب، فبلغه ذلك فغضب.([3]) بمعنى أن ابن عباس هو الذي كان يمنعه عن الكتابة، وهذا شيء غريب. فلما عمي ابن عباس بدأ يكتب على راحته إلى أن بلغ ذلك ابن عباس فغضب عليه.

وفي رواية أخرى، عن عبد الله بن عمر هذه المرة، قالوا فيها: إنه كان لا يرضى أن يكتبوا عنه شيئا، والرواية عن شعبة، عن أيوب، عن سعيد بن جبير أيضاً، قال: "كنت أسأل ابن عمر في صحيفة، ولو علم بها كانت الفيصل بيني وبينه"([4]).

إلى هنا يبدو وكأن الصحابة كانوا يمنعون طلابهم من الكتابة، لكن يتعضح من روايات أخرى أن التابعين هم الذين كانوا يكرهون الكتابة عن الصحابة، وأن سعيدا كان مثلهم يكره

---

[1] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٧/ص ١٩٤.
[2] المصدر نفسه.
[3] المصدر نفسه، ج٦/ص ٢٥٧.
[4] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص ٢٥٨، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص ٢٩٧.

الكتابة، جاء عن عبد الله بن مسلم بن هرمز، قال: "كان سعيد بن جبير يكره كتابة الحديث"([1]) ولا أدري هل قصد ناقل الخبر أن سعيدا كان يكره الكتابة ويعتمد الحفظ مستعينا بملكته، أم انه تمثلا بالصحابة كان يكره أن يكتب طلابه درسه الذي يلقيه عليهم؟.

لكن مع هذا وذاك نجد روايات أخرى تبدو في غاية الموضوعية تتحدث عن قيام سعيد بكتابة محاضرات أساتذته، ومنهم ابن عباس، دونما اعتراض، والرواية عن يعقوب، عن جعفر، عن سعيد، قال: "كنت آتي ابن عباس فأكتب عنه"([2]) فأين ذهب المنع والكراهة؟ بل وجدت رواية تدل على المبالغة في الكتابة لدرجة أن الكاتب بسبب قلة القرطاس كان يكتب على راحتيه ويكتب على نعاله وعلى كل ما يتاح له، والغريب أن هذا الكاتب هو سعيد نفسه، الذي قالوا: إنه كان يكره الكتابة، والرواية جاءت على لسانه أيضا، وأنا لن أناقش موضوع كتابة السنن على النعال بكل ما يمثله ذلك من استهانة بالسنة النبوية؛ ولكن أورد الرواية للتأكيد على أن الكتابة لم تكن ممنوعة كما يزعمون، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، قال: "ربما أتيت ابن عباس فكتبت في صحيفتي حتى أملأها، وكتبت في نعلي حتى أملأها، وكتبت في كفي، وربما أتيته فلم أكتب حديثا حتى أرجع، لا يسأله أحد عن شيء"([3]) فالرواية لا تتحدث عن وقت محدد وليس فيها إشارة إلى عمى ابن عباس مثلا لنقول إنه كان يكتب فلا يشاهده ابن عباس ليمنعه أو ليغضب عليه. وقد جاءت هذه الرواية لتؤكد روايات أخرى وردت على لسان سعيد وعلاقته بابن عباس، تؤكد جميعها أن سعيدا ما كان يسأل فيجاب، وإنما كان يجلس مستمعا لما يقال، فيكتبه أو يحفظه، حدثنا أبو حصين، قال: "سألت سعيد بن جبير، قلت: أكل ما أسمعك تحدث سألت ابن عباس عنه؟ فقال: لا، كنت أجلس ولا أتكلم حتى أقوم، فيتحدثون فأحفظ"([4]). وحتى قبالة هذه الرواية، جاءوا برواية أخرى تنفي أن يكون سعيد مجرد مستمع يكتب ما يقال،

---

[1] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص ٢٥٨.
[2] المصدر نفسه، ج٦/ص ٢٥٧.
[3] المصدر نفسه، ج٦/ص٢٥٧، ترجمة سعيد.
[4] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص ٢٥٧.

وتؤكد أنه كان يُسائل ويُحاور ابن عباس، عن الحسن بن مسلم، عن سعيد بن جبير "أنه كان يسائل ابن عباس قبل أن يعمى"([1]).

إن الهدف من وراء هذا الصخب وهذه الفوضى هو إرباك الاستقرار الواضح الطاغي على سيرة سعيد من جانب، وتمرير دفوعات عن أشخاص اعترضوا على الكتابة دون وجه حق؛ بما يبدو وكأنه سياج سقط بالكامل ما إن اصطدمت به الحقيقة. فامتناعهم عن كتابة السنن وتباهيهم بذلك الفعل ـ بعيدا عن تأثيرات نظرية المؤامرة ـ لم يكن بسبب جهلهم الكتابة مثلا، وحتى لو كان بينهم من لا يجيد الكتابة مثل الشعبي، كان هناك آخرون يجيدونها ويحسنونها؛ فلماذا لا يكتبون؟ ولاسيما وأنهم قرأوا قول رسول الله (صلى الله عليه وآله): "اكتبوا هذا العلم فإنّكم تنتفعون به، إمّا في دنياكم وإمّا في آخرتكم، وإنّ العلم لا يضيع صاحبه"([2]).

المفرح أننا بالرغم من كل الفوضى، لا نعدم وسيلة للحصول على دلائل صادقة تؤكد أن هناك بينهم من كان يجيد الكتابة، ولكنه كان يكرهها ليس لأنها محرمة ولكن لغايات في النفوس، فعن معمّر، عن الزهريّ، أنّه قال: "كنا نكره كتابة العلم، حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء، فرأينا أن لا نمنعه أحداً من المسلمين"([3])، وفي قول آخر: "استكتبني الملوك فأكتتبتهم ، فاستحيت الله إذ كتبتها للملوك ولا أكتبها لغيرهم"، وفي ثالث: عن أبي المليح، أنه قال: "كنا لا نطمع أن نكتب عند الزهريّ حتى أكره هشام [بن عبد الملك] الزهري، فكتب لبنيه، فكتب الناس الحديث" ([4]) فلماذا يكره الزهري الكتابة؟ ولماذا يرضخ لطلب الخليفة ويخالف العقيدة لو كان منع الكتابة قد صدر عن النبي (صلى الله عليه وآله) مثلا؟

إن ما يؤكد أن الامتناع عن الكتابة كان تقليدا لبعض الرموز أو دفاعا عنهم لأنهم كانوا لا يجيدون القراءة والكتابة، وليس بسبب منع نبوي أن المدارس الإسلامية تكاد تتفق على أن النبي أباح لهم كتابة السنن والقرآن، ولكن قيام بعض الرموز بالتعامل مع المكتوب من

---

[1] المصدر نفسه.
[2] كنز العمال، المتقي الهندي، ج ١٠/ص ٢٦٢، حديث رقم ٢٩٣٨٩.
[3] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج ٢/ص ٣٨٩.
[4] حلية الأولياء، أبو نعيم، ج ٣/ص ٣٦٣.

السنة بنوع من الحدية المفرطة دفع المتأخرين إلى تقليد الأوائل، وقد جاء عنهم: "مع ما روي عن النبي (ص) من إباحة للكتابة، ومع ما كُتب في عهده من الأحاديث على يدي من سُمح لهم بالكتابة، نرى الصحابة يحجمون عن الكتابة ولا يقدمون عليها في عهد الخلافة الراشدة حرصاً منهم على سلامة القرآن الكريم والسنة الشريفة، فنجد بينهم (رضوان الله عليهم) من كره كتابة السنة، ومن أباحها، ثم ما لبث الأمر أن كثر المجيزون للكتابة، بل روي عن بعض من كره الكتابة أولاً إباحته لها آخراً، وذلك حين زالت علة الكراهة. وفي هذا الصدد روى الحاكم بسنده، عن القاسم بن محمد، عن أم المؤمنين عائشة (رض)، قالت: جمع أبي الحديث عن رسول الله (ص)، وكان خمسمائة حديث، فبات ليلة يتقلب كثيراً... فلما أصبح قال: "أي بنية، هلمي الأحاديث التي عندك، فجئته بها، فدعا بنار فحرقها".

وهذا الخليفة عمر بن الخطاب يفكر في جمع السنة، ثم لا يلبث أن يعدل: عن عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن فاستفتى أصحاب النبي (ص) في ذلك، فأشاروا عليه بأن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله فيها شهراً، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له، فقال: إني كنت أريد أن أكتب السنن، وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً. وفي رواية عن مالك بن أنس أن عمر قال عندما عدل عن كتابة السنة: "لا كتاب مع كتاب الله". وكان خوف عمر من إقدامه على كتابة السنة أن ينكب المسلمون على دراسة غير القرآن ويهملوا كتاب الله عز وجل، ولذلك نراه منع الناس من أن يتخذوا كتاباً مع كتاب الله"([1]). وكم هو غريب أن تجد الذين ينسبون إلى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ما تقدم من قول، يوردون أحاديث أخرى على خلاف ما تقدم، ومنها قول جاء فيه: "ونرى عمر نفسه حين يأمن حفظ القرآن، يكتب بشيء من السنة إلى بعض عماله وأصحابه، عن أبي عثمان النهدي، قال: "كنا مع عتبة بن فرقد، فكتب إليه عمر بأشياء يحدثه عن النبي (ص)، فكان فيما كتب إليه: أن رسول الله (ص) قال: لا يلبس الحرير في الدنيا إلا من ليس له في الآخرة منه شيء إلا

[1] موقع دار الحديث الالكتروني، الرابط
http://www.mybawaba.com/islam/dar_alhadieth/details.asp@id=500.htm

هكذا، وقال بإصبعيه السبابة والوسطى. قال أبو عثمان: فرأيت أنها أزرار الطيالسة حين رأينا الطيالسة"([1]). أما الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب فقد أوصى أتباعه بوجوب كتابة العلم، وله في ذلك عشرات الروايات، منها: أنه قال: "الكتب بساتين العلماء"([2]) وعنه (عليه السلام): "إذا كتبتم الحديث، فاكتبوه بإسناده، فإن يك حقاً كنتم شركاء في الأجر، وإن يك باطلا كان وزره عليه([3])، وعنه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): "اكتبوا هذا العلم فإنّكم تنتفعون به أمّا في دنياكم وأمّا في آخرتكم، وإنّ العلم لا يضيع صاحبه"([4]). وهذا الحسن بن علي (رض) يقول لبنيه وبني أخيه: "تعلموا تعلموا، فإنكم صغار قوم اليوم، تكونون كبارهم غداً، فمن لم يحفظ منكم فليكتب، وفي رواية: فليكتبه وليضعه في بيته"([5]). ولذا اعتقد أن التقليد والانقياد والتأثر بما فعله بعض الرموز من قبل هو الذي دفع بعض التابعين إلى الامتناع عن الكتابة. فماذا تولد نتيجة هذا الغرور؟ ضاع الكثير من الحديث والسنة باعترافهم، فقد أخرج يعقوب بن سفيان الفسوي في تاريخه (المعرفة والتاريخ): حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا ابن شبرمة، سمعت الشعبي، يقول: "ما سمعت منذ عشرين سنة رجلا يحدث بحديث إلا أنا أعلم به منه، ولقد نسيت من العلم ما لو حفظه رجل لكان به عالما"([6]).

إلى الآن تكاد صورة سعيد أن تكون غير واضحة الملامح، ولكن ما تقدم يثبت أن المرء لا يمكن أن يثبت نفسه في مثل تلك المجتمعات بيسر وأنه يحتاج إلى أنواع مختلفة من الأسلحة يستخدمها كل في مكانه من أجل أن يحقق رغباته. فضلا عن ذلك تبدو صور الأحداث والوقائع متداخلة جدا، وتكاد لا تجد حدودا واضحة للكيانات والتجمعات، فالجميع كانوا يبدون مجتمعا متنوعا ليس أكثر، حيث ينعدم وضوح صورة الهوية الضيقة بسبب إشعاع الهوية الكبرى. من هنا كانت الآراء تختلف في الشخص الواحد إلى درجة التناقض!

---

[1] المصدر نفسه، موقع دار الحديث.
[2] مسند الإمام علي (عليه السلام)، السيد حسن القبانچي، ج١/ص٧٤ وما بعدها، الباب ٩.
[3] المصدر نفسه.
[4] المصدر نفسه.
[5] نور الأبصار، الشبلنجي، ص ١٢٢.
[6] المعرفة والتاريخ، أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي.

الفصل الخامس

كماشة الفوضى

تباين الحديث عن سعيد

يعجب المرء من كثرة تداخل الحديث عن سيرة وحياة سعيد بن جبير وتنافره وتعارضه بشكل يختلف عنه مع باقي التابعين، ربما لأن تاريخنا بشكل عام يتداخل مع بعضه بشكل تظهر فيه الصلة بين الماضي والحاضر قوية بشكل لا يصدق، ففي الوقت الذي تجد فيه من يمتدح سعيدا ويترضى عنه ويوثقه في كتب المدرستين الإسلاميتين بما يصل أحيانا إلى درجة المبالغة غير المعقولة، تجد في أحيان أخرى من يطعن به طعنا غير مبرر يصل إلى حد التسافل والتدليس. ومنشأ هذا التباين أن سعيدا كان رجلا من طراز خاص، عادلا مطيعا متعاونا عالما ورعا تقيا متسامحا، ولاسيما فيما يخص العقيدة والتدين، فهو لا يمتنع عن الوقوف إلى جنب عبد الملك بن مروان أو الحجاج بن يوسف الثقفي أو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ما دام في وقوفه ذاك خدمة للإسلام وأهله. فضلا عن ذلك كان العصر الذي عاش فيه سعيد عصر تواءم بين العامة فلم تكن هناك مشاكل طائفية على مستوى الشارع أو بين الأفراد، نعم كانت هناك مشاكل عقائدية واختلاف وخلاف في الأحكام والرؤى والتفسير والحديث وغيرها، ولكن ذلك الخلاف كان محصورا بين النخبة من السياسيين والإفتائيين، ولم يصل إلى العامة، ولاسيما في الأمصار البعيدة عن العاصمة الأموية، ومع أن بوادر الخلاف الإسلامي/ الإسلامي الحقيقية وليس الشكلية كانت قد بدأت في المجتمع الإسلامي الأول حتى قبل موت النبي (صلى الله عليه وآله)، إلا أن ذلك الخلاف لم يتحول إلى نزاع شعبي جماهيري يمارسه أبناء الأمة فيما بينهم، وإنما بقي محصورا بين النخبة من السياسيين من جانب والدينيين من جانب آخر، وبلغ أشده أثناء حكم الخليفة عثمان بن عفان(رض) وأمتد إلى أيام حكومة الإمام علي (عليه السلام) حيث تشعب وأخذ طابعه السياسي البحت، ومدة خلافة الإمام الحسن (عليه السلام) ولكن حينما بويع لمعاوية، حوَّل الخلاف من خلاف قمم إلى خلاف قمع، طال الجماهير، وأشركهم في المحنة، وأدي الخلاف فيما بعد إلى قتل الإمام الحسين (عليه السلام) في كربلاء، وقتل أولاد الزبير واستباحة المدينة ورمي بيت الله بالمنجنيق والنار، وأمتد على طول مساحة القرن الهجري الأول كله. ومن خلال تحوله من حيزه النخبوي الضيق إلى

حيز التداول الجماهيري بين أيدي العامة، تحول الناس أنفسهم إلى رواد خلاف ودعاة فرقة حتى من دون أن يعوا أسباب ذلك. لكن الملحوظ أنه في كل تلك المراحل لم يكن لعامة الناس رأيا مسموعا، وإنما كانوا قطعانا يساقون بدون إرادتهم لتنفيذ أوامر المتسلطين، حتى دون أن يلتفتوا إلى تطابقها أو تنافرها مع العقيدة التي يؤمنون بها. أما ما كان يبدو وكأنه حراك شعبي مثل التحاق القراء بحركة ابن الأشعث وغيرها من الأحداث التي تحرك فيها العامة دون أن يساقوا إليها سوقا، فهو لم يكن موقفا مبدئيا عقائديا يدلل على إرادة ووعي الأمة بقدر كونه وليد واقع مضطرب كانت تعيشه الأمة المسلمة المغلوبة على أمرها بما يبدو وكأنه رد فعل غاضب على فعل مستهجن.

الكوفة والحدث المرتقب

في خضم هذا التناقض الغريب كتب لسعيد بن جبير أن يولد ويعيش ويموت في هذا القرن المضطرب، وفي مكان جغرافي فريد النشأة هو الكوفة التي كان مقدرا لها أن توضع في أتون الاضطراب، لأنها تمثل مركز الإشعاع الفكري الشيعي، وبؤرة التسامي الإسلامي، ومركز المعارضة للقرار السياسي الأموي المجحف. وكان ذلك سببا في استشهاد سعيد على يد الطغاة، وسببا في تعارض روايات المؤرخين في سيرته؛ التي لم تخل من شد ودفع وتقريب وإبعاد. أما سبب الاضطراب الخاص بسعيد والذي هو جزء من الاضطراب العام، فيعود إلى المواقف التي أبداها سعيد سواء كانت مواقف عقائدية أم جهادية، وهي بالعموم مواقف طالما تسببت في إزعاج الحكام والولاة، الذين رأوا فيها تحديا وحراكا عدوانيا يهدد مصالحهم السياسية.

وعن الموقع الجغرافي للكوفة جاء في مراصد الإطلاع: الكوفة: المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق، سميت الكوفة لاستدارتها أو لاجتماع الناس بها. وقيل سميت كوفة بموضعها من الأرض، وذلك أن كل رملة يخالطها حصى سُمي كوفة، وقيل غير ذلك ... أما كوفان فموضعان: أحدهما اسم الكوفة، والآخر قرية بهراة"([1]).

[1] مراصد الإطلاع، البغدادي، م٣/ص ١١٨٧.

والكوفة مجتمعيا مثل أي مدينة إسلامية أخرى، كانت تضم خليطا هجينا من الأجناس والأفكار والتوجهات والرؤى والمعتقدات والسلوكيات والولاءات، ولكنها كانت موطن محبة علي وموئل شعيته المخلصين فضلا عن الباقين بما فيهم التابعين المنحرفين عن نهجه والمبغضين له، وقد كان تعامل الحجاج مع أهلها مبنيا على هذه الاختلاف، فمن يشايع علي مغضوب عليه، ومن يؤيد الأمويين كان مقربا ومحبوبا ومرضيا عنه، ومن يجلس على الحياد ولا غرض له بما يدور فيها مشكوك فيه. وقد توضح هذا المنهج بشكل لا يقبل اللبس في تعامل الحجاج مع الذين اشتركوا بثورة عبد الرحمن بن الأشعث وكما سيتبين لاحقا.

حينما حط علي (عليه السلام) رحاله فيها وجعلها عاصمة لدولة الإسلام خفت القبائل والرجال إليها من كل حدب وصوب، رجال فيهم من جاء حبا بعلي أو طلبا للعلم أو بحثا عن الثراء أو للمشاغبة والتخريب، وفيهم من لبث فيها مدة ثم شد الرحال إلى غيرهم أو استقر وتأهل فيها. وبعد أن غادرها الإمام الحسن (عليه السلام) قافلا إلى مدينة جده بعد صلحه مع معاوية، خف ألقها وبهت لونها ولكنها ما فقدت شيئا من كبريائها وطبائعها وثوابتها، فقط مجتمعها تفكك، وظهرت إلى السطح ما بين مكوناته من خلافات عقدية ولاسيما بعد أن تخلى المخالفون عن خوفهم وقويت شكيمتهم. ومن هذا المجتمع ظهرت شخصيات كبيرة علما ومركزا وذكرا، بعضها عن جدارة واستحقاق، والآخر أسبغه عليه الحكام الذين طبل وزمر لهم وأصبح من وعاظهم، فردوا له الجميل بأن رفعوه مكانا لم يصله إلا العلماء. ومن يبحث في بطون كتب الطبقات والسير يجد كما كبيرا من الأسماء التي تركت بصمتها واضحة على صفحات تاريخنا تنتسب إلى الكوفة، فضلا عن انتسابها لعشيرتها، فيقال: أبو معمر عبد الله بن سخبرة الأزدي الكوفي، شريح بن هانيء أبو المقدام الحارثي المذحجي الكوفي، الحارث بن قيس الجعفي الكوفي، مرة بن شراحيل الهمداني الكوفي،سويد بن غفلة الجعفي الكوفي، مسروق بن الأجدع الوادعي الهمداني الكوفي،الأسود بن يزيد النخعي الكوفي، عبيدة بن عمرو المرادي الكوفي،زيد بن صوحان العبدي الكوفي، عمرو بن سلمة الهمداني الكوفي،طارق بن شهاب البجلي الكوفي، عبد الله

بن شداد الكوفي، المعرور بن سويد الأسدي الكوفي، ابو الشعثاء المحاربي الكوفي، سعيد بن وهب الهمداني الكوفي، أعشى همدان الهمداني الكوفي،عبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصاري الكوفي. وهكذا تستمر الأسماء تتوالى بلا انقطاع ولا إحصاء، كلها لأعلام بعضهم كبير بحق، والآخر خُلق له مكان مع الكبار وأجلسوه فيه، ولكنهم عموما يختلفون بمجموعهم عن عامة الناس، ويكاد عدد التابعين من القراء والفقهاء الكوفيين في الطبقتين الأولى والثانية وحتى الطبقات المتقدمة الأخرى أن يكون أضعاف عدد مجموعة مدن أخرى. ومن بين هؤلاء التابعين العظماء كان سعيد بن جبير (رحمه الله)

نبذة من سيرة سعيد

قالوا في نسبه: هو سعيد بن جبير بن هشام، ينسب إلى بني والبة من بني أسد نسبة ولاء، فهو مولى لهم.([1]) ووالده هو ابن الحارث بن ثعلبة بن داودان بطن من بني أسد. سعيد كوفي ([2]) حبشي الأصل أسود اللون من الموالي. قال الذهبي: "أبو محمد، ويقال: أبو عبد الله" ([3]) وقال ابن كثير في الكامل: "أبو محمد، ويقال: أبو عبد الله، ويقال أبو عبد الملك" ([4]).

ولد سعيد عام ٤٥ أو ٤٦ هجرية في زمن إمامة الحسن بن علي (عليهما السلام) وبعد الصلح مع معاوية ([5]) ولا ادري كيف خفي ذلك على الذهبي ليقول في سير أعلام النبلاء: " وعلى هذا يكون مولده في خلافة أبي الحسن عليّ بن أبي طالب (رض)"([6])، ولاسيما أن المؤرخين وكتاب السير اختلفوا في سنة وفاته، وفي مدة عمره يوم مات شهيدا، فقال

[1] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج ٦/ص. ٢٥٦، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص ٢٨٧.
[2] سير أعلام النبلاء، الذهبي،ج٥/ص ٢٨٧.
[3] المصدر نفسه، ج٥/ص ٢٨٧.
[4] البداية والنهاية، ابن كثير، ج٤/ص ١٣١.
[5] تهذيب الأسماء واللغات، ج ١/ط ١، ص ٢١٦.
[6] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص٣٠١.

بعضهم إنه قتل سنة ٩٥ هجرية عن (٤٥) عاما، وقال بعضهم قتل سنة٩٤هجرية وله من العمر (٤٩) سنة كما في الطبقات.([1])

وقيل: قتل عام ٩٢ هجرية، كما في قول انفرد به السيوطي، قال: "قتله الحجاج في شعبان سنة اثنتين وتسعين وهو ابن تسع وأربعين سنة".([2]) وحتى لو اعتمدنا قول السيوطي على غرابته فذلك معناه أنه ولد عام ٤٣ هجرية أي بعد استشهاد الإمام علي (عليه السلام) بثلاث سنين. أما سبب توهم الذهبي فلأنه قال: "وكان قتله في شعبان سنة خمس وتسعين"([3]) ثم اعتمد رواية أخرجها، عن عمر بن سعيد بن أبي حسين، قال: دعا سعيد بن جبير حين دعي للقتل ، فجعل ابنه يبكي، فقال:ما يبكيك؟ ما بقاء أبيك بعد سبع وخمسين سنة؟"([4]).

ولما كان قد قدم لهذا القول، بقوله: وكان قتله في شعبان سنة خمس وتسعين، استنتج انه ولد في عصر خلافة الإمام علي، فقال: "فعلى هذا يكون مولده في خلافة أبي الحسن علي (عليه السلام). بمعنى أن سعيدا ولد عام (٣٨) للهجرة وهذا مخالف للأقوال الأخرى، ولاسيما قول ابن كثير في البداية والنهاية: "واختلفوا في عمر سعيد بن جبير (رحمه الله) حين قتل، فقيل: تسعا وأربعين، وقيل: سبعا وخمسين"([5]).

وما يثبت لنا عدم ولادته في زمن خلافة علي (عليه السلام) أي في عام ٣٨ هجرية هو عدم اشتراكه في ثورة الإمام الحسين لأن عمره حسب هذا القول كان حينها اثنان وعشرون عاما، فكيف يتخلف عن نصرة الحسين وهو من شيعته؟

ولد سعيد بالكوفة، وتوفي والده مبكرا، ولذا لم يذكرونه، إلا ما ندر. وفي الكوفة نشأ وتلقى تعليمه الأول، في مسجدها الذي كان يعجّ بطلاب العلم والباحثين عن المعرفة؛ يوم كانت الكوفة حاضرة العالم الإسلامي. ثم قام بزيارات إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة؛ وفيهما تتلمذ زمنا على يد عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وجماعة من الصحابة، قال ابن

---

[1] ينظر: ج٦/ص ٢٦٦.
[2] طبقات الحفاظ، جلال الدين السيوطي، ج١/ص٣٨.
[3] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص ٣٠١.
[4] المصدر نفسه، ج٥/ص ٢٩٥.
[5] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥،ج٩/ص١٢٠.

كثير: " وقد رأى خلقاً من الصحابة وروى عن جماعة منهم من الصحابة أما من روى عنه فكثر منهم ابناه عبد الله وعبد الملك والأعمش والمنهال بن عمرو"([1]) لاحظ أن ابن كثير ذكر اسم عبد الملك بدلا من محمد الابن الأكبر لسعيد الذي يكنى به. وقد وجدت ابن سعد يخرج في الطبقات رواية عن عبد الملك بالرغم من أنه لم يذكره مع أولاد سعيد، والرواية عن الفضل بن دكين، عن حُميد بن عبد الله الأصم، قال: سمعت عبد الملك بن سعيد بن جبير، قال: قال أبي: أظهر اليأس مما في أيدي الناس فإنه عناء، وإياك وما يعتذر منه فإنه لا يُعتذر عن خير"([2]). وهي رواية يتيمة لأني لم أجد اسم عبد الملك ولا ترجمته لا في الطبقات ولا في حلية الأولياء، مما يعني أن هناك توهما قد يكون غير مقصود وقد تكون الغاية منه تشويه سيرة سعيد باعتبار أنه كان يحب عبد الملك بن مروان ويحترمه، فسمى أحد أولاده على اسمه.!

كان سعيد على اتصال بوجوه المجتمع الكوفي، ففي العقد الفريد: "كان المغيرة بن شعبة كاتبا لأبي موسى الأشعري، وكان سعيد بن جبير كاتبا لعبد الله بن عتبة بن مسعود"([3]) وموضوع الكتابة ليس مجرد وظيفة، فالمغيرة بن شعبة أصبح فيما بعد واليا على الكوفة التي كان يعمل فيها كاتبا لأبي موسى الأشعري، والحسن البصري؛ الذي كان يعمل كاتبا للربيع بن زياد الحارثي بخراسان عين بعدها قاضيا على البصرة، وأصبح سيد التابعين كما يسمونه، ومحمد بن سيرين، عمل كاتبا لأنس بن مالك بفارس، ثم أصبح من كبار التابعين ومن الرواة المقربين للسلطة، وزياد بن أبيه، كان كاتبا للمغيرة بن شعبة، ثم لعبد الله بن عامر بن كريز، ثم لعبد الله بن عباس، ثم لأبي موسى الأشعري، وبعدها أصبح واليا على العراق، وكان عامر الشعبي كاتبا لعبد الله بن مطيع، ثم لعبد الله بن يزيد عامل

[1] المصدر نفسه، م٥،ج٩/ص ١٦٦.
[2] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص ٢٦١-٢٦٢.
[3] العقد الفريد،ابن عبد ربه الأندلسي، ج٤/ص ١٥٩.

ابن الزبير على الكوفة، ثم بعدها عين قاضيا للكوفة، وكان خارجة بن زيد بن ثابت كاتبا في ديوان المدينة، ثم طلب الخلافة فقتل([1]).

فضلا عن ذلك نجد في سيرة سعيد بن جبير محطات كثيرة، كل محطة منها توحي بوجود الاضطراب الكبير، سواء كانت عبادية أم علمية أم سياسية أم مجتمعية، وهو ما سنمر عليه بشيء من التفصيل، طالما أننا نراه متعمدا ومدروسا.

أولا: تدينه: وقعت الفوضى في درجة علم سعيد، من حيث الدرجة لا من حيث صحة العقيدة، فقالوا في تدينه: كان تقيا، فكان يحج مرة ويعتمر مرة في كل سنة، وعن هلال بن خباب، قال: خرجت مع سعيد بن جبير في رجب، فأحرم من الكوفة بعمرة ثم رجع من عمرته، ثم أحرم بالحج في النصف من ذي القعدة، وكان يحرم في كل سنة مرتين، مرة للحج ومرة للعمرة([2]). وعن الفضيل بن ميسرة ، عن أبي حريز، أن سعيد بن جبير، قال: لا تطفئوا سرجكم ليالي العشر، تعجبه العبادة، ويقول: أيقظوا خدمكم يتسحرون لصوم يوم عرفة"([3])، وعن عباد بن العوام: أنبأنا هلال بن خباب: "خرجنا مع سعيد بن جبير في جنازة، فكان يحدثنا في الطريق ويذكرنا، حتى بلغ، فلما جلس، لم يزل يحدثنا حتى قمنا، فرجعنا، وكان كثير الذكر لله"([4]) وقالوا: كان يقوم الليل، ويكثر من الصيام، وقراءة القرآن.

ثانيا: علاقته بالقرآن الكريم: لأن القرآن الكريم هو كتابنا المقدس، ولأن درجة الارتباط به تشير عادة إلى درجة وعي المسلم، ودرجة فهم معانيه وتفسيره تشير إلى درجة علم المؤمن، ولأن اسم (القراء) أشتق من قراءتهم للقرآن وتتبع آثاره؛ فلابد وأن ترد روايات وقصص تتناول هذه العلاقة، والظاهر أن هناك من حدد علاقة المسلم مع القرآن بعدد

---

[1] ينظر: المصدر نفسه، ج٤/ص ١٥٩-١٦٠.
[2] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص ٢٩٠.
[3] المصدر نفسه، ج٤/ص ٣٣٤.
[4] المصدر نفسه.

مرات ختمه، فكلما كثر عدد الختمات وقل وقتها عنى ذلك في شرعهم ارتفاع شأن القارئ، ولذا تجد هناك من يروي عن سعيد أنه كان يختم القرآن بركعة واحدة أو بين صلاتي المغرب والعشاء أو في ليلة واحدة أو في ليلتين، وعن هذه الختمات هناك من قال: إنه كان يختم القرآن في ركعة واحدة من صلاته، والرواية عن إسحاق مولى عبد الله بن عمر، عن هلال بن يساف، قال: "دخل سعيد بن جبير الكعبة، فقرأ القرآن في ركعة"([1]) وأورد ابن سعد هذه القصة على لسان سعيد نفسه عن حماد قال: قال سعيد بن جبير: "قرأت القرآن في ركعة في الكعبة"([2]).

وكذلك أوردها أبو نعيم على لسان سعيد([3]) ولم تكن هذه الركعة يتيمة دهرها إذ هناك روايات تؤكد انه كرر هذا الفعل مرات كثيرة، قال ابن كثير في تاريخه وابن خلكان في الوفيات: "إنه كان يقرأ القرآن في ركعة واحدة". وهناك من قال: إنه كان يختم القرآن في ركعتين، ينسبون القول إلى سعيد أيضا، قال الذهبي: وروى الثوري، عن حماد، قال: قال سعيد: "قرأت القرآن في ركعتين في الكعبة"([4]). وهناك من قال: إنه كان يختم القرآن بين صلاتي المغرب والعشاء، جاء في الطبقات عن الحسن بن صالح، عن وقاء بن إياس، قال: "كان سعيد بن جبير يجيء فيما بين المغرب والعشاء فيقرأ القرآن في رمضان"([5]) حيث يبدو هذا الخبر طبيعيا وهو يوحي أن سعيدا كان يقرأ بعضا من القرآن بين الصلاتين، لكن هذه الصورة تتلاشى حينما يورد الذهبي الخبر نفسه وبالسند نفسه، عن الحسن بن صالح، عن وقاء بن إياس، قال: "كان سعيد بن جبير يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء في شهر رمضان، وكانوا يؤخرون العشاء"([6]) ليؤكد أن المقصود هو ختم القرآن وليس قراءة جزء منه. وهناك من قال: إنه كان يختمه في يومين أو كل ليلتين، عن يزيد: أنبأنا عبد الملك بن أبي سليمان، عن سعيد بن جبير، أنه كان يختم القرآن في كل

---

[1] المصدر نفسه، ج٤/ص ٣٣٣.
[2] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص ٢٥٩.
[3] ينظر حلية الأولياء،، أبو نعيم، ج٤/ص٢٧٣، ترجمة سعيد.
[4] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٤/ص ٣٣٣.
[5] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص ٢٥٩، وحلية الأولياء، أبو نعيم، ج٤/ص ٢٧٣.
[6] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٤/ص ٣٣٣.

ليلتين"([1]) علما أن ابن سعد أورد رواية أخرى يتبين من خلالها أن سعيدا كان لابد وأن يقرأ بعضا من القرآن يوميا أو بين يوم وآخر وليس القرآن كله، حيث أخرج ابن سعد عن الصعب بن عثمان، قال: قال سعيد بن جبير: ما مضت ليلتان منذ قتل الحسين إلا أقرأ فيهما القرآن إلا مسافرا أو مريضا"([2]).

والظاهر أن هناك من استشعر تهافت هذه الروايات وصعوبة تصديقها؛ فجاء بآراء وأقوال لا تختلف عنها في درجة التهافت محاولا تعليل الإشكال لا أكثر، فمنهم من أراد الاعتذار، فقال عن ختم القرآن في المدة بين صلاتي المغرب والعشاء بأن أهل ذلك العصر: "كانوا يؤخرون العشاء" وهذا التأخير هو الذي أعطى لسعيد فسحة ختم القرآن في تلك المدة القصيرة التي لا تزيد عن ساعة في أحسن الأحوال.

وفي الجانب المضاد، تجد من يستهجن هذا العمل ويعده أمرا مخالفا للشريعة لا يجوز الإتيان به، وبناء عليه، قال الذهبي معترضا على جميع الأقوال أعلاه باستثناء الرواية التي قالت إنه كان يختم كل ثلاثة أيام، فقال: "هذا خلاف السنة، وقد صح النهي عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث"([3]). بما يعني أن كل تلك الأقوال بما فيها ما نسب لسعيد نفسه أريد بها تجريد سعيد من العلم والفقه وإظهاره بمظهر الجاهل لقواعد الفقه لا أكثر. وحينما تتابع أصل تلك الأقوال تواجهك حقيقة ناصعة قاموا بتحريفها بغية الطعن بسعيد، هذه الحقيقة جاءت على لسان سعيد نفسه، فهو يعترف صراحة أنه تأثر كثيرا لاستشهاد الإمام الحسين (عليه السلام) وأنه بسبب هذا التأثر والألم والحسرة كان يقرأ في كل ليلة حزبا واحدا من القرآن لا أكثر، حيث روى الذهبي عن سعيد قوله: "ما مضت علي ليلتان منذ قتل الحسين إلا أقرأ فيهما القرآن ألا مريضا أو مسافرا"([4]). وهذا أمر طبيعي مقدور عليه متاح للجميع لسهولته ويسره وموائمته للتعليمات النبوية، ولكن الظاهر أن هناك من حرف هذا القول أو فهمه بشكل آخر، ثم نقله على لسان سعيد وكأنه هو الذي اعترف بختم القرآن

---

[1] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٤/ص ٣٣٣، والطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص ٢٥٩، وحلية الأولياء، أبو نعيم، ج٤/ص ٢٧٣.

[2] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص ٢٥٩ـ٢٦٠.

[3] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص ٢٩٠.

[4] المصدر نفسه، ج٥/ص٢٩٨ .

في ركعة أو ركعتين، أو ليلة أو ليلتين، وهذا إما بسبب الاضطراب، وإما أن يكون تعمدا غايته تشويه صورة سعيد، وإما أن يكون مبالغة؛ في مجتمع أدمن المبالغة والمفاضلة.

أسأل هنا: هل كان سعيد؛ وهو العالم الجهبذ الذي قالوا إنه أخذ علوم القرآن عن حبر الأمة عبد الله بن عباس جاهلا بهذا الحكم البسيط ليخالفه علنا، ومن ثم يفتخر بتلك المخالفة، فيُحدّث الآخرين بأنه ختم القرآن في ركعة أو ركعتين فقط؟ إن الوقائع تجمع على أن سعيدا كان عالما بالقرآن وتفسيره وأحكامه، وفي الروايات أنه ألف في تفسير القرآن، وكتب ذلك بصحيفة، ولكن لمن قام بهذا العمل؟ أقول: ذكر ابن حجر عند ترجمته لعطا بن دينار المصري إنه: "كان من ثقات المصريين وله تفسير يرويه عن سعيد بن جبير, كان في صحيفة, وذلك أن عبد الملك بن مروان، سال سعيدا أن يكتب إليه بتفسير القرآن، فكتب سعيد بهذا التفسير، فوجده عطا بن دينار في الديوان، فأخذه، فأرسله عن سعيد". وقال السيد حسن الصدر: "أول من صنف في تفسير القرآن، سعيد بن جبير التابعي"([1]). فكيف يأتي بعد هذا كله ليخالف أبسط قواعد قراءة القرآن؟ وهل يعقل أن يقوم من هو بهذه المنزلة الرفيعة بعمل يخالف القواعد التي ينشرها بين الناس؟

والظاهر أن هناك من انتبه إلى أن تفخيم الجانب القرآني عند سعيد يرفعه أكثر مما هو مسموح له به، ولذا أنزلوه من تلك المرتبة إلى مرتبة ادني، فجعلوا (أبو العالية) مقدم عليه، وفي مرآة الجنان: "أبو العالية، رفيع بن مهران الرياحي، مولاهم، البصري، المقرئ المفسر، وقد دخل على أبي بكر، وقرأ القرآن على أُبي. قال أبو العالية: كان ابن عباس يرفعني على السرير وقريش أسفل. وقال أبو بكر بن أبي داود: ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقرآن من أبي العالية، وبعده سعيد بن جبير"([2]).

واقعا هناك رواية طويلة أجتزئ منها خلاصة فيما يهمنا ويتصل بموضوعنا تشير إلى أن هناك تعارفا عند الناس مفاده أن قراءة سورة الإخلاص ثلاث مرات يعدل ختم القرآن، وقد يكون سعيد يعمل بهذه المعلومة، فظن من ظن أنه يختم القرآن في ركعة، وردت هذه

---

[1] الشيعة وفنون الإسلام، حسن الصدر، ص ٥٣٤.

[2] مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي اليمني المكي أبو محمد، ج١/ص ١٤٧.

الرواية عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) ذات يوم لأصحابه: "أيكم يصوم الدهر؟ أيكم يحيّي الليل؟ أيكم يختم القرآن في كل يوم؟ وفي كل منها كان سلمان يقول: أنا يا رسول الله. فغضب بعض أصحابه، فقال: يا رسول الله إن سلمان رجل من الفرس يريد أن يفتخر علينا معاشر قريش، فقال النبي: مه يا فلان، أنى لك بمثل لقمان الحكيم، سله فإنه ينبيك؟

وتقول الرواية إن الصحابي، قال لسلمان بعد أن اعترض على قيام الليل وصوم الدهر: أليس زعمت أنك تختم القرآن في كل يوم؟ قال: نعم. قال: فأنت أكثر أيامك صامت. قال: ليس حيث تذهب، ولكني سمعت رسول الله (ص) يقول لعلي: "يا أبا الحسن مثلك في أمتي مثل سورة التوحيد، فمن قرأها مرة قرأ ثلث القرآن، ومن قراها مرتين فقد قرأ ثلثي القرآن، ومن قرأها ثلاثا فقد ختم القرآن، فمن أحبك بلسانه فقد كمل له ثلث الإيمان، ومن أحبك بلسانه وقلبه فقد كمل له ثلثا الإيمان، ومن أحبك بلسانه وقلبه ونصرك بيده فقد استكمل الإيمان، والذي بعثني بالحق يا علي لو أحبك أهل الأرض كمحبة أهل السماء لك لما عذب أحد بالنار. وأنا أقرأ التوحيد في كل يوم ثلاث مرات"([1]). والظاهر أن سعيدا حدثهم بتلك الرواية وعمل بموجبها، ففهمها بعضهم بعيدا عن مدلولها ونسب إلى سعيد بعض تلك الأقوال، وهذا ليس مستبعدا.

الغريب أني وجدت المبالغة فاشية عندهم فيما يخص ختم القرآن، فالأمر لم يقف عند سعيد وحده، ذكر الذهبي في ترجمة سليم بن عتر التجيبي قاضي مصر، انه كان يختم القرآن كل ليلة ثلاث ختمات، ولديه فائضا من الوقت يكفيه ليعاشر زوجته ثلاث مرات، بعد كل ختمة، فقال: "كان سليم بت عتر يقص وهو قائم، وروي عنه أنه كان يختم القرآن كل ليلة ثلاث ختمات، ويأتي امرأته يغتسل ثلاث مرات، وإنها قالت بعد موته: رحمك الله، لقد كنت ترضي ربك وترضي أهلك"([2]).

---

[1] حكم لقمان، محمد الري شهري، ص ٢٩-٣١.
[2] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص١٥٤.

وفي الطبقات: عن علي بن الأقمر، قال: "كان مسروق (بن الأجدع) يؤمنا في رمضان فيقرأ العنكبوت في ركعة"([1])

وفي سنن أبي داود عن أحمد قال: "كان عطاء بن السائب من خيار عباد الله، كان يختم القرآن كل ليلة".

وفي دول الإسلام، قال الذهبي عن الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي: "وكان يختم القرآن في ثلاث، قال إبراهيم بن أبي عبلة: كان يختم في رمضان سبع عشرة مرة"([2]).

ووجدت مبالغة أوجدتها قدسية القرآن، فانظر لابن شبة، يخرج في تاريخه أنهم عثروا على مصحف عثمان بعد قتله مضرجا بالدماء، ثم يأتي من يحدث عن أم المؤمنين عائشة أن أول قطرة من دم عثمان وقعت على الكلمة الفلانية بالذات دون غيرها من كلمات القرآن، جاء في الرواية: حدثنا أبو قتيبة سلم بن قتيبة الشعيري، عن سالم بن الأشعث العدوي، عن عمرو، عن عائشة (رض)، قالت: أول قطرة قطرت من دم عثمان (رض) على (فسيكفيكهم الله) وهي من سورة البقرة، الآية ١٣٧([3]). وقد توالدت من هذه الرواية عشرات الروايات التي تتحدث عن هذه النسخة من القرآن مدعية أنها موجودة في هذا البلد الإسلامي أو ذاك، وقد أحصيت وجود ست نسخ كلها مضمخة بالدم في المكان نفسه، وكلها يدعون أنها نسخة الخليفة عثمان!

ولذا أرى أن من يحمل منزلة علمية رفيعة مثل سعيد لا يمكن أن يجهل حكما بسيطا من أحكام العقيدة، هذا إلا إذا ما كان على يقين أن ذلك الحكم غير صحيح، وعليه قام بختم القرآن بأوقات مختلفة ليثبت بطلان ذلك الحكم وهو أمر مستبعد. وأرى ان الذين جاءوا بهذه الأقوال عن سعيد إنما كانت لهم غايات سياسية منبعها الكره لأنه لا يؤيدهم فيما يذهبون إليه.

---

[1] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص ٨٠، ترجمة مسروق.
[2] دول الإسلام، الذهبي، ص ٥٥
[3] تاريخ المدينة، عمر بن شبة، ج٣/ص ١٣١٠.

ثالثا: علمه: لا تخلو كتب السيرة من الحديث عن علم سعيد وتفرده، حتى أنهم وصفوه بصفات لم يصفوا غيره بها مثل قول عمرو بن ميمون، عن أبيه: "لقد مات سعيد بن جبير وما على ظهر الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه"([1]) وما نقله جرير الضبي، عن أشعث بن إسحاق، قال: "كان يقال: سعيد بن جبير جهبذ العلماء"([2]). وعلى أرض الواقع كان سعيد حريصا على نشر العلم بين الناس، ومن أقواله التي قلد بها علي بن أبي طالب بهذا الصدد: "أليس أحد يسألني عن شيءٍ". وقوله: "ما يأتيني أحد يسألني"([3]) وقوله: "وددت الناس أخذوا ما عندي، فإنه مما يهمني"([4]) وروي عن حبيب بن أبي ثابت، قال: قال لي سعيد بن جبير: "لأن أنشر علمي أحب إلي من أن أذهب به إلى قبري"([5]) أو كما ذكر ابن سعد، عن حبيب، قال: "كان أصحاب سعيد بن جبير يعذلونه، يحدّث، فقال: "إني أُحدثك وأصحابك أحب إلي من أن أذهب به معي إلى حفرتي أو إلى قبري"([6]) بل كان سعيد يشكو قلة من يأتيه يسأله علما، عن عطاء بن السائب قال: "أتيت سعيد بن جبير، فقال لي: أزهدَ الناس؟، كان يجيئني إلى هذه الساعة كذا وكذا يسألونني"([7]) وأجد من الغرابة أن يبحث عالم بمنزلة سعيد عمن يأخذ منه علمه في ذلك العصر الذي كان بأمس الحاجة إلى علوم الدين، وقد يعني هذا أن سعيدا كان محاصرا نوعا ما لأن هنالك من لا يريده أن ينشر علمه، ولاسيما علوم أهل البيت التي كان يرويها. وقد وجدنا هذه الحالة من قبل عند الإمام علي (عليه السلام) فهو بالرغم من كونه أعلم الأمة وفق نصوص السنة الصحيحة المتفق عليها، إلا أنهم كانوا راغبين عن علمه حتى انه اشتكى هذا الجفاء منهم في أكثر من قول، منها قوله: "من يشتري علماً بدرهم؟ فقام الحارث الأعور، فاشترى صحفاً بدرهم، فكان يكتب فيها، فقال علي: "يا أهل الكوفة غلبكم نصف رجل"([8]).

---

[1] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص ٢٩٠.
[2] المصدر نفسه، ج٥/ص ٢٩٦.
[3] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص ٢٥٩
[4] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص ٢٩١ ، وحلية الأولياء، ابو نعيم، ج٤/ص٢٨٣.
[5] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص٢٩٠
[6] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص ٢٥٨، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص٢٩٠.
[7] الطبقات الكبرى، ابن سعد ج٦/ص٢٥٩.
[8] ربيع الأبرار، الزمخشري، ج ٣/ص ٢٩٤.

فضلا عن ذلك هناك أكثر من واحد من كبار الصحابة شهدوا لسعيد بالعلم، عن جعفر بن أبي المغيرة، قال: "كان ابن عباس بعدما عمي، إذا أتاه أهل الكوفة يسألونه، قال: تسألوني وفيكم ابن الدهماء؟ قال يعقوب: يعني سعيد بن جبير"([1]). وعن أسلم المنقري، عن سعيد بن جبير، قال: "جاء رجل إلى ابن عمر، فسأله عن فريضة، فقال: ائت سعيد بن جبير فإنه أعلم بالحساب مني، وهو يفرض منها ما أفرض"([2]) وهم يكادون يجمعون على أنه كان عالما بالدين، كثير العلم: قال ابن شهرآشوب: "كان كثير العلم حتى قيل: ليس على وجه الأرض من هو مستغن عن علم ابن جبير". وقال الطبري: "هو ثقة، الإمام، حجة على المسلمين". وقال ابن حبان: "كان فقيهاً عابداً فاضلاً". وقال خصيف: "كان أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيب وبالحج عطاء وبالحلال والراحم طاووس والتفسير أبو الحجاج مجاهد بن جبر واجمعهم لذلك كله سعيد بن جبير". وقال مثل ذلك أبو نعيم في حلية الأولياء وابن حجر في التقريب وابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب وغيرهم. وكتب أحمد بن حنبل: قال إبراهيم: ما ترك سعيد بعده مثله. وقال العجلي: "ما كان يُفتي الناس بالكوفة قبل معركة الجماجم إلا سعيد بن جبير"([3]) وكتب الذهبي: قال علي بن المديني: ليس من أصحاب ابن عباس مثل سعيد بن جبير، قيل: ولا طاووس؟ قال: ولا طاووس، ولا أحد([4]).

معنى هذا انه كان عالما كبيرا زاحم الآخرين ليحوز مثل هذا التقييم وهذه الأقوال والمسميات الكبيرة. لكنك بالرغم من كل هذا المدح العريض والإقرار بالتفوق العلمي في الفقه والحديث والتفسير تجد من يحاول طمس هذه الحقائق بالدس، من خلال بعض الأقوال، فيأتي هلال بن خباب ليقول: "رأيت سعيد بن جبير أهَلَّ من الكوفة"([5]) ولا أدري

---

[1] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص ٢٥٧، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص ٢٩٠.
[2] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص ٢٥٨وسير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص٢٩٧.
[3] ينظر: معرفة الثقات، الحافظ أبي الحسن أحمد بن عبدالله بن صالح العجلي الكوفي، ج١/ص ٣٩٥.
[4] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص ٣٠١ .
[5] المصدر نفسه، ج٥/ص٢٩٨.

ماذا نفعه علمه إذا ما كان يجهل الأهِلة والمواقيت، فيهل في عمرة أو حجة من الكوفة خلافا لما متعارف عليه.!

المهم هنا وجوب معرفتنا من أين اخذ سعيد علمه الغزير لدرجة أنه حينما عاد إلى الكوفة نشر العلم فيها، وأصبح إماما ومعلما لأهلها، وهي درجة لا ينالها إلا كبار العلماء الذين تتقارب رؤاهم مع آراء أهلها؟ وقبل الإجابة على هذا السؤال والحديث عن أساتذة سعيد لا بأس في التحدث قليلا عن موضوع شغلهم في تلك الأيام وهو (المفاضلة)، واقصد به قولهم فلان أفضل أو أعلم من فلان، أو قولهم فلان أعلم الناس بالقضاء أو الحج أو علوم القرآن وغير ذلك، وفي حديثي عنها أريد التأكيد على صحة وجود الاضطراب في ذلك العصر، وان الاضطراب نفسه كان احد أهم أسباب وجود المفاضلة التي تدل أساسا على وجود منافسة شديدة بينهم كانت تصل أحيانا إلى مراحل التسقيط!.

التناقض في التفاضل

تحدثنا في الفصول السابقة عن المفاضلة بين الصحابة وبين الأجيال وهنا سأتحدث عن المفاضلة بين التابعين؛ لنصل من خلال ذلك إلى أن بعض المؤرخين والمتكلمين تجاوزوا سعيدا ولم يذكروه ضمن مجاميع الأعلم والأفقه والأسود لأسباب هم أدرى بها، وهو واحد من الأمور الغريبة في حياة سعيد بما يشعرك أنهم كانوا يتعمدون إقصاءه لأسباب خاصة بهم، لا وجود لها على أرض الواقع، وإلا كيف يمكن أن نوفق بين أقوالهم في تفضيل غيره عليه والأقوال أعلاه التي جعلت سعيدا في غنى عما بين أيدي الناس، وجعلت الناس في حاجة إلى ما عنده؟

لقد دار حديث المفاضلة على الألسن في كل عصر وزمان، وإذا ما كان في عصرنا الراهن قد اعتمد على امتحانات وقواعد وأصول ومعطيات تُتخذ ميزانا معياريا لإثبات التفاضل ودرجة الرقي العلمي؛ فإنه كان في تلك العصور كيفيا انتقائيا متأثرا بالأهواء والعلاقات والسياسة والتكتل الديني، والعلاقة بالجماعات وبالدولة والحكام والولاة، بل كان يصدر أحيانا عن الأشخاص أنفسهم؛ يزكون أنفسهم ويرفعون مقاماتهم فلا يردهم أحد ولا

يكذبهم سامع، نجد مثلا في طبقات ابن سعد أن مسعر بن كدام روى، عن سعد بن إبراهيم، عن سعيد بن المسيب، إنه قال: "ما بقي أحد أعلم بكل قضاء قضاه رسول الله (ص)، وأبو بكر، وعمر مني" قال يزيد بن هارون: قال مسعر: وأحسب أنه قال: وكل قضاء قضاه عثمان مني"([1]).

وهناك بينهم من قال عن ابن المسيب قريبا من هذا، كما ورد عن جارية بن أبي عمران، إنه سمع محمد بن يحيى بن حبان يقول: "كان [سعيد بن المسيب] رأس من بالمدينة في دهره والمقدم عليهم في الفتوى.. ويقال: فقيه الفقهاء". وعن مكحول، قال: "سعيد بن المسيب عالم العلماء". وعن ميمون بن مهران، قال: " قدمت المدينة فسألت عن أفقه أهلها، فدفعت إلى سعيد بن المسيب"([2]). وقال الذهبي في حديثه عن سنة أربع وتسعين: "مات عالم أهل زمانه وسيد التابعين سعيد بن المسيب المخزومي، وقد قارب ثمانين سنة"([3]).

ثم يأتي قوم آخرون، فيرون في هذه الأقوال مبالغة وتطرفا، ويقولون: إن هناك من هو أكثر علما وفهما من ابن المسيب كما في قول عمرو بن دينار: "سمعت الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب يقول: سليمان بن يسار أفهم عندنا من ابن المسيب"([4]) وكما في قول قتادة: "قدمت المدينة فسألت من أعلم أهلها بالطلاق؟ فقالوا: "سليمان بن بسار"([5]).

وقد يرى البعض أن اختلاف الأزمنة والأمكنة والأمصار يمكن أن يؤثر على الآراء والأحكام، فأقول: إن عكرمة مولى ابن عباس كان قريبا من سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار وهناك من فضله عليهما منزلة، فجابر كما نقل عنه عمرو بن دينار كان يرى عكرمة بحرا من العلم ويقول: "هو البحر فسلوه". وسلام بن مسكين كان يقول: "كان عكرمة أعلم الناس بالتفسير"([6])، ولا يقف الأمر عند هذا الحد، فهناك من جاء وجعل

---

[1] الطبقات الكبرى، ابن سعد،ج٥/ص١٢٠، ترجمة سعيد بن المسيب.
[2] ينظر: المصدر نفسه، ج٥/ص ١٢١
[3] دول الإسلام، الذهبي، ص٥٤
[4] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٥/ص ١٧٤
[5] المصدر نفسه.
[6] المصدر نفسه، ج٢/ص ٣٨٥.

الزهري أوحدهم علما، كما في قول مالك بن أنس: "ما أدركت بالمدينة فقيها محدثا غير واحد، هو ابن شهاب الزهري"([1])، وقول مكحول: "ما أعلم أحدا أعلم بسنة ماضية من الزهري"([2]). ثم يأتي جامع بن شداد ليقول: "خرجنا حجاجا فقدمنا مكة، فسألت عن أعلم أهل مكة، فقيل: عليك بأبي بكر بن عبد الرحمن"([3]). فأين ذهب الزهري والرجل كان معاصرا له؟

ويأتي من يرى أن رباح بن عطاء اعلم الجميع، كما في قول المنقري: "كنت جالسا مع أبي جعفر إذ مر عليه عطاء بن أبي رباح، فقال: ما بقي على ظهر الأرض أحد اعلم بمناسك الحج من عطاء بن أبي رباح"، وقول قتادة: "كان عطاء من اعلم الناس بالمناسك"([4])، ويقولون إن سعيد بن جبير نفسه اعترف بفضل رباح: قال المنقري: جاء أعرابي، فجعل يقول: أين أبو محمد؟ قال: فأشاروا إلى سعيد بن جبير، فقال: أين أبو محمد؟ فقال سعيد: "ما لنا ها هنا مع عطاء شيء"([5]). بعد ذلك يأتي أبو معشر زياد بن كليب ليجعل من شخص آخر اسمه طلحة بن مصرف، أعلم الجميع بلا استثناء، فيقول: "ما ترك بعده مثله"([6]).

ومع كل هذه الضوضاء نجد قلة تميز سعيدا عن غيره ولو في جانب معين كأن تحصر المفاضلة في طلاب أحد الصحابة مثلا، كما في قول علي بن المديني: "ليس في أصحاب ابن عباس مثل سعيد بن جبير، قيل: ولا طاووس؟ قال: لا طاووس ولا أحد"([7]).

ونكتفي بهذه الأمثلة عن تعارض الأقوال في تفضيل التابعين بعضهم على البعض الآخر، ووضوح التلاعب في التفاصيل، فالحديث يطول ولا ينتهي، ففلان أعلم بالسنة، وفلان أعلم بالطلاق، وفلان ليس في مثل علمه أحد، وفلان اعلم أهل مكة، وفلان اعلم أهل المدينة،

---

[1] المصدر نفسه، ج٢/ص ٣٨٨.
[2] المصدر نفسه، ج٢/ص ٣٨٩.
[3] المصدر نفسه، ج٢/ص ٣٨٥.
[4] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٥/ص ٤٦٨.
[5] المصدر نفسه، ج٥، ص ٤٦٨
[6] المصدر نفسه، ج٦، ص ٣٠٩
[7] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص ٣٠١.

وفلان أعلم الجميع. وأنا حينما اذكر ذلك لا أبغي الطعن بأولك الرجال، فهم لو لم يكونوا علماء مبرزين لما فاضل الناس بينهم، ولكني أذكرها لأبين أن هناك تباينا في الحكم لم يكن بدوافع علمية، وإنما بدوافع وأسباب سوف نتحدث عنها لاحقا، وأرى التباين واحدا من مجموعة كبيرة من تناقض الأقوال التي تخص سيرة سعيد، ومن ذلك أنهم لم يعدوه من كبار التابعين، ولا من الفقهاء، قال القرطبي في تفسيره: "وأكبر التابعين الفقهاء السبعة من أهل المدينة وهم: سعيد بن المسيب، والقاسم بن محمد، وعروة بن الزبير، وخارجة بن زيد، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وعبد الله بن عتبة بن مسعود، وسليمان بن يسار([1]). هذا التباين الذي يبدو أحيانا في منتهى الغرابة، والذي ينبع فضلا عن حب الناس للظهور؛ عن حب الأتباع تضخيم وتفخيم مراكز أبطالهم؛ له جانب مخفي لا يُرى بيسر وهو تحكم الفصيل السياسي في جزء مهم منه للتغطية والتمويه على سيرة بعض مناوئيهم عن طريق رفع ذكر من يؤيدهم. ويوجب علينا هذا التباين البحث في صحة درجة سعيد العلمية، والأسباب التي دعتهم إلى تجاوزه وعدم عده مع الفقهاء أو مع القراء بالرغم من منزلته الكبيرة التي لا ينكرها أحد.!

سعيد ومعلموه

في الحديث عن تحصيل سعيد علوم القرآن، قال المؤرخون: إن سعيدا قرأ القرآن على ابن عباس. وقرأ عليه خلق كثير. أي تعلم على يد ابن عباس، وأصبح معلما لغيره. وفي حديثهم عن تحصيله علوم السنة والحديث، قالوا: روى حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن الصحابة مثل: ابن عباس، وعبد الله بن مغفل وعائشة، وعدي بن حاتم، وأبي موسى الأشعري، وأبي هريرة، وأبي مسعود البدري، وابن عمر، وابن الزبير، والضحاك بن قيس، وأنس بن مالك، وأبي سعيد الخدري. وروى عن التابعين مثل: أبي عبد الرحمن السلمي وغيره. فأصبح عالما بالحديث، فحدث عنه أبو صالح السمان وآدم بن سليمان والد يحيى وأشعث ابن أبي الشعثاء وأيوب السختياني ومالك بن دينار ومجاهد والزهري

[1] تفسير القرطبي، الآيات ٩٧-١٠٠ من سورة التوبة.

وميمون بن مهران وأبو هبيرة يحيى بن عباد ويحيى بن ميمون وسبعة وثمانين من كبار المحدثين، وخلق كثير غيرهم. قال الذهبي: روى عن ابن عباس، فأكثر وجود ([1]) وعن عبد الله بن مغفل، وعائشة، وعدي بن حاتم، وأبي موسى الأشعري في سنن النسائي، وأبي هريرة، وأبي مسعود البدري - وهو مرسل - وعن ابن عمر، وابن الزبير، والضحاك بن قيس، وأنس([2])، وأبي سعيد الخدري.([3])

وفي حديثهم عن المحورين أعلاه (القرآني والحديثي) يوجد تناقض وتهافت كبير، فهم في المحور القرآني يدَّعون أنه: أخذ العلم ومعه الرواية عن عبد الله بن عباس. ووجدت هناك من أراد ترسيخ هذه المعلومة بالذات، فنقل عن سعيد قوله: "ربما أتيت ابن عباس فكتبت في صحيفتي حتى أملأها وكتبت في نعلي حتى أملأها وكتبت في كفي" ونقل أيضا: "عن مؤذن بن وادعة: دخلت على عبد الله بن عباس وهو متكئ على مرفقة من حرير، وسعيد بن جبير عند رجليه، وهو يقول: "أنظر كيف تحدث عني فإنك قد حفظت عني حديثا كثيرا"([4]). وهذا الأمر غير مؤكد، أو في الأقل لم يكن بالدرجة التي يصفونه بها لأن سعيدا بلغ درجة الإدراك أو بداية عشرينات عمره في أواخر حياة ابن عباس؛ الذي توفي سنة ٦٨هجرية بالطائف بعد أن هرب إليها عام ٦٤ هجرية من ابن الزبير الذي طارده، بمعنى انه لم يلبث كثيرا مع ابن عباس بما يكفي ليأخذ عنه علما كثيرا.! نعم أخذ عنه بعض أساسيات العلم بشكل متقطع، ولكن لم يأخذ علما كثيرا للدرجة التي تجد له في موسوعة الحديث النبوي فوق ألف حديث نبوي في سندها (سعيد بن جبير، عن عبد الله بن عباس) في شتى العلوم وأغلب الحالات، فهذا مستحيل لأن المدة التي قضاها سعيد مع ابن عباس لا تكفي لاكتساب مثل هذه المعلومات الكبيرة والكثيرة، ولاسيما أن سعيدا لم يكن مقيما مع ابن عباس، وإنما كان يزوره عندما يذهب إلى الحج أو العمرة، حاله حال الآخرين، بدلالة قول سعيد نفسه؛ الذي نقله عنه أيوب: "كنا إذا اختلفنا بالكوفة في شيء

---

[1] سير أعلام النبلاء الذهبي، ج٥/ص ٢٨٨.
[2] توفي أنس سنة ثلاث وتسعين. ينظر: دول الإسلام، الذهبي، ص ٥٣.
[3] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص ٢٨٨
[4] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص ٢٥٧.

كتبته عندي حتى ألقى ابن عمر، فأسأله عنه".([1]) أي حتى أذهب إلى عبد الله بن عمر بالمدينة فأسأله عنه([2]). بمعنى أوضح انه كان يذهب إلى عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وغيرهم، ولم يكن مقيما هناك معهم وملازما لهم ليأخذ عنهم كل علمه.! وهذا يعني انه كان يذهب إلى مكة والمدينة بزيارات قصيرة، وبما أنهم قالوا إن سعيدا كان يحج ويعتمر في كل عام، فمعنى ذلك أنه كان يرى ابن عمر ويسأله، ويلقى ابن عباس ويسمع منه مرتين في العام لا تزيد مدة كل منهما عن الشهر في أحسن الأحوال. فضلا عن ذلك كان ابن عباس في بعض مراحلها مطاردا من قبل ابن الزبير ولذا هرب إلى الطائف وفيها توفي. وسعيد لم يكن مقيماً في مكة ولا في المدينة بل كان يأتيها حينا من الدهر لا يكفي لتحصيل العلم الكثير، وقد ذكر تلك الزيارات ابن سعد في الطبقات وجلال الدين السيوطي في الدر المنثور. كما وتنقل المصادر أن عبد الله بن عباس كان إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه يقول لهم: "أليس فيكم سعيد بن جبير" مما يعني أن سعيدا كان مقيما في الكوفة بعيدا عن ابن عباس، وهي المدة التي سبقت ذهاب سعيد إلى مكة. كما انه في زيارته لهم، لم يكن يقضي جل وقته معهم، فله شؤون أخرى كان يقضيها مشغولا بها، منها فضلا عن أداء مراسم الحج أو العمرة زيارة الأصدقاء والمعارف، والظاهر أن علاقة سعيد كانت جيدة مع الجميع، حتى مع الحجاج، وفي الروايات التاريخية أنه عاد من مكة التي كان موجودا فيها سنة ٧٥ هجرية برفقة الحجاج إلى مدينته الكوفة؛ التي عُين الأخير واليا عليها. وقالوا كذلك "إن سعيدا انتقل من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة بعد موت ابن عباس سنة ثمان وستين"، أي لم يكن معه في الطائف.

والظاهر أن وفاء سعيد وإخلاصه كان يدفعه إلى زيارة ابن عباس بالطائف لمدد قصيرة محدودة، حتى أنهم قالوا: إن سعيد بن جبير حضر وفاة عبد الله بن عباس في الطائف، ونسبوا الخبر إلى سعيد بن جبير نفسه، قال: "مات ابن عباس بالطائف، فشهدت جنازته، فجاء طائر لم ير على خلقته، فدخل في نعشه ولم يُر خارجا منه، فلما دفن تليت هذه الآية

---

[1] المصدر نفسه، ج٦/ص ٢٥٨.

[2] من المعروف أن الحجاج طعن ابن عمر بحربة مسمومة سنة ثلاث وسبعين فمرض منها، ومات، ينظر تاريخ السيوطي، ص ٢١٥.

{يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي}([1]).

وأنا واقعا ليس لدي ـ من النصوص التاريخية ـ ما يشر إلى الوقت الذي ترك فيه سعيد مدينته الكوفة وتوجه إلى مكة ليقيم فيها طلبا للعلم، وكل ما توصلت إليه أنه كان يزور مكة والمدينة المنورة زيارات متقطعة لا أكثر. وابن عباس لم يكن في مكة منذ سنة ٦٤ هجرية، فهل من المعقول أن يقيم سعيد في مكة، ويذهب إليه في الطائف ليأخذ عنه القرآن والحديث ثم يعود إلى مكة ليقيم فيها، وهذه مضيعة للوقت لم يكن محتاجا لها؟

كذلك لا ادري كيف فاتهم أن ابن عباس، كان قبل ذهابه إلى الطائف أسيرا لدى ابن الزبير، هو وجماعة من الطالبيين، بما فيهم محمد بن الحنفية: "ولما توطد لابن الزبير أمره دعا عبد الله بن عباس ومحمد بن الحنفية وجماعة من بني هاشم إلى بيعته فأبوا عليه فجعل يشتمهم ويتناولهم على المنبر وأسقط ذكر النبي من خطبته ... ثم قال: لتبايعن أو لأحرقنكم بالنار، فأبوا عليه، فحبس محمد بن الحنفية في خمسة عشر من بني هاشم في السجن".([2]) حدث هذا سنة ٦٤ هجرية وهي السنة التي بويع لابن الزبير فيها بالخلافة، وعندما طلب ابن الزبير من محمد ابن الحنفية وابن عباس المبايعة، قالا: حتى تجتمع لك البلاد ويتسق لك الناس"([3]) ونظرًا لتوافق ابن عباس مع محمد ابن الحنفية في رفض بيعة ابن الزبير وتنامي خطر الأخير، فقد انتهى الأمر بخروجه إلى الطائف بعد سنتين أي في عام ٦٦ هجرية، قال الذهبي: "فداراهما [أي دارا ابن الزبير ابن عباس وابن الحنفية] سنتين، ثم أغلظ لهما ودعاهما فأبيا([4])، فخرج من مكة إلى الطائف وبقى هناك إلى أن توفى. ويقول الذهبي: إنه توفي سنة ثمان وستين"([5]).

---

[1] ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، محب الدين أحمد بن عبدالله الطبري، ص٢٣٧.

[2] العقد الفريد، ابن عبد ربه، ج ٤/ص ٣٨٩ـ٣٩٠

[3] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٥/ص ١٠٠، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٤/ص ٤٦٥ ترجمة عبد الله بن الزبير.

[4] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٤/ص٤٦٥

[5] تاريخ الإسلام، الذهبي، ص ٤٣

والمعروف أن ابن الزبير ثار سنة إحدى وستين، وأعلن نفسه خليفة بعد موت يزيد سنة أربع وستين، وقتل سنة ثلاث وسبعين، وبوفاته انتهت دولته التي استمرت نحو تسع سنين. وكان عمره يوم موته اثنان وسبعون عاما، بمعنى أن ابن عباس كان منذ سنة إحدى وستين محاصرا ومضيقا عليه لا قدرة له على التحرك بحرية لكي يعطي دروسا لأحد من الناس. وهناك أكثر من إشارة إلى أن ابن عباس كان مع الطالبيين الذين حصرهم ابن الزبير في مكة، وكاد أن يحرق دورهم عليهم، كما في قول عطية العوفي: "قد عُمل حول دورهم الحطب ليُحرقها، فخرجنا بهم حتى نزلنا الطائف"([1])، وفي رواية أنقذتهم من شره النجدة التي أرسلها المختار من الكوفة بعد أن استولى عليها عام ٦٥ هجرية. ويعني هذا حسب زعم القائلين بمكوث سعيد في مكة أنه بقي في مكة مدة (٤) سنوات لا يستطيع الوصول إلى ابن عباس. ولذا غادر سعيد مكة سنة (٦٨) إلى المدينة المنورة. ومن الممكن له خلال مدة السبع سنوات من ٦٨ ولغاية ٧٥ هجرية باعتبار أنه عاد في هذه السنة إلى الكوفة؛ أن يكون قد تتلمذ على يد المعلمين الموجودين فيها، ولما كان ابن عمر أحد المعلمين الذين تذكر الروايات أن سعيدا تتلمذ على يديه قد قتل سنة ثلاث وسبعين، فهذا يعني أنه فارق سعيدا حتى قبل انتهاء السنوات السبع.

يذكر أن ابن عباس كان قبل مقدمه مكة واليا على البصرة لعلي (عليه السلام) وقالوا: "إنه في سنة أربعين للهجرة خرج عبد الله بن العباس من البصرة، ولحق بمكة" والدليل على خطأ هذا التاريخ ما أورده الأربلي، عن أبي مخنف بإسناده، عن ابن إسحاق: إنه خطب الحسن (عليه السلام) صبيحة الليلة التي قبض فيها أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى أن قال: ثم جلس فقام عبد الله بن عباس بين يديه، فقال: معاشر الناس هذا ابن نبيكم ووصي إمامكم فبايعوه ... إلى أن قال: فرتب العمال وأمرّ الآمرة وأنفذ عبد الله بن عباس إلى البصرة ونظر في الأمور"([2]). والذي أراه أن ابن عباس ترك البصرة، وذهب إلى مكة بعد صلح الإمام الحسن وبيعة معاوية خليفة وليس قبله، أي تركها في أواخر عام ٤١

[1] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٤/ص٤٥٥ ترجمة ابن عباس.
[2] كشف الغمة في معرفة الأئمة، أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي،ج٢/ص ١٣٢.

هجرية لأنه لم يرغب العمل لدى معاوية. ولكنهم بسبب الاضطراب والفوضى اتهموا ابن عباس مرة بأنه: " نافر علياً بالنهروان؛ ولحق بمكة"([1]) وأخرى بسرقة خمسة ملايين درهم من بيت مال البصرة؛ التي كان واليا عليها، والرواية الأولى لا تصح لأن ابن عباس بقي مخلصا لعلي وأولاده (عليهم السلام) ولطالما احتج على معاوية وعارضه ووقف بوجهه إذا ما طعن بهم. وكل ما جاء عنها في الكتب من أخبار ومراسلات وخطب متبادلة بين الإمام وابن عباس موضوعة منحولة من قبل أعدائهم الذين أرادوا تشويه العلاقة وإظهار علي وكأنه عادى أقرب الناس إليه، فكيف لا يعادي معاوية ويحاربه!([2]). وحتى لو صحت رواية السرقة بالرغم من تهافتها الكبير؛ فإن من يملك هذا الكم الكبير من المال لا يكون متفرغا للعلم ولا يأبه لطلابه، بل وحتى لو ملك الرغبة في التعليم فإن مجرد اتهامه بالسرقة ـ هذا إذا ما كانوا قد اتهموه ـ يسقطه في أعين الناس فلا يعودون يحترمونه أو يطلبون منه علما، وفي مثل هذا الحال لا يكون أهلا لتعليم الآخرين.

إن اعتبار ابن عباس أكبر المعلمين، ومن ثم التحدث عن كثرة طلابه، وعمن أخذ علم التفسير عنه؛ لم يأت من فراغ، نظرا لكثرة ما جاد به هذا الصحابي الكبير من حديث في الشرح والتفسير، وعنه أخذ أهل الأمصار علم التفسير، يقول ابن تيمية: "وأما التفسير فأعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء ابن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس كطاووس، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبير وأمثالهم([3])، ولكن هذا لا يعني أن ابن عباس صب علمه كله في سعيد خلال زيارات معدودات وجلسات يتيمات، ليقول النابلسي: "لكن أستاذه الأكبر، ومعلمه الأعظم، كان عبد الله بن عباس، حبر الأمة، وبَحر علمها الزاخر. لزِم سعيدُ بن جبير عبدَ

---

[1] أنساب الأشراف، البلاذري، طبع الأعلمي ج١/ص ٤٠٥.

[2] للاستزادة والإفادة ينظر: كشف الالتباس في معرفة أحوال ابن عباس، علي الأحراري، النجف الأشرف، ١٤٢٠هجرية، وموسوعة عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن، السيد محمد مهدي السيد حسن الموسوي الخرسان، مركز الأبحاث العقائدية، ١٤٢٨هـ، وكتاب ابن عباس وأموال البصرة، دراسة وتحليل، السيد جعفر مرتضى العاملي، المركز الإسلامي للدراسات، ٢٠٠٤.

[3] مقدمة في أصول التفسير، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني، ص٦١.

الله بن عباس لزومَ الظلِّ لصاحبه، فأخذ عنه القرآن وتفسيره، والحديث وغريبه، وتفقّه على يديه في الدين، وتعلّم منه التأويل, ودرس عليه اللغة، فتمّكن منها أعظم تمكين، حتى غدا وما على ظهر الأرض أحد من أهل زمانه إلا وهو محتاج إلى علمه، لقد بلغ القمة، ثم طاف في ديار المسلمين بحثاً عن المعرفة ما شاء الله أن يطوف([1]). فهو قول مبالغ فيه بشكل كبير، والقصد من وراء هذه الأقوال حرف النظر عن المعلم الحقيقي لسعيد، إذ هناك من هو أعلم من ابن عباس، وعلاقة سعيد به كانت أعمق من علاقته مع ابن عباس، هذا وقد جاء في كتاب إتحاف الخيرة المهرة، قولهم: "ولا نستطيع أن نحدد على وجه الدقة مدى التحق سعيد بن جبير ملازما لعبد الله بن عباس، لكننا يمكن أن نقدر أن ذلك تم وعمره في حدود الخامسة عشرة عاما، والذي يدعونا للاعتقاد بذلك هذه الرواية: "عن سعيد بن جبير، قال: قال لي ابن عباس، وذلك قبل أن يخرج وجهي: أتزوجت يا ابن جبير؟ قلت: وما أريد ذلك يومي هذا. قال: أما إنه سيخرج ما كان في صلبك من المستودعين". وعبارة قبل أن يخرج وجهي تعني: قبل أن ينبت شعر لحيتي، ولا يكون ذلك لمن هو أكثر من ستة عشرة من الأعوام والله أعلم"([2]).

هذه الرواية التي تؤكد حقيقة عمر سعيد آنذاك، تؤكد إذا ما صحت أمرا آخر، وهو أن سعيدا لم يكن ملازما لابن عباس بشكل دائم لأنه من غير المعقول أن يتأخر سؤال ابن عباس عن حالة سعيد الاجتماعية إلى هذا الوقت لو كان ملازما له. ثم إن الرواية تتحدث عن سعيد وهو في الثالثة أو الرابعة أو الخامسة عشر من عمره، وبما أن سعيد ولد عام ٤٥ هجرية فيعني أنها تتحدث عن عام ٥٩ أو ٦٠ وحتى ٦١ هجرية، فإذا كان سعيد مقيما مع ابن عباس في هذا الوقت، فلماذا لم يلتحق بالحسين (عليه السلام)؟ وفي أقل تقدير

---

[1] موقع موسوعة النابلسي، الدكتور محمد راتب النابلسي، الدرس ١٥ـ٢٠، سيرة التابعين الأجلاء، التابعي سعيد بن جبير، http://www.nabulsi.com/blue/ar/art.php?art=5316&id=114&sid=659&ssid=678&sssid=679

[2] إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري، ج٤/ص٥٦.

لماذا لم ينقل ولو حديثا واحدا عما دار بين الحسين وابن عباس من حديث، وما وقعت بينهما من أحداث وهي كثيرة؟

والذي أراه أن لابن عباس دورا لا ينكر في تنمية مدارك سعيد، وكذلك عكرمة مولى ابن عباس هو الآخر له دور في تنمية قدرات سعيد الفكرية، ولاسيما بعد زواج الأخير بأم سعيد، ذكر ابن حبّان في مشاهير علماء الأمصار: "أن عكرمة مولى ابن عباس كان متزوجاً من أم سعيد بن جبير"([1]). أما نوعية ما نقله عكرمة فله حديث آخر لا مجال له هنا، والظاهر أن ابن عباس ابتلي بمواليه الذين حدثوا عنه واتُهموا، وأنا هنا لا اشكك في إخلاصهم، ولكن لكونهم كانوا محدودي القدرات قبالة الكم الكبير الذي سمعوه من ابن عباس بحكم تواجدهم في بيته وسماعه عندما يتحدث مع الآخرين، فضلا عن حب الإنسان للظهور والتشوف والتعلق بما يمكن أن يرفع منزلته بين الناس، لم يتمكنوا من ضبط ما سمعوه، وتاهت الأمور من أيديهم، فاتهمهم الناس بالكذب. وغير عكرمة المتهم هناك متهم آخر من موالي ابن عباس هو "رشدين بن كريب"، قال عنه الذهبي في ميزان الاعتدال، ٢٧٨١: "منكر الحديث"، وقال ابن المديني وجماعة: "ضعيف"، وقال البخاري: "منكر الحديث"([2])، وقد دارت هذه الأحاديث بالرغم من أن بعض المؤرخين لم يذكروا عكرمة مع أساتذة سعيد. وقد يكون السبب في ذلك أن عكرمة هذا مطعون فيه، ومتهم بالكذب، ولا يحتمل أن يكون السبب في نضج عقيدة سعيد، إلا انه من غير المستبعد أن تكون له بصمة في تنمية قدرات سعيد. مع انه أصبح مضرب المثل بالكذب، جاء في الطبقات عن أبي هلال، قال: أخبرنا الحكم بن أبي إسحاق، قال: كنت جالسا إلى سعيد بن المسيب، فقال لمولى له: "اتق الله لا تكذب عليَّ كما كذب مولى ابن عباس على ابن عباس"([3]). وقد ذكر ابن سعد أن عليا بن عبد الله بن عباس باع عكرمة بعد موت والده إلى خالد بن يزيد بن معاوية، ثم استقاله، فأقاله، فأعتقه.([4]) وكان عكرمة يعترف علنا أن القوم يكذبونه، فعن

---

[1] مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار، ابن حبان، ص ٨٢.
[2] سير أعلام النبلاء، الذهبي،ج٤/ص٤٥٤ الهامش.
[3] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ترجمة سعيد بن المسيب، ج٥/ص١٣٥.
[4] ينظر : المصدر نفسه، ج٥/ص ٢٨٧، ترجمة عكرمة.

حماد بن زيد، عن أيوب، قال: قال عكرمة: "أرأيت هؤلاء الذين يكذبوني من خلفي، أفلا يكذبوني في وجهي؟ فإذا كذبوني في وجهي فقد والله كذبوني"([1]) وعن حماد بن زيد، قال رجل لأيوب: يا أبا بكر، عكرمة كان يتهم؟، قال: فسكت. ثم قال: أمّا أنا فإني لم أكن اتهمه"([2]). وعن طاووس، قال: "لو أن مولى ابن عباس هذا اتقى الله وكف من حديثه لشدت إليه المطايا"([3])، فضلا عن ذلك، كان عكرمة خارجيا، يرى رأي الخوارج، وطلبه مرة بعض ولاة المدينة فتغيب عند داود بن الحصين حتى مات عنده سنة سبع ومائة، وقيل سنة ست ومائة، وقيل سنة خمس ومائة وهو ابن ثمانين عاما([4]).

وقالوا: إن سعيدا فضلا عما أخذه عن ابن عباس، أخذ كذلك عن السيدة عائشة التي توفيت سنة ٥٧ وقيل ٥٨ هجرية. قال الذهبي في حديثه عن سنة سبع وخمسين: "وتوفيت قبله [أي قبل أبي هريرة] السيدة العالمة أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر"([5]). ودفنت بالبقيع؛ وهذا شبه محال لأن سعيدا لم يكن حينها قد تجاوز الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره، أي انه لم يبلغ الحلم بعد، ولم يبلغ العمر الذي يؤهله ليتتلمذ على يدها وينقل عنها، ولاسيما ذلك العدد الكبير من الأحاديث التي رواها عن طريقها، كما هو موجود في كتب الحديث.

والملحوظ أن هناك من يرى أن أبناء تلك الأجيال بالرغم من صغر أعمارهم، كانوا مؤهلين لتلقي العلم لأن بوادر النضج الفكري عند فتيان تلك العصور كانت تظهر في سن مبكرة، وان سعيدا حتى لو كان في الثالثة أو الرابعة أو الخامسة عشر من عمره حينها؛ فهو مؤهل لتحصيل العلم. وأرى أن أصحاب هذا الرأي يوقعون أنفسهم في إشكال كبير دون أن يشعروا بذلك، لأنهم إذا خصوا بهذه الصفة بعضا وحرموا بعضا منها يخالفون المنطق ويجانبون الحقيقة، وإذا عموها على الجميع، فمن الأولى أن تشمل بداية ما تشمل

[1] المصدر نفسه، الطبقات، ج٥/ص ٢٨٨ .
[2] المصدر نفسه، ج٥/ص ٢٨٩
[3] المصدر نفسه، ج٥/ص ٢٨٩- ٢٩٠.
[4] المصدر نفسه، ج٥/ص ٢٩٢- ٢٩٣.
[5] دول الإسلام، الذهبي، ص٣٥.

أول من أسلم في التاريخ وهو علي بن أبي طالب (عليه السلام) الذي اعتنق الإسلام في اليوم الثاني للبعثة؛ وعمرة ثلاثة أو أربعة أو خمسة عشر عاما على اختلاف الروايات، وبقي سنوات عديدة قبل أن يسلم غيره، ومع ذلك سلبوا منه صفة الأسبقية بسبب العمر لا أكثر، فلماذا ينزعون عنه صفة الأولوية؟ ويكتفي منصفهم، بالقول: إنه أول من أسلم من الصبيان، أو يقول كما قال الذهبي: "وهو أول من أسلم، أو أبو بكر على اختلاف فيهما"([1]).

تاريخيا لا يعرف يقينا متى ولد علي بن أبي طالب (عليه السلام)، لكن بحسب بعض مصادر التاريخ فإنه ولد بمكة وسط البيت يوم الجمعة الثالث عشر من رجب بعد ثلاثين عاما من عام الفيل، وعام الفيل هو العام الذي ولد فيه النبي محمد (صلى الله عليه وآله) حسب بعض الروايات، ولما كان النبي قد بعث وهو ابن أربعين عاما فمعنى ذلك أن عمر الإمام كان عشر سنوات، وهذا القول بعيد عن الاحتمال. لكن على العموم نجد هناك تعارضا في رواياتهم عن أول القوم إسلاما، وقد أوجزت مجلة (البحوث الإسلامية) تلك الآراء، فقالوا عن إسلام زيد: "وقيل: "إنه أسلم بعد عليّ بن أبي طالب (رض)، فكان أوّل ذكر أسلم، وصلى بعد علي بن أبي طالب. وقيل: أول مَنْ أسلم خديجة، وأسلم علي بن أبي طالب بعد خديجة، ثم أسلم بعده زيد، ثمّ أبو بكر (رضي الله عنهم). وقيل: أول مَنْ أسلم خديجة ، ثم آمن من الصبيان علي، ثم آمن من الرجال أبو بكر الصديق، ثم زيد بن حارثة"([2]).

وإيغالا في التقاتل على الأولوية نظرا لأهميتها استخدمت المجلة أسلوب التعليل والتأويل المعهود فهي بعد أن أكتفت من استخدام (قالوا) و (قيل) و(يقال) ذلك المصطلح الغريب المجهول الذي يمنعك عن التفكير في أصل القائل، أوردت رأيا على غرار الآراء التي جاء بها ابن العربي في كتابه (العواصم من القواصم) وقد قالوا في رأيهم ذاك: "ولا أرى تناقضا في تلك الآراء، فأوَّل مَنْ أسلم من النِّساء خديجة أم المؤمنين (رض)، وأوّل مَنْ

[1] ينظر: المصدر نفسه، ص ٢٤، سنة أربعين.
[2] مجلة البحوث الإسلامية، المملكة العربية السعودية، العدد الخامس عشر من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة ١٤٠٦هجرية، ص ٢١٠، بحوث تاريخية.

أسلم من الرّجال أبو بكر الصديق (رض)، وأوَّل مَنْ أسلم من الصبيان علي بن أبي طالب (رض)، وأول مَنْ أسلم من الموالي زيد بن حارثة (رض)، فهؤلاء هم الأوائل في الإسلام. وفي مسألة إسلام أولئك النفر السّابقين خلاف مشهور، ولكنّ تقديم زيد على الجميع ضعيف. ولا مسوّغ للخلاف، فكلّهم أوائل في الإسلام، كل فرد منهم الأوَّل على أمثاله من النَّاس، فإذا لم يكن زيد أوّل مَنْ أسلم ، فقد كان بالإجماع من أوائل مَنْ أسلم"([1]).

وبناء عليه أرى أن قاعدة عدم الالتفات إلى العمر إما أن تكون عامة شاملة لكل أبناء ذلك الجيل، وإما أن تكون مكذوبة جيء بها لغايات أخرى، فمن المستحيل أن يحصل التغيير في أقل من نصف قرن فيحرم أبناء الجيل الأول كعلي (عليه السلام) ويصبح أبناء الجيل الآخر من التابعين مؤهلون لتحصيل العلم؟ وفق هذه المعطيات أجد العقل والمنطق يمنعان أن يكون سعيد قد أخذ ذلك الكم الكبير من الأحاديث التي أخرجوها: (عن سعيد، عن أم المؤمنين عائشة)، نعم قد يكون سمع منها بعض الأحاديث التي بقيت عالقة في ذاكرته، وحينما نضج فكره استرجعها من عقله الباطن، وحدث بها. وهناك أكثر من رواية تؤكد على ان سعيدا كان لما يزل فتيا حينما كان يزور ابن عباس في مكة.

وفي حديثهم عن الذين أخذ عنهم سعيد علومه، قالوا كذلك: أخذ وروى عن عدي بن حاتم الطائي. وحاله مع عدي (رحمه الله) لا تختلف كثيرا عنها مع غيره، وتجد العوارض نفسها التي واجهتك في الحديث عمن سبق، تجدها تواجهك مع عدي، فعدي كما قال ابن حجر: "اسلم سنة تسع وقيل عشر للبعثة، ومات بعد الستين وقد أسن". وقال الذهبي في حديثه عن سنة سبع وستين: "مات عدي بن حاتم صاحب النبي"([2]) قال ابن خليفة: بلغ عشرين ومائة سنة، وقال السجستاني: بلغ مائة وثمانين. فإذا أخذنا بقول ابن خليفة فإن عديا مات سنة ستين عن مائة وعشرين عاما وهو شيخ هرم يكاد لا يتذكر شيئا وإذا تذكر فمن المؤكد انه لم يكن قادرا على ضبط الرواية والنقل. أما سعيد فكان حينها في السادسة عشر من عمره، أي أن حالة عدي الصحية والجسدية والنفسية ما كانت تؤهله لتعليم شاب

[1] المصدر نفسه، مجلة البحوث الإسلامية، ص ٢١٠، بحوث تاريخية.
[2] دول الإسلام، الذهبي، ص ٤٢.

صغير يافع بلغ الحلم لتوه، وهو الذي أنهكته السنين، وبذا لا يمكن أن يكون سعيد قد تعلم على يديه، نعم ممكن أن يكون قد روى عنه شيئا يسيرا جدا.

وقالوا أيضا: أخذ سعيد علمه عن الضحاك. وهناك ضحاكان، صحابي وتابعي. أما الضحاك الصحابي، فهو الضحاك بن قيس الفهري: مجهول وقد ضعفه علماء الجرح والتعديل، ولا يصلح أن يكون معلما لسعيد ولا لغيره. وأما الضحاك التابعي فهو الضحاك بن قيس، كان من قادة معاوية، عين واليا على الكوفة، وكانت ولايته سنتين ونصفا بعد زياد بن أبي سفيان([1]) وقُتل بمرج راهط في ذي الحجة سنة أربع وستين في خلافة مروان بن الحكم([2]) ويقال: إن عبد الملك بن مروان الذي بويع لثلاث خلون من ذي القعدة سنة أربع وستين لقيه بمرج راهط فقتله([3]). وهو الآخر لا يصلح أن يكون معلما لسعيد.

وقالوا: أخذ عن عبد الله بن قيس؛ أبو موسى الأشعري: وهذا في منتهى الغرابة لأن أبا موسى مات قبل ولادة سعيد، وفي الإصابة: قال البغوي: بلغني أن أبا موسى مات سنة اثنتين وقيل أربع وأربعين وهو ابن نيف وستين" وقال ابن أبي شيبة: "عاش ثلاثا وستين"،وقال الذهبي: "ومات أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس اليمني صاحب النبي (ص) في سنة أربع وأربعين"([4]) وقال الهيثم وغيره: "مات سنة خمسين". وبذا يستحيل أن يكون سعيد قد اخذ عنه علما، كيف وهو إذا أخذنا بقول الهيثم كان دون السادسة من العمر، وإذا أخذنا بباقي الأقوال لم يكن قد ولد بعد؟

وقالوا أخذ عن أبي هريرة الدوسي: وفي الإصابة: قال هشام بن عروة وخليفة وجماعة إن أبا هريرة: توفي سنة سبع وخمسين،([5]) وقال الذهبي في حديثه عن سنة سبع وخمسين: "مات صاحب رسول الله (ص) أبو هريرة الدوسي"([6]) وقال الهيثم وأبو معشر وضمرة بن ربيعة: مات سنة ثمان وخمسين، وقال الواقدي وأبو عبيد: مات سنة تسع وخمسين، وقد

---

[1] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص ٢٢، ترجمة جرير بن عبد الله.
[2] المصدر نفسه، ج٦/ص ٥٣، ترجمة النعمان بن بشير.
[3] ينظر المصدر نفسه، ج٥ /ص ٢٢٦ ترجمة عبد الملك بن مروان.
[4] دول الإسلام، الذهبي، ص ٣١
[5] الإصابة، ابن حجر، ج٤/ص٢٣٩٤، ترجمة أبي هريرة.
[6] دول الإسلام، الذهبي، ص ٣٥.

تردد البخاري فيه، فقال: مات سنة سبع وخمسين([1]). وعليه لا يصح أن يكون سعيد قد تتلمذ على يديه لأن سعيدا لم يكن قد بلغ الحلم بعد، وكان لما يزل طفلا صغيرا، وحاله معه كحاله مع من ماتوا في هذه التواريخ المتقدمة، أي قد يكون سمع بعض أحاديثهم من آخرين بالواسطة. فضلا عن ذلك معروف للقاصي والداني أن سعيدا في طفولته وصباه كان يسكن الكوفة، بينما كان أبو هريرة حينها في الشام مع معاوية، ولم أجد أي إشارة إلى أن سعيدا سواء حينما كان طفلا أو في أي وقت آخر قد ذهب إلى الشام.

وبعيدا عن كل هذه الاحتمالات هناك ظاهرة معروفة للجميع وهي ميل أبي هريرة الشديد إلى الأمويين وعمله معهم في زمن حكم الإمام علي (عليه السلام) وما بعده، واشتغاله مرسالا لمعاوية أحيانا، وتحدثه بأحاديث تنتقص من علي (عليه السلام) وتمتدح معاوية، ولذا يتحرج المتشيعون عامة من الصحابة والتابعين عن الأخذ عنه إلا ما ندر من روايات محددة بعينها لها قرائن أخرى، وقد ثبت أن سعيد بن جبير لم يأخذ عن أبي هريرة ولو حديثا واحدا، وحتى الحديث الذي ورد في بعض الكتب، هناك من شكك في سنده، وهذا ما أكده الأبنوسي، بقوله: "ليس لسعيد بن جُبيرٍ عن أَبي هُريرة شيء في الكتب الستة" هذا وقد أورد الأبنوسي هذا الحديث بسنده تحت رقم (٢٤) وهو: عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بْن جُبير ، عن أَبي هُريرة، قال: سمعت رسول اللَّهِ(ص)، يقول: "حضر ملَك الموت رجلا يموت، قال: فنظرت إلى قلْبه فلم أَجد فيه خيرا، فنظرت إلَى يديه ورجليه، فلمْ أَر خيرا، فلما أردت أَن أَجذب روحه، وجدت طرف لسانه لاصقا بحنكه، يقولُ: لا إله إلا اللَّهُ ، فغفر الله له، وأَدخله الجنّةَ". وهنا قال الأبنوسي: ليس لسعيد بن جبيرٍ، عن أَبي هريرة شيء في الْكتب الستةِ، وهذا الإسناد غير ثابت، فيه من لا يحتج به، وقد رواه الطبراني في كتَاب (الدعاء)، وفيه: "ثم شق عن قلبه، فلم يجد فيه شيئا، ثم فك لحييه، فوجد طرف لسانه لاصقا بحنكه يقول: لا إله إلا الله، فقال: وجبت لك الجنة بقولك كلمة الإخلاص"([2]).

---

[1] الإصابة، ابن حجر، ج٤/ص ٢٣٩٤.

[2] كتاب من فوائد أَبي محمد الأبنوسي، موسوعة الحديث، ص ٤، رقم الحديث: ٢٤.

وقالوا أخذ عن أبي مسعود البدري: وهو عقبة بن عمرو، قال ابن حجر: قال خليفة والمدائني: "مات سنة أربعين، والصحيح انه مات بعدها، فقد ثبت أنه أدرك إمارة المغيرة على الكوفة، وذلك بعد سنة أربعين قطعا. وقيل مات بالكوفة، وقيل مات بالمدينة المنورة"([1]) أي أنه هو الآخر مات قبل ولادة سعيد بسنين.

نعم لا أجد بأسا في أن يكون سعيد قد أخذ الشيء اليسير من عموميات الدين في الفقه والتفسير والحديث عن مجموعة من الصحابة، منهم: عبد الله بن عباس، الذي توفي عام ٦٨ هجرية، وعن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير اللذين ماتا في عام واحد سنة ٧٣ هجرية ودفنا بمكة، وعن سعد بن مالك بن سنان (أبو سعيد الخدري) الذي توفي سنة ٦٤ أو ٧٣ هجرية ودفن بالبقيع([2])، وعن أنس بن مالك الذي توفي سنة تسعين أو إحدى وتسعين على اختلاف الروايات. وعن عكرمة مولى ابن عباس ولاسيما بعد زواج الأخير بأم سعيد، فعمر سعيد يؤهله للأخذ عن هؤلاء. ولكنه بكل الأحوال لم يكن ملازما لهم مقيما عندهم بشكل دائم، وإنما كان يأتي أحدهم كلما سنحت له الفرصة. وهذا يدفعنا مرة أخرى للبحث عن المعلم الحقيقي لسعيد. إذا من علم سعيدا؟

فمن المعلم الحقيقي الذي تتلمذ سعيد على يديه؟

المعلمون الحقيقيون

أما من هم المعلمون الحقيقيون الذين تتلمذ سعيد على يدهم في هذه المدة؟ فذلك هو السر الكبير الذي أخفيت ملامحه. ولكن بالعودة إلى سيرة الإمام السجاد علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام) نجد أنه بعد سنة إحدى وستين هجرية، عاد من الأسر في الشام إلى المدينة المنورة، ثم هجرها واتخذ له خيمة بالبادية غير بعيد عنها، وأقام فيها ثلاث سنين بعيدا عن كل أنواع المماحكات، متفرغا للعبادة والبناء العقدي والتأمل وإعادة ترتيب البيت الشيعي، وحينما عاد إلى المدينة، ونقل رحله إليها غلَّق دونه الأبواب،

[1] الإصابة، ابن حجر، ج٢/ص ١٢٧٢، ترجمة عقبة بن عمرو بن عدي.

[2] الإصابة، ابن حجر، ج١/ص٧١٥، ترجمة سعد بن مالك بن سنان. وقال ابن حجر: وقال المدائني: مات سنة ثلاث وستين. وقال العسكري: مات سنة خمس وستين.

واكتفى بمجموعة من المخلصين عددهم أقل من أصابع الكف؛ يزورونه ويتلقون التعليمات منه، ويوصلونها إلى أتباعه المقربين، واستمر الحال بهذا الشكل عدة سنوات، ثم انفتح الإمام على عدد محدود آخر من خلص الصحابة، وحينما وصل سعيد ضمه الإمام إلى هذه النخبة، لما يعرفه فيه من حب لأهل البيت وولاء لهم، فكان من ضمن الخمسة الذين سترد عليكم الروايات بشأنهم. ومن يتابع ما أورده القراء من روايات عن عبد الله بن الزبير وإحجام سعيد يعرف هوى كل منهما، ويتأكد من أن هوى سعيد لم يكن مع ابن الزبير، بل كان مع غيره، وفي مراجعة بسيطة لتاريخ السيوطي تجد أسماء معروفة تروي فضائل ابن الزبير اسم سعيد ليس من بينها البتة([1]).

نعود ونسأل: من المعلم الحقيقي لسعيد؟ وما علاقة ذلك بموقف الأمويين منه؟ وهل كان تعلم سعيد على يد هذا المعلم سببا في قتله ذبحا؟ أسئلة في منتهى الأهمية والحساسية، ولها علاقة كبيرة ببحثنا، ونحن من خلال البحث في زوايا الاضطراب، نجد هناك من أراد أن يعمي على الأمة، ويُخفي أخبار المعلم الحقيقي الذي من دونه ما كان نجم سعيد ليبزغ في دنيا العلم بالشكل الذي هو عليه، نعم قد يكون مقدرا لسعيد ان يبرز في دنيا الفقه والحديث نظرا لما يتمتع به من مؤهلات، ولكن يستحيل أن يظهر سعيد بالصورة التي كان عليها إذا ما اكتفى بمن قالوا انه أخذ عنهم وتعلم على أيديهم، نظرا للخط الذي انتهجه سعيد، وهو على العموم مخالف لخطوط تلك الأسماء التي أوردوها.

نعم لا يمكن الجزم بوجوب إتباع طالب العلم لمعلمه عقديا، والخلاف العقدي في حينه لم يكن كما هو عليه اليوم، ولكن سلوك الإنسان وأسلوب عيشه ينبئان عن توجهه العقدي، ومن يقرا عن أسلوب عيش وسلوك سعيد يجده نابعا من اعتقاد يختلف عما كان يعتقد به من عدوهم أساتذة له، وكان نابعا من فكر مدرسة أهل البيت.

أعود وأسأل: هل اخذ سعيد كل علمه عن الصحابة والتابعين الذين مرت أسماؤهم علينا حقا؟ وإذا كان ذلك صحيحا، فلماذا خالفهم في المنهج وانحاز إلى أهل البيت وأخلص لهم

[1] تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص٢١٢- ٢١٤.

الولاء؟ وإذا أخذ عن الآخرين بعضا من علمه ورواياته، فإنه بكل تأكيد أخذ جل علمه من شخص آخر، فمن الشخص الخفي؟ من كان، ولماذا لا يذكرونه؟ لماذا يتكتمون على اسمه؟ إن مخالفة سعيد لمناهج معلميه الحقيقيين والمحتملين لا تنكر، ولابد وان هناك معلما آخر أكثر تأثيرا منهم على شخصية وعقيدة سعيد؛ تجاوزه الرواة والمؤرخون قصدا وتعمدا، هو الذي حدد معالم توجه سعيد العقدي والفكري، فمن هذا المعلم المجهول، ولماذا تجاوزوه ولم يذكروه؟ وبالتأكيد إذا ما عرفنا المعلم سوف نعرف أثره على سعيد، ولاسيما إذا ما كان علما من أعلام الأمة، يشار له بالبنان، لأنه وحيد عصره وفريد زمانه.

أولى وأهم وأثبت الروايات التي تشير إلى علاقة سعيد بهذا المعلم نجدها في رجال الكشي، وهما روايتان، واحدة منهما عن الفضل بن شاذان، قال: "إنه لم يكن في زمن علي بن الحسين (عليهما السلام)(٣٨- ٩٥ هـ) في أول أمره إلا خمسة أنفس: سعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب، ومحمد بن جبير بن مطعم، ويحيى بن أم طويل، وأبو خالد الكابلي، واسمه وردان"([1]). وقد أكد البرقي هذا الخبر في رجاله، فقال: "سعيد بن جبير من أصحاب الإمام علي بن الحسين(ع)"([2]).

والرواية في قولها: (في أول أمره) تعني أول أيام إمامته، بعد أن عاد من طف كربلاء والأسر الأموي، وسكن المدينة أياما، ثم لجأ إلى الصحراء معتزلا ليعيد ترتيب أولياته ويبني الطريقة التي يجب أن يقود الأمة من خلالها في تلك الضوضاء التي طغت على الحياة. معنى هذا أنهم يتحدثون عن سنة ٦١ هجرية وما تلاها وهي حقبة في منتهى الحرج والخطورة، حتى أن الإمام كان يموه على أصحابه بالرغم من قلتهم لكيلا تعرفهم السلطة فتعاقبهم وتطاردهم وتقتلهم، وبالتالي ما كان متاحا لأحد من خارج هذه الحلقة الضيقة أن يعرفهم ويشخصهم.

والرواية الثانية؛ ما صح عن الإمام الصادق (عليه السلام) من قوله: "إن سعيد بن جبير كان يأتم بعلي بن الحسين، فكان علي يثني عليه. وما كان سبب قتل الحجاج له إلا على

---

[1] اختيار معرفة الرجال المعروف بـ رجال الكشي، الشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي، ص ١١٥، الرقم ١٨٤.

[2] رجال البرقي، أحمد بن محمد بن خالد البرقي، ج١/ ص٨.

هذا الأمر، وكان مستقيما". وقد أورده الشيخ الطوسي في رجاله، بصيغة: " أبو المغيرة، قال: حدثني الفضل، عن ابن أبي عمير، عن هشام بن سالم عن أبي عبدالله (عليه السلام) أن سعيد بن جبير كان يأتم بعلي بن الحسين (عليه السلام) وكان علي (عليه السلام) يثني عليه، وما كان سبب قتل الحجاج له إلا على هذا الأمر([1]) وفي مركز الأبحاث العقائدية نجد قولهم: "وقد اعتمد هذا الرأي أبو داود في رجاله ج١/ص١٦٩ والعلامة الحلي في رجاله أيضا ج١/ص٧٩ ([2]).

تحريف روايات التلمذة

ولا توفتني الإشارة إلى أن الروايات التي أثبتت تتلمذ سعيد على يد الإمام زين العابدين (عليه السلام) تعرضت إلى نوعين من التحريف والتزييف: قديم وحديث، والغاية من ذلك خلق حدود وهمية تبعد سعيدا عن الإمام زين العابدين. التحريف الحديث منه كان كثيرا جدا، وصل إلى درجة التسقيط. ومع أننا نرى أن من حق الناس أن يشكوا في أي أمر إلا وحدانية الله تعالى، فالشك قد يوصل إلى اليقين، ولكن ليس من حقهم أن يشككوا في أمرٍ ما، إذا ما ثبتت حقيقته عن طريق أهل البيت (عليهم السلام) أمناء الله على وحيه ودينه، ولكننا نجد هناك من لا يرغب بمغادرة حالة الاضطراب القديم، فيعمل على سحبه على واقعنا المعاصر من خلال استخدام بعض التقنيات البالية، لمجرد انه لا يرغب بأن يسمع عن سعيد انه تتلمذ على يد الإمام السجاد (عليه السلام) مثلا؛ حتى ولو كان رأيه سببا للطعن بمجموعة من التابعين الكرام المشهورين والمتفق على نبوغهم العلمي، كما في قول أحدهم: "أما سعيد بن جبير فهو مجهول لا قيمة له والروايات المعتمدة في توثيقه ساقطة" ثم يذكر رواية ابن شاذان ويقول عنها: "قلت: يوجد انقطاع بين الكشي والفضل بن شاذان، فالرواية لا تصح عنه. ولو صحت فهي لا تدل على التحسين فضلا على التوثيق، لأنه مع

---

[1] اختيار معرفة الرجال، الطوسي، ص ١١٩، رقم ١٩٠.

[2] ينظر: مركز الأبحاث العقائدية/http://www.aqaed.com/faq/٦٥٧٠ وللإفادة يراجع كتاب المفيد من معجم رجال الحديث، محمد الجواهري، ط٢، المحلاتي، قم، المطبعة العلمية،١٤٢٤ هـ. ق.

وجود هذه الرواية فقد حكم الجواهري بجهالة سعيد بن جبير"([1]) هكذا وبكل بساطة ما دام يعتقد أن الجواهري حكم بجهالة سعيد؛ فحكمه قرآن منزل ولا يجوز الطعن به حتى إذا ما تعارضت معه مئات الأقوال الأخرى التي توثق سعيد وتقر بعلمه.!

وتجد في مركز الأبحاث العقائدية ردا على من ضّعف سعيد، جاء فيه: "لكن الرجل الذي ضعف سعيدا وجَهّلَه يأبى إلا تكذيب هذه الرواية، وكل رواية تذكر تتلمذ سعيد على يد الإمام السجاد (عليه السلام) فيقول: "الرواية لا تصح فيها أبو المغيرة وهو مجهول، حكم العلماء بجهالة أبو المغيرة الراوي" متخذا من قول الجواهري "أبو المغيرة: وقع في سند رواية رواها الكشي في ترجمة سعيد بن جبير،مجهول"([2]).

وهم يحاولون دائما النيل من سعيد، ويؤولون تقديمه على أصحاب ابن عباس تأويلا مضحكا، فيرون أن تقديمه على أصحاب ابن عباس؛ إنما جاء من جانب الأحكام الفقهية فقط، وليس تفضيلا مطلقا، فقالوا: "تابعي ثقة سكن الكوفة. وكان علي بن المديني يقدمه على سائر أصحاب عبد الله بن عباس، وربما قصد الأحكام الفقهية فقط"([3]). فضلا عن ذلك حاولوا أن يلصقوا به ما فشي في المجتمع الإسلامي من إسرائيليات، فقالوا: "وهو أكثر الرواة عنه رواية، وأكثرُ التابعين من المكيين عناية بالإسرائيليات. وجل ما جاء عن ابن عباس من الإسرائيليات من طريقه"([4]). كما عدو أحاديث سعيد في الغيبيات من أسباب الضعف، فقالوا: "وقد أكثر من حكاية الغيبيات من أخبار السابقين والقيامة عن عبد الله بن عباس"([5]).

أما التحريف القديم منه فيعتمد على نوعٍ من التحريف والخلط المعروف من خلال عكس الحقائق وتغيير المفاهيم، حتى لو كانت خارج حدود العقل، فالمهم أن أجداد المعاصرين الذين يعملون على تشويه سيرة سعيد؛ هم أيضا حاولوا من جانبهم تسقيط روايات تتلمذ

---

[1] ينظر: مركز الأبحاث العقائدية/http://www.aqaed.com/faq/٦٥٧٠

[2] مركز الأبحاث العقائدية

[3] ينظر: تخريج أسانيد التفسير، الرابط http://www.ibnamin.com/tafsir_takhrij.htm

[4] المصدر نفسه، تخريج أسانيد التفسير

[5] المصدر نفسه

سعيد على يد الإمام السجاد (عليه السلام) ولكن بأسلوب آخر، حيث عكسوا الصورة، وقلبوا الموضوع، ليبدو الإمام السجاد (عليه السلام) هو المحتاج إلى علم سعيد، فهم إيغالا في تشويه الحقيقة، وبغية اللبس على الناس، جاءوا بأمر غريب، إذ ادعوا أن علي بن الحسين الإمام المعصوم المشهود له بالعلم والورع والتقوى والكرم، الذي جاء بحقه عن أبي الزبير، قال: كنا عند جابر بن عبد الله، فدخل عليه علي بن الحسين، فقال: كنت عند رسول الله(ص)، فدخل عليه الحسين بن علي، فضمه إليه وقبله، وأقعده إلى جنبه، ثم قال: "يولد لابني هذا ابن يقال له علي، إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش ليقم سيد العابدين فيقوم هو"[١]. والذي قال عنه أبو حازم المدني كما نقل عنه السيد حيدر وتوت: "ما رأيت هاشميا أفقه من علي بن الحسين"[٢]. ووصفه أبو بكر بن البرقي، بأنه: "كان أفضل أهل زمانه" [٣]. وقال ابن كثير: "وكان علي بالمدينة محترما معظما... قال الزهري: ما رأيت قرشيا أورع منه، ولا أفضل... وقال الواقدي: "كان من أورع الناس وأعبدهم وأتقاهم لله عز وجل"[٤]. وقال عنه أبو نعيم: "علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم زين العابدين، ومنار القانتين، كان عابدا وفيا، وجوادا حفيا"[٥]. وقال ابن عيينة، عن الزهري، قال: "ما كان أكثر مجالستي مع علي بن الحسين، وما رأيت أحدا أفقه منه، ولكنه كان قليل الحديث"[٦]. وقال المؤرخون مثل ذلك وأكثر، كان هو المحتاج إلى علم سعيد وليس العكس! فأخرج ابن سعد في الطبقات: "أخبرنا أبو معاوية الضرير عن الأعمش عن مسعود بن مالك، قال: قال لي علي بن حسين: "ما فعل سعيد بن جبير؟ قال: قلت: صالح، قال: ذاك رجل كان يمر بنا فنُسائلهُ عن

---

[١] البداية والنهاية،ابن كثير، م٥،ج٩/ص ١٢٩.
[٢] المزارات ومراقد العلماء في الحلة الفيحاء، السيد حيدر بن السيد موسى وتوت الحسيني.
[٣] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص٣٣٥
[٤] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥، ج٩/ص ١٢٧
[٥] حلية الأولياء، أبو نعيم، ج٣/ص ١٣٣، ترجمة زين العابدين.
[٦] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ ص٣٣٤

فرائض وأشياء ينفعنا الله بها، إنه ليس عندنا ما يرمينا به هؤلاء، وأشار بيده إلى العراق"([1]).

لاحظ هنا أن تأخيرهم سعيدا وتقليل أهميته، وعده أقل علما من باقي التابعين، وانتقاص البعض منه، والحط من قدره، وخفض مركزه، كما في الأقوال التي مرت عليكم، ومنها فضلا عن ذلك قولهم: عن ليث، عن طاووس، قال: "كان يذكر عن ابن عباس: الخلع طلاق. فكره سعيد بن جبير، فلقيه طاووس، فقال: لقد قرأت القرآن قبل أن تولد، ولقد سمعته وأنت إذ ذاك همك لقم الثريد"([2]). بكل ما في هذا الحديث من تصغير لسعيد، ومن ثم إتيانهم بهذا الحديث، الذي يبين أن علي بن الحسين (عليه السلام) كان يتعلم من سعيد ويحتاج إلى علمه، إنما أرادوا من خلاله القول: إن علم الإمام علي بن الحسين أقل من أقل علماء التابعين، وبالتأكيد جاءت نهاية هذا الحديث لتثبت الغاية من وضعه، وهي قولهم إن علي بن الحسين، قال:" إنه ليس عندنا ما يرمينا به هؤلاء، وأشار بيده إلى العراق" على اعتبار أن أهل العراق من الشيعة كانوا يعتبرون الإمام عالما غير معلم ولا يحتاج إلى العلم الموجود بين أيدي الناس.

أود التنويه إلى أن مصطلح "العلم" الذي يتكرر هنا ونتحدث عنه إنما المقصود به هو: علوم القرآن والشريعة والحديث والسنة، وليس علوم الفيزياء والكيمياء والاقتصاد والسياسة والطب وغيرها، وهناك في كتب التاريخ والسير والعقائد والعبادات ما يثبت أن علي بن الحسين كان أعلم أهل زمانه قاطبة بعلوم الدين فضلا عن العلوم الأخرى، وكان سعيد وجل الذين تعلم سعيد بن جبير على أيديهم يأخذون علمهم عن زين العابدين (عليه السلام)، ومن الدلائل على ذلك، وهي كثيرة، ما أخرجه ابن كثير في الكامل: "روى سفيان بن عيينة، عن الزهري، قال: دخلت على علي بن الحسين، فقال: يا زهري فيم كنتم؟ قلت: كنا نتذاكر الصوم، فأجمع رأيي ورأي أصحابي على أنه ليس من الصوم شيء واجب إلا شهر رمضان، فقال: ليس كما قلتم، الصوم على أربعين وجها، عشرة منها واجب كوجوب

[1] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٥/ص ٢١٦ الطبقة الثانية من التابعين، ترجمة علي بن حسين.

[2] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٥/ص٥٤٠ ترجمة طاووس بن كيسان.

شهر رمضان، وعشرة منها حرام، وأربع عشرة منها صاحبها بالخيار، إن شاء صام وإن شاء أفطر، وصوم الفطر واجب وصوم الاعتكاف واجب، قال الزهري: قلت: فسرهن يا ابن رسول الله (ص)... الحديث"([1]).

وفي رواية تشهير أخرى أرادوا من خلالها النيل من الإمام زين العابدين (عليه السلام) أوردها ابن كثير، عن مالك بن دينار، وليس عن مالك بن دينار صاحب الرواية الأولى. قال مالك بن دينار: قال لي علي بن الحسين: "أتستطيع أن تجمع بيني وبين سعيد بن جبير؟ فقلت: ما تصنع به؟ قال: أريد أن أسأله عن أشياء ينفعنا الله بها ولا منقصة، إنه ليس عندنا ما يرمينا به هؤلاء، وأشار بيده إلى العراق"([2]) وهنا تبدو الصورة وكأن علي بن الحسين (عليه السلام) يتوسل مالك بن دينار ليهيئ له قبول سعيد زيارة الإمام له والتعلم منه، وهي صورة لا تقل غرابة ومخالفة عن الصورة الأولى. ولكن الله يأبى أن تزيف الحقائق؛ فيهيئ لها من يكشفها حتى دون أن يقصد الفاعل ذلك، فهذه الروايات التي تبدو قادحة في الإمام المعصوم تجد الحقيقة التي تدمغها في سير أعلام النبلاء، حيث تكتشف التلاعب الكبير من خلال تحريف وتبديل بعض الكلمات، أورد الذهبي عن الأعمش، عن مسعود بن مالك، قال: قال لي علي بن الحسين: تستطيع أن تجمع بيني وبين سعيد بن جبير؟ قلت: ما حاجتك إليه؟ قال: أشياء أريد أن أسأله عنها، إن الناس يأتوننا بما ليس عندنا"([3]) ويتبين من هذا النقل، ما يلي:

١ـ أن سعيد كان مقيما في الكوفة ويزور الإمام في المدينة بين حين وآخر، وأنه كان قد تأخر عن الإمام.

٢ـ أن هناك علاقة خاصة متينة تربط سعيدا بالإمام زين العابدين.

٣ـ أن لسعيد مكانة محلها الثقة عند الإمام.

٤ـ أن سعيد كان يتابع حركة التشيع في الكوفة وينقل أخبارها إلى الإمام.

---

[1] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥،ج٩/ص١٣٩ـ١٤٠.
[2] المصدر نفسه، م٥، ج ٩/ص ١٢٩.
[3] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص٣٣٤، ترجمة علي بن الحسين.

٥ـ أن هناك بعض شيعة الكوفة كانوا يزورون الإمام في المدينة وينقلون له أخبارا وأحاديث من نوع خاص.
٦ـ أن هناك بالكوفة بعض الغلاة يسيئون للإمام بإدعاءات لا يرضى عنها.
٧ـ أن الإمام كان يريد أن يتأكد من أقوال هؤلاء وما نقله له الآخرون عنهم من سعيد بالذات لأنه محل ثقة عنده، ولا علاقة من قريب أو بعيد بطلب العلم والتعلم.
المهم أن الجانب التحريفي يذهب لأبعد من ذلك معتمدا على كم من الأحاديث والروايات الموضوعة الأخرى التي تحاول أن تظهر الإمام زين العابدين انه كان محتاجا لما في أيدي الناس من علم، ففي رواية أخرى، أخرجها ابن سعد عن مالك بن أنس، أن الإمام ذهب إلى عبيد الله بن عبد الله بن مسعود يسأله؛ وهو يصلي، فجلس [زين العابدين] حتى فرغ عبيد الله، فقال له أصحابه: "أمتع الله بك، جاءك هذا الرجل وهو ابن ابنة رسول الله يسألك، فلم تُقبِل عليه لتقضي حاجته؛ وأقبلت على ما أنت فيه؟ فقال: هيهات، لابد لمن طلب شيئا من أن يتعنى"([1]) أي أن علي بن الحسين الذي جاء يطلب العلم عند عبيد الله يجب أن يناله العناء والتعب في طلب العلم وكأن الرجل يريد أن يربي علي بن الحسين سليل الدوحة المحمدية.!
وفي رواية أخرى قال ابن سعد في طبقاته إن الإمام كان يجالس (أسلم) مولى عمر بن الخطاب ليتعلم منه؛ فلاموه على ذلك، فتعلل لهم بأنه يريد أن ينتفع، والرواية كما وردت: "وكان يجالس أسلم مولى عمر، فقال له رجل من قريش: تدع قريشا وتجالس عبد بني عدي؟ فقال علي: إنما يجلس الرجل حيث ينتفع"([2]) ومع انه حتى لو صحت هذه الرواية، فليس فيها ما يشير إلى أن الإمام كان يريد تحصيل العلم من أسلم، إلا أنهم أرادوا توظيفها في هذا المعنى بالذات.
بقي أمر في غاية الأهمية وهو اختلاف العلماء في سعيد، فعده بعضهم من أصحاب السجاد ولم يعده الآخر منهم، وقد يحتج البعض بأن الكشي في رجاله ذكر سعيدا مع أصحاب

[1] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٥/ص ٢١٥ـ٢١٦.
[2] المصدر نفسه، ج ٥/ص ٢١٦

السجاد كما في حديث الفضل بن شاذان، قال، قال أبو عبد الله (عليه السلام): "ولم يكن في زمن علي بن الحسين (عليه السلام) في أول أمره إلا خمسة أنفس: سعيد بن جبير، سعيد بن المسيب، محمد بن جبير ابن مطعم، يحيى بن أم الطويل، أبو خالد الكابلي"([1]). وهناك رواية أخرى ينسبها البعض إلى الشيخ المفيد لا تعد سعيدا منهم، قال الشيخ المفيد: "أصحاب علي بن الحسين (عليهما السلام): "أبو خالد الكابلي كنكر، ويقال اسمه: وردان، يحيى بن أم الطويل، المطعم، سعيد بن المسيب المخزومي، حكيم بن جبير". وسترد رواية ثالثة للشيخ المفيد لاحقا عند حديثنا عن سعيد بن المسيب. والغريب أن الشيخ المفيد في الاختصاص لم يعده أيضا من أصحاب الإمامين الباقر والصادق (عليهما السلام). وفي هذا القول ما يدعو إلى التأمل من عدة جهات:

الجهة الأولى: أن الرواية المنسوبة إلى الشيخ رحمه الله فيها خلط في الأسماء، فذكر (المطعم) و(حكيم بن جبير الأسدي) على أنهما شخصان، والصحيح أنهما شخص واحد، هو (محمد بن جبير بن مطعم) أما حكيم بن جبير الأسدي فهو مولى آل الحكم بن أبي العاص الثقفي، من رجال الطبقة الخامسة، رمي بالتشيع. وفي تقريب التهذيب: "حكيم بن جبير الأسدي، وقيل مولى ثقيف الكوفي، ضعيف، رمي بالتشيع من الخامسة" أي من الطبقة الخامسة ([2]).

وسعيد بن جبير أسن وأكبر منه، فقد روى عن سعيد بن جبير كما في تهذيب الكمال: "روى عن إبراهيم النخعي وجميع بن عمير التيمي والحسن بن سعد مولى الحسن بن علي وذكوان أبي صالح السمان وسالم بن أبي الجعد وسعيد بن جبير ...."([3]).

ومع أن حكيم بن جبير شيعي معروف، لكن لا يحتمل أن يكون من أصحاب الإمام زين العابدين المقربين ومن هم بدرجة سعيد بن جبير. وإذا ما كان سعيد بن جبير كاملا موزونا

---

[1] اختيار معرفة الرجال،أبي جعفر الطوسي، صفحة ١١٥.
[2] تقريب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، ج ١/ص ١٧٦.
[3] تهذيب الكمال في أسماء الرجال، جمال الدين بن أبي الحجاج يوسف المزي، ج ٧/ص ١٦٥.

حتى وهو يعرض على سيف الحجاج، فإن هناك من يُضعِّفُ حكيم ويتهمه بالخلط والاضطراب، نعم جاءت بعض أقوالهم بسبب تشيع الرجل لا أكثر، ولكن بعضها لا يمكن نكرانه، وأقوالهم فيه كثيرة، لم يرد في سعيد مثلها، ومنها قول العسقلاني في تهذيب التهذيب: "قال أحمد: ضعيف الحديث مضطرب، وقال ابن معين: ليس بشيء، وقال ابن المديني: سألت يحيى بن سعيد عنه فقال: كم روى، إنما روى شيئا يسيرا، قلت: من تركه؟ قال: شعبة من أجل حديث الصدقة، يعني حديث: من سأل وله ما يغنيه، وقال معاذ بن معاذ: قلت لشعبة حدثني بحديث حكيم بن جبير؟ قال: أخاف النار، وقال القطان عن شعبة نحو ذلك، وقال يعقوب بن شيبة: ضعيف الحديث، وقال الجوزجاني: قرأت، وقال بن أبي حاتم: سألت أبا زرعة عنه، فقال في رأيه شيء، قلت ما محله؟ قال: الصدق إن شاء الله، وقال أبو حاتم: ضعيف الحديث منكر الحديث له رأي غير محمود نسأل الله السلامة، غالٍ في التشيع، وقال البخاري: كان شعبة يتكلم فيه، وقال النسائي: ليس بالقوي، وقال الدارقطني: متروك([1])، وبذا يصبح العدد أربعة، ولابد وان هذا الخلط أسقط اسم خامسهم. إن مجرد رواية حكيم بن جبير عن سعيد تؤكد أنه جاء بعد سعيد بزمن، وهو وإن كان شيعيا مخلصا إلا انه لم يكن من الأصحاب الخمسة الخلص للإمام السجاد (عليه السلام).

الجهة الثانية: أرى أنه حدث خلط آخر بين اسمي (حكيم بن جبير الأسدي) و (سعيد بن جبير الأسدي) وقد أبدل (سعيد) إلى (حكيم) سهوا أو خلطا أو تصحيفا وربما بسبب تشابه اسم الأب والعشيرة عند سعيد ومحمد وهو (جبير).

الجهة الثالثة: أرى أن الذي دفع أصحاب الرواية إلى تحميل الشيخ المفيد عدم عد سعيد بن جبير في أصحاب الإمامين الباقر والصادق (عليهما السلام) هو الجهل وإلا فإن سعيدا كان حينها مطاردا منفيا متخفيا يلجأ مرة إلى بلاد فارس وأخرى إلى الحرم المكي، قال

[1] تهذيب التهذيب، العسقلاني ،ج٢/ص ٣٨٣

ابن كثير: "واستمر في هذا الحال مختفياً من الحجاج قريباً من اثنتي عشرة سنة"([1]) وكان قبل ذلك بعيدا عنهما لأنهما كانا في المدينة، وكان هو في الكوفة، ولاسيما بعد أن عينه الحجاج قاضيا عليها، ثم عزله متحججا باعتراض الناس عليه، لأنه ليس عربي الأصل، فعينه كاتبا للقاضي الجديد عامر بن عبد الله بن قيس أبو بردة الأشعري، واستشهد بعد كل تلك السنين من الغربة فلم يظهر في جلسات وحلقات درس الأئمة ولم يبدو كأحد المقربين منهم، لكن هذا لا يمنع أن يكون من أقرب خواصهم، ومن أتباعهم الخلص، بل قد يكون الإمام الباقر (عليه السلام) هو الذي أرسله مع الحجاج إلى واسط سنة ٧٥ هجرية مثلما أرسل جابر بن يزيد الجعفي إلى الكوفة، فالمعروف أن جابر الجعفي كان من حواريي الإمام الباقر (عليه السلام)، وأرسله إلى الكوفة ليقوم بنشر علوم أهل البيت (عليهم السلام) بعد استشهاد سعيد، بل إن إرساله بعد استشهاد سعيد يؤكد أنه (عليه السلام) كان قد أرسل سعيدا في هذه المهمة.

فضلا عن ذلك هناك شواهد كثيرة أخرى تدل على علاقة سعيد بمنهج الإمامة المعصومة، تمتد عبر كل صفحات سيرة سعيد إلى صفحة وقوفه أمام الحجاج استعدادا للذبح، فلقد أثبت سعيد تشيعه من خلال حواره الأخير مع الحجاج، وأثبت الحوار نفسه أن الحجاج كان يعرف تشيع سعيد، حيث نقل الطوسي في كتاب اختيار معرفة الرجال: أن الحجاج سأل سعيدا وهو يحاكمه: "فما قولك في الخلفاء؟ أي الراشدين باعتبار أن هناك من يرى أن موقف الشيعة من الخلفاء الراشدين مغاير لما هو عليه عند غيرهم.!

قال: لست عليهم بوكيل.

قال أيهم أحب إليك؟

قال: أرضاهم لخالقي.

قال: أيهم أرضى للخالق؟ قال: علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم.

قال: أبيت أن تصدقني.

---

[1] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥،ج٩/ص ١١٩.

قال: بلى لم أحب أن أكذبك"([1]).

فهذا الحوار يثبت بما لا يقبل الشك أن سعيدا كان من أتباع مذهب أهل البيت، وانه مات بسبب ولائه لهم.

ومن الأدلة القوية على تشيع سعيد أنه كان يروي أحاديث النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) بخصوص أهل البيت (عليهم السلام)، ويروي عنهم ما يختلفون به مع غيرهم، في وقت أحجم كثير من أبناء ذلك المجتمع عن رواية مثل تلك الأخبار، وإذا ما أضطر أحدهم لذلك كان يموه على اسم علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فيقول: حدثني أبو زينب أو عن فلان عن أبي زينب. كما أحجم البخاري ومسلم وكثيرون غيرهم عن ذكر مئات الأحاديث الصحيحة التي تخصهم، أو الواردة عن طريقهم. ولسعيد الكثير من الروايات في هذا الباب.

ولأهمية علاقة التابعين بمعلميهم، وما يؤكد أن تلك العلاقة كانت غالبا تحدد نوع ولاء التابعي، أن الإمام علي بن الحسين حينما مات ووضع ليصلى عليه، أقشع الناس إليه وأهل المسجد ليشهدوه، وبقي سعيد بن المسيب في المسجد وحده، فقال خشرم: يا أبا محمد ألا تشهد هذا الرجل الصالح في البيت الصالح؟ فقال سعيد بن المسيب: "أصلي ركعتين في المسجد أحب إليَّ من أن أشهد هذا الرجل"([2]) حيث يتبين من هذا النقل أن ابن المسيب لم يكن مهتما بموت الإمام السجاد، وكأن لا علاقة تربطهما مثل علاقة سعيد بالإمام، وانه كان مهتما بصلاة التطوع أكثر من اهتمامه بحضور جنازة هذا العظيم؛ التي عدها امرأ ثانويا، هنا تقف محتارا بين موقف ابن المسيب هذا وبين رواية الكشي الذي عده كسعيد من ضمن أول خمسة كانوا من أصحاب السجاد، وهذا قد يثبت تهافت تلك الرواية وبالتالي يسقط سعيد بت جبير وسعيد بن المسيب كلاهما من معادلة أصحاب السجاد. لكن حتى لو صح هذا السقوط فهناك دلائل كثيرة تدل على صحة تخلف ابن المسيب عن السجاد وصحة إتباع سعيد بن جبير للإمام السجاد، وقد يكون ابن المسيب قد ارتد هو الآخر كما

[1] رجال الكشي، أبى جعفر محمد بن الحسن الطوسى، ص ١١٧، رقم ١٨٩ والاختصاص، الشيخ المفيد، ص١٨٠ــ ١٨١.

[2] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٥/ ص٢٢٢.

ارتد الشعبي. ومن يبحث في سيرة ابن المسيب وعلاقته بالأمويين يدرك السبب، ففضلا عن رواية الصلاة؛ جاء عن ابن كثير في حديثه عن سنة أربع وستين للهجرة: قال المدائني: "وجيء إلى مسلم بسعيد بن المسيب، فقال له: بايع، فقال: أبايع على سيرة أبي بكر وعمر، فأمر بضرب عنقه، فشهد رجل أنه مجنون فخلى سبيله"([1]) كما جاء في طبقات ابن سعد أن هشام بن إسماعيل وليَّ المدينة لعبد الملك بن مروان، ولما عقد عبد الملك البيعة لولده الوليد قبل أن يموت، دعا هشام سعيد بن المسيب إلى بيعة الوليد بن عبد الملك؛ فأبى سعيد بن المسيب وقال: انظر ما يصنع الناس، فضربه وطاف به وحبسه، فبلغ ذلك عبد الملك، فأنكر عليه، ولم يرضه من فعله، وقال: ما له ولسعيد، ما عند سعيد خلاف"([2]). وهي شهادة صريحة أن الرجل لم يكن مخالفا للأمويين بل كان على عقيدتهم، ولذا لم يهتم لموت زين العابدين ولم يخف للصلاة عليه مع الناس.

كما أن ابن المسيب على خلاف سعيد بن جبير؛ كان يروي ويحدث بما يتناغم مع توجهات الأمويين، ويعرض عما يسر العلويين، ومنه في إدعائهم أن عمر بن عبد العزيز هو المهدي، جاء في الطبقات: عن عبد الجبار بن أبي معن، قال: سمعت سعيد بن المسيب، وسأله رجل، فقال له: يا أبا محمد من المهدي؟ فقال له سعيد: أدخلت دار مروان؟ قال: لا، قال: فادخل دار مروان تر المهدي. قال: فأذن عمر بن عبد العزيز للناس فانطلق الرجل حتى دخل دار مروان فرأى الأمير والناس مجتمعين، ثم رجع إلى سعيد بن المسيب، فقال: يا أبا محمد دخلت دار مروان فلم أر أحدا أقول هذا المهدي. فقال سعيد بن المسيب وأنا اسمع: هل رأيت الأشج عمر بن عبد العزيز القاعد على السرير؟ قال: نعم، قال: فهو المهدي([3]).

---

[1] البداية والنهاية، ابن كثير، م٤، ج٨/ص٦١٩.
[2] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٥/ ص٢٤٤ .
[3] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٥/ ص٣٣٣.

ومنه أيضا: عن حبيب بن هند الأسلمي: قال: قال لي سعيد بن المسيب: إنما الخلفاء ثلاثة: أبو بكر وعمر وعمر بن عبد العزيز، قلت له: أبو بكر وعمر قد عرفناهما، فمن عمر؟ قال:إن عشت أدركته، وان مت كان بعدك، قلت: ومات ابن المسيب قبل خلافة عمر" ([1]).

فضلا عن ذلك يذكر أكثر من واحد من المؤرخين ان ابن المسيب كان يكره الخروج على يزيد بن معاوية، وامتنع عن الإسهام في وقعة الحرة([2]) لهذا السبب لا لغيره.

لكنك مع ذلك تجد الكشي قد نقل عن القاسم بن محمد الأصفهاني، عن سليمان بن داود المنقري، عن محمد بن عمر، قال أخبرني أبو مروان، عن أبي جعفر، قال: سمعت علي بن الحسين (عليه السلام) يقول: سعيد بن المسيب أعلم الناس بما تقدمه من الآثار وأفهمهم في زمانه"([3]). ومن تناقض هذا القول الذي جاء داعما للقول الذي جاء فيه أن ابن المسيب من أصحاب السجاد مع ما سبقه من قول لابن المسيب عن مهدوية عمر بن عبد العزيز يتأكد أن ابن المسيب كان أقرب إلى الأموية منه إلى العلوية بأشواط، هذا رأيي أقوله صراحة رغم أنه سيلقى معارضة شديدة.!

بينما نجد تابعيا آخر من الجيل نفسه، ويكاد يكون مؤمنا بنفس توجهات ابن المسيب، لكنه يخالفه في موقفه من الصلاة على الرجل الصالح زين العابدين، ويعد شهود جنازة الأتقياء الصالحين أكثر أهمية من صلاة التطوع، في طبقات ابن سعد، عن الصلاة على جنازة الإمام زين العابدين(عليه السلام)، عن عثيم بن نسطاس، قال: رأيت سليمان بن يسار خرج إليه، فصلى عليه وتبعه، وكان يقول: "شهود جنازة أحب إلي من صلاة تطوع"([4]).

ولو عدت إلى ما رووه عن علاقة ابن يسار مع زين العابدين، ستجد أصولا غير موجودة مع ابن المسيب منها مثلا ما ورد عن حماد بن زيد، عن يزيد بن حازم، قال: رأيت علي بن حسين وسليمان بن يسار يجلسان بين القبر والمنبر يتحدثان إلى ارتفاع الضحى

---

[1] تاريخ الخلفاء، السيوطي، ج٢/ص ٢٣٣-٢٣٤.
[2] معاوية بن أبي سفيان، الدكتور علي محمد الصلابي، ص.٥٦٩
[3] رجال الكشي، ص١١٩ رقم ١٨٩.
[4] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٥/ ص٣٣٣.

ويتذاكران"([1]). ومع ذلك لم يكن ابن يسار من أصحاب الإمام بل هو إلى بني أمية اقرب، حتى أن عمر بن عبد العزيز حينما قدم المدينة واليا عليها أراد أن يستعين بفقهائها، فبعث إلى عشرة منهم، كان فيهم سليمان بن يسار، فوافقوا على العمل معه، وجزوه خيرا وخرجوا من عنده([2]).

والذي أراه أن وجود أكثر من رواية تتحدث عن أوائل أصحاب السجاد كان سببا في تضارب الأقوال، وفي الوقت الذي عد فيه الكشي ابن جبير وابن المسيب كلاهما من أصحاب السجاد، نجد هناك رواية أخرى تعرض عن ذكر السعيدين، ابن جبير وابن المسيب، ولا تعدهما ضمن أصحابه (عليه السلام)، والرواية عن يونس، عن جميل، عن أبي عبد الله(عليه السلام)، قال: "ارتد الناس بعد الحسين (عليه السلام) إلا ثلاثة: أبو خالد الكابلي ويحيى ابن أم الطويل وجبير بن مطعم، ثم الناس لحقوا وكثروا"([3]).

إن هذه الروايات التي تبدو متعارضة سببها حالة السرية والكتمان التي كان السجاد يعيشها بسبب ضغوط الأمويين وتضييقهم عليه وعلى أصحابه، وهي حتى لو كانت صحيحة فهناك روايات كثيرة أخرى تثبت أن سعيدا كان من خواص سيدنا السجاد، منها في رجال الكشي، عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله (عليه السلام): أن سعيد بن جبير كان يأتم بعلي بن الحسين (عليه السلام) وكان علي (عليه السلام) يثني عليه، وما كان سبب قتل الحجاج له إلا على هذا الأمر".([4]) ومنها كذلك قول الشيخ علي النمازي الشاهرودي: "سعيد بن جبير بن هشام الأسدي أبو محمد: من خيار أصحاب مولانا السجاد (عليه السلام)، وعده في المناقب من أصحاب السجاد عليه السلام من التابعين([5]).

---

[1] المصدر نفسه، ج٥/ص ٢١٥-٢١٦.
[2] ينظر: المصدر نفسه، ج٥/ ص ٣٣٤ .
[3] الاختصاص، الشيخ المفيد، ص١٨٠.
[4] رجال الكشي ، ص ١١٩، رقم١٩٠.
[5] مستدركات علم رجال الحديث الشيخ علي النمازي الشاهرودي، ج ٤/ص٥٧ .

والمعروف أن الإمام السجاد ولد في المدينة المنورة عام ٣٨هـجرية واستشهد هو (عليه السلام) وسعيد (رحمه الله) في سنة واحدة عام ٩٥ هجرية (١). وما يؤهل الإمام ليكون معلما لسعيد ويؤهل سعيدا ليطلب العلم عند الإمام، أن الإمام كان عالما علما، وسعيد الذي تغذى بثمار فكر التشيع في الكوفة كان شغوفا بالعلم تواقا إلى معرفة حدود العقيدة بما يناسب هواه وميله العقدي، ووجد ضالته لدى الإمام السجاد، فتعلم على يديه، ولكن ذلك لا يمنع أن يكون قد طلب بعضا من العلم عند غيره، فكان بعض هؤلاء الذين عدوا أسماءهم مرشحين أكثر من غيرهم، ولكن فيهم من لا يصح عده معلما لسعيد. أما المؤكد الذي لا مرية فيه ولا شك فهو أن سعيدا تتلمذ على يد الإمام السجاد، وعنه أخذ جل علومه وبه أأتم، ولمنهجه أخلص.

[١] قال ابن سعد في الطبقات: عن أبي فروة وعن حسين بن علي بن حسين: مات سنة ٩٤، وعن الفضيل بن دكين، مات سنة ٩٢، ينظر: ج٥/ص٢٢١-٢٢٢.

الفصل السادس

الانتماء وأثره

كان سعيد بن جبير مخلصا لكل الانتماءات الشريفة التي عاصرها، وأثراها بما نقل من الحديث والسنة والتفسير، ودافع عنها بدمه وروحه، بعد أن ثار لكي يجعل زمام الأمور بيد الذين يستحقونها، ومات لأنه أخلص للإسلام الواحد دون غيره من الولاءات الفرعية الضيقة. وما ذاك إلا لكونه قرأ واستوعب وأدرك أبعاد الإسلام الحقيقي التي أخذها من أصولها: القرآن، الذي أولع فيه ودرس علمه وتفسيره وبرز في ذلك، والسنة النبوية الطاهرة التي لخصت وشرحت وقننت وهذبت وعلمت وبنت وأنشأت.

سعيد والسنة النبوية

كان منهج سعيد في التعامل مع السنة النبوية النابع من معتقده واضحا من خلال نوع الأحاديث التي كان يؤكد عليها، ويكرر روايتها، ولذا جاء من تدخل في صياغة هذا المنهج في محاولة لإعادة تلوينه لتحقيق مكاسب، وإحداث نوع من الضجيج والشغب الممنهج، لتحقيق غايات بعضها هدفه التشكيك بتوجه سعيد العقدي، وبعضها الآخر جيء به ليتعارض مع ما رواه في سياق منهجه العقدي. ولذا تجد في كتب الحديث ثلاثة أنواع من الروايات المنسوبة لسعيد، هي على التوالي: أحاديث عقيدته، أحاديث عامة يشترك بها مع المسلمين الآخرين، أحاديث مدسوسة منسوبة إليه لإحداث الضجيج.

النوع الأول: أحاديث عقيدته:

فضلا عما امتاز به سعيد من علم في الحديث والتفسير، وما أشتهر عنه من حب لآل البيت (عليهم السلام) ومن تتلمذ على يد الإمام السجاد (عليه السلام) ومن كره لأعدائهم؛ كانت له ميزة أخرى أثبت من خلالها تشيعه؛ وهي روايته مئات الأحاديث النبوية في فضل أهل البيت (عليهم السلام) ورواية أحاديث أحكام الفقه الشيعي، وهما صنفان من الحديث أحجم الرواة عن الخوض فيهما إما كرها لأهل البيت، وإما تحزبا لفئة، وإما خوفا من السلطان، وإما محاباة للخلفاء، وإما تجنبا للوم اللائمين. أما تفرد سعيد برواية هذا النوع من

الأحاديث الممنوعة المحجور عليها فيؤكد أنه كان مؤمنا بها، واثقا من صحتها، متبعا لمنهجها، مؤيدا لخطها. ومن تلك الأحاديث، على سبيل المثال لا الحصر:

حديث جمع الصلاتين

لو عدت إلى صحيحي البخاري ومسلم وغيرها من كتب الحديث، ستجد رواية جمع الصلاتين شاخصة، ففي البخاري عن سعيد، عن ابن عباس (رضي الله عنهما): "أنَّ النبي (صلى الله عليه وآله) صلى بالمدينة سبعاً وثمانياً: الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء" متفق عليه.([1]) وفي مسلم: جمع رسول الله (ص) بين الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء بالمدينة في غير خوفٍ ولا مطرٍ، قال سعيدٌ : قلتُ لابن عباس: لم فعل ذلك ؟ قال: كي لا يحرج أمته. وفي لفظٍ له: في غير خوفٍ ولا سفر([2]). أخرج هذا الحديث البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي في الكبرى وابن حبّان والطبراني من طريق حماد بن زيد، وابن الجعد وأحمد والطحاوي في شرح المعاني من طريق شعبة، والنسائي وأبو يعلى وابن خزيمة والطحاوي في شرح المعاني والبيهقي من طريق سفيان بن عيينة، وعبدالرزاق والطيالسي، والطبراني ومالك والشافعي في مسنده وأبو عوانة وابن حبان وأبو نعيم في المستخرج وابن الجعد في مسنده والبيهقي، وابن عبد البر في التمهيد، والحميدي والدارقطني وابن شاهين في الناسخ والمنسوخ وابن المنذر في الأوسط وابن الجوزي في التحقيق والخطيب وفي الموضح([3]). وهذا التواتر يدل على صحة الحديث، وجواز الجمع من دون عذر، تخفيفا.

---

[1] شبكة السنة وعلومها، موقع سعودي، الرابط،
http://www.alssunnah.com/main/articles.aspx?article_no=٥٤٨٢

[2] المصدر نفسه، شبكة السنة وعلومها، موقع سعودي

[3] شبكة السنة وعلومها، موقع سعودي.
http://www.alssunnah.com/main/articles.aspx?article_no=٥٤٨٢

حديث مثل أهل بيتي كسفينة نوح

نظرا لأهمية هذا الحديث وقيمته الفقهية والعقدية؛ فقد كاد أن يكون متواترا مسلما به لكثرة من رواه من الصحابة، وهناك عشرات الروايات التي جاءت بطرق مختلفة للحديث، ولكن البعض أبى إلا تضعيفه متعللا بوجود ضعفاء أو متروكين في سلسلته. أما فيما يخص سعيد؛ فإنه رواه عن ابن عباس، كما في مناقب المغازلي بسنده، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): "مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركب فيها نجا، ومن تخلف عنها هلك"([1]). وخرجه ابن عبد البر القرطبي في كتابه "الأنباه على قبائل الرواة" بسنده عن أبي الصهباء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله (ص): "مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركب فيها نجا، ومن تخلف عنها هلك" ([2]). ورواه البزار في مسنده كشف الأستار (٣/رقم٢٦١٥)، والطبراني في الكبير (٣/رقم٢٦٣٨) و(١٢/رقم١٢٣٨٨)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢٧٣/٢)، وابن بشران في الأمالي (٢/رقم١٥٤٩)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣٠٦/٤) من طرق عن الحسن بن أبي جعفر، عن أبي الصَّهباء، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله (ص): "مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلَّف عنها غرِق"([3]).

لهذا الحديث طرق كثيرة أخرى أجدني مضطرا إلى ذكر بعضها لأن هناك من حاول حرق هذا الحديث نظرا لأهميته، ومن طرقه: رواية عن أبي ذر الغفاري (رحمه الله): رواه الآجرّي في كتاب الشريعة (٥/رقم١٧٠٠) من طريق سيّار بن حاتم، جعفر بن سليمان الضبعي، عن أبي هارون العبدي، قال: حدثني شيخ، قال سمعت أبا ذر يقول: سمعت رسول الله (ص): "مثل أهل بيتي"...الحديث. ورواه الفسوي في المعرفة والتاريخ (٥٣٨/١)، والبزار في مسنده (٩/رقم٣٩٠٠)، وابن عدي في الكامل (٣٠٦/٢)،

---

[1] عبقات الأنوار في إمامة الأئمّة الأطهار، السيّد حامد حسين الموسويّ اللَّكْهَنويّ، ج ٢/ص ٧١٤.

[2] حديث الثقلين، نجم الدين العسكري، ص ١٣٥عن العبقات.

[3] موقع ملتقى أهل الحديث، الرابط http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?p=44285

والطبراني في الكبير (٣/رقم٢٦٣٦) و (١٢/رقم١٢٣٨٨)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/٢٧٣-٢٧٤)، وابن الشجري في الأمالي (١/١٥١) ورواه أبو يعلى في مسنده الكبير كما في المطالب العالية (١٦/٢٢٠/٣٩٧٣) وعنه أبو الشّيخ في الأمثال (٣٣٣)([1]).

ومن طرقه أيضا رواية عن أبي سعيد الخدري: رواه الطبراني في الأوسط (٥٧٨٠) والصغير (٨٢٥)، وابن الشجري في الأمالي (١/١٥٢ و١٥٣) من طريق عبد العزيز بن محمد بن ربيعة الكلابي الكوفي، حدثنا عبدالرحمن بن أبي حماد المقري، عن أبي سلمة الصائغ، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري سمعت رسول الله (ص)([2]).

ومن طرقه عن عبد الله بن الزبير: رواه البزار في مسنده كشف الأستار (٣/رقم٢٦١٣)، قال: حدثنا يحيى بن مُعلّى بن منصور، ثنا ابن أبي مريم، ثنا ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عامر بن عبد الله بن الزُّبير، عن أبيه أن النبي (ص)، قال: "مثلُ أهل بيتي مثل سفينة نُوح، من ركِبها نجا، ومن تركها غرِق"([3]).

وعن أنس بن مالك: رواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٢/٩١) من طريق أبي الحسن علي بن محمد بن شداد المطرّز، حدثنا محمد بن محمد بن سليمان الباغندي، حدثنا أبو سهيل القطيعي، حدثنا حماد ابن زيد بمكة وعيسى بن واقد، عن أبان بن أبي عياش، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله (ص): "إنما مثلي، ومثل أهل بيتي كسفينةِ نوح"([4]).

ومن طرقه عن أبي الطُّفيل الكناني: رواه الدولابي في الكنى والأسماء (١/٧٦) من طريق يحيى بن سليمان أبي سعيد الجُعفي، قال: ثنا عبد الكريم بن هِلال الجُعفي، أنه سمع أسلم المكّي، قال: أخبرني أبو الطفيل عامر ابن واثلة، قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: "مثل أهلِ بيتي مثل سفينة نُوح من ركبها نجدا، ومن تركها غرق"([5]).

وبالرغم من كل ذلك أبى البعض أن يقبل هذا الحديث لمجرد أن هناك من طعن ببعض رجال سنده، لأسباب وغايات معروفة لا علاقة لها بعلم الجرح والتعديل، ومنهم ابن تيمية،

---

[1] المصدر نفسه، موقع ملتقى أهل الحديث
[2] المصدر نفس.
[3] المصدر نفسه.
[4] موقع ملتقى أهل الحديث.
[5] المصدر نفسه.

الذي قال في منهاج السنة ([1]) رداً على ابن المطهّر الحلّي: "وأما قوله: (مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح)، فهذا لا يُعرف له إسناد صحيح، ولا هو في شيء من كتُب الحديث التي يُعتمد عليها". والشيخ الألباني الذي ضعفه في السلسلة الضعيفة برقم (٤٥٠٣). والذهبي الذي ضعفه في تلخيص المستدرك (٣٤٣/٢)، وقال في ميزان الاعتدال (٤٩٩/٦): "وحديث سفينة نوح أنكرُ وأنكر". وابن كثير في تفسيره (١١٥/٤). والهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٨/٩) فحكموا على الحديث بأنه: "مُنكر ضعيف لا يصحّ البتّة".([2]) وقد جئت بهذه الأقوال كأنموذج على تعامل بعض المسلمين المجحف مع بعض الروايات ليس بسبب خلل أو عيب فيها وإنما بسبب التنافس الفرقي الذي انتشر في المجتمع.

حديث واعتصموا بحبل الله

في مناقب القندوزي الحنفي: عن سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) قال: كنا عند النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، إذ جاء أعرابي، فقال: يا رسول الله سمعتك تقول: "واعتصموا بحبل الله" فما حبل الله الذي نعتصم به؟ فضرب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يده في يد علي، وقال: تمسكوا بهذا، هو حبل الله المتين"([3]).

رزية الخميس

في صحيح مسلم، عَنْ سليمان الأَحول، عن سعيد بن جبيرٍ، قال: قال ابن عباسٍ: يوم الخميسِ، وما يوم الخميسِ، ثم بكى حتى بل دمعه الحصى. فقلت يا ابن عباسٍ، وما يوم الخميس؟ قال: اشتد برسول اللَّه (ص) وجعه، فقال: "ائتوني اكتب لكم كتابا لا تضلوا بعدي ". فتنازعوا وما ينبغي عندَ نبي تنازع. وقالوا: ما شانه؟ أهجر؟، استفهِموه. قال: "دعوني

[1] ينظر: منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، ج ٧/ص٣٩٥.
[2] موقع ملتقى أهل الحديث.
[3] ينابيع المودّة، سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي، ج ١/ص ٣٥٦، رقم ١١.

فالّذي أنا فيه خير، أوصيكم بثلاث: أخرِجوا المُشركين منْ جزِيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحوِ ما كنت أُجيزهم". قال: وسكت عن الثالثة، أو قالها فأنسيتها([1]).

الارتداد والإحداث

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: "وإن أناسا من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: أصحابي، أصحابي، فيقال: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم".

ورد هذا الحديث في أصح الكتب، منها صحيح البخاري، عن أنس: "ليردن علي ناس من أصحابي الحوض حتى عرفتهم اختلجوا دوني، فأقول: أصحابي، فيقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك" ([2]). وعن سهل بن سعد: "... ليردن عليَّ أقوام اعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم، قال أبو حازم فسمعني النعمان بن أبي عياش، فقال: هكذا سمعت من سهل؟فقلت: نعم، فقال: اشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته وهو يزيد فيها؛ فأقول: إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقا سحقا لمن غير بعدي"([3]) وعن أبي هريرة: "يرد علي يوم القيامة رهط من أصحابي فيحلوون عن الحوض فأقول: يا رب أصحابي، فيقول: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى([4]).

ويكفي تدليلا على الازعاج الذي سببه تفرد سعيد بمثل هذه الروايات لبعض المسلمين؛ أنهم ضعفوا هذا الحديث لمجرد أن مداره على راو واحد، هو سعيد بن جبير، عن ابن عباس!([5]). والغريب أن كثيرا من غير سعيد يرفضون رواية مثل هذا الأحاديث، فإذا رواها سعيد؛ شككوا فيه وضعفوه، وهذا ديدن السياسيين وعشاق الفرقة والخلاف الذي

---

[1] صحيح مسلم، دار إحياء التراث، ٢٠٠٠، كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس لَه شيء يوصي فيه، حديث ٢٠/ ١٦٣٧، ص٧٢٦.

[2] صحيح البخاري، دار الفكر، بيروت بغداد،١٩٨٦، باب في الحوض،ج٤، ص١٤١

[3] المصدر نفسه، ص ١٤١-١٤٢

[4] المصدر نفسه، ص ١٤٢

[5] ينظر: موقع بيان الإسلام للرد على الافتراءات والشبهات، موقع مصري، الرابط http://www.bayanelislam.net/Suspicion.aspx?id=03-02-٠٠٥٠&value=&type=

حرم الأمة من آلاف الأحاديث الصحيحة التي لو كتب لها أن تأخذ مكانها في الصحاح والمسانيد لما وصلت الأمة إلى هذا المستوى من التفرق والانحلال.

أحاديث المتعة

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: تمتع رسول الله (ص)، فقال عروه: نهى أبو بكر وعمر عن المتعة، فقال ابن عباس: ما يقول عريه؟ قال: يقول: نهى أبو بكر وعمر عن المتعة، فقال ابن عباس: أراهم سيهلكون.! أقول: قال رسول الله (ص) ويقولون: قال أبو بكر وعمر([1]). قال أبو بكر يحيى بن سعدون القرطبي المتوفى ٥٦٧ في تفسيره عند بيان الاختلاف في معنى الآية ٢٤ من سورة النساء: "وقال الجمهور: المراد نكاح المتعة الذي كان في صدر الإسلام . وقرأ ابن عباس وأبيّ وابن جبير" فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن"([2]).

أحاديث ولادة الإمام علي في الكعبة

عن سعيد بن جبير ، قال : قال يزيد بن قعنب: "كنت جالسا مع العباس بن عبد المطلب وفريق من عبد العزى بإزاء بيت الله الحرام ، إذ أقبلت فاطمة بنت أسد أم أمير المؤمنين، وكانت حاملا به لتسعة أشهر، وقد أخذها الطلق، فقالت: رب إني مؤمنة بك وبما جاء من عندك من رسل وكتب، وإني مصدقة بكلام جدي إبراهيم الخليل، وأنه بنى بيتك العتيق، فبحق الذي بنى هذا البيت، وبحق المولود الذي في بطني لما يسرت علي ولادتي. قال يزيد بن قعنب: فرأينا البيت قد انفتح عن ظهره ودخلت فاطمة وغابت عن أبصارنا فيه والتزق الحائط ، فرمنا أن ينفتح لنا قفل الباب فلم ينفتح، فعلمنا أن ذلك أمر من الله عز وجل ، ثم خرجت بعد الرابع وبيدها أمير المؤمنين علي (عليه السلام)"([3]).

---

[1] المتعتان بين النص والاجتهاد، طاهر الموسوي

[2] تفسير القرطبي، سورة النساء، الآية ٢٤

[3] منتدى الكفيل، الرابط http://www.alkafeel.net/forums/showthread.php?t=٢٢٦١٣

حديث انتقام الله من قتلة الحسين

عن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: "أوحى الله إلى محمد (ص): إني قد قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفا، وإني قاتل بابن ابنتك سبعين ألفا وسبعين ألفا"([1])

الغريب انك تجد المغرمين بالتنافس الشديد يطعنون في هذه الأحاديث بلا استثناء، ومن خلال ذلك صاروا يطعنون بسعيد ويضعفوه، ولكنهم مع تضعيفهم له، نسبوا له أحاديث أخرى وصححوها، لأن فيها ما يخدم منهجهم العقدي، وهو ما يتضمنه النوع الثاني من الروايات.

النوع الثاني: أحاديث عامة يشترك بها سعيد مع المسلمين الآخرين:

إن اختصاص سعيد برواية أحاديث يحذر الآخرون من ذكرها، لا يعفيه، ولم يمنعه من التحدث بصادق السنة في الأغراض الأخرى، وقد أخرجت له كتب الحديث الكثير من الروايات في مختلف مناحي الحياة، منها في سنن البيهقي، مثلا:

في المجلد الرابع: باب ما لا زكاة فيه، وباب التغليظ على من افطر في شهر رمضان، وباب ما ورد في قوله تعالى وآتوا حقه يوم حصاده

وفي المجلد الخامس: باب ما وقف من المزدلفة

وفي المجلد السادس: باب من يشتري من ماله لنفسه من نفسه

وفي المجلد السابع: باب من جعل الصدقة في صنف واحد، وباب نكاح المحدثين، وباب ما يستدل به على قصر الآية، وباب تحريم حرائر أهل الشرك دون أهل الكتاب، وباب نكاح إماء المسلمين، وباب التعريض بالخطبة، وباب من بيده عقد النكاح، وباب المتعة، وباب الحكمين في الشقاق بين الزوجين، وباب العدة من الموت

وفي المجلد الثامن: باب القصاص على القاتل دون غيره، وباب المحارب يتوب

[1] سير أعلام النبلاء، ج٥/ ص ٣٠٢، وقال: هذا حديث نظيف الإسناد منكر اللفظ، وعبد الله: وثقه ابن معين وخرج له مسلم.

وفي المجلد التاسع: باب من خرج من بيته مهاجرا فأدركه الموت، وباب من لحق بأهل الكتاب، وباب في إطعام البائس، وباب في القنفذ والحشرات

وفي المجلد العاشر: باب من لا تقبل شهادته، وباب الاختلاف في اللعب بالشطرنج، وباب في ولد المدبرة، وباب من قال للمكاتب أن يسافر.

أما إذا جمعت كل أحاديث النوع الثاني التي رواها سعيد، والمنتشرة في كتب الحديث، فستجدها قد نافت على الألف، وكلها من الأحاديث التي يشترك المسلمون بروايتها وهذا منهج نادرا ما تجده، إذ تخصص كل فريق برواية الأحاديث التي تدعم منهجه، مفضلا إياها على غيرها حتى لو كانت صحيحة متواترة، وهذا يؤكد أن سعيد كان من دعاة الوحدة الإسلامية وداعيا إليها.

النوع الثالث: أحاديث مدسوسة منسوبة لسعيد لإحداث الضجيج:

وبين هذا وذاك هناك جملة من الأحاديث الغريبة المنسوبة لسعيد، وهي كثيرة، منها على سبيل المثال: حديث صوم عاشوراء الذي أخرجه البخاري، عن عبد الله بن سعيد بن جبير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس (رض)، قال : قدم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: "ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجَّى الله بني إسرائيل من عدوهم؛ فصامه موسى. قال: "فأنا أحق بموسى منكم" فصامه وأمر بصيامه"([1]).

وفي البخاري روايات أخرى للحديث، تقول إحداها إن النبي حينما جاء المدينة شاهد اليهود يصومونه فصامه وأمر بصومه، وتقول الأخرى إن صوم عاشوراء عادة جاهلية، أقرها النبي قبل نزول صيام شهر رمضان، وفيما يخص القول الأول جاءت الرواية عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، قال: "صام النبي عاشوراء وأمر بصيامه فلما فرض

[1] صحيح البخاري، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠١،حديث رقم ٢٠٠٤، باب صيام يوم عاشوراء، ج١/ص ٣٥٠ كتاب الصوم، وفي باب قول الله تعالى (وهل أتاك حديث موسى) و (كلم الله موسى تكليما) حديث رقم ٣٣٩٧، ص٦٠٦ كتاب أحاديث الأنبياء.

رمضان ترك([1]). وعن عروة، عن عائشة أن قريشا كانت تصوم يوم عاشوراء في الجاهلية، ثم أمر رسول الله(ص) بصيامه حتى فرض رمضان، وقال رسول الله: من شاء فليصمه ومن شاء أفطر"([2]).

ومنها أيضا قصة موسى والخضر، حيث روى البخاري ومسلم وغيرهما من حديث سعيد بن جبير، قال: قيل لابن عباس (رض): إن نوفل المثالي يزعم أن موسى الذي صاحب الخضر ليس هو موسى بني إسرائيل، قال ابن عباس: كذب عدو الله، حدثني أبي بن كعب عن النبي (ص) قال: "خطب موسى في بني إسرائيل يوماً حتى ذرفت العيون ووجلت القلوب، فلما انصرف تبعه رجل، فقال: يا نبي الله! هل هناك أعلم منك في الأرض؟ قال: لا.

فعتب الله عز وجل عليه إذ لم يرجع العلم إليه، قال: بلى، إن لي عبداً في مجمع البحرين هو أعلم منك... ثم ذكروا قصة موسى والعبد الصالح بتمامها، وحينما وصلوا إلى قوله تعالى:{قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}([3])، قالوا: قال النبي (عليه الصلاة والسلام): "يرحم الله موسى - وفي رواية: رحمة الله علينا وعلى موسى- وددنا أنه صبر حتى يقص الله عز وجل علينا من أخبارهما"([4]).

ونلحظ أن الغرض من نسبة مثل هذه الأحاديث إلى سعيد عن ابن عباس يراد منه الطعن بهما، ولهذا السبب اتهموا سعيدا أنه اعتمد على الإسرائيليات في التفسير، كما مر عليكم في حديثنا عن سعيد والقرآن.

---

[1] صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب وجوب صوم رمضان،ج١/ص٣٢٤، طبعة دار الفكر، بيروت بغداد ١٩٨٦.

[2] المصدر نفسه، ج١/ص٣٢٤.

[3] الكهف:٧٨.

[4] قصة موسى والخضر، أبو إسحاق الحويني الأثري حجازي محمد شريف، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، الدرس الثامن، http://www.islamweb.net

سعيد والتطبيق العملي للسنة

فضلا عن ذلك كان سعيد يستغل موهبته للقيام عمليا بتأكيد خط الإمامة المعصومة الفقهي، ليُسمع الآخرين فيتبعونه، منها على سبيل المثال أن كلمة (آمين) تقال عادة بعد الدعاء طلبا للاستجابة، أما قراءة سورة الفاتحة في الصلاة المفروضة، فهي ليست من الدعاء، ولذا يرى فقه مدرسة أهل البيت أنه لا يجب، ولا يجوز قول آمين بعد سورة الحمد في الصلاة. وفي وقت مثل الوقت الذي كان يعيش فيه سعيد، لم يكن مناسبا الجهر بهذا الرأي علنا أمام الناس، لأنه يوقع صاحبه تحت طائلة بطش الحكام والولاة، ولكن السكوت عنه يوقع المرء أمام مخالفة العقيدة، وبطلان الصلاة. ولقد اختار سعيد أيسر الطريقين وأقربهما إلى مرضاة الله، وأشدهما إيضاحا لمنهجه العقائدي فكان يقولها مثل الآخرين، ولكن بشرطها وشروطها، ينقل ابن سعد في الطبقات "عن أبي حمزة مولى يزيد بن المهلب، قال: كنت أصلي إلى جانب سعيد بن جبير، وكان إذا قال الإمام: غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال سعيد: أللهم اغفر لي، آمين. قال: وكان إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده، قال سعيد: اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرضين السبع وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد. قال: فربما لم يزل يتكلم بهذا حتى يهوي إلى السجود، فيقول: الله أكبر"([1]). وهذا تمويه شرعي يراد به إرشاد الناس إلى خطأ ما يقومون به.

ومن الجدير بالذكر أن المدارس الإسلامية تتفق أن كلمة آمين هي دعاء، ومن أقوالهم بهذا الشأن جواب الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز على سؤال مفاده: عرفونا عن آية من سورة الفاتحة، وهي (آمين) التي تأتي بعد ولا الضالين، فهل هي آية، أم سنة، أم مستحبة؟ حيث قال الشيخ في جوابه على السؤال: "أيها السائل قول (آمين) بعد الفاتحة ليست من آيات القرآن، وليست من آيات الفاتحة، وإنما هي دعاء بمعنى: استجب يا ربنا، فآمين معناها: اللهم استجب، فهي سنة وليست واجبة، بل سنة بعد الفاتحة، يقولها القارئ في الصلاة وغيرها، يقول آمين إذا قرأ الفاتحة، يقولها الإمام، يقولها المأموم، يقولها المنفرد،

[1] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص ٢٦١.

في الصلاة وخارجها، آمين، هذه السنة، ليست واجبة ولكنها مستحبة، وهي دعاء وليست آيةً من الفاتحة ولا من غيرها، وإنما هي دعاء"([1]).

وأسأل: طيب رضينا بهذا القول، ولكن إذا كانت بهذا المعنى، فلماذا تأتون بها بعد سورة الفاتحة فقط ولا تأتون بها بعد السورة الأخرى الواجب قراءتها لإتمام الصلاة؟ ولماذا التشديد على تاركها واتهامه بشتى التهم؟

المهم أن أدلتهم في ذلك ليست أكثر من حديث موقوف على أبي هريرة وحده، جاء في البخاري بعدة صيغ منها: عن أبي هريرة أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، قال: "إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه". وقال ابن شهاب: وكان الرسول يقول: آمين([2]).

عن أبي هريرة أن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: "إذا قال أحدكم آمين، وقالت الملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر الله له ما تقدم من ذنبه"([3]).

وعن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، قال: "إذا قال الإمام:(غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فقولوا: آمين ، فإنه من وافق قوله قول الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه"([4]).

كذلك ورد الحديث في صحيح مسلم موقوفا على أبي هريرة وحده، وبعدة صيغ أخرى، منها:

عن أبي هريرة، قال: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يعلمنا، يقول "لا تبادروا الإمام، إذا كبر، فكبروا، وإذا قال: ولا الضالين، فقولوا: آمين، وإذا ركع فاركعوا، وإذا

---

[1] الموقع الرسمي للشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز على شبكة الانترنيت، الرابط http://www.binbaz.org.sa/mat/10320

[2] صحيح البخاري، طبعة دار إحياء التراث العربي،٢٠٠١، كتاب الآذان، باب جهر الإمام بالتأمين، حديث رقم ٧٨٠، ص ١٥٢.

[3] المصدر نفسه، صحيح البخاري، حديث رقم ٧٨١، ص ١٥٢.

[4] المصدر نفسه، ص١٥٢، حديث ٧٨٢.

قال: سمع الله لمن حمده، فقولوا: اللهم ربنا لك الحمد". وفي رواية: بنحوه، "إلا قوله ولا الضالين، فقولوا: آمين، وزاد: ولا ترفعوا قبله"([1]).

عن أبي هريرة ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: "إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه". قال ابن شهاب: كان رسول الله يقول: آمين([2]).

عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: "إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده، فقولوا: اللهم ربنا لك الحمد، فإنه من وافق قوله قول الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه"([3]).

عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: "إذا قال أحدكم في الصلاة: آمين. والملائكة في السماء: آمين. فوافق إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه"([4]).

نعم قد تكون أحاديث أبي هريرة قد نفذت من غلاف أجواء أحكام الجرح والتعديل ولكنها تصطدم بحديث مهم تكلم عن صلاة النبي (صلى الله عليه وآله) لم يرد فيه ذكرا للكلمة، والحديث ورد في كم كبير من كتب مدرسة الخلفاء منهم: البيهقي في السنن وأبي داود في السنن، باب افتتاح الصلاة، والترمذي في السنن، باب صفة الصلاة، والنصّ للبيهقي: "عن محمد بن عمرو بن عطاء، قال: سمعت أبا حميد الساعدي في عشرة من أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .. فقال أبو حميد الساعدي: أنا أعلمكم بصلاة رسول الله، قالوا: لِمَ، ما كنت أكثرنا له تبعاً، ولا أقدمنا له صحبة؟ قال: بلى، قالوا: فأعرض علينا، فقال: كان رسول الله إذا قام إلى الصلاة رفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه، ثم يكبّر حتى يقرّ كل عضو منه في موضعه معتدلاً، ثم يقرأ، ثم يكبّر ويرفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه، ثم يركع ويضع راحتيه على ركبتيه، ثم يعتدل ولا ينصب رأسه ولا يقنع، ثم يرفع رأسه، فيقول: سمع الله لمن حمده، ثم يرفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه، حتى يعود كل عظم منه

[1] صحيح مسلم، طبعة دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٠، كتاب الصلاة، باب النهي عن مبادرة الإمام بالتكبير وغيره، حديث رقم ٨٧/ ٤١٥، ص٢١١.
[2] المصدر نفسه، حديث رقم ٧٢/ ٤١٠، ص٢٠٩.
[3] المصدر نفسه، حديث رقم ٧١/ ٤٠٩، ص٢٠٩.
[4] المصدر نفسه، حديث رقم ٧٤/ ٤١٠، ص٢٠٩.

إلى موضعه معتدلاً، ثم يقول: الله أكبر، ثم يهوي إلى الأرض فيجافي يديه عن جنبيه، ثم يرفع رأسه فيثني رجله اليسرى فيقعد عليها ويفتح أصابع رجليه إذا سجد، ثم يعود، ثم يرفع فيقول: الله أكبر، ثم يثني برجله فيقعد عليها معتدلاً حتى يرجع أو يقرّ كلّ عظم موضعه معتدلاً، ثم يصنع في الركعة الأخرى مثل ذلك، ثم إذا قام من الركعتين كبّر ورفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه، كما فعل أو كبّر عند افتتاح الصلاة، ثم يصنع من ذلك في بقية صلاته، حتى إذا كان في السجدة التي فيها التسليم أخّر رجله اليسرى وقعد متوركاً على شقّه الأيسر. فقالوا جميعاً: صدق، هكذا كان يصلي رسول الله(١).

وتأتي مسألة ذكر (آمين) في الصلاة كواحدة من المسائل التي وقع الخلاف فيها بين المدارس الإسلامية، حيث يرى أتباع مدرسة أهل البيت أنها غير مسنونة، وأنّ ذكرها في الصلاة موجب لبطلانها، لأنها زيادة، ولم يثبت حتى استحبابها. وترى كذلك أن الصلاة من العبادات، ومن الثابت أن العبادات توقيفية من الشارع كماً وكيفاً، وأداءً وقضاءً، ووجوباً وندباً، وكذا الشرائط والأجزاء التي تدخل فيها، وفقاً لما قررته الشريعة، فالخروج عما رسمه النبي (صلى الله عليه وآله) في كيفيتها من غير دليل يدل عليه؛ يُعد اجتهادا مقابل النص.

وهذا الاختلاف في الحكم الذي وقع فيما بين المذاهب، يرجع إلى الأدلة الشرعية المعتمدة في الفتوى، أو قل: إن كلاً من المدرستين قد التزم أدوات خاصة لفهم الحكم الشرعي.(٢) أما النهي عن قولها فقد أخذه الشيعة عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) الذين أخذوه بدورهم عن جدهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومن المؤكد أن سعيدا سمع بهذا النهي من الأئمة، ولذا كان يأتي بها بعد الدعاء لتكون تأمينا على الدعاء لا على سورة الحمد، وفي هذا ما يفيد أنه كان ملتزما بمنهج الإمامة المعصومة، ولكنه كان يحترم المناهج الأخرى ويتفاعل معها برؤية إسلامية سمحة مباركة تدعو إلى الألفة والتوحد ونبذ الفرقة..

---

١ السنن الكبرى، البيهقي، م٢، كتاب الصلاة، ص٧٢.

٢ ينظر: مؤسسة السبطين، في رحاب: حكم الإتيان بقول آمين في الصّلاة.

والظاهر أن سعيدا كان يتكتم في رواية أحاديث أهل البيت فلا يرويها إلا لمن يثق به ويعرف مقدار علمه، وكان إذا لم يرغب برواية تلك الأحاديث يقول للسائل: كيف تباع الحنطة؟ وكأنه يريد أن يصرف تفكيره إلى أمر آخر، عن الأصبغ بن زيد، قال: "كنت إذا سألت سعيد بن جبير عن حديث، فلم يرد أن يحدثني، قال: كيف تباع الحنطة؟"([1]).

وقد يرى البعض أن موقف سعيد قريب الشبه من موقف أبي هريرة الدوسي في حديثه عن الأجربة أو الأوعية، كما في البخاري عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، قال: "حفظت من رسول الله (ص) وعاءين: فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم"([2]) وهذا تصور خاطئ لأن موقف أبي هريرة كان تحيزيا بدافع الخوف، حيث كان يخاف على مصالحه أن تضرب وعطاياه أن تقلل، ولذا أحجم عن رواية الأحاديث التي تفضح مساوئ الأمويين، أما سعيد فإنه كان يعتبر العلم أمانة في رقبته، ولذا روى كل نوع من علومه إلى من يأتمنه عليها ويعلم أنه سيوصلها إلى مقاصدها.

---

[1] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص٣٠١.

[2] البخاري، طبعة دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١، كتاب العلم، باب حفظ العلم، حديث رقم ١٢٠، ص٤٨.

الفصل السابع

سعيد وثورات عصره

سعيد والثورة الحسينية

لم يلحظ المؤرخون على سعيد شغفا بالحركات والنشاطات الثورية التي كثر وقوعها في العصر الإسلامي الأول، فمنذ الثورة على الخليفة عثمان، ثم نكث بيعة الإمام علي (عليه السلام) والخروج عليه، ومروق فئة وحملهم السلاح بوجهه؛ تواصلت الثورات، حتى أدركها التابعون وعاشوا فصولها الدموية، ولاسيما ثورة الإمام الحسين (عليه السلام)، وعن هذه الثورة بالذات، والذين اشتركوا فيها أو امتنعوا عن دعمها، كثر اللغط والحديث، وقد صدف أن سعيدا كان من الممتنعين عن المشاركة فيها، مما فتح الباب على مصراعيه للمتئولين والمتعللين ليتكلموا عن هذا الامتناع، فقال بعضهم: إن سعيدا لو كان من أتباع مدرسة أهل البيت؛ ما كان ليتخلف عن ثورة الإمام الحسين (عليه السلام)، فلماذا تخلف عنها؟ وإذا ما أجبرته الظروف ليتخلف عنها، أما كان من الواجب أن يشترك في الثورات العلوية التي تلتها، مثل ثورة التوابين، وثورة المختار؛ لكي يثبت انتماءه العقدي؟. وقد سبق وقلنا: إن سعيدا ولد عام ٤٥ أو ٤٦ هجرية بمعنى أنه كان فتى يافعا حينما ثار الحسين (عليه السلام)، فضلا عن ذلك أصر الإمام الحسين (عليه السلام) على أن يصطحب أهل بيته ومن أسمه مدون في صحفهم، دون غيرهم من الناس للقيام بثورة يعرف نتائجها مسبقا. وهذا إن كان منع سعيدا عن الإسهام في الثورة الحسينية، فإنه لم يمنعه عن إعلان تأييده لها، وإيمانه بصدق منهجها، ولاسيما وأنه ولد ونشأ وترعرع في الكوفة مركز التشيع وعاصمته، ولقد أثرت الثورة على روحه وعقيدته فأدمن قراءة القرآن كرد فعل على العمل الهمجي الذي جوبهت به الثورة، حيث روى الذهبي في سير أعلام النبلاء عنه، قوله: "منذ قتل الحسين (ع) حتى اليوم أتلو في كل ليلة حزباً من القرآن". وروي غيره، عنه قوله: "ما مضت عليّ ليلتان منذ قتل الحسين (ع) إلا أقرأ فيهما القرآن، إلا مسافراً أو مريضاً" وقد مر الحديث عليكم في الفصول السابقة. لكن ما تقدم لا يعني أن سعيدا لم يكن ثوريا، فقد كتب لسعيد حتى وهو لما يزل في مرحلة الطفولة أن يعيش عذابات تلك الحقبة التاريخية ابتداءً من استشهاد الإمام الحسن (عليه السلام) وصولا إلى مرحلة الفتوة عند استشهاد الإمام الحسين (عليه السلام)، ثم شهد في شبابه مجازر حركة

عبد الله بن الزبير، وشهد رمي الأمويين الكعبة بالمنجنيق. وكتب له أن يشهد الدمار الذي تركته وقعة الحرة في المدينة المنورة، وقد أدى هذا الاحتقان النفسي، فضلا عن الممارسات الوحشية للحجاج والأمويين، وابتعاد الحكومة عن منهج الرسالة، أدى بسعيد إلى الثورة على نظام الحكم، وأرى أن تعلق سعيد بن جبير بأئمة مدرسة أهل البيت وأخذه العلم عنهم؛ هو الذي حدد مصيره، وقاده إلى سيف الجزار ليموت شهيدا.

لكن لماذا ترك سعيد كل تلك الثورات، وثار مع شخص بعيد عن منهج مدرسة أهل البيت؟ لماذا يثور مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث دون غيره؟ وهل حقا قتل سعيد لهذا السبب، أي بسبب اشتراكه في ثورة ابن الأشعث، أم أن هناك أسباب أشد خطرا من الاشتراك بالثورة، هي التي دفعتهم إلى قتله؟ فالمعروف أن هناك عدة ثورات بعضها علوية أو مناصرة للعلويين، قامت بعد استشهاد الإمام الحسين (عليه السلام)، وقد تخلف سعيد عنها جميعها، مما دفع البعض إلى التشكيك بحقيقة توجهه العقدي، ومنها:

١ـ ثورة عبد الله بن الزبير ضد الأمويين وقد بدأت تزامنا مع خروج الحسين من مكة متجها إلى العراق.

٢- ثورة أهل المدينة: التي خرج فيها الصحابة وأبناؤهم على يزيد بن معاوية وخلعوه فدخلها مسلم بن عقبة، واستباحها ثلاثة أيام، وانتهك الأعراض وقتل الصحابة.

٣- ثورة التوابين سنة ٦٥ للهجرة، خرجوا بقيادة الصحابي سليمان بن صرد الخزاعي بعد مقتل الإمام الحسين (عليه السلام) تحت شعار (يا لثارات الحسين)، وقاتلوا الجيش الأموي بعين الوردة.

٤- ثورة المختار: سنة ٦٦ للهجرة في الكوفة وقد سيطرت على العراق نحوا من سنتين.

سعيد وثورة ابن الزبير بمكة

وإذا ما كان سعيد بعيد جغرافيا عن بعض الثورات عند قيامها مثل ثورات المدينة والتوابين والمختار، فإنه كان قريبا من ثورة ابن الزبير، حيث كان حينها مقيما في مكة كما تذكر بعض الروايات، أو أنه كان كثير الزيارة لها والتردد عليها طلبا للعلم كما تذكر

مصادر أخرى، فضلا عن كونه كان قد بلغ حينها العشرين من العمر، ولكن لا يوجد ولو مؤشر واحد على اشتراكه فيها، أو حتى تأييده لها. ومن المؤكد أن لتبعيته العقدية علاقة بعدم اشتراكه بالثورة الزبيرية، لأن لابن الزبير موقف مخالف لأهل البيت ومن يحبهم، أما عدم تأييده لها وعدم حزنه على مقتل ابن الزبير كما حزن على الإمام الحسين، ففيه تأكيد على صحة ما نراه في توجهه العقدي، إذ لا توجد ولو رواية يتيمة واحدة، تقول إنه قرأ القرآن حزنا على ابن الزبير والذين قتلوا معه؛ كما فعل مع الحسين وأصحابه.

سعيد وثورة المدينة ووقعة الحرة

أما الحرة([1]) التي وقعت حربها عام أربعة وستين للهجرة، بسبب ثورة أهل المدينة سنة ثلاث وستين، التي كانت امتدادا طبيعيا لثورة ابن الزبير؛ التي بدأها بمكة؛ كما يقول الصلابي([2]) وكانت في حقيقتها ثورة ضد ظلم الأمويين، فبالرغم من أن مقتل الحسين بتلك الطريقة الوحشية أهاج الناس، وولد لديهم شعورا بالحزن والأسى والامتعاض، وكان أحد أسباب تذمر أهل المدينة، إلا أنهم كانوا متعاطفين مع ابن الزبير وثورته، لأنهم وجدوه أقرب إلى قناعاتهم من يزيد بن معاوية ونظامه. وفي الروايات: "وبلغ أهل المدينة أن عبد الله بن الزبير بايعه أهل مكة والطائف وسائر الحجاز فوثبوا على عاملهم فأخرجوه من المدينة واخرجوا من كان معه من بني أمية فطردوهم بأجمعهم وبايعوا عبد الله بن الزبير([3]).

---

[1] الحرة: ارض ذات حجارة سود نخرة كأنما أحرقت بالنار. ينظر: كتاب العين، الخليل بن احمد الفراهيدي، ج١/ ص٣٦٥. وعن ابن خلكان: والحرة في الأصل اسم لكل أرض ذات حجارة سود، والحرار كثيرة، والمراد بهذه الحرة حرة واقم وهي بالقرب من المدينة في جهتها الشرقية... وأما واقم، فإنه اسم أطُم من آطام المدينة، والأطم شبيه بالقصر، وكان مبنيا عند الحرة فأضيفت الحرة إليه. ينظر: وفيات الأعيان، ترجمة يزيد بن القعقاع القارئ، ج٦/ص٢٧٦. وعد ياقوت تسعا وعشرين موضعا كل منها يسمى الحرة. ينظر: وقعة الحرة أو حركة المدينة المنورة، السيد حيدر السيد موسى وتوت الحسيني، ص٧-٨.

[2] معاوية بن أبي سفيان شخصيته وعصره ـ الدولة السفيانية، الدكتور علي محمد الصلابي، ص ٥٥٣.

[3] وقعة الحرة، السيد حيدر السيد موسى وتوت، ص٤٩.

وقد كان الإمام زين العابدين (عليه السلام) بين ظهرانيهم ولكنه لم يؤيد الثورة ولم يباركها أو يشترك بها بالرغم من ظلم الأمويين له وقتلهم الحسين وأصحابه، بل حمى أسر وعوائل الأمويين ودافع عنهم، لأنه إمام معصوم، يتحرك ببواعث العصمة وهديها. وأما محمد بن الحنفية الذي لم يشترك بثورة الحسين لأسباب معروفة، منها أن الإمام الحسين طلب منه أن يكون له عينا، فكان حينها مقيما بالمدينة؛ وهو أولى من غيره بتأييد هذه الثورة لما يحمله في قلبه من غل على الأمويين الظلمة، إلا أنه رفض تأييدها، ورفض الاشتراك بها؛ حتى بعد أن أعطاه الثوار وعدا بأن يجعلوه خليفة عليهم: "قالوا: فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك، فنحن نوليك أمرنا"([1]) وبالتالي من الطبيعي أن ينأى سعيد بنفسه عن هذه الحركة ما دام إمامه ورموز عقيدته قد نأوا بأنفسهم عنها.

سعيد وثورة التوابين بالكوفة

أما حركة التوابين، وفيها تحرك الشيعة بالكوفة سنة أربع وستين، وتكاتبوا على الخروج إلى النخيلة سنة خمس وستين للمسير إلى أهل الشام للطلب بدم الحسين، وكانوا قد فزعوا إلى قادتهم فيها، وهم خمسة: سليمان بن صُرد الخزاعي والمسيب بن نجبة الفزاري وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي وعبد الله بن وال التميمي ورفاعة بن شداد البجلي ([2]) فلا يوجد مؤشر على أن سعيد بن جبير الذي كان قد تجاوز العشرين من عمره حينها على اشتراكه فيها، فلماذا لم يشاركهم الخروج وهي حركة شيعية؟

بعد واقعة كربلاء الأليمة وما رافقها من أحداث منها مقتل الحسين والطالبيين وأصحاب الحسين، ومن ثم تسيير أبناء وبنات رسول الله أسارى إلى الشام، تحسست الكوفة ثقل الذنب ومرارة الندم وعظم المأساة وهول الفاجعة، باعتبار أنها طرف مباشر ومسؤول فيما وقع، ليس لأنها وعدت ولم تف بوعدها، فهذا أمر صاغته السياسة وروجت له وإنما لأن الظروف حالت بينهم وبين الإسهام بالدفاع عن إمامهم المعصوم وحرم رسول الله، بما بدا

[1] البداية والنهاية، ابن كثير، م٤، ج٨/ص٦١٦.
[2] ينظر: تاريخ الطبري، الطبري، ج٥/ص ٣٧٢.

وكأنه نوعا من التقاعس وعدم الوفاء بالعهد؛ الذي قطعه أهلها على أنفسهم. ولأن الكوفة أصيبت بالصميم، وحملت جزء من المأساة المصحوبة بالشعور بالذنب حتى ولو من دون تقصير، فضلا عن فقدانها الأمل بالحرية بعد أن صرع الإمام الأكثر جدارة بتحقيق آمالها والطموح، بعد كل ذلك أخذ أنصار الثورة الحسينية، يجتمعون سرا، ويعقدون جلسات للنقاش والنقد الذاتي، والتشاور في كيفية الثأر للحسين، واستقر رأيهم على الثورة تحت قيادة زعامة مشتركة تتكون من خمسة أشخاص كلّهم من أصحاب الإمام علي ومن المؤيّدين له. فبدأوا يمارسون نشاطهم في الخفاء من خلال منظمة سرّية نواتها نحوا من مائة معارض، ويبثّرون بدعوتهم الانتقامية في أوساط الشيعة، بعيداً عن مراقبة السلطة وجواسيسها المنتشرون في كلّ مكان. ولم تلبث هذه المنظمة حتّى تحوّلت إلى معارضة شيعية كبرى تحمل اسم (التوّابين)، شعارها: {فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنّهُ هُوَ التّوّابُ الرّحِيْمُ}([1]). وعقد أول اجتماع في منزل سليمان بن صُرد، وكان أوّل المتكلّمين المُسيّب بن نجبه، وبعد أن أنهى كلامه بتشديده على توحيد الصفوف، تكلّم رفاعة بن شدّاد، فأثنى على ما جاء في خُطبةِ المسيّب، وأوصى باتّخاذ سليمان بن صُرد زعيماً للثورة، التي وضعت نصب أعينها: إزاحة الأُمويّين من السلطة في الكوفة وتحويلها إلى قاعدة للحكم الشيعي، أخذ القصاص من المسؤولين ومن قتلة الإمام الحسين، سواء الأُمويّين أم المتواطئين معهم، الإلحاح في طلب التوبة عن طريق التضحية بالنفس. فجمع الصحابي الجليل سليمان بن صرد الخزاعي، الذي سُمّي أمير التوّابين أنصاره في منطقة النخيلة، في الخامس من ربيع الثاني ٦٥هجرية، ثمّ سار بهم إلى قبر الإمام الحسين(عليه السلام)، وكان عددهم يقارب الأربعة آلاف مقاتل، فما أن وصلوا إلى القبر الشريف، حتّى صاحوا صيحة واحدة، وازدحموا حول القبر أكثر من ازدحام الحُجّاج على الحجر الأسود عند لثمه، فما رؤي أكثر باكياً من ذلك اليوم، فترحّموا عليه، وتابوا عنده من خذلانه وترك القتال، وتجديد العهد معه. قال ابن سعد في الطبقات: "فخرجوا فعسكروا بالنخيلة لمستهل شهر ربيع الآخر سنة خمس

[1] سورة البقرة: ٥٤

وستين، وولوا أمرهم سليمان بن صرد، وقالوا: نخرج إلى الشام فنطلب بدم الحسين، فسموا: التوابين، وكانوا أربعة آلاف"([1]) فساروا قاصدين الشام، فوصلوا إلى الأنبار، ومنها إلى القيارة وهيت، ثمّ إلى قرقيسيا وبعدها منطقة عين الوردة، التي التقوا فيها مع جند الشام في الثاني والعشرين من جمادى الأُولى ٦٥هجرية، وأبلى التوّابون بلاءً حسناً، فكان لهم النصر أوّل الأمر، غير أنّ ابن زياد سرعان ما أمدّ جيش الشام باثني عشر ألفاً بقيادة الحصين بن نمير، ثمّ بثمانية آلاف بقيادة شرحبيل بن ذي الكلاع، فأحاطوا بالتوّابين من كلّ جانب، فلمّا رأى سليمان ما يلقى أصحابه من شدّة، ترجّل عن فرسه ـ وهو يومئذٍ في الثالثة والتسعين من عمره ـ وكسر جفن سيفه وصاح بأصحابه: يا عباد الله، من أراد البكور إلى ربّه والتوبة من ذنبه والوفاء بعهده، فليأت إليَّ. فاستجاب له الكثيرون، وحذوا حذوه، وكسروا جفون سيوفهم، وقتلوا من أهل الشام مقتلة عظيمة، حتّى أُصيب زعيمهم سليمان بسهم، فوثب ووقع، وهو يقول: فزت وربّ الكعبة، وحمل الراية بعده المسيّب بن نجبه، فقاتل بها حتّى استشهد، وتبعه بقية القوّاد وعدد كبير من المقاتلين، باستثناء رفاعة بن شداد الذي اعترف بالهزيمة وأدرك عدم جدوى القتال، وكانت القيادة قد انتقلت إليه، فأصدر أوامره سرّاً إلى البقية الباقية من التوّابين بالانسحاب والتراجع. وتمّت عملية التراجع بنجاحٍ تام، وابتعد التوّابون المنسحبون عن ميدان المعركة، وأصبحوا في منأىً عن مطاردة الجيش الأُموي المنتصر، الذي استنكف عن محاولة اللحاق بهم. وانتهت المعركة بانتصار أهل الشام.

سعيد وثورة المختار بالكوفة

وفي النصف من شهر رمضان من العام نفسه (٦٤هـ) قدم المختار بن أبي عبيد الثقفي الكوفة وجمع بعض أهلها حوله، ولكنه لم يعلن الثورة ولاسيما بعد أن ألقوه في السجن، أما سليمان بن صرد وجماعته، فما لبثوا أن تحركوا، وفشلت حركتهم، وأصبحت الكوفة تحت

[1] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٤/ص ٢٩٢.

حكم ابن الزبير، بإمرة عبد الله بن مطيع، وفي عام ست وستين (٦٦هـ) قيض للمختار الذي تحرر من السجن أن يعلن الثورة بالكوفة، وطرد ولاة ابن الزبير، فلماذا لم يلتحق به سعيد؟ ولماذا امتنع الكثير من الناس مثل سعيد عن الالتحاق بالثورات تلك؟

تبدو الإجابة على هذا السؤال في منتهى التعقيد، ولكن من يطلع على حال العالم الإسلامي في الحقبة بين مقتل الحسين (عليه السلام) وثورة ابن الأشعث، لا يعدم وسيلة لمعرفة جوابه. ففي هذه الحقبة الساخنة كانت الكوفة ومكة والمدينة أعظم وأهم مدن وأقاليم العالم الإسلامي قاطبة. مكة ولد فيها الإسلام، وفيها نزلت الرسالة السمحاء تحمل البشرى للعالمين. والمدينة دولة الإسلام الأولى، وفيها نشأت حكومة وإمبراطورية الإسلام النبوية الأولى، التي كانت تبغي نشر العدل في الكون. والكوفة عاصمة إمبراطورية خلافة الإسلام الأولى في حقبة خلافة الخليفة الراشد الرابع علي(عليه السلام). وحينما تثور الكوفة ثم تتبعها مكة وتليهما المدينة بأوقات متقاربة؛ فثمة خطب جسيم يحدث، ثمة شيء يخالف الرسالة، يستوجب الانتفاض والثورة وتقديم التضحيات، لكي يعود للدين نقاؤه وصفاؤه. وحينما تفشل الثورة في كل هذه المدن الخالدة، لابد وان تكون القوة التي واجهتها وأجهضتها في منتهى القوة والجبروت والقسوة والدموية والوحشية. ولابد أن ذلك الفعل، ورد الفعل المتكرر، احدث في النفوس ثورة بركانية تبحث عن منفذ لتنطلق دونما حساب لنتائج ما يحدث، فالاحتقان والغضب الذي كان يغلي في سرائر الناس بحثا عن خلاص، كان يضع الناس أمام خيارين لا ثالث لهما: إما السكوت والتحمل إلى درجة الإذلال، ثم الموت كمدا وحسرة، أو الثورة مع من يبدو حراكه مضمون النجاح، أملا في التحرر من قيود الذل، وكلا الخيارين مر كالمستجير من الرمضاء بالنار.

وفي القريب من الزمان عاش العراقيون الشرفاء هذه المشاعر القلقة القاتلة، وهم يرون شبابهم يساقون إلى المقابر الجماعية السرية زرافات ووحدانا، وهم عاجزين عن نصرتهم، ويرون أعراضهم تنتهك، وهم عاجزين عن صونها، ويرون عقائدهم تستباح، وهم عاجزين عن حمايتها، ولذا تراهم ينظرون إلى المحتل الأمريكي الذي دخل بلادهم وكأنه الأمل الذي كانوا ينتظرونه، فلما حقق لهم بعضا مما كانوا يرجونه، إفادة لنفسه ولبرنامجه

لا حبا لسواد عيونهم؛ شكروا الله على نعمائه، ثم حملوا السلاح لإخراج المحتل من أراضيهم، وتعرضوا للقتل والموت، هذا بالضبط عين ما حدث في التاريخ الإسلامي القديم، في القرن الإسلامي الأول، حيث:

ـ الكوفة: مدينة علي بن أبي طالب، يدخلها معاوية منتهكا حرمتها، منتصرا متكبرا متجبرا ليضع على أبوابها شروطه التي أبرمها مع الإمام الحسن (عليه السلام) تحت قدمه، وليعلن من على ترابها انه ما قاتل العراقيين ليصلوا أو ليصوموا أو ليحجوا، وإنما قاتلهم ليتأمر عليهم. ولترجع مأساتها بعد عشرين عاما مخضبة بالدم الطاهر، يوم كسرت عينها بعد أن طيف برأس آخر ابن بنت نبي في الكون في طرقاتها وحواريها وبين أهلها؛ الذين يحبونه ويعشقونه، وهم ينظرون إليه ولا يستطيعون حراكا، ثم لتدوسها أقدام الشاميين بعد القضاء على التوابين، وتدنسها خيولهم بعد قتل المختار والقضاء على ثورته. حيث كانت الثورة تغلي في عروقهم التي كادت أن تنفجر، وكانوا يبحثون عن خلاص أو مخلص.!

ـ مكة: التي طهرها صوت النبي (صلى الله عليه وآله) وسيوف مجاهدي الإسلام من براثن الشرك والجهالة، فأصبحت بنت الإسلام المدللة، يلجأ إلى أستار كعبتها كل من جار الزمان عليه يطلب الأمن والأمان والإحسان، مكة التي شعرت بعظم المأساة ساعة نز الدم العبيط من تحت حجارتها وصبغت الحمرة كبد سمائها بلون مذبحها في الساعة التي حددها نبيها لمقتل حفيده؛ الذي كلم قلبها بعد أن فقدت وحيدها، فاستفزتها رغبة الثأر وأشعلت في قلبها جذوة ثورة تبحث عن بصيص أمل لتنفجر بحثا عن خلاص أو مخلص.!

ـ المدينة المنورة: التي احتضنت ضوع النبوة وعطر الرسالة، وعلى أديمها ولد نظام الحكم الإسلامي الأول، وفي شوارعها وطرقاتها سار أبناء جيل الإسلام المثالي الأول صحابة رسول الله وهم يحملون سيوفهم على عواتقهم ويتجهون حيث ما يشير لهم نبيهم، لينقذوا البشرية من براثن التخلف والتسلط والطبقية والاستغلال والفقر والشرك والكفر، ويعلنوا دولة العدالة الكونية الأولى. المدينة التي ضيق السياسيون فيها على حكومة علي

السماوية، فألجأوه إلى تركها ميمما وجهه صوب كوفان، ثم ما لبثوا ان جاءوها بخبر مقتله، وخبر غدر الأمة بولده الحسن وخبر اجتماع قوى الردة والجهالة على قتل ولده الحسين، ليقطعوا شأفة الرسالة من على وجه الأرض، فعاشت وفي قلبها تغلي نيران طلب الثأر وفي كيانها تصرخ روح الثورة باحثة عن مسرب للظهور باحثة عن خلاص أو مخلص.!

وفي هذه المتوالية الغريبة كانت القناعة الفاشية عند الناس أن الشيطان نفسه لو قيض له أن يثور على الأمويين ويهزمهم، يستحق أن ينصروه ويقاتلوا معه؛ طالما أن قتاله وهزيمته على أيديهم فيما بعد أهون من قتال الأمويين.! وحينما ثار عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث نظروا إليه وكأنه الشيطان الذي سيقضي على حكم الأمويين، والذي يستوجب دعمهم، ومن ثم مخالطته ومعرفة أسرار ضعفه وقوته للانقضاض عليه بعد حين وتحرير أنفسهم وبلدانهم منه. وضمن أجواء هذه المعادلة الغريبة جاءت مشاركة سعيد ومئات القراء المعارضين لحكم الأمويين في ثورة ابن الأشعث. وإذا ما كان الجانب العقدي عند سعيد هو ما تحكم بحراكه وبعلاقته بالثورات، فمن المؤكد أنه لكونه رجلا متعلما قارئً كان على يقين أن تلك الثورات باستثناء ثورة الحسين لم تكن قادرة على تحقيق الأماني، وغير قادرة على التصدي لجيش الأمويين، بمعنى أن نهايتها الفاشلة كانت واضحة، وكانت عملا انتحاريا أكثر منها ثورة للتغيير. وهي بهذه المواصفات غير مؤهلة لإغراء وإغواء الناس بالانضمام إليها، وسعيد مثل غيره من الناس لم يكن مستعدا للمجازفة بلا طائل، لكنه حينما وجد قوات ابن الأشعث تفوق قوات الأمويين عددا، في الروايات أن أكثر من ٢٠٠ ألف مقاتل كانوا مع ابن الأشعث، وجد في ذلك إغراءً يستحق المجازفة وفق قاعدة (أهون الشرين) ولذا تراه يلتحق بابن الأشعث، لأن ابن الأشعث مهما كان سيئا لا يمكن أن يكون بسوء الحجاج أو بسوء الخلفاء الأمويين.

أما ثورات الخوارج وخروجهم المتكرر في تلك الحقبة سواء في البحرين أو في البصرة والأهواز وسابور وداربجرد واصطخر وغيرها، مرة بقيادة أبا فديك([1]) ومجاميع الازارقة

[1] تاريخ الطبري، الطبري، ج٦/ص١٦٧.

في رامهرمز([1]) وثورتهم بالبصرة ضد الحجاج ([2]) وخروجهم بقيادة صالح بن مسرح بأرض الموصل والجزيرة([3]) وبقيادة شبيب وزوجته غزالة بالكوفة التي دخلها سنة ست وسبعين([4]) وبقيادة مطرف بن المغيرة سنة سبع وسبعين([5]) ومن بعده قطري بن الفجاءة وعبد رب الكبير وعبيد بن هلال وبكير بن وشاح السعدي، وباقي حركات الخوارج؛ التي استمر خروجهم خلالها واحدا تلو الآخر، وحربهم المستمرة مع المهلب بن أبي صفرة، وجيوش الحجاج، حتى أثناء ثورة ابن الزبير، وصولا إلى بداية حركة ابن الأشعث، فهي حركات من طراز خاص، وذات أهداف خاصة، لم تكن الأمة تؤمن بها، ولذا لا يحتمل خروج القراء وباقي الناس معهم، أو الانضواء تحت لوائهم.

إذاً لماذا ترك سعيد كل تلك الحركات وانضوى تحت لواء ابن الأشعث؟ هذا هو السؤال الذي دفع البعض إلى التشكيك بصحة ولاء سعيد لأهل البيت (عليهم السلام)، غير مدركين أن هذا الانضواء نفسه، جاء ليؤكد صدق ولاء سعيد لخط الإمامة المعصومة.

ويجد من يتابع سيرة سعيد أنه كان خلال تلك المدة مشغولا بطلب العلم. وما ينطبق على سعيد ينطبق على كثير من التابعين؛ الذين أحجموا عن الاشتراك بكثير من الثورات، ولكنهم اشتركوا جميعا بثورة ابن الأشعث بالذات، بالرغم من كونها ثورة ليست عقائدية، وفيها الكثير من التطرف والمغالاة. ولا يخفى أن الذين اشتركوا بثورة ابن الأشعث من القراء كانوا جميعهم في مرحلة الكهولة والشيخوخة، أي أنهم تجاوزوا مرحلة الشباب بكل ما تمثله من أمل بغد سعيد وعيش رغيد وخوف من الموت، وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى من الموت، فأرادوا تجربة التغيير مع هذه الفرصة السانحة، قبل أن يتوفاهم اجلهم دون أن يتركوا بصمتهم على الأحداث، ولذا أسهم جميع القراء في ثورة ابن الأشعث، وكأنها كانت الفرصة الأخيرة المتاحة لهم، وكان سعيد من ضمنهم، بينما تخلفوا تقريبا عن كل الثورات السابقة الأولى.

---

[1] المصدر نفسه، ج٦/ص ١٦٩.
[2] المصدر نفسه، ج٦/ص ١٧٩
[3] المصدر نفسه، ج٦/ص ١٨٣.
[4] المصدر نفسه، ج٦/ص ١٨٨.
[5] المصدر نفسه، ج٦/ص ٢٢٨.

وآخر ما أريد بيانه هو أن الاشتراك بالثورات في تلك الحقبة كان مناسبة للتنفيس عن الغضب أكثر منه تناغما مع روح الثورة، فالثورة لم تكن متاحة دائما لكي يسهل الانتقاء، وبالتالي كان هناك من ينضم إلى ثورة ما قد تختلف توجهاتها مع توجهاته العقدية، لأنه لا يملك خيارا آخر، خذ على سبيل المثال حنش الصنعاني الذي كان من تلامذة الإمام علي(عليه السلام)، وقد حارب معه في صفين والنهروان، ولكنه بالرغم من ذلك اشترك مع ابن الزبير في ثورته، وابن الزبير كان يبغض أهل البيت ([1]).

كل ما تقدم من حديث كان عن مدخلات الصراع بين الأمة والأمويين بما يبدو أنه لم تعد هناك خيارات أخرى غير الثورة، وحتى هذه اللحظة كانت المخرجات مهيأة للانطلاق، وكانت بوادر السقوط الأموي تحتاج إلى دعم حتى ولو من الحكام الأمويين أنفسهم، كأن يقوموا بعمل أخرق ينفر الناس عنهم كليا، ويحولهم إلى عدو لا خيار آخر للعلاقة معه إلا البتر، وفعلا جاءت ثورة عبد الرحمن بن الأشعث لتؤجج روح الكراهية في الأمة وترفعها إلى حدها الأقصى، وجاء العمل الأموي الأخرق بقتل ذلك العدد الكبير جدا من المسلمين ليعلن ساعة الصفر، أما المدة الزمنية اللازمة للتغير فلم تكن ضمن الحسابات، ولكن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة.!

[1] ينظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، احمد بن محمد المقري التلمساني، ج٢/ص٢٢٦.

القسم الثاني

٨٢ ـ ١٣٢ هجرية

الفصل الأول

أطراف المعادلة

كان هناك طرفان رئيسان في الصراع الذي افتتح في هذه الحقبة، هما الأمة وقرائها من جانب والأمويين وأتباعهم من جانب آخر، وضمن هذين الطرفين كانت هناك أطراف فرعية أخرى هي جزئيات غصنية من كلية كل طرف رئيس، وقد لعبت المصادفة دورها بطرح طرف ثالث جاء وجوده كآلية محتملة للتغيير، ممكن أن تسهم في التغيير، وهو تمرد أو ثورة محمد بن الأشعث. ويبدو لي أن الأمة كلها بما فيهم القراء راهنوا على خيار الثورة مع الطرف الثالث.

القراء وثورات عصرهم

إذا ما أحجم القراء عن الإسهام في أغلب ثورات عصرهم، فلابد وان يكون هنالك تحول استراتيجي كبير قد وقع عام ٨٢ هجرية، هو الذي دعاهم إلى الخروج الجماعي والطوعي في أقاليم الكوفة والبصرة ومكة والمدينة، وغيرها لدرجة أن أربعة منهم فقط تخلفوا عن الخروج مع ابن الأشعث، رغم عددهم الكبير وسعة رقعتهم الجغرافية. والسؤال هو: ما الذي حدث؟ ولماذا هذا التحول الغريب؟

وللإجابة على هذه الأسئلة يجب معرفة حقيقة حركة ابن الأشعث والدوافع التي أغرت جميع القراء للإسهام فيها، بما فيهم سعيد بن جبير، وهل كان ظلم الأمويين في هذه اللحظة بالذات قد وصل مداه الأكبر، الذي لم يترك عذرا لأحد كي لا يثور عليهم، أو لا يسهم في محاربتهم؟

من المعروف عن سعيد أنه لم يقف عند حدود العلم بالتفسير ورواية السنة، بل تجاوزهما إلى العمل بالشريعة على أصولها؛ وفقا لتعاليم النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) فهو بعد أن نمت درجة علمه إلى مستوى التفقه بالعقيدة، أبى إلا أن يكون أنموذجا للعمل والتطبيق، فرفع شعار "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"([1]). ونوى القيام بالتغيير وفق قاعدة شرعية تواتر الحديث

[1] جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ج٢/ص ٢٤١، حديث رقم ٣٤.

عنها: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته..." وسعيا منه لإثبات الرعوية من جانب، والسعي نحو تغيير المنكر من جانب آخر انتهج سعيد منهجين:

الأول: نشر روايات أهل البيت والتحدث بالسنة الصحيحة أمام الناس لتوعيتهم، وتذكيرهم بحق أهل البيت (عليهم السلام)، وقد تحدثنا من قبل عن هذا الجانب.

الثاني: الاشتراك بأي فرصة مؤكدة متاحة مضمونة نوعا ما لمحاربة المنكر والقضاء عليه؛ متمثلا بالأمويين وولاتهم على الأمصار الإسلامية.

وهنا يجب أن نتوقف للحديث عن أكبر وأوحد الثورات التي اشترك فيها سعيد وباقي القراء ممن لم يشتركوا في الثورات الأخرى من قبل، وهي الثورة التي أثار اشتراكه فيها جدلا ولغطا كبيرين استخدمهما البعض للتشكيك بتشيع سعيد، واستخدمهما آخرون للطعن به، وأستخدمهما القسم الثالث للتشكيك بوثاقة سعيد وأعلميته، والتقليل من قيمته الفقهية. وآن لنا أن نستخدم معطيات ومخرجات هذه الحركة لنثبت من خلالها تشيع سعيد بعيدا عن التجنيس، وأقصد بذلك اشتراكه في حركة ابن الأشعث السياسية ضد الوالي الأموي الحجاج بن يوسف الثقفي، بالرغم من عدم اختلاف شعاراتها عن شعارات الأمويين. ويجد المتابع في معادلة هذه الحركة أو الثورة طرفان: أولهما الحجاج بن يوسف الثقفي والي الأمويين على العراق، وثانيهما عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي قائد الحركة.

الطرف الأول: الحجاج

طرفي معادلة أكبر ثورات العصر الإسلامي الأول حجما من حيث العدد والعدة؛ هما الحجاج الثقفي ومحمد بن الأشعث، ووقودها الأمة المسلمة عامة، والعراقيون خاصة بقضها وقضيضها. أما الحجاج فقد طال الحديث عنه في كتب المدرستين؛ كلهم يحقرونه ويذمونه إلا ما ندر، وفيهم من يرى كفر الحجاج؛ كما قال ابن حجر ([1])، وقال زاذان: "كان مفلسا من دينه"، وقال طاووس: "عجبت لمن يسميه مؤمنا"، وكفره جماعة منهم:

[1] تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، ج٢/ص ١٨٥.

سعيد بن جبير والنخعي ومجاهد وعاصم بن أبي النجود والشعبي وغيرهم"([1]). وفي هذا القول إشارة لما ورد عن قتادة، قال: قيل لسعيد بن جبير: خرجت على الحجاج؟ قال: إني والله ما خرجت عليه حتى كفر"([2]). وما رواه ابن عساكر عن الشعبي، أنه قال: "الحجاج مؤمن بالجبت والطاغوت، كافر بالله العظيم"([3]). وقول ابن طاووس عن أبيه: "عجبا لإخواننا من اهل العراق، يسمون الحجاج مؤمنا"([4]).

هنا يجب أن ننتبه لقولهم إن سعيدا كفَّر الحجاج، لأنه ثبت أن الأمة لم تتفق على ذلك، وفيهم كثيرون كانوا يمتدحون الحجاج، ويعدون أعماله إيمانية، مثل رأي أبي وائل في قول الزبير: سببت الحجاج يوما عند أبي وائل، فقال: لا تسبه، لعله قال يوما: اللهم ارحمني فيرحمه"([5])، وهذا تهافت كبير وتسطيح للفكر الإسلامي واستهانة بالقيم والعقيدة بل وبعدالة الله تعالى. ومنها رأي ابن سيرين، الذي ذكر عنده الحجاج، فقال: مسكين أبو محمد؛ إن يعذبه الله عز وجل فبذنبه، وإن يغفر له فهنيئا له، وإن يلق الله بقلب سليم، فهو خير منا، وقد أصاب الذنوب من هو خير منه، فقيل له: ما القلب السليم؟ قال: ان يعلم الله تعالى منه الحياء والإيمان، وان يعلم ان الله حق، وان الساعة حق قائمة وان الله يبعث من في القبور"([6]). فمن المؤكد أن هذه الأقوال تجانب الحقيقة ولها غايات سياسية طائفية لا أكثر. إذ الملاحظ أن أتباع مدرسة أهل البيت أعلنوا كفره صراحة، وعلى رؤوس الأشهاد، أما من كفره من المدارس الأخرى، فباستثناء قلة، كان إما خائفا مترددا، وإما شاكا غير موقن بصحة رأيه، وإما كاتما للتكفير لكي لا يعرف به، وأغلب الأقوال التي كفرته صراحة، جاءت في العصور المتأخرة.!

---

[1] التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر بن عبد البر القرطبي، ج١٠/ص٦

[2] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥،ج٩/ص ١٦٣.

[3] المصدر نفسه، م٥،ج٩/ص ١٦٤.

[4] المصدر نفسه.

[5] المصدر نفسه.

[6] المصدر نفسه، م٥، ج٩/ ص ١٦٤ ـ١٦٥.

ولد أبو محمد الحجاج بن يوسف بن أبي عقيل الثقفي في منازل ثقيف بمدينة الطائف، سنة تسع وثلاثين، وقيل: سنة أربعين. وقيل في عام الجماعة سنة إحدى وأربعين للهجرة([1]). وكان أسمه كليب ثم أبدله بالحجاج. وأمه الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي. عمل معلما للصبيان يعلمهم القران والحديث. عجز المؤرخون عن تجاوز مجازره الرهيبة والمرعبة ولذا أوردوها في حديثهم عنه، قال عنه ابن كثير: "وكانت فيه شهامة وحب لسفك الدماء...وكان كثير قتل النفوس التي حرمها الله بأدنى شبهة"([2]).

وكان الحجاج ناصبيا مبغضا لأهل البيت (عليهم السلام) لدرجة أنه: "أنكر يوما أن يكون الحسين من ذرية رسول الله لأنه ابن ابنته، فقال يحيى بن يعمر: كذبت! فقال الحجاج: لتأتيني على ما قلت ببينة من كتاب الله أو لأضربن عنقك، فقال: قال الله تعالى: {ومن ذريته داود وسليمان} إلى قوله: {وزكريا ويحيى وعيسى} فعيسى من ذرية إبراهيم، وهو إنما ينسب إلى أمه مريم، والحسين ابن بنت رسول الله فقال الحجاج: صدقت، ونفاه إلى خراسان"([3]). وأتى الوليد بن عبد الملك رجلٌ من الخوارج، فقال له: ما تقول في عبد الملك بن مروان؟ فقال: الآن جاءت المسألة، ما أقول في رجل؛ الحجاج خطيئة من بعض خطاياه"([4]). وقال عنه الذهبي: "أهلكه الله في رمضان سنة خمس وتسعين كهلا، وكان ظلوما، جبارا، ناصبيا، خبيثا، سفاكا للدماء"، ولكنه بعد كل هذه الصفات القبيحة التي عرف بها، عاد ليقول عنه: "وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه. وأمره إلى الله. وله توحيد في الجملة"([5]).

وعن هشام بن حسان، قال: "أحصوا ما قتل الحجاج صبرا، فبلغ مائة ألف وعشرين ألفا"([6])، وعن عباد بن كثير، عن قحدم، قال: أطلق سليمان بن عبد الملك في غداة واحدة أحدا وثمانين ألف أسير في سجن الحجاج". وقيل: إنه لبث في سجنه ثمانون ألفا، منهم

---

[1] المصدر نفسه، م٥،ج٩/ص ١٦٤.
[2] المصدر نفسه، م٥، ج٩/ص ١٤٣.
[3] المصدر نفسه، م٥، ج٩/ص ١٥٢.
[4] المصدر نفسه، م٥،ج٩/ص ١٦٣.
[5] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص٣٠٢-٣٠٣.
[6] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥،ج٩/ص ١٦٣.

ثلاثون ألف امرأة، وعرضت السجون بعد الحجاج، فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفا لم يجب على احد منهم قطع ولا صلب"([1]).

ويكفي دليلا على ظلم الحجاج ما نقله الذهبي عن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز بشأنه، ومن هم على شاكلته من الولاة الأمويين، من قوله: "فكان عمر بن عبد العزيز (رحمه الله تعالى)، يقول: "الوليد الخليفة بدمشق والحجاج بالعراق وأخوه باليمن (يقصد محمد بن يوسف الثقفي الذي مات سنة إحدى وتسعين) وعثمان بن حيان بالحجاز وقرة بمصر، امتلأت والله الدنيا جورا"([2]). وقد كان الأعم الأغلب من الولاة الأمويين بهذه الصفات القبيحة المستهجنة، فقد كتب زياد بن أبيه إلى معاوية، يقول: "قد ضبطت العراق بشمالي، ويميني فارغة (يعرض بإمارة الحجاز)، فقال ابن عمر لما بلغه ذلك: اللهم أرحنا من يمين زياد، وأرح أهل العراق من شماله"([3]).

الحجاج كان واليا على مكة لخمسة أعوام، ثم جاء بعدها واليا على العراق في عام ٧٥ هجرية فحكمها بالنار والحديد لمدة عشرين عاما، ثم أهلكه الله في رمضان سنة خمس وتسعين. وقد تعامل الحجاج مع حركة ابن الأشعث بدموية قل نظيرها، فبعد المعركة الأخيرة نادى مناديه في الناس: من رجع فهو آمن، ومن لحق بمسلم بن قتيبة بالري، فهو آمن، ثم شرع في تتبعهم، فقتل منهم خلقا كثيرا([4]). وقال البيهقي: وقيل: إن الحجاج قتل خمسة آلاف أسير ممن سيرهم[ردهم] إليه يزيد بن المهلب ([5]). وقتل في معسكر ابن الأشعث نحوا من أربعة آلاف، منهم جماعة من الرؤساء والأعيان... ثم شرع في تتبع أصحاب ابن الأشعث، فجعل يقتلهم مثنى وفرادى، حتى قيل: إنه قتل منهم بين يديه صبرا مائة ألف وثلاثين ألفا"([6]).

---

[1] المصدر نفسه.
[2] دول الإسلام،شمس الدين الذهبي، ص٥٢-٥٣
[3] الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج٤/ص ٢٣٢-٢٣٣.
[4] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥،ج٩/ص٦١
[5] المصدر نفسه، ، م٥،ج٩/ص٦٢.
[6] البداية والنهاية، م٥،ج٩/ص٦١، وتاريخ الطبري، الطبري، ج٦/ص٢٩٥.

ومن سادية وجنون الحجاج أنه حول انتقامه ممن اشترك مع ابن الأشعث إلى فرصة للتندر والفكاهة، فملأ كتب التاريخ بلحظات جنون فيها الكثير من الاستهانة بالإنسان، ولعدم الإطالة سأورد بعضا يسيرا مما زخرت به الكتب في هذا الباب، منها: في كامل المبرد: أن الحجّاج بعث برأس ابن الأشعث بعد ظفره به مع عرّار بن عمرو بن شاس الأسدي، وكان أسودا دميما إلى عبد الملك، فلما ورد به عليه جعل عبد الملك لا يسأل عن شيء من أمر الوقيعة إلا أنبأه به عرّار في أصح لفظ، وأشبع قول، وأجزأ اختصار، وكان عبد الملك اقتحمه عينه حيث رآه، فقال متمثلا:

أرادت عرارا بالهوان ومن يرد لعمري عرارا بالهوان فقد ظلم

وإنّ عرارا إن يكن غير واضح فإنّي احبّ الجون ذا المنكب العمم

فقال له عرّار: أتعرفني أيها الخليفة ؟ قال: لا. قال: فأنا والله عرّار، فزاد في سروره وزاد في جائزته"([1]).

وفي تاريخ السيوطي: لمّا بنى الحجاج خضراء واسط، قال لجلسائه: كيف ترون هذه القبة ؟ قالوا: ما رأينا مثلها. قال: ولها عيب ما هو؟ قالوا: ما نرى. قال : سأبعث إلى من يخبرني، فبعث إلى الغضبان الشيباني وكان في سجنه، لأنه كان قال لابن الأشعث تغدّ بالحجاج قبل أن يتعشاك، فأقبل به وهو يرسف في القيود، فقال له: كيف قبتي هذه؟ قال: نعمت حسنة مستوية. قال: أخبرني بعيبها. قال: بنيتها في غير بلدك، لا يسكنها ولدك. قال: صدق ردوه إلى السجن. فقال: قد أكلني الحديد، وأوهن ساقي القيود، فما أطيق المشي. قال: احملوه، فلمّا حمل على الأيدي قال: سُبحان الذي سَخّرَ لنا هذا وما كُنا لهُ مُقرنين، قال: أنزلوه. فقال: ربّ أَنزلني مُنزلاً مُباركاً وأنتَ خَيرُ المُنزِلينَ، قال: جرّوه. فقال وهو يُجَرُ: بسم الله مجراها ومُرساها إنّ ربّي لغفورٌ رحيم. قال: اضربوا به الأرض. فقال: منها خلقناكم وفيها نُعيدُكم ومنها نُخرجكم تارة أخرى، فضحك الحجاج حتى استلقى على قفاه، ثم قال: ويحكم قد غلبني هذا الخبيث، أطلقوه إلى صفحي عنه. فقال الغضبان: فاصفح

[1] الكامل، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، ج١/ص ١٦٠.

عنهُم وقُل سلام، فنجا من شرّه بلسانه، وكان قال له: لأقطعن يديك ورجليك ولأضربن بلسانك عينيك" .

وفي تاريخ الطبري أن الشعبي أدخل على الحجاج فقال: "أيها الأمير إن الناس قد أمروني أن اعتذر إليك بغير ما يعلم الله أنه الحق، وأيم الله لا أقول في هذا المقام إلا حقا. قد سودنا عليك وحرضنا وجهدنا عليك كل الجهد، فما آلونا، فما كنا بالأقوياء الفجرة، ولا الأتقياء البررة، ولقد نصرك الله علينا وظفرت بنا، فإن سطوت فبذنوبنا، وما جرت إليه أيدينا، وإن عفوت عنا، فبحلمك، وبعد الحجة لك علينا. فقال الحجاج: أنت والله أحب إلي قولا ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا، ثم يقول: ما فعلت ولا شهدت! قد أمنت عندنا يا شعبي، فانصرف"([1]).

وفي الطبري أيضا: "أتي الحجاج بالأعشى، أعشى همدان، فقال: إيه عدو الله! أنشدني قولك: بين الأشج بين قيس، قال: بل أنشدك ما قلت لك. قال: بل أنشدني هذه، فلما أتمها، قال الحجاج: لا تبخبخ بعدها لأحد أبدا، فقدمه فضرب عنقه"([2]).

وقال ضمرة بن ربيعة، عن الشيباني، قال: قتل الحجاج يوم الزاوية أحد عشر ألفا، ما استحيا منهم إلا واحدا، كان ابنه في كُتاب الحجاج، فقال له: أتحب أن نعفو لك عن أبيك؟ قال: نعم، فتركه لابنه([3]).

هذه نبذة موجزة عن ظلم الحجاج وطغيانه وسفكه للدماء البريئة، وهو ما استوجب على العلماء والأعلام والشرفاء البحث عن وسيلة للتخلص منه، وفي مثل هذه الحال قد يلجأ البعض إلى أي فسحة أمل توعد بالخلاص، ولا ننسى هنا أن بعض المدارس الإسلامية تجيز التعاون مع المشركين في محاربة المسلمين الطغاة، فلا غرابة أن يستعين المسلمون بابن الأشعث وهو مسلم منهم ضد طغيان الحجاج.

---

[1] تاريخ الطبري، الطبري، ج٦/ص٢٩٠-٢٩١.
[2] المصدر نفسه، ج٦/ص ٢٩١-٢٩٣.
[3] المصدر نفسه، ج٦/ص٢٩٥.

الطرف الثاني: عبد الرحمن ابن الأشعث

الطرف الثاني في المعادلة هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، ولا خلاف أن ابن الأشعث ليس أقل جرما وخبثا ودناءة وتكبرا وتجبرا من الحجاج نفسه. وحركته تكاد تتناغم مع خط الحجاج العنفي في كثير من جوانبها، فهي تمتاز بأنها:

- حركة سياسية بغطاء ديني هدفها السلطة.
- من أهم الحركات غير الشيعية ضد السلطة الأموية.
- اشترك بها الجميع، بما فيهم الزهاد والقراء، كل يبحث عما يتماهى مع منهجه. وقيل إن عدد من اشترك فيها تجاوز المائتي ألف، قال الطبري: "واجتمع أهل الكوفة وأهل البصرة وأهل الثغور والمسالح بدير الجماجم والقراء من أهل المصرين ... وهم إذ ذاك مائة ألف مقاتل ممن يأخذ العطاء، ومعهم مثلهم من مواليهم"([1]).
- تعددت أوصافها بشكل كبير، فمن قائل إنها (فتنة) ومن قائل هي (ثورة) ومن قائل بل هي (حركة) ومن اعتبرها (زلة) ومن سماها (تمرد) ومن وصفها بأنها (خروج على السلطان). ولكل تسمية منها أسبابها وغاياتها.
- تعدد الحديث في أسبابها، فقال بعضهم: "لما انتهكَ الحجّاجُ من إماتة وقت الصلاة، ولجوره وجبروته". وقال آخر: "بسبب ظلمُ الحجّاج، وسَفكهُ الدماء بغير حق، وتأخير الصلوات وغير ذلك". وقال آخر: "بسبب عداء شخصي بين الحجاج وابن الأشعث". وقال آخر: "بسبب المنافسة بين الاثنين للحصول على ولاية العراق".
- تعدد الأقوال في تاريخها حيث ذهب أغلب المؤرخين إلى أنها حدثت سنة إحدى وثمانين للهجرة، ومنهم ابن كثير في البداية والنهاية في حديثه عن السنة الحادية والثمانين، قوله عن حركة ابن الأشعث: "قال أبو مخنف: "كان ابتداؤها في هذه السنة"([2]). والطبري في تاريخه عند حديثه عن سنة إحدى وثمانين، بقوله: "وفي هذه السنة خالف

[1] تاريخ الطبري، الطبري، ج٦/ص ٢٧٢.
[2] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥، ج٩/ص ٤٤.

عبد الرحمن بن محمد بم الأشعث الحجاج"([1]). وابن الأثير في الكامل، عند حديثه عن السنة الحادية والثمانين، بقوله: "وفي هذه السنة خالف عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ومن معه من جند العراق على الحجاج"([2]).

- إن كل من أشترك فيها هبطت منزلته المجتمعية ومكانته في أعين الناس، وبعضهم نَقَصَ قدرُهُ بسببِ دخوله هذه الفتنة، قال عبد الله بن عون: كان مسلم بن يسار لا يفضل عليه أحدٌ في ذلك الزمان حتى فعل تلك الفعلة، فلقيه أبو قلابة، فقال: والله لا أعود أبدا، فقال أبو قلابة: إنْ شاء الله، فتلا أبو قلابة {ادعوا ربكمْ تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين}([3])، فأرسل مسلم عينيه. وقال ابن عون: كان مسلم بن يسار عند الناس أرفع من الحسن، فلما وقعت الفتنة، خف مسلم فيها، وأبطأ عنها الحسن، فأما مسلم فإنه - أي أتضع - وأما الحسنُ فإنه ارتفع. وقال الشعبي لما أُدخل على الحجاج، وكان قد شارك في الفتنة:"قد اكتحلنا بعْدك السهر، وتحلسنا الخوف، وخبطتنا فتنة، لم نكن فيها بَرَرَة أتقياء، ولا فجرة أقوياء"([4]).

- صور المنحازون من المؤرخين أغلب من أشترك فيها بأنه كان يرى بعد أن عاش فشلها أنه خسر الدنيا والآخرة: قال أيوب السختيانيّ: قال مرة بن ذباب أبو المعذل: "أتيت على عقبةَ بن عبد الغافر وهو صريع في الخندقِ فقال: يا أبا المعذل: لا دنيا ولا آخرة". وقال حماد بن زيد: ذكر أيوب السختياني القراء الذين خرجوا مع بن الأشعث، فقال: "لا أعلم أحدا منهم قتل إلا قد رُغِبَ عن مصرعه، ولا نجا أحدٌ منهم إلا حَمدَ اللهَ الذي سلمه، وندم على ما كان منه:.

النقطة الأخيرة بالذات أخذت حيزا كبيرا من الحديث عن نتائج الحركة، وقد أسهم فيه نوعان من التابعين، الأول: الذين تخلفوا عن حركة ابن الأشعث، وذلك لكي يثبتوا صحة

---

[1] تاريخ الطبري، الطبري، ج٦/ص ٢٦٣ .
[2] الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج٤/ص ١٢٩.
[3] الأعراف:١٥٥.
[4] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥، ج٩/ ص٦١.

موقفهم، والثاني: الذين اشتركوا بالحركة مع ابن الأشعث وسامحهم الحجاج، ليردوا له جميله عليهم.

وأول محاولات الطعن بحركة ابن الأشعث جاءت على لسان بعض القراء أنفسهم، ممن كانوا يسيرون في كنف الحكومة الأموية، ويفتون لحكامها. ولاسيما بعد الحرب الإعلامية التي شنتها الحكومة على القراء لتشويه سمعتهم، كما في قول عبد الله بن عون: كان مسلم بن يسار لا يفضل عليه أحدٌ في ذلك الزمان حتى فعل تلك الفعلة، فلقيه أبو قلابة فقال: والله لا أعود أبدا، فقال أبو قلابة: إنْ شاء الله، فتلا أبو قلابة {إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ(١)؛ فأرسلَ مسلمٌ عينيه. وقال محمد بن طلحة: "رآني زُبيد مع العلاء بن عبد الكريم ونحن نضحك، فقال: لو شهدتَ الجماجم ما ضحكتَ، ولوددتُ أنَّ يدي، أو قال: يميني، قطعت من العضد وأني لم أكن شهدتُ" وقال مالك بن دينار: "لقيتُ معبد الجهني بمكة بعد ابن الأشعث وهو جريح، وقد قاتل الحجاج في المواطن كلها، فقال: لقيتُ الفقهاءَ والناسَ، لم أر مثل الحسن، يا ليتنا أطعناه، كأنه نادم على قتال الحجاج". وقال أيوب عن أبي قلابة قال: "لما انجلت فتنة ابن الأشعث كنا في مجلس ومعنا مسلم بن يسار، فقال مسلم: الحمد لله الذي أنجاني من هذه الفتنة، فوالله ما رميتُ فيها بسهم، ولا طعنتُ فيها برمح، ولا ضربت فيها بسيف، قال أبو قلابة: فقلتُ له: فما ظنك يا مسلم بجاهل نظر إليك فقال: والله ما قام مسلم بن يسار سيّد القراء هذا المقام إلا وهو يراه عليه حقاً فقاتل حتى قُتِلَ قال: فبكى والذي نفسي بيده حتى تمنيت أني لم أكن قلتُ شيئا. وهم يريدون بأقوالهم هذه أن يؤكدوا أنّ من نجا وسلم من الذين اشتركوا في حركة ابن الأشعث؛ ندم وتأسف، وودّ لو لم يكن شارك فيها.

وكم هو مدهش أن تجد التناقض الفاضح يطيح بكل تلك الأفكار والأقوال، ويعلن صراحة دونما تحيز أو خوف أن في تلك الأقوال التي تنتقص قيمة من أسهم في الثورة الكثير من الخوف والتدليس والكذب والمبالغة، وتشم منها رائحة السياسة تزكم الأنوف، ونجد في روايات ابن سعد جوانب خفية تفضح هذا التلاعب منها: "أخبرنا عمرو بن عاصم

---

١ الأعراف:١٥٥.

الكلابي، قال: حدثنا سليمان بن المغيرة، قال: حدثنا ثابت، قال: "ما كان أحد من الناس أحب إلي أن ألقى الله في مسلاخة إلا عقبة بن عبد الغافر، فلما وقعت الفتنة أتيناه، فقال: ما أعرفكم"([1]). بمعنى انه كان رافضا الاشتراك معهم في الثورة ومصرا على رأيه لدرجة القطيعة مع الثوار. ثم فجأة نكتشف أنه أحد صرعى تلك الحرب، وأنه بسبب اشتراكه في المعركة ظن نفسه قد خسر الدنيا التي كان يأمل أن يتنعم فيها إذا ما نجحت محاولة ابن الأشعث، والآخرة التي ظن أنه خسرها بسبب خروجه على الأحكام السلطانية التي تمنع الخروج على السلطان حتى وإنْ أوجع الظهر وسلب المال وفسق وتكبر وتجبر، والرواية عن مرة بن الذباب، قال: مررت بعقبة بن عبد الغافر وهو صريع في الخندق جريح، حين انهزم الناس فناداني: يا أبا المعدل يا أبا المعدل، فالتفت إليه فقال: ذهبت الدنيا والآخرة، وذلك في يوم ابن الأشعث"([2]).

فتنة أم ثورة

نقطة أخرى من النقاط التي امتازت بها حركة أبن الأشعث هي عدم اتفاق المؤرخين على تسمية تصنيفية أو توصيفية محددة لها، والابتعاد عن تجنيسها، فهناك تأكيد المؤرخين والتابعين المنحازين المؤيدين للحكومة الأموية وللحجاج على أن حركة ابن الأشعث فتنة من الفتن التي حذر منها رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهي ليست ثورة ضد الظلم والطغيان. وهذا الرأي له أسبابه الخاصة بالتأكيد، فهم من خلال تعريفهم للفتن ونقلهم الأحاديث النبوية التي تذم المشتركين فيها، أرادوا قمع الناس عن الخروج على السلطان، وترسيخ نظرية الأحكام السلطانية، والحط من درجة من اشترك فيها، ومنح الشرعية للحجاج في قتلهم ومطاردتهم. وقد وضعوا قواعد فقهية بهذا الشأن، منها قول الزهري : "وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله (ص) متوافرون؛ فأجمعوا أن كل دم أو مال أو فرج

[1] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٧/ص ٢٢٥
[2] المصدر نفسه.

أصيب بتأويل القران؛ فإنه هدر. أنزلوهم منزلة الجاهلية"([1]). ومنها قولهم: "إن الفتن إذا وقعت لم يسلم من التلوث بها أو بآثارها إلا من جمع بين وصفي (العلم والحلم)، وما تلوث بها إلا من فقد أحد الوصفين أو كلاهما"([2]). أما العلم فيقصدون به علم الناس بتلك الفتن من خلال الأحاديث ليتجنبونها، وأما الحلم فيقصدون به التأني وعدم الاستعجال والتريث وعدم التهور في هدر النفس أو العرض أو المال هدرا. إن هذا التخبط لا يدل على الجهل بقدر كونه أحد أهم المؤشرات على اللغط الذي أثارته الحركة التي كانت قاب قوسين أو أدنى من النصر. فمن هو ابن الأشعث وماذا عن ثورته؟

إن ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي التي امتدت من عام ٨١ ولغاية عام ٨٣ هجرية إحدى أهم الثورات التي قام بها العراقيون ضد الدولة الأموية، وإذا ما كانت الثورات التي وقعت منذ بداية العقد السادس من القرن الهجري الأول قائمة على أسس دينية كثورة الإمام الحسين (عليه السلام) وثورة التوابين والمختار الثقفي، أو مذهبية فئوية كثورات الخوارج؛ فإن ثورة ابن الأشعث كانت سياسية بامتياز، دينية بتحفظ، ممزوجة برغبة بالانتقام بسبب الكراهية المتبادلة بينه وبين والي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي، والخلاف بين القراء والأمويين. وهناك نقطة مهمة، وهي أن توظيف الدين في الجانب السياسي كان في ذلك الوقت المتقدم من عمر الإسلام فاعلا ومؤثرا نظرا للأثر الكبير الذي يتركه الجانب الديني على النفوس، ونلحظ هنا أن الجانب السياسي لم يصمد بالوقوف طويلا أمام الدفق الديني، فقد كان الثوار بحاجة إلى دعائم دينية تقوي عزيمتهم، ولكن الجانب السياسي انتصر في نهاية الأمر وسحق الجانب الديني، وكاد أن ينهي آخر إشعاعات الإسلام، لأنه قضى على جيل كامل من التابعين الكبار.

ومن الملحوظ أن الذين يعترضون على حركة ابن الأشعث وينعتونها بنعوت سيئة، إنما تأثروا بآراء ابن كثير وابن تيمية وغيرهم. ابنُ كثير، بقوله عن قيادة عبد الرحمن للثورة: "والعجب كُل العجب منْ هؤلاء الذين بايعوه بالإمارة؛ وليس منْ قريش، وإنما هو كندي

---

[1] مجموع فتاوى ابن تيمية، ج٨/ص ٣٣٤ .
[2] المصدر نفسه، ج٤/ص ٥٠-٥١.

منْ اليمن، وقد اجتمع الصحابة يوم السقيفة على أن الإمارة لا تكون إلا في قريش، واحتجَ عليهم الصديق بالحديث في ذلكَ حتى أن الأنصار سألوا أنْ يكون منهم أمير مع أميرِ المهاجرين، فأبى الصديق عليهم ذلك،..فكيف يعمَدون إلى خليفة قد بويع له بالإمارة على المسلمين من سنين فيعزلونه، وهو من صليبةِ قريش، ويبايعون لرجل كندي بيعة لم يتفق عليها أهلُ الحل والعقد؟!! ولهذا لما كانتْ هذه زلة وفلتة نشأ بسببها شر كثير، هلك فيه خلق كثيرٌ"([1]).

وابن تيمية الذي عاب الخروج على الأمويين عامة، حتى ولو كان الخارج عليهم إماما معصوما مثل الحسين (عليه السلام)، عاب ثورة الحسين، وثورة ابن الزبير، مع أنهم قالوا عن ابن الزبير: "إنه أصبح خليفة شرعيا بعد مبايعة الناس له"، وعاب ثورة ابن الأشعث، وله في ذلك أقوال منها:"ففي الجملة أهل السنة يجتهدون في طاعة الله ورسوله بحسب الإمكان ، ويعلمون أن الله تعالى بعث محمداً بصلاح العباد في المعاش والمعاد، وأنه أمر بالصلاح ونهى عن الفساد، فإذا كان الفعل فيه صلاح وفساد رجحوا الراجح منهما؛ فإذا كان صلاحه أكثر من فساده رجحوا فعله، وإن كان فساده أكثر من صلاحه رجحوا تركه. فإذا تولى خليفة من الخلفاء كيزيد وعبد الملك والمنصور وغيرهم، فإما أن يقال: يجب منعه من الولاية وقتاله حتى يُولى غيره كما يفعله من يرى السيف، فهذا رأيٌ فاسد، وقلَّ منْ خرج على إمام ذي سلطان إلا كان ما تولد على فعله من الشر أعظم مما تولد من الخير، كالذين خرجوا على يزيد بالمدينة، وكابن الأشعث الذي خرج على عبد الملك بالعراق... وأما أهل الحرّة وابن الأشعث وابن المهلب وغيرهم فهُزموا وهُزِمَ أصحابهم فلا أقاموا ديناً ولا أبقوا دنيا، وكان الحسن البصري يقول: إن الحجاج عذاب الله فلا تدفعوا عذاب الله بأيديكم، ولكن عليكم بالاستكانة والتضرع، وكان أفاضل المسلمين ينهون عن الخروج والقتال في الفتنة، كما كان عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وعلي بن الحسين وغيرهم ينهون عام الحرة عن الخروج على يزيد، وكما كان الحسن البصري ومجاهد وغيرهما ينهون عن الخروج في فتنة ابن الأشعث، ولهذا استقر أمر أهل السنة على ترك

[1] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥، ج٩/ص٦١.

القتال في الفتنة للأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي (ص) وصاروا يذكرون هذا في عقائدهم ويأمرون بالصبر على جور الأئمة وترك قتالهم، وإن كان قد قاتل في الفتنة خلقٌ كثيرٌ منْ أهلِ العلم والدين"([1]).

لم يذهب هذا التثقيف هدرا فهناك من اعتبر تلك الأقوال والأحكام عقيدة يجب العمل بها والسير على هديها، بل وعدها الحقيقة الوحيدة الصادقة في تاريخنا المليء بالترهات والهنات، حتى ولو كانت مشحونة بنقد لاذع وطعن كبير بتابعي من أشهر علماء زمانه مثل سعيد بن جبير. ووفق هذه المنهجية المنحازة كتب عبد الحق التركماني وهو سعودي الجنسية موضوعا بعنوان (الإمام سعيد بن جبير وفتنة ابن الأشعث) ونشره على شبكة الانترنيت يوم ١٤٢٥/٤/١٠ هجرية، قال فيه، مدافعا عن الحجاج، وطاعنا بسعيد بن جبير، وموهنا من موقفه في محاربة الظلم: "كثير ما يذكر الإسلاميون الحركيون ظلم الحجاج وطغيانه، ويبالغون في ذلك مبالغة فاحشة، ثم يذكرون (سعيد بن جبير) نموذجا للعالم الرباني الذي واجهه، وتصدى لظلمه، حتى ليخيل لأتباعهم أنه كان حركيا ثوريا، وأنه خير قدوة وأسوة لهم، فيما هم فيه من إثارة الفتن في هذا البلد أو ذاك. وجناية الحركيين على تاريخ الإسلام ليس بأقلَّ من جنايتهم على عقيدته ومنهجه ورسالته، فليس في تاريخنا ما يسمى: (خروج سعيد بن جبير على الحجاج) ولا (تصديه له)، وإنما يأتي ذكره في سياق ذ كِر: (فتنة عبد الرحمن بن الأشعث). نعم؛ هكذا سمى مؤرخو الإسلام الثقات ذلك الحدث السيئ، فلم يكن إلا (فتنة)، ولم يكن مرتبطا إلا بابن الأشعث. ومن ذيول ثورة ابن الأشعث قتل سعيد بن جبير في شعبان من سنة أربع وتسعين. وقد أثار قتله ثائرة الناس، واستفظعوا قتله، وعدوه من المساوئ التي لا تغتفر للحجاج، وما زال هذا اعتقاد العالم الإسلامي إلى اليوم، وأطنب المؤرخون في ذكر قتله. ووضعوا حول قتله قصصا كثيرًة". ثم قال في الهامش: "منها أن الحجاج حينما قتله اختلط عقله. ابن كثير:٧٩/٩، وابن الأثير: ٤/ ١٣٠، والطبري: ٥ / ٦ وابن شاكر٢٥٣/٥. وأن الحجاج رآه بعض الناس في المنام بعد موته، فقال: قتلني الله بكل قتيل قتلًة، وقتلني بسعيد بن جبير

[1] منهاج السنة، ابن تيمية، ج ٤/ص ٥٢٧ – ٥٣١.

سبعين قتلة"([1]). وغريب كيف أن هذه الثقافة الحجاجية لا زالت تشغل حيزا واسعا كبيرا في تفكير الكثير من المسلمين، الذين لا يهمهم تكذيب كل التاريخ دفاعا عن رموز لا وزن لها عند الله.

النسب الأشعثي

أما التاريخ السياسي والعائلي لعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، فهو تاريخ مليء بالخبث والدناءة حتى الثمالة، بما يؤكد ـ من دون شك ـ أن عائلته جبلت على التآمر، وفي بطون كتب التاريخ الكثير من الحديث السيئ عن هذه العائلة:

- جده الأكبر قيس بن معدي كرب

كان يهوديا، من اليهود الذين نزحوا إلى جزيرة العرب، وسكنوا باليمن.

- جده الأشعث بن قيس الكندي

يقال: إنه كان ملكا في قومه، كثير المال، عظيم الشرف، أسلم سنة تسع وقيل عشر للهجرة، ثم أرتد عن الإسلام في خلافة أبي بكر(رض)، بل كان من قادة المرتدين، حيث أرتد معه أهل "النُجير"([2])، فقاتلهم زياد بن لبيد، وأسر الأشعث، وأرسله إلى أبي بكر([3])، فعفا عنه، وزوجه أخته (أم فروه). وفي الطبقات، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، قال: اشتراني عمر بن الخطاب سنة اثنتي وعشرة وهي السنة التي قُدم بالأشعث بن قيس فيها أسيرا، فأنا انظر إليه في الحديد يكلم أبا بكر الصديق، وأبو بكر يقول: فعلت وفعلت، حتى كان آخر ذلك؛ أسمع الأشعث بن قيس يقول: يا خليفة رسول الله استبقني لحربك وزوجني أختك؟ ففعل أبو بكر ... وزوجه أخته أم فروه فولدت له محمد"([4]). وبعدها اعترف أبو بكر في مرضه الذي مات فيه أنه ندم على عدم قتله الأشعث، روى اليعقوبي أنّ أبا بكر، قال لعبد الرحمن بن عوف الذي عاده في مرضه: "ما آسى إلا على ثلاث خصال صنعتها

[1] موقع الشيخ عبد الحق التركماني، الرابط http://turkmani.com/com_studies
[2] النجير: تصغير النجر: حصن باليمن، قرب حضرموت. ينظر: مراصد الاطلاع،عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي، ج٣/ص١٣٦١.
[3] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٣/ص ٥٩٨.
[4] المصدر نفسه، ج ٥/ص ١٠-١١.

لم أكن صنعتها، وثلاث لم أصنعها ليتني كنت صنعتها" ومن تلك التي ندم أنه لم يصنعها، قوله: "ليتني قدمت الأشعث بن قيس تضرب عنقه، فإنه يُخيّل إليّ أنه لا يرى شيئًا من الشرّ إلا أعان عليه" ([1]). وكان الأشعث قريبا من الأمويين، مؤيدا لهم، حتى أن الخليفة عثمان بن عفان عينه واليا على أذربيجان([2])، بالرغم من أن المناصب الحكومية في تلك الحقبة كانت محجوزة للأمويين وأتباعهم.

فضلا عن ذلك كان الأشعث أيام صفين مدسوسا في جيش الإمام علي (عليه السلام)، وحينما واتته الفرصة، تآمر على الإمام وهدده بأن يسلمه إلى معاوية إذا لم يقبل بالتحكيم، كما نقل عنه اليعقوبي قوله: "والله لتجيبنّهم إلى ما دعوا إليه، أو لندفعنّك إليهم برمّتك!"([3]). فقال له مالك الأشتر (رحمه الله) مهددا: "والله يا أعور ـ وكان الأشعث أعور فعلاً مثل المغيرة بن شعبة ـ لهممت أن أملأ سيفي منك .. وإني أعلم أنك ما تحاول إلا فتنة، وما تدور إلا على الدنيا وإيثارها على الآخرة"([4]). وهناك أكثر من نقل يثبت أن الأشعث كان من المشاركين بمقتل الإمام علي (عليه السلام) ففي طبقات ابن سعد عند حديثه عن ابن ملجم، قال: "وبات عبد الرحمن تلك الليلة التي عزم فيها أن يقتل عليا في صبيحتها؛ يناجي الأشعث بن قيس الكندي في مسجده حتى كاد أن يطلع الفجر، فقال له الأشعث: فضحك الصبح فقم، فقام عبد الرحمن بن ملجم وشبيب بن بجرة فأخذا أسيافهما، ثم جاءا حتى جلسا مقابل السدة التي يخرج منها علي"([5]). وبعد تلك الجريمة النكراء، كان الأشعث حريصا على التوثق من موت علي (عليه السلام): "وبعث الأشعث بن قيس ابنه قيس بن الأشعث صبيحة ضرب علي (عليه السلام) فقال: أي بني أنظر كيف أصبح أمير

[1] تأريخ اليعقوبي، اليعقوبي، جزء٢/ص١٣٧.
[2] ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص ١٦٠.
[3] تأريخ اليعقوبي، اليعقوبي، جزء٢/ص ١٨٩.
[4] المصدر نفسه، جزء٢/ص ١٨٩.
[5] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٣/ص ٣٦.

المؤمنين"([1]). هلك الأشعث في دولة الإمام الحسن (عليه السلام)، وعاش بعد الإمام علي (عليه السلام) أربعين ليلة([2]).

- أخت الأشعث قُتيلة بنت قيس الكندي

أشاعوا أن النبي (صلى الله عليه وآله) تزوجها، وأنكر الصحابة ذلك ونفوه، وقد تزوجت قتيلة عكرمة بن أبي جهل، وكانت من المرتدين مع أخيها الأشعث. عن هشام بن عروة عن أبيه: "لم يتزوج رسول الله قتيلة بنت قيس، ولا تزوج كندية، إلا أخت بني الجون، ملكها وأُتي بها، فلما نظر إليها، طلقها ولم يبن بها"([3]).

- محمد بن الأشعث، أبو عبد الرحمن

هو ابن الأشعث من زوجته فروة أخت أبي بكر. كان في الكوفة مقربا من واليها عبيد الله بن زياد، ولاسيما في المدة التي شهدت مأساة كربلاء ومقتل الإمام الحسين بن علي (عليهما السلام) عام ٦١ هجرية، فهو حينما كان يدخل على ابن زياد يستقبله بالترحاب، ويقول: "مرحبا بمن لا يُستغش ولا يتهم ويقعده إلى جنبه([4]). وفي الطبري هو الذي جلب هاني بن عروة إلى ابن زياد([5])، وفيه أيضا أن محمد بن الأشعث والقعقاع بن شور وشبث بن ربعي قاتلوا مسلما وأصحابه عشية سار مسلم إلى قصر ابن زياد([6]). وفي مقاتل الطالبيين أن بلال ابن "طوعة" التي آوت مسلم بن عقيل (رحمه الله) بعد أن انصرف عنه أصحابه؛ ذهب إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فأخبره بمكان ابن عقيل عند أمه، فأقبل عبد الرحمن حتى أتى إلى أبيه؛ وهو جالس، فساره، فقال له ابن زياد: ما قال لك؟ قال محمد بن الأشعث: أخبرني أن ابن عقيل في دار من دورنا([7])، فنخسه ابن زياد بالقضيب في جنبه، ثم قال: قم فأتني به الساعة. وألقي القبض على مسلم

---

[1] المصدر نفسه، ج٣/ص ٣٧.
[2] ينظر: دول الإسلام، الذهبي، ص ٢٥-٢٦.
[3] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٨/ص١٤٨
[4] تاريخ الطبري، الطبري، ج٥/ص٢٥١.
[5] المصدر نفسه، ج٥/ص٢٤٣.
[6] المصدر نفسه، ج٥/ص٢٥٧.
[7] قال هذا لأن السيدة طوعة كانت أم ولد للأشعث واعتقها. ينظر: مقاتل الطالبيين، ص١٠٤

بن عقيل وقتل([1]). ونظرا لأهمية هذه الوشاية لأنها تسببت بمقتل الحسين وصحبه فإن محمد بن الأشعث يعتبر من أهم المساهمين بمقتل الإمام الحسين، بل كان السبب المباشر لفشل مساعي مسلم بن عقيل في الكوفة.

وكان محمد من قادة جيش ابن زياد؛ الذي قتل الإمام الحسين (عليه السلام) ومع ذلك نجد في كتب التاريخ من يدعي أن الإمام الحسن (عليه السلام) بعثه في الصلح بينه وبين معاوية.! ([2]) إذ لا يمكن الركون إلى هذه الرواية لتهافتها، فمن غير المعقول أن يثق الإمام الحسن برجل يرجع نسبه إلى الأشعث حتى لو كان بين صفوف جنده، فمن قبله كان أبوه الأشعث في جيش الإمام علي، وتآمر عليه.! وقد يرى البعض أن زواج الإمام الحسن (عليه السلام) من جعدة أخت محمد ربما يكون السبب في تقريبه إليه والوثوق به، ويستحيل هذا؛ نظرا إلى أن الإمام الحسن كان يعرف هذه العائلة وزواجه من جعدة كان أمرا مقضيا. هذا وكنت قد بينت في كتابي (الحسن بن علي، الإمامة المنسية) حجم المؤامرات السياسية التي حيكت ضد الإمام الحسن (عليه السلام)، وحجم التشويه الإعلامي الذي مورس ضده؛ لكي يظهروه بمظهر الجاهل بالسياسة وفنونها، ومنه هذه الرواية التي يوجد أشباهها الكثير.

في آخر مطافه في التلون أصبح محمد وابنه عبد الرحمن من قادة جيش ابن الزبير، بالرغم من تعلقه بنسبه اليهودي، وقد روي على لسانه ما يثبت أنهم قوم من اليهود وكانوا مخلصين ليهوديتهم، ففي طبقات ابن سعد: "وقد روى محمد بن الأشعث عن عمر وعثمان، أنه سألهما عن عمة له يهودية ماتت"([3]). واعترف الحجاج ان محمدا هذا سلب الخليفة عثمان ثيابه وقام بجرائم أخرى، فقال عن عبد الرحمن بن محمد: "هو أهوج أحمق حسود، وأبوه الذي سلب أمير المؤمنين عثمان ثيابه وقاتله، ودل عبيد الله بن زياد على

---

[1] مقاتل الطالبيين، ابو الفرج الاصفهاني، ص١٠٥ـ١٠٦، تاريخ الطبري، الطبري، ج٥/ص ٢٦٥.
[2] ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص ١٧١.
[3] المصدر نفسه، ج٥/ص٦٥.

مسلم بن عقيل حتى قتله، وجده الأشعث ارتد عن الإسلام"([1]). مات محمد مع ابن الزبير ليبقى عبد الرحمن يمارس نفس الأعمال الخبيثة التي اشتهرت بها عائلته.

- قيس بن الأشعث الملقب (قيس قطيفة)

أخو عبد الرحمن، عرف بهذا الاسم كما في الكثير من كتب التاريخ: لقيامه بسلب قطيفة كانت على جسد الإمام الحسين (عليه السلام) بعد استشهاده، ومنها تاريخ الطبري، الذي قال: "وسلب الحسين ما كان عليه، فأخذ سراويله بحر بن كعب، وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته ([2])، وكانت من الخز، وكان يسمى بعد "قيس قطيفة" وأخذ نعليه رجل من بني أود"([3]).

وقيس هذا هو الذي أرسله أبوه ليتأكد من موت الإمام علي، بعد أن طعنه المجرم ابن ملجم كما في الرواية التي مرت عليكم.

وفي الطبري أن قيس قال للحسين (عليه السلام): "أولا تنزل على حكم بني عمك؟ فإنهم لن يُروك إلا ما تحب ولن يصل إليك منهم مكروه، فقال له الحسين: "أنت أخو أخيك، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل؟ لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ولا اقر لهم إقرار العبيد"([4]).

- جعدة بنت الأشعث بن قيس

عمة عبد الرحمن، هي المجرمة التي سممت الإمام الحسن (عليه السلام) بالتعاون مع معاوية ويزيد، والقصة معروفة.

---

[1] ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، م٥ ج ٩/ص٤٤.

[2] جلب انتباهي الشديد ملحوظة ثبتها محقق مخطوطة كتاب الكامل الشيخ خليل مأمون شيحا في هامش صفحة الخبر، إذ نقل الخبر كما يلي: "وكان على الحسين جبة من خز" ثم قال في الهامش: "في المخطوطة: الحسين عليه السلام" بمعنى أنه حذف (عليه السلام) ولا ادري من أجاز له حذف (عليه السلام) من سياق النص، وهي موجودة في الأصل، هذا إلا إذا ما كان يتحسس من هذه الكلمة، وينبغي حذفها من التداول، سامحه الله.!

[3] تاريخ الطبري، الطبري، ج٥/ص ٣٠٦ ، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج٣/ص٥٣١.

[4] تاريخ الطبري، الطبري، ج٥/ص ٢٨٧

- إسماعيل بن الأشعث

عم عبد الرحمن، كان منافقا من الطراز الأول، لدرجة أنه نافق ابن أخيه عبد الرحمن عند الحجاج يوم عينه قائدا للجيش المكلف بحرب رتبيل في سجستان، لأنه كما ادعى كان يخشى خلافه وخروجه على الحجاج، فنصح الحجاج بعدم إسناد قيادة الجيش إليه، وقال له: "لا تبعثنه فإني أخاف خلافه، والله ما جاز جسر الفرات قط فرأي لوال من الولاة طاعة وسلطانا" ([1]) وفي البداية والنهاية: "فقال للحجاج: إني أخاف أن تأمروه، فلا ترى لك طاعة إذا جاوز جسر الصراة، فقال: ليس هو هنالك هو لي حبيب"([2]).

- ميمونة بنت محمد بن الأشعث

أخت عبد الرحمن، كانت زوجة لمحمد بن الحجاج بن يوسف([3]).

- باقي أبناء محمد بن الأشعث

إخوة عبد الرحمن، منهم قيس وإسحاق والمنذر والصباح، وهم من كبار المنافقين، جاءوا فدخلوا على الحجاج، فقالوا: لا توجه عبد الرحمن في هذا الجيش، فإنا نتخوف أن يخرج عليك ! قال: ليس هذا أول حسد الإخوة، وإنما أنتم حسدتموه لأنه ليس من أمكم. وفي الأخبار الطوال: كتب الحجاج إليه عهده على سجستان. فلما بلغ ذلك أهل بيت عبد الرحمن، فزعوا من ذلك فزعا شديدا، فأتوا الحجاج، فقالوا له: أصلح الله الأمير، إنا أعلم به منك، فإنك به غير عالم، ولقد أدبته بكل أدب، فأبى أن ينتهي عن عجبه بنفسه، ونحن نتخوف أن يفتق فتقا، أو يحدث حدثا، يصيبنا فيه منك ما يسوؤنا. فقال الحجاج: القول كما قلتم، والرأي كالذي رأيتم، ولقد استعملته على بصيرة، فإن يستقم فلنفسه نظر، وإن يفترج سبيله عن بصائر الحق يهد إليها إن شاء الله([4]).

والظاهر أن النفاق السياسي كان فاشيا في الدولة الأموية، وبسببه أزهقت أرواح الكثير من القادة والمقربين للسلطة، وفي الطبري ان يزيد بن المهلب نافق وكيع بن أبي

---

[1] المصدر نفسه، ج٦/ص٢٥٩

[2] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥، ج٩/ص٤٠.

[3] الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، ج٢/ص ٤٤.

[4] الأخبار الطوال، الدينوري، ص ٣١٨.

الأسود عند سليمان بن عبد الملك، ووكيع هذا هو الذي قطع رأس القائد الاموي قتيبة بن مسلم الباهلي سنة سبع وتسعين، وجاء به إلى سليمان، قال يزيد لسليمان؛ وكأنه ينصحه ويحذره: "إن وكيعا لم يجتمع له مائة عنان قط، إلا حدث نفسه بغدرة([1]).

وفي البداية والنهاية أن الحجاج نفسه نافق المهلب بن أبي صفرة، لأن أحد أهل الكتاب أخبره وهو في طريق العودة من الشام إلى الكوفة أن شخصا اسمه يزيد سوف يزيحه عن إمرة العراق ويحل محله، فظن مجرد ظن أنه يزيد بن المهلب: "فكتب إلى الخليفة عبد الملك يذمه ويخوفه غدره، ويخبره بما أخبره به ذلك الشيخ الكتابي"([2]).

- عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس

كان قائدا في الجيش الأموي. وحينما قدم مسلم بن عقيل إلى الكوفة، علم بمكان اختفائه من ابن المرأة التي ضيفت مسلم، وأخبر والده الذي أخبر ابن زياد، فألقى القبض على مسلم وقتل. ثم اشترك عبد الرحمن مع أبيه محمد مع مصعب بن الزبير في مطاردة العلويين، وقتال المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وقُتل أبوه في المعركة التي دارت بين الفريقين في حروراء سنة ٦٧هجرية.

وبكلمة منه تسبب بمقتل مئات المسلمين؛ فبعد انتصار مصعب استسلم أربعة آلاف مقاتل من جيش المختار، وانبرى رئيسهم بجير بن عبد الله المسلي في الحديث مع مصعب إلى أن لانت عريكته، وخف غضبه، وأراد أن يطلق سراحهم، ولكن عبد الرحمن انبرى من بين الجموع، وقال مخاطبا ابن الزبير: "قتل أبي وعمي وخالي وأشراف أهل مصري، ثم نخلي سبيلهم، اخترنا أو اخترهم"، فغضب مصعب بن الزبير وأمر بقتلهم جميعا". فتسبب للمرة الثانية بمقتل عدد كبير من المسلمين.

في عام ٧٢ أرسله بشر بن مروان والي الكوفة على رأس خمسة آلاف مقاتل مدداً للمهلب بن أبي صفرة في حرب الخوارج الأزارقة، وأمره بعد الانتهاء من غزاته أن ينصرف إلى الريّ. وهذه النقطة مهمة جدا، فهي تؤكد أن عبد الرحمن كان في الكوفة قبل أن يعود هو

[1] تاريخ الطبري، الطبري، ج٦/ص ٣٩٣ .
[2] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥،ج٩/ص٦٩.

وسعيد إليها مع الحجاج من المدينة، لأنها تؤكد بأن سعيدا كان في الكوفة أيضا، ولسبب ما ذهب إلى المدينة ثم عاد إليها مع الحجاج، وإلا لا داعي لأن يصطحبه الحجاج معه إلى الكوفة إذا ما كان مقيما في المدينة من أصله.

وفي سنة ٧٦ أمره الحجاج بعد أن أصبح واليا على الكوفة أن يخرج في طلب (شبيب) الخارجي وأصحابه.

وفي سنة ٨٠ وجهه الحجاج على رأس أربعين ألف مقاتل من الكوفة والبصرة لحرب (رُتبيل) في سجستان.

وبسبب العلاقة الوطيدة بينه وبين الحجاج، قام عبد الرحمن بتزويج أخته (ميمونة) على محمد بن الحجاج، فربطتهم قرابة النسب مع علاقة الصداقة والمعتقد.

هذا هو التاريخ السياسي لواحدة من العوائل المتآمرة التي كانت أعمالها أحد أهم أسباب اختلاف المسلمين فيما بينهم، بالشكل الذي تنعكس تداعياته على واقعنا المعاصر. لكن إذا ما كان سليل هذه الأسرة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قريبا من الأمويين ووواليهم الحجاج بهذا الشكل، فلماذا يثور عليه وعليهم، ولماذا يؤيده الناس بالإجماع؟

يقودنا جواب هذا السؤال إلى التحدث عن مرحلة جديدة من مراحل الصراع الإسلامي الإسلامي، مرحلة كانت مليئة بالأحداث الجسام في سلسلة الصراع القائم بين جماعة الإيمان من جهة، وجماعات الشر من جهة أخرى، جماعة الإيمان تقاتل دفاعا عن الدين، وعن نفسها، وعن مدنها المقدسة، وجماعات الشر تقاتل وتتقاتل طلبا للمال والمتعة والنساء، غير آبهة لجريان سيول الدماء.

الفصل الثاني

الثورات العصر

أسباب الثورات ضد الأمويين

كثيرة هي الأعمال السيئة التي قام بها الأمويون، والتي زرعت التذمر في قلوب الناس، ودفعتهم إلى الثورة، فمنذ ولادة الإسلام؛ وهم يناصبونه العداء؛ لدرجة أن إسلامهم جاء قسريا أكثر منه طوعيا كيفيا، وبعد عصر البعثة كانت لهم مواقف كبيرة فضح بعضها حقيقة إسلامهم المهلهل، لكن الحال تبدل مع تولي الخليفة الراشد عثمان بن عفان الخلافة، حيث سيطروا على مقاليد أمور الدولة، وابتنوا لهم في الشام دولة موازية للدولة الإسلامية، وأقاموا حكومة موازية لحكومتها؛ كانت تتمتع بكل مواصفات الدولة والحكومة، مع مفاضلة مالية وعقائدية لا تتمتع بها حكومة المركز؛ لدرجة أن الخليفة عثمان بالرغم من كونه القائد العام للقوات المسلحة، وتحت إمرته في العاصمة الكثير من الألوية القتالية؛ طلب منهم المدد يوم حاصره الثوار. وهو الجيش الذي امتنع عن الدفاع عن الخليفة، ولكنه شمر عن ساعده لمحاربة الخليفة الراشد علي بن أبي طالب ثم الخليفة الشرعي الحسن بن علي.

ومن الأدلة على نفور الناس منهم ومن نظامهم تلك الثورات المتلاحقة التي كفرتهم، فيوم وثوب أهل المدينة المنورة في زمن يزيد بن معاوية على ولاتهم وعوائلهم وإخراجهم منها "أسندوا أمرهم إلى عبد الله بن حنظلة وبايعوه خليفة، فخطبهم قائلا: يا قوم اتقوا الله وحده لا شريك له، فوالله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نُرمى بالحجارة من السماء، إن رجلا ينكح الأمهات والبنات والأخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة، والله لو لم يكن معي أحد من الناس لأبليت لله فيه بلاء حسنا"([1]). ومع أنه من غير المقبول تعميم حالة فردية لتكون دليل إدانة دامغ، ودليلا على وجود انحراف ما، إلا أننا لا يمكن أن نرفض أو نرد تكرار الحالات الفردية فالتكرار يكشف عن دواخل النفوس وما يعتمل بها، ومن هذه الحالات حالة التابعي عبد الله بن غالب الذي صعد على المنبر الذي نصب لعبد الرحمن بن الأشعث في الزاوية، "فقال له: أبسط يدك، على ما نبايعك؟ قال: على كتاب الله وسنة نبيه. قال: فمسح كفه على كفه، ثم رمى بترسه، وقال: لا والله لا أجعل بيني وبين أهل الشام جُنة

[1] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٥/ص ٦٦.

اليوم، قال: فقاتل حتى قتل"([1]). وهذا يعني ان هناك تصورا واضحا عند الناس عن كفر أو في الأقل انحراف الأمويين عن الإسلام، دفعهم لكي يعتقدون يقينا أن قتال الأمويين يقرب العبد إلى الله سبحانه، ولذا طلبوا الشهادة على يد الأمويين.

فضلا عن ذلك جاءت أعمال الأمويين لتؤكد وجود الانحراف، فمع كثير من الأشياء التي تبدلت منذ أن أنشأ الأمويون دولتهم تبدلت الموازين المالية وطرائق التعامل مع المال وجبايته وأشياء مما يخصه ولاسيما وأن تبذير وبطر الحكام الأمويين وولعهم بالجواري والغلمان والقصور والخمر كان يتطلب منهم موارد إضافية، ومنافذ أخرى للكسب المادي، وقبالة السماحة التي أبداها الأمام علي (عليه السلام) مع دافعي الزكاة ووصاياه لعماله بوجوب عدم إزعاج الناس وعدم قسرهم على ما يكرهون، نجد الأمويين يشتدون على الناس بأخذ الخراج بشكل ألحق الأذى بالإسلام والمسلمين، ففي خراسان أخذ أمية بن عبد الله الأموي ـ والي خراسان (٧٤ـ٧٨) من قبل عبد الملك ـ أخذ الناس بالخراج وأشتد عليهم، فاحتج عليه ناس من بني تميم، فاجتمعوا في المسجد، فذكروا شدة أمية على الناس فذموه، وقالوا: سلط علينا الدهاقين في الجباية"([2]).

أما في العراق فإن الحجاج ومنذ الأيام الأولى لتعيينه واليا كان يتفنن في الكسب ويستنبط الحيل والخدع ولا يشبع من كسب، ومع مرور السنين ازداد جشعه وطمعه، فهو ما إن رأي هجرة الموالي الفرس إلى المدن تزداد، بعد أن أخذوا يعلنون إسلامهم ويلحقون بالأمصار الإسلامية حالهم حال أي مسلم آخر؛ فتسقط عنهم الجزية شرعا، حتى كتب إلى البصرة وغيرها: "إن من كان له أصل في قرية فليخرج إليها"([3])، وذلك لكي تؤخذ منهم الجزية التي سقطت عنهم بعد اعتناقهم الإسلام. ومع ذلك نجد هناك من يدافع عن الحجاج، ويدعي أنه حينما فكر في أن يزيد الضريبة بالعراق "كتب إلى عبد الملك يستأذنه في أخذ

---

[1] المصدر نفسه، ج٦/ص ٢٢٥.

[2] ينظر: الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، محمد ضياء الدين الديس، ص ٢٢٤.

[3] تاريخ الطبري، الطبري، ج٨/ص٣٥، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج٤/ص ١٧٩ .

الفضل من أموال السواد، فمنعه من ذلك، وكتب إليه: لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك، وابق لهم لحوما يعقدون بها شحوما"([1]).

المهم أن الموالي المظلومين المسلوب منهم إسلامهم، خرجوا فعسكروا، فجعلوا يبكون وينادون: يا محمداه، يا محمداه، ولا يدرون أين يذهبون. فجعل قراء أهل البصرة يخرجون إليهم يواسونهم بمصيبتهم، فيبكون لما يسمعون منهم ويرون([2]).

أما الحجاج، فإنه لم يتأسف ولم يحترم موقف القراء، بل تعامل مع المظلومين بروح انتقامية دموية استعلائية تعصبية، حيث أسقط ديوانهم، وفرق جماعتهم، حتى لا يتألفوا للتآمر عليه مرة ثانية، ففرقهم وفض جمعهم وصيرهم كيف شاء، ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجهه إليها.

ومن غريب المصادفات أن قدوم ابن الأشعث بجيشه إلى العراق تزامن مع هذه الثورة وهذه المظلومية، في وقت كانت نفوس القراء مشحونة بالكره للحجاج بسبب موقفه من هؤلاء الموالي المسلمين، وهنا يقول الطبري وكذلك ابن الأثير: "فاستبصر قراء أهل البصرة في قتال الحجاج مع عبد الرحمن"([3]).

ومع صحة وجود الترابط والعلاقة بين الحدثين، نجد هناك من يحاول تعليل موقف الحجاج وإيجاد الأعذار للفصل بين حركة ابن الأشعث وثورة الموالي وانضمام القراء إلى الثورتين مواسين وثائرين؛ بينما هي حلقات يتمم بعضها بعضا، ترجع بالتاريخ حتى تتصل بثورة الإمام الحسين (عليه السلام) وتتقدم به لتصل إلى كل الثورات الأخرى، التي جاءت بعد ثورة ابن الأشعث ولغاية سقوط الأمويين.

في صدد التعليل والتأويل قال الأستاذ الديس عن مأساة تحصيل الخراج وتفضيله حتى على إتباع الشعوب للإسلام: "إن هذا كان حادثا مستقلا نتج عن ازدياد الهجرة إلى المدن، وأن الحجاج ـ لما لفت عماله نظره إلى الأمر ـ وجد أن موارد الدولة ستتأثر من جراء

---

[1] تاريخ الطبري، الطبري، ج٧/ص٢٧٨، والخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، محمد ضياء الدين الديس، ص ٢٢٤ .

[2] ينظر: الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، ص ٢٢٤.

[3] الكامل في التاريخ، ابن الأثير ج٤/ص ١٣٠

ذلك، وأن الأيدي العاملة ستنقص أيضا في الريف مما سيترتب عليه ضعف الزراعة ونقص الخراج أيضا؛ فأصدر أمره بإعادة الناس إلى قراهم، وقد يكون قرر أيضا أن تعتبر الجزية ضريبة ثابتة لا تسقط بالإسلام... ربما كان له عذر أنه ظن أن الناس كانوا ينتحلون الإسلام ليفروا من أداء ما عليهم"([1]). وتجد في هذا التعليل السقيم أن الأستاذ الديس أباح للحجاج أن يجتهد قبالة النص وأن يضع شرائع مناقضة لشرائع محمد (صلى الله عليه وآله)، فضلا عن كونه خالف ما ورد في صحيح البخاري ومسلم وعشرات كتب الحديث الأخرى عن قصة أسامة بن زيد والمشرك الذي تلوذ بشجرة، وقصة المقداد بن عمرو الكندي والمشرك، وفي كلاهما تعوذ الكافر بكلمة (لا إله إلا الله) ففي قصة أسامة: "حدثنا عمرو بن زرارة حدثنا هشيم حدثنا حصين حدثنا أبو ظبيان، قال: سمعت أسامة بن زيد بن حارثة (رض) يحدث قال: بعثنا رسول الله (ص) إلى الحرقة من جهينة قال: فصبحنا القوم فهزمناهم قال: ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم قال: فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، قال: فكف عنه الأنصاري فطعنته برمحي حتى قتلته قال: فلما قدمنا بلغ ذلك النبي (ص) قال: فقال لي: يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله، قال: قلت: يا رسول الله إنما كان متعوذا قال: أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟ قال: فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم"([2]).

وفي قصة المقداد: "عن عطاء بن يزيد أن عبيد الله بن عدي، حدثه أن المقداد بن عمرو الكندي حليف بني زهرة حدثه ـ وكان شهد بدرا مع النبي (ص) ـ أنه قال: يا رسول الله إن لقيت كافرا فاقتتلنا فضرب يدي بالسيف فقطعها ثم لاذ بشجرة، وقال: أسلمت لله؛ آقتله بعد أن قالها؟ قال رسول الله (ص): لا تقتله، قال: يا رسول الله فإنه طرح إحدى يدي، ثم قال ذلك بعد ما قطعها، آقتله؟ قال: لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وأنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال"([3]).

---

[1] الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، ص ٢٢٥.

[2] صحيح البخاري،طبعة دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ومن يقتل مؤمنا، حديث رقم ٦٨٧٢، ص ١٢١٥.

[3] المصدر نفسه، حديث رقم ٦٨٦٥، ص ١٢١٤.

إن عدم فهم الدين الإسلامي على حقيقته الذي أدى إلى انتهاج المسلمين سياسة التهاون هو الذي دفع بعض المسلمين على مر التاريخ، ولاسيما التكفيريين منهم إلى الاستهانة بالدم المسلم وتكفير المسلمين الموحدين، كما يفعل الإرهابيون اليوم.

ومن المؤكد أن ثورة ابن الأشعث لم تأت لرفع الغبن عن الناس ولا لنصرة الدين فعبد الرحمن بن الأشعث كان أموي الهوى والعقيدة، وكان منغمسا فيما وقعوا فيه من خطأ وخلط وختل وانحراف بشكل كامل، وقد يكون من المستغرب خروجه عليهم ومحاربته لهم، لكن ما وصلت إليه روح المنافسة عند بعض القادة الأمويين الذين حققوا نجاحات حربية واجتماعية، زرعت الغرور والطمع بالإمرة في نفوسهم، يكاد يكون دافعا قويا لهم لكي يبحثوا عن درجات عالية أكبر من درجاتهم التي وصلوا إليها. فضلا عن تخوف الخلفاء الأمويين من سطوع نجوم هؤلاء القادة بين الناس، مما جعل الجماهير تنظر إليهم بعين الاحترام والتبجيل، ربما بنفس درجة نظرتهم إلى الخلفاء الذين يكتفون بالجلوس في قصورهم وإصدار الأوامر. وسنتناول في نهاية البحث موضوع المشاكل والإشكالات التي وقعت بين الخلفاء الأمويين وكبار قادتهم وولاتهم بسبب المنافسة دون الالتفات إلى ما حققه هؤلاء من انتصارات في أطراف المعمورة جلبت إلى العاصمة أفواجا لا تحصى من النساء الجميلات وكمية لا تعد من الأموال والجواهر والخيول.! ولكننا نشير هنا إلى التنافس بين الحجاج وابن الأشعث لأنه يخص ما نحن بصدد التحدث عنه. وهنا أود التنويه إلى أن المصادر التاريخية تحدثت عن عداء تنافسي بين الحجاج وعبد الرحمن بن الأشعث، ومن ذلك قولهم: فكان الحجاج يقول عن ابن الأشعث : "ما رأيته قط إلا أردت قتله". وكان عبد الرحمن بن الأشعث يتحدث علانية انه يحاول أن يزيل الحجاج عن سلطانه . وكان يتعالى عليه ويشمخ بأنفه باعتباره سليل الملوك من قبيلة كندة ، وكان يعز عليه أن يكون خاضعا لسلطان احد"([1]). بمعنى أن المنافسة والعداء الشخصي بين الاثنين هو الذي قاد الأمة إلى شفير الهاوية، وكاد أن يودي بها إلى الهلاك، ويكفي أنه تسبب بمقتل أكثر من مائة وخمسين ألف مسلم من العراقيين على وجه الخصوص في غبون

[1] العراق في العصر الأموي، د: ثابت الراوي، ٢٠٦.

ثلاث سنين، فمنذ أن عاد عبد الرحمن بن الأشعث بجنده إلى العراق لإسقاط الحجاج، ولغاية سنة ٨٣ هجرية قتل أكثر من ربع مليون مسلم من أهل العراق والشام.!

إن عبد الرحمن كان من النوع الطامح الطامع، وكان يرى نفسه مزاحما للحجاج في مرتبته، بل كان يرى نفسه أفضل منه؛ وكان يأمل في إزالته والجلوس مكانه، كما في قوله للشعبي: "وأنا والله لأجهدت ان أزيله عن سلطانه إن طال بي وبه البقاء([1])، وبالتالي كان يعتقد انه أولى من الحجاج بالمكان الذي هو فيه، وربما كان يرى نفسه أولى من الخليفة الأموي بالسلطة، إذا لم يكن مساويا له.

واقع الحال أن المرحلة التاريخية المضطربة التي كانت تعيشها الدولة الأموية منحت الطامحين أملا بتحقيق المكاسب، ولو على حساب الرقعة الجغرافية للإمبراطورية، فإن كان ابن الزبير قد نجح بقواته المحدودة بالاستقلال عن الإمبراطورية الأموية بحدود عقد من الزمان، فإن من يملك أكثر من مائتي ألف جندي يرى نفسه أولى من ابن الزبير بان يحقق أحلامه.

فضلا عن ذلك استغل عبد الرحمن العداء المتأصل والحقد الدفين الذي يكنه أهل العراق للدولة الأموية التي حاربت وقتلت عليا وحسنا وحسينا(عليهم السلام أجمعين) وانتقمت من التوابين والمختار وأصحابه والعلويين ومن ثم زيد بن علي والهاشميين والطالبيين؛ فمرغت كرامة العراق والعراقيين بالتراب، وخطفت مجدهم يوم نقلت العاصمة من الكوفة إلى الشام.

ومن المصادفات الغريبة أن الحجاج، هو الذي مهد لهذه الحركة، ربما لأنه كان يشعر بالخطر الحقيقي الذي يمثله وجود ابن الأشعث قربه في الكوفة. فالحجاج ومنذ وصوله إلى العراق واليا عليه عام ٧٥ هجرية، ومع أنه كان مشغولا بمشاكل العراق وحركات الخوارج، كان قد وضع في باله ونصب عينيه مشاكل إقليم "سجستان"، ذلك الإقليم الذي اتعب الأمويين، وكان كثير الانتفاض والتمرد عليهم، وذلك لان العراق وخراسان

[1] ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، ج ٥/ص٣٩.

وسجستان ونواحيها كانت تحت إمرة الحجاج([1]) وكان رتبيل يرى نفسه أهلا للتمرد على الحجاج والدولة، ولذا كان يتمرد عليهم ويمتنع عن دفع الجزية، كلما سنحت له فرصة، مهما كانت ضئيلة، وكانت الدولة تسكت مرغمة، كما وضع نصب عينيه مجاورة ابن الأشعث الثعلب الماكر له.

ولا اعتقد أن منع الجزية هو الذي حفز الحجاج، وإلا ما كان سكت عنه الحجاج على مضض، منتظرا الفرصة، فهو بعد أن استقرت الأمور في العراق عام ٧٨ هجرية، وجد الفرصة سانحة لكي يلتفت إلى رتبيل ومشاكله، ووجود ابن الأشعث وخطره، وقرر حل هاتين المشكلتين. ولاسيما وانه كان قد أرسل سنة ٧٩ جيشا بقيادة عبيد الله بن أبي بكرة لتأديب رتبيل، وأمره بالتوغل في سجستان ودك القلاع والحصون، وقد فعل عبيد الله ما أمره الحجاج به، وتوغل في البلاد، وأصاب كثيرا من الغنائم ، إلا أن رتبيل خدعه حيث تظاهر بالهزيمة أمامه ثم أطبق عليه واخذ عليه العقاب والشعاب، وقضى على معظم جيشه. ومات عبيد الله بن أبي بكرة كمدا لما نال الناس وأصابهم. وكان للهزيمة طعم العلقم، والظاهر أن عبيد الله بن أبي بكرة كان هو الآخر منافسا للحجاج، وجاء انتصاره على رتبيل ليمنحه فرص مفاضلة تقلق الحجاج، ولذا أمره بالتقدم بذلك الشكل العبثي لكي يتخلص منه.! وربما كان الحجاج قد أعد العدة ليرسل ابن الأشعث حالما يقتل عبيد الله بن أبي بكرة، ولكن انتصار الأخير أفقده زمام المبادرة، فأصدر له الأمر بالتقدم في مجاهل لا يعرف عنها شيئا، مما أدى إلى هلاكه وهلاك جنده، وبالتالي تصبح الرغبة بالانتقام طريقا للتخلص من خطر ابن الأشعث، ولذا كتب الحجاج إلى الخليفة الأموي عبد الملك يعلمه بالنتائج، فأمر الخليفة بتجريد جيش كبير للانتقام من رتبيل، وهنا سارع الحجاج في إعداد جيش كبير آخر، بلغ عدده أربعون ألفا، عشرون ألفا من أهل الكوفة، وعشرون ألفا من

[1] ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، م٥، ج ٩/ص٢٨.

آهل البصرة وبالغ في تجهيزه بالخيول الروائع والسلاح الكامل، وبلغ من فخامة الجيش أن سماه الناس جيش الطواويس([1])، وجعل قيادته لعبد الرحمن بن الأشعث.

وكان الصراع شديدا بين مؤامرتين كبيرتين، مؤامرة الحجاج ومؤامرة ابن الأشعث، فما بدا ظاهراً أن غرور الحجاج كان أحد الدوافع التي أدت بعبد الرحمن إلى الثورة، لأن الحجاج لم يتعظ من الخطأ الاستراتيجي الذي أوقع فيه القائد عبد الله بن أبي بكرة وجيشه الذي توغل في بلاد رتبيل، في كمين قاتل، بعد أن أمرهم بالتقدم، لم يكن عفويا وإنما كان جزء من مؤامرة الحجاج، ولذا أمر عبد الرحمن بن الأشعث بالتوغل بنفس طريقة عبد الله في مجاهل بلد لا يعرفون عنه شيئا.! وذلك لأن الحجاج بعد أن وصلته أخبار انتصارات عبد الرحمن توجس خيفة، وشعر بالخطر، فأراد أن يصيب عبد الرحمن ما أصاب ابن أبي بكرة من قبل، لكي يتخلص منه، ويتخلص من أكبر عدد من الكوفيين والبصريين. وما بدا في الظاهر وكأن ابن الأشعث لم يكن ملتفتا إلى المؤامرة التي تحاك ضده ـ في الأقل ـ في أجواء المعركة التي كان يخوضها ضد عدو شرس، ولذا كان يعمل بتمهل وروية، وليس في باله العودة إلى الكوفة، فعبد الرحمن كان، كما يقول المؤرخون: "كلما حوى بلدا بعث إليه عاملا، وبعث معه أعوانا، ووضع البريد فيما بين كل بلد وبلد، وجعل الأرصاد على العقاب والشعاب، ووضع المسالح من البقر والغنم والغنائم العظيمة([2]). هذا التجاهل إنما كان عملا مدروسا كان ابن الأشعث يبغي من خلاله بناء مجده الشخصي، وتأسيس دولته التي يحلم بها بعيدا عن سيطرة الحجاج والأمويين، وهناك الكثير من الأدلة على رجاحة رأينا هذا، منها أن ابن الأشعث حبس الناس عن الوغول في ارض رتبيل، وقال: نكتفي بما أصبناه العام من بلادهم ، حتى نجبيها ونعرفها، ويجترئ المسلمون علي طرقها، ثم نتعاطى في العام المقبل ما وراءها، ثم لم نزل ننتقصهم في كل عام طائفة من أرضهم،

---

[1] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥،ج٩/ص٤٠، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج٤/ص١٢٢.

[2] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥،ج٩/ص٤٠، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج٤/ص١٢٤، وتاريخ الطبري، الطبري، ج٦/ص ٢٥٩.

حتى نقاتلهم آخر ذلك علي كنوزهم وذراريهم، وفي أقصي بلادهم وممتنع حصونهم، ثم لا نزايل بلادهم حتى يهلكهم الله"([1]).

ولقد أدرك الحجاج ما يدور في خلد منافسه فكتب إلى عبد الرحمن جوابا على رسالته يعنفه ويستضعف عقله ويقرعه بالجبن والنكول عن الحرب، ويأمره بعدم التوقف: "أما بعد فان كتابك أتاني، وفهمت ما ذكرت فيه، وكتابك كتاب امرئ يحب الهدنة، ويستريح إلي الموادعة، قد صانع عدوا قليلا ذليلا، قد أصابوا من المسلمين جندا كان بلاؤهم حسنا، وغناؤهم في الإسلام عظيما، لعمرك يا ابن أم عبد الرحمن، انك حيث تكف عن ذلك العدو بجندي وحدي لسخي النفس عمن أصيب من المسلمين، إني لم اعدد رأيك الذي زعمت انك رايته رأي مكيدة، ولكني رأيت انه لم يحملك عليه إلا ضعفك، والتياث رأيك، فامض لما أمرتك به من الوغول في أرضهم، والهدم لحصونهم، وقتل مقاتلهم، وسبي ذراريهم"([2]).

ولم يكتف الحجاج بهذا الكتاب، وإنما أردفه بكتابين آخرين، يتضمنان نفس المعنى، وهدده في الثاني منهما بالعزل إنْ هو لم يُطع أوامره، حيث قال له : "أما بعد فامض لما أمرتك به من الوغول في أرضهم، وإلا فإسحاق ابن محمد أخوك أمير الناس، فخله وما وليته".([3])

ومن يدقق النظر في هذه الرسالة يستشعر مخاوف الحجاج واضحة أمامه، فهو كان يريد إما إلقاء ابن الأشعث وجيش العراق في أتون نار حرب مدمرة، أو تجريد ابن الأشعث من قواته لكي يدخل الكوفة، هذا إن كان سيبقيه حيا؛ بلا أعوان ولا قوة.

أما عبد الرحمن الطامح إلى الإمرة فقد أدرك ما يفكر به غريمه، فغضب أو تصنع الغضب من رسائل الحجاج واستغلها مناسبة ليعلن عن ثورته، فقال أمام جنده، يوحي لهم ببعض ما يدور في خلده: "يكتب إلي بمثل هذا وهو لا يصلح ان يكون من بعض جندي، ولا من بعض خدمي لخوره وضعف قوته؟"([4]). والظاهر من طبيعة تلك المراسلات أن الحجاج بدهائه وحيلته، كان يدفع عبد الرحمن عنوة إلى الثورة أو إلى الموت، لأنه كان

---

[1] ينظر: البداية والنهاية، ابن كثيرم٥، ج٩/ص٤٠، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج٤/ص١٢٤، وتاريخ الطبري، الطبري، ج٦/ص ٢٥٩ .

[2] ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، م٥، ج ٩/ص٤٤.

[3] الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج٤/ص١٢٩

[4] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥، ج٩/ص٤٤.

يجازف بالجيش الإسلامي لمجرد رغبته بالتخلص من منافسه العنيد عبد الرحمن. وعبد الرحمن من جانبه بذكائه، استغل هذه الكتب التي تتهدد حياته وحياة الجنود بالفناء، وهم غالبا ممن يكرهون الحجاج، ويبحثون عن فرصة للثورة، لأنه وجد الظرف مناسبا، فوضعهم بين خيارين؛ خيار المجازفة بالتقدم في بلاد لا يعرفون تضاريسها وأجواءها وطقسها بكل ما يمثله ذلك من خطر، ليس أقل مما تعرض له الذين سبقوهم في خوض تلك المجازفة، وخيار العودة والثورة على الحجاج وإزاحته والتخلص منه. بمعنى أنه استغل كتب الحجاج تلك لتأليب الجند عليه؛ فخطبهم قائلا: " أيها الناس إني لكم ناصح، ولصلاحكم محب، ولكم في كل ما يحيط بكم نفعه ناظر، وقد كان من رأيي فيما بينكم وبين عدوكم رأي استشرت فيه ذوي أحلامكم، وأولي التجربة للحرب منكم، فرضوه لكم رأيا، ورأوه لكم في العاجل والآجل صلاحا، وقد كتب إلي أميركم الحجاج، فجاءني منه كتاب يعجزني ويضعفني، ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في ارض العدو، وهي البلاد التي هلك إخوانكم فيها بالأمس، وإنما أنا رجل منكم، امضي إذا مضيتم، وآبي إذا أبيتم، فثار إليه الناس فقالوا: لا، بل نأبى علي عدو الله، ولا نسمع له ولا نطيع"([1]).

الكثير من الجند أنفسهم لم تكن المؤامرات التي تحاك خافية عليهم، وكانوا يترقبون تمرد ابن الأشعث لينضموا إليه، ولذا أيدوه في خلع الحجاج دون التطرق إلى خلع عبد الملك بن مروان. وكان ابن الأشعث قد أعد العدة لذلك، فأسرع إلى رتبيل وعقد معه صلحا، ونحن إذا أخذنا أقوال المؤرخين عن الهدنة بين عبد الرحمن ورتبيل على محمل الجد، فإن رغبة ابن الأشعث بالثورة لتحقيق المكسب الدنيوي السياسي كانت أحد أسباب خروجه على الحجاج، وقد تكون السبب الأوفر حظا، ولم يكن في حسبانه حفظ سلامة جنده أو الغزو لنصرة الإسلام، حيث قال الطبري وابن كثير، وغيرهم: إن ابن الأشعث عقد اتفاقا مع رتبيل، وصالحه على انه إن ظهر على الحجاج، فلا خراج عليه أبدا ما بقي، وان انهزم

[1] تاريخ الطبري، الطبري، ج٦/ص٢٦٤، والكامل في التاريخ، ج٤، ص ١٣٠،١٢٩ والبداية والنهاية، ابن كثير، م٥،ج٩/ص٤٤.

فعلى رتبيل أن يوفر له الملجأ والحماية([1]). كل هذا وابن الأشعث ساكت عن الخليفة لا يذكره، ولا يتحدث عن علاقته المستقبلية به، لكنه استغل تأييد الجند، ليعلن في وسط طريق العودة إلى الكوفة خلع الخليفة عبد الملك، حيث قال: "إن خلعنا للحجاج خلع لابن مروان، فخلعوهما وجددوا البيعة لابن الأشعث"([2])، وفي هذه المرحلة وقعت القطيعة بين عبد الرحمن وجنده وبين الدولة الأموية وخليفتها ووالياها.

الجنود الكوفيون الحانقون أنفسهم، استغلوا المستجدات، ولاسيما وان نفوسهم كانت مشحونة بكره الحجاج والأمويين، فاخذوا بالخيار الثاني. علما أن تاريخ عداء العراقيين للأمويين يعود كما يقول الدكتور ثابت الراوي: "إلى بدايات التحرك الشيعي في العراق بعد استسلام العراق إلى معاوية. وهو استسلام لم يكن في جوهره أكثر من استجابة للأمر الواقع، واعتراف إكراهي بالخلافة الأموية. فقد كانت هذه التغييرات السياسية تحمل في صميمها، الكارثة للعراقيين الذين التزموا مصيرياً بالقضية العلوية ووقفوا إلى جانب علي (عليه السلام) الذي جعل من الكوفة مركز الحكم في الإسلام، بكل ما يعنيه ذلك من أهمية سياسية واقتصادية، وما يعكسه من شعور بالتفوق، أصبح الآن أكثر وضوحاً من قبل. وإذ ينقلب الموقف وتتحطم الأحلام وتنهار المكاسب، كان لا بد من تقويم لما جرى ووضع الأمور في نصابها. وفي غمرة ذلك وجد العراقيون (الكوفيون والبصريون) أنفسهم يتحملون وزر هذا المصير؛ الذي آلوا إليه، ويتتبعون بأسى الصورة القاتمة لمستقبلهم السياسي في ظل السيادة الأموية. ولم يكن هنالك أدنى ريب في أن أية مقارنة بين النظام السابق والنظام الجديد ليست في البال على الإطلاق. فمعاوية ما كاد يستتب له الأمر في العراق، حتى انهارت تلك الصورة الزائفة التي اقترنت بها شخصيته، القائمة على الحنكة والدهاء.. فإذا به في العراق إنسانا آخراً وأنموذجاً مختلفاً.

وكان معاوية يعرف جيداً أن أقلية ضئيلة فقط بايعته، ربما على قناعة أو سعياً وراء مصلحة خاصة. أما الغالبية فقد بايعته مكرهة وتحت التهديد. وكان يعرف أيضاً أن هذه

---

[1] تاريخ الطبري، الطبري، ج٦/ص٢٦٥، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج٤/ص١٣٠.
[2] ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، م٥،ج٩/ص٤٥.

الفئة الرافضة بمختلف فصائلها ستنقلب عليه، إنْ لم يكن اليوم فغداً، هذا ما يستشف من قول الدكتور الراوي: "أخذت ملامح السياسة الجديدة للخليفة الأموي، القائمة على التحدي والاستفزاز والمبادرة بالعنف، تتبلور بالنسبة للعراق وتوحي بأن أحداثاً خطيرة سيشهدها هذا الإقليم. فقد أرسل معاوية أحد البارزين في نظامه وهو المغيرة بن شعبة، والياً على الكوفة ومعه صلاحيات مطلقة، وتوجيهات بشتم علي (عليه السلام) من فوق منبر الجمعة، ومراقبة تحركات زعماء الشيعة، وملاحقة المتحمسين منهم للقضية العلوية. ولقد نفذ المغيرة بإخلاص تعليمات سيده"([1]).

وما كاد أهل العراق المتواجدون مع الجيش يسمعون مقالة ابن الأشعث تلك، حتى قام خطباؤهم وشعراؤهم يعلنون سخطهم علي الحجاج، ويعلنون خلعه. وهنا بدأت ثورة الشعب ضد الطغاة، فثار القراء مع أهل العراق، إذ استغل القراء الذين كان بعضهم ضمن قوات ابن الأشعث هذه المستجدات ـ مثلما يرى بعض المؤرخين ـ بالرغم من أن عدد القراء في الجيش كان بحدود عشرين شخصا فقط، قصد الحجاج من وراء إرسالهم مع الجيش أن يكون وجودهم حافزا للجند علي قتال الأعداء مثلما أشار لذلك خليفة بن خياط في تاريخه، بقوله: منهم سعيد بن جبير، وعامر بن شراحيل الشعبي، وعبد الرحمن بن أبي ليلي، والحسن بن أبي الحسن البصري. وستجد خلال البحث الكثير من التناقض في هذا الرأي، ولاسيما حديثهم عن وجود سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن أبي ليلي والحسن بن أبي الحسن البصري ضمن هذه المجموعة من القراء([2]).

وهناك عشرات الأدلة على وهم ابن خياط، أو وهم الذين نقلوا عنه، ومن الدلائل على وهم من نقل عنه؛ وجود قول لابن كثير يتبين من خلاله أن ابن خياط لم يقصد أن الحجاج أرسلهم مع ابن الأشعث في الجيش، وإنما أشار إلى أسماء بعض من قتل أو فقد من كبار القراء مع ابن الأشعث، فتوهموا انه قصد غير هذا، قال ابن كثير عن حوادث سنة ثلاث

---

[1] ينظر: الدكتور ثابت الراوي، العراق في العصر الأموي، ص ٥٩ــ ٦٠،والخوارج والشيعة، فلهوزن، ص ١٤٩.

[2] تاريخ خليفة بن خياط، ص ٢٨٦ـ٢٨٧ .

وثمانين: "وفيها فقد جماعة من القراء والعلماء الذين كانوا مع ابن الأشعث.... وقد سمى خليفة بن خياط طائفة الأعيان، فمنهم... ثم ذكر الأسماء"([1]).

فضلا عن ذلك كانت العلاقة بين الحجاج وكثير من الأسماء التي أوردها ابن خياط في منتهى السوء، فالعلاقة بين أبي ليلى الشيعي، أو المتعاطف مع الشيعة ـ في أقل تقدير ـ والحجاج الأموي، لم تكن بحال تسمح للحجاج بأن يعتمد على هذا التابعي، ومن هم على شاكلته من التابعين الشيعة مثل سعيد بن جبير وكميل بن زياد وغيرهم ليرسلهم مع الجيش الغازي يشدون من أزره. وهناك الكثير من النقول التي تثبت هذا الرأي، منها ما جاء عن الذهبي في قوله: "أخبرنا أبو معاوية الضرير، قال: حدثنا الأعمش قال: رأيت عبد الرحمن بن أبي ليلى وقد أوقفه الحجاج، وقال له: العن الكذابين علي بن أبي طالب وعبد الله بن الزبير والمختار بن عبيد أبي عبيد". وقال الذهبي بما يبدو وكأنه يتحدث عن تشيعه، أو قبوله للتشيع وعدم الاعتراض عليه: "عن مسلم الجهني قال: رأيت عبد الرحمن بن أبي ليلى وعبد الله بن عُكيم، وكان هذا (عبد الرحمن) يحب عليا، وهذا (عبد الله) يحب عثمان"([2]). وأجمعوا أن عبد الرحمن خرج مع من خرج على الحجاج مع عبد الرحمن بن الأشعث "وإنه قتل بدجيل"([3]).

بمعنى أن إرسال المعارضين كجنود عاديين أو مقاتلين لا أكثر لا يتعارض مع السياسة الأموية مطلقا لأن ذلك من مبادئ وأسس سياستهم في التعامل مع المعارضين. ولكن يستحيل أن يجعلوا منهم قادة يقودون جيوشا قد ينقلبون بها عليهم ويحرجونهم، أو يضعونهم في زوايا حادة يصعب الخلاص منها. وقد يرى البعض في قولي هذا تعارضا مع ما يرد في الكتاب عن العداء بين الحجاج وابن الأشعث ومع ذلك عينه الحجاج قائدا لجيش كبير، وأقول: إن ما بين الحجاج وابن الأشعث لم يكن خلافا عقديا كما هو بين الأمويين والمعارضين، وإنما كان خلافا شخصيا منبعه الحسد وبالتالي لا يُتخوف منه على مصير الحكمّ. وسنتوسع في هذا المبحث لاحقا.

---

[1] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥، ج٩/ص٦٤.
[2] دول الإسلام، الذهبي، ص ١١٤.
[3] المصدر نفسه، ص ١١٣.

وبالتالي يتأكد لدينا بما لا يقبل الشك أن اشتراك القراء في حركة ابن الأشعث، إنما جاء لأنهم شخصوا مثالب الحجاج، وظلم الأمويين، ولكن المؤرخين اكتفوا بظلم الحجاج ليجعلوه سببا، وغضوا الطرف عن ظلم الأمويين، كما في قول مالك بن دينار، عن إسهام القراء في حركة ابن الأشعث: "خرج مع ابن الأشعث خمسمائة من القراء، كلهم يرون القتال". وقول الذهبي:" وقام معه علماء وصلحاء لله تعالى؛ لما انتهك الحجاج من إماتة وقت الصلاة، ولجوره وجبروته".

وهكذا نجد أن كثيراً ممن خرجوا على الحجّاج كانوا يكفرونه: قال الشعبي يصف الحجاج: "أشهد أنه مؤمن بالطاغوت كافر بالله - يعني الحجاج". وقال ابن عبد البر:"الحجاج بن يوسف..ومن أهل العلم طائفة تكفره وقد ذكرنا أخبارهم في كتاب مفرد". وقال ابن حجر: "وكفّره جماعةٌ منهم: سعيد بن جبير، والنخعيّ، ومجاهد، وعاصم بن أبي النجود، والشعبيّ وغيرهم"، ومع تكفيرهم له، لم يخرجوا عليه حتى ظنوا أن الشوكة لهم، وأنّ عندهم من القدرة والقوة والعصبية ما يتفوقون به على الحجاج، حتى وقع ما لم يكونوا يحتسبون!.

والملفت للنظر أن أعم قراء الكوفة والبصرة وعلمائها اشتركوا في حركة ابن الأشعث، ولم يتخلف منهم إلا نادرة، وهناك من أتباع فصيل الإسلام السياسي من يرى أن القراء أخرجوا بالقوة؛ وهذا مخالف لما جاء به الذهبي في تأريخ الإسلام، في حديثه عن سنة اثنتين وثمانين، في قوله: "فيقال إنه خرج مع ابن الأشعث، ثلاثة وثلاثون ألف فارس، ومائة وعشرون ألف راجل، فيهم علماء وفقهاء وصالحون، خرجوا معه طوعا على الحجاج([1]). ومخالف لقول مالك بن دينار: "خرج مع ابن الأشعث خمسمائة من القراء كلهم يرون القتال"، الذي مر علينا قبل قليل. فالروايات التاريخية تثبت خروجهم الطوعي. وتثبت أنهم كانوا من أكثر الناس سعيا إلى التغيير، فحينما دخل ابن الأشعث البصرة؛ بايع الناس، وبايعوه على خلع عبد الملك ونائبه الحجاج... ووافقه على خلعهما جميع من في

[1] موسوعة تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، شمس الدين الذهبي، ج٣/ص٨١٣.

البصرة من الفقهاء والقراء([1]). وفي دير الجماجم ما كان للحجاج ان ينتصر في أهم معركة لولا حملته على القراء تحديدا، يقول ابن كثير في حديثه عن الأخذ والرد بين الجيشين في دير الجماجم وعدم تحقق النصر الناجز لأحدهما على الآخر: "وما زال ذلك دأبه ودأبهم حتى أمر بالحملة على كتيبة القراء، لأن الناس كانوا تبعا لهم، وهم الذين يحرضونهم على القتال، والناس يقتدون بهم، فصبر القراء لحملة جيشه، ثم جمع الرماة من جيشه وحمل بهم، وما انفك حتى قتل منهم خلقا كثيرا، ثم حمل على ابن الأشعث وعلى من معه من الجيش، فانهزم أصحاب ابن الأشعث وذهبوا في كل وجه"([2]). أي أن صمود القراء هو الذي كان يمنح جيش ابن الأشعث القوة والصمود، فلما انهزموا، انهزم الجيش كله، وهذا الصمود ما كان ليتحقق لو كان ابن الأشعث قد أجبرهم على اللحاق به.!

كما يلاحظ على هذه الثورة أو الحركة أنها كانت جماهيرية وليس مذهبية أو فئوية، أي أنها لم تختص بمذهب بعينه كأن تكون شيعية أو سنية أو خارجية، بل اشترك الجميع فيها، لأنها ثورة شعبية، وهذا يزيل العجب بخصوص اشتراك سعيد بن جبير فيها.

بدأ الفريقان يستعدان للقتال، وقد هزم ابن الأشعث كل الجيوش التي أرسلها الحجاج، ولم تستطع إيقافه، فتقدم حتى دخل البصرة، فتركها الحجاج وسار إلي الزاوية، وحقق ابن الأشعث مزيدا من الانتصارات. يقول المؤرخون: إن ابن الأشعث لما تزايدت جموعه ورأي إقبال الناس عليه واستجابتهم لدعوته، خلع عبد الملك بن مروان، وهنا تطورت الثورة تطورا خطيرا، فتحولت من ثورة علي الحجاج والي العراق إلي ثورة علي الخليفة نفسه، وفي هذا القول نظر لأن ابن الأشعث لما وجد الاستجابة لدى أتباعه خلع عبد الملك وهو في الطريق إلى البصرة، وليس في هذه المرحلة المتأخرة.

وفي الزاوية دارت بينهما معركة في المحرم سنة ٨٢ هجرية انتصر فيها الحجاج ، ثم اشتبكا في أشهر وقائعهم التي زادت عن ثمانين موقعة في دير الجماجم، قال ابن كثير: "حتى قيل: إن أصحاب ابن الأشعث وهم أهل العراق، كسروا أهل الشام وهم أصحاب

[1] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥،ج٩/ص ٤٦.
[2] المصدر نفسه ،م٥،ج٩/ص ٥٩-٦٠.

الحجاج بضعا وثمانين مرة ينتصرون عليهم"([1]). وفي وقعة دير الجماجم التي استمرت مائة يوم، حلت الهزيمة بابن الأشعث، في الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٨٣ هجرية، ولكنها لم تكن هزيمة كبرى.

إذ دارت معركة أخري بعد معارك دير الجماجم في مسكن، في شعبان من السنة نفسها، هُزم فيها ابن الأشعث أيضا، فترك جنده يواجهون مصيرهم، وولى هاربا إلي سجستان ملتجئا إلي رتبيل للاتفاق الذي كان قد تم بينهما، ولكن الحجاج هدد رتبيل إن لم يسلم ابن الأشعث ليغزون بلاده بألف ألف مقاتل، فرضخ رتبيل للتهديد وعزم علي تسليمه إليه. فلما أحسن ابن الأشعث بغدر رتبيل القي بنفسه من فوق القصر الذي كان فيه، فمات، فاخذ رأسه وأرسلها إلي الحجاج وكان ذلك سنة ٨٤ أو ٨٥ للهجرة على اختلاف الروايات([2]).

وهكذا انتهت حياة ابن الأشعث الذي قاد اخطر ثورة ضد الأمويين وخليفتهم عبد الملك بن مروان، أريقت فيها دماء عشرات الألوف من المسلمين، وهي ثورة دفعت إليها الأحقاد الشخصية المتأصلة في نفسي الثائر ابن الأشعث والطاغية الحجاج، كل منهما للآخر من ناحية، وبغض أهل العراق للحكم الأموي من ناحية ثانية([3])، فبدأت صفحة جديدة من صفحات التصفية السياسية ضد المعارضين والثوار.

---

[1] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥،ج٩/ص ٥٩.

[2] المصدر نفسه، م٥،ج٩/ص ٦٦.

[3] ينظر: كتاب العالم الإسلامي في العصر الأموي، الدكتور عبد الشافي محمد عبد اللطيف، ص ٥٠٤ ـ٥١٣.

الفصل الثالث

أحداث ما بعد الثورة

الحجاج بعد الثورة

كل ما وقع من أحداث بعد فشل ثورة ابن الأشعث يبدو ظاهرا ليس أكثر من عملية قتل عبثي، ولكن من ينظر إليه بعين العقل والتمحيص، يجده في منتهى الدقة الممنهجة بعناية سياسية فائقة، ويجد فيه الكثير من تعب الصياغة والترتيب، وانه كان مساقا لهدف واحد هو القضاء على الفرق الإسلامية التي تثير الاضطرابات مثل التشيع والخوارج أساسا، فضلا عن كل مسلم صحيح العقيدة كنوع من الاحتراز والتحوط، لكي لا يبقى من يعترض على عبث الأمويين.! هكذا يبدو للإنسان قاصر المعرفة ومحدود النظر إلى علة المسببات والأسباب، ومن لا يعلم من غيب الله شيئا، ولكنه واقعا كان عملا ممنهجا وفق المشروع الإلهي للوصول بالأموية إلى نهايتها وفق جدل بيزنطي غريب، فالغضب والحنق وروح الثورة ما كان ليولد في النفوس لولا مخالفة وجرائم الأمويين، والثورة ما كانت لتولد لولا الغضب، والسقوط الأموي ما كان ليتحقق لولا الثورات.

لقد كادت ثورة ابن الأشعث أن تطيح برأس الحجاج، ولو حدث هذا لكانت وقعات أخرى أكثر منها شدة قد وقعت بين جيشه المنتصر الطامح إلى السلطة، وقوات الخليفة الأموي؛ الذي يريد الدفاع عن عرشه، ولكن الله تعالى جل شأنه أراد لمجاري الدم أن تتوقف.

رغبة ابن الأشعث بقلع الحجاج والخليفة، وطرح مقترحات أثناء الثورة لعزل الحجاج أو تبديله، جعلت حقد الحجاج على الثوار مضاعفا، فضلا عن ذلك كان اشتراك القراء مع ابن الأشعث قد أحيى حقدا قديما دفينا في قلبه عليهم، حيث نجد في بطون كتب التاريخ إشارات إلى وجود عقد نفسية لدى الحجاج، أسهمت في تضخيم حقده على القراء بالرغم من كونه كان يأمل بداية أن يكون منهم، كما في النقل الذي أورده ابن سعد في الطبقات، عن الفضل بن دكين، عن معاوية بن عمار الدهني، عن عبد الملك بن عمير، قال: قال سعيد بن جبير: "لقد رأيته يزاحمني عند ابن عباس، يعني الحجاج"([1]). ومن المؤكد أن المزاحمة لم تكن في طلب العلم كما يعتقد البعض!

[1] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص٢٦٦-٢٦٧ ترجمة سعيد.

ومن أمثلة حقد الحجاج على القراء ما أورده ابن كثير أن والد الحجاج (يوسف الثقفي) لقي سليم بن عنز قاضي مصر، فقام إليه، وقال له: إني ذاهب إلى أمير المؤمنين فهل من حاجة لك عنده؟ قال: نعم يعزلني عن القضاء، فقال الحجاج: أتقوم إلى رجل من تجيب وأنت ثقفي؟ قال: إني لأحسب أن الناس يرحمون بهذا وأمثاله، فقال الحجاج: والله ما على أمير المؤمنين أضر من هذا وأمثاله. قال أبوه: ولم يا بني؟ قال: لأن هذا وأمثاله يجتمع الناس إليهم فيحدثونهم عن سيرة أبي بكر وعمر، فيحقر الناس سيرة أمير المؤمنين ولا يرونها شيئا عند سيرتهما، فيخلعونه ويخرجون عليه ويبغضونه، ولا يرون طاعته، والله لو خلص لي من الأمر شيء لأضربن عنق هذا وأمثاله"([1]). وهذا بالتأكيد وارد من كون الحجاج كان مدكوكا في حب الأمويين والإخلاص لهم حتى أكثر منهم لأنفسهم!

والظاهر أن حقد السياسيين على القراء كان فاشيا، وكان السياسيون ينظرون إليهم نظرة صغر وذل وتحقير وازدراء ولا يحترمونهم، ففي تاريخ المدينة لابن شبة: عن عبيد بن محصن: كتب سعيد بن العاص إلى عثمان (رض): "إن قبلي قوما يُدْعَوْنَ القراء، وهم سفهاء، وثبوا على صاحب شرطتي فضربوه ظالمين له، وَشتموني، واستخفوا بحقي، منهم: عمرو بن زُرارة، وكُمَيْل بن زياد، ومالك بن الحارث، وحُرْقُوص بن زهيرٍ، وشُرَيْح بن أوفى، ويزيد بن مكَنَّف، وزيد، وَصَعْصَعَةُ ابنا صُوحَانَ، وَجُنْدُبُ بن زهير"([2]).

فضلا عن ذلك كان للحوارات التي كانت تدور بين الحجاج وبين القراء قبل الثورة، واعتراضهم المتكرر عليه، وهزيمته فكريا أمامهم في أكثر من واقعة الأثر الكبير في زيادة حقده عليهم، حيث أورد ابن كثير أن الحجاج أنكر يوما أن يكون الحسين (عليه السلام) من ذرية رسول الله؛ لأنه ابن ابنته، فقال يحيى بن معمر: كذبت، فقال الحجاج: لتأتيني على ما قلت ببينة من كتاب الله أو لأضربن عنقك، فقال: قال الله:{ومن ذريته داود

[1] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥، ج٩/ص١٤٤.
[2] تاريخ المدينة، عمر بن شبة، ج٣/ص ١١٤٠-١١٤١.

وسليمان} إلى قوله:{وزكريا ويحيى وعيسى} فعيسى من ذرية إبراهيم وهو إنما ينسب إلى أمه مريم، فنفاه الحجاج إلى خراسان([1]).

هذا الحقد الكبير مدعوما بموقف جند شاميين لا يقلون عن الحجاج تهورا ونزقا، منهم على سبيل المثال وتقريب المعنى: أزهر بن عبد الله الحرازي، جاء في تهذيب التهذيب أن هذا الرجل كان من رجال الحجاج وجنده([2])، وكان ناصبياً يسب الإمام علي(عليه السلام)([3])، ذكره الذهبي ولم يزد على قوله فيه: "ناصبي "([4])، اجتمعت كلها سوية لتصنع أسطورة الحجاج، التي حولته إلى وحش كاسر ارتكب أحقر مجازر التاريخ.

كما أن الانتصار الذي حققه الحجاج على ابن الأشعث بعد هزائم مريرة؛ أعطاه زخما عدوانيا فوق ما لديه من شراهة، وميولا عدوانية وروحا طائفية، فتحول إلى الشر بعينه لا يستريح إلا بالولوغ بالدماء، فتعامل مع كل حالة بما تمليه عليه طبيعته العدوانية وشراسته التوحشية الإفتراسية، ففضلا عن عدد القتلى الكبير في الجيشين، هناك روايات تؤكد أن الحجاج قتل صبرا ١٠٠ إلى ١٥٠ ألف أسير من أتباع ابن الأشعث. ومن الطبيعي أن ابن الأشعث وجماعته قتلوا خلال الحرب رقما مجهولا، قد يساوي هذا الرقم، ولاسيما أن المعارك استمرت ثلاث سنوات.

ولكي نعرف الفرق الكبير بين سلوك الشخص الإيماني وسلوك الشخص السياسي لا بأس من إجراء مقارنة بسيطة ـ ولو انه لا يجوز إجراء مثل هذه المقارنات بين أشرف الناس وبين أرذلهم ـ ولكن لكي نعرف من خلالها طريقة تعامل الإسلام مع الأسرى في الحروب، وتعامل السياسيين الذين كانت علاقتهم بالإسلام قد انقطعت. فقبالة تعامل الحجاج الدموي مع الأسرى بالرغم من عددهم الكبير جدا؛ نجد في الجانب الإيماني عليا (عليه السلام) يوصي جنده قبل منازلة أهل الجمل بالبصرة، بقوله: "أيها الناس إذا

---

[1] البداية والنهاية، م٥، ابن كثير، ج٩/ص١٥٢.
[2] تهذيب التهذيب، العسقلاني، ج ١/ص٢٠٥
[3] المصدر نفسه، ج ١/ص٢٠٥
[4] الكاشف، محمد بن أحمد الذهبي، رقم ٢٥٧.

هزمتموهم فلا تجهزوا على جريح، ولا تقتلوا أسيرا، ولا تتبعوا موليا، ولا تطلبوا مدبرا، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل، ولا تهتكوا سترا، ولا تقربوا شيئا من أموالهم([1]).

قراء مفقودون

في أتون مجزرة طاحنة دامت ثلاث سنين واشتراك ليس له مثيل من قبل القراء في الثورة، فقد الكثير من الناس من أهل العراق، وكانت أعداد القراء المفقودين كبيرة جدا، قال ابن كثير، وهو في ذكر حوادث سنة ثلاث وثمانين: "وفيها فقد جماعة من القراء والعلماء الذين كانوا مع ابن الأشعث: منهم من هرب، ومنهم من قُتل في المعركة، ومنهم من أُسر، فضرب الحجاج عنقه، ومنهم من تتبعه الحجاج حتى قتله"([2]). أما البقية الباقية فقد ماز الحجاج في أحكامه بينهم لأسباب سوف تتضح لاحقا. ولكي نعرف سبب التمايز لا بأس من الحديث بإيجاز عن معتقد وسيرة بعض من وجوه القراء. فالقراء كانوا أصنافا عقائدية مختلفة منهم الشيعي، ومنهم المتعاطف مع الشيعة، ومنهم المسلم الملتزم بالإسلام العام، ومنهم من اعتقد أن حشرا مع الناس عيد. والذي أراه أن مصادر التاريخ لم تبالغ حينما قالت إن أربعة قراء فقط تخلفوا عن ابن الأشعث، اثنان في البصرة، واثنان في الكوفة، وأشترك جميع الباقين في الثورة، قال العجلي في معرفة الثقات، والذهبي في السير، في ترجمة التابعي مطرف بن عبد الله: "لم ينج من فتنة ابن الأشعث بالبصرة إلا رجلان: مطرف بن عبد الله ومحمد بن سيرين. ولم ينج منها بالكوفة إلا رجلان: خيثمة بن عبد الرحمن الجعفي وإبراهيم النخعي ([3]). ومن يبحث في خلفيات هؤلاء المتخلفون الأربعة، يعرف سبب عدم اشتراكهم، وفي أدناه خلاصة موجزة عنهم.

---

[1] مروج الذهب، المسعودي، ج٢/ص٣٧٩

[2] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥،ج٩/ص٦٤.

[3] معرفة الثقات، أبي الحسن أحمد بن عبدالله بن صالح العجلي. وسير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص١٩٥، ترجمة مطرف بن الشخير.

- مطرف بن عبد الله

هو مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّيرِ، ولد في حياة النبي(صلى الله عليه وآله) عام بدر أو عام أحد([1])، ذكره ابن حجر في كتاب الإصابة في الطبقة الثانية، وهم الذين وُلدوا على عهد النبي، ومات رسول الله، وهم دون سن التمييز، كما في قوله: "ولد في عهد النبي([2]). قال المؤرخون وأصحاب السير وكتاب الطبقات في وصفهم لمطرف إنه كان محبا للترف، قال ابن حجر:"كان يركب الخيل، ويلبس المطارف ([3]) وقال الذهبي: "كان يلبس المطارف والبرانس، ويركب الخيل([4])، ونقل عن بشر بن كثير، قال: "حدثتني امرأة مطرف إنه تزوجها على ثلاثين ألفا وبغلة وقطيفة وماشطة". وعن زواج آخر، روى غيلان أن مطرف "تزوج امرأة على عشرين ألفا". وقال الذهبي: "كان مطرف له مال وثروة وبزة جميلة ووقع في النفوس، وكان يخضب بالصفرة"([5])، وقال أبو نعيم: حدثنا عمارة بن زاذان، قال: "رأيت على مطرف بن الشخير مطرف خز أخذه بأربعة آلاف درهم"([6])

كما كان مطرف محبا للسلاطين، يزورهم ليحصل على أعطياتهم، قال ابن حجر والذهبي: "وكان يغشى السلطان"([7])، وفوق هذا وذاك، كان ينهى عن الفتنة، ويهرب منها، كما في قول قتادة: "إذا كانت الفتنة، نهى عنها وهرب، وكان الحسن ينهى عنها ولا يبرح"([8]).

هذا وقد اختلفت الأقوال في سنة وفاته كثيرا، قال الذهبي: قال ابن سعد: مات مطرف سنة خمس وتسعين من الهجرة، على الصحيح بالبصرة.ثم قال: بل بقي إلى أن خرج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بعد الثمانين، وأما عمرو بن علي والترمذي، فأرخا موته في

---

[1] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص١٩٥، ترجمة مطرف بن الشخير.
[2] الإصابة، ابن حجر، ج٣/ص ١٩١٠، ترجمة مطرف بن الشخير.
[3] المصدر نفسه.
[4] سير أعلام النبلاء، الذهبي،ج٥/ص١٩٥، ترجمة مطرف بن الشخير.
[5] المصدر نفسه، ج٥،ص١٩٧.
[6] المصدر نفسه، ج٥،ص١٩٩.
[7] الإصابة، ابن حجر، ج٣/ص ١٩١٠، ترجمة مطرف بن الشخير، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص١٩٥، ترجمة مطرف بن الشخير.
[8] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص١٩٨، ترجمة مطرف بن الشخير، والطبقات الكبرى، ابن سعد ج٧/ص١٤٢.

سنة خمس وتسعين([1]). ثم قال الذهبي: وقال ابن سعد: توفي مطرف في أول ولاية الحجاج([2]). وقال أخيرا: قال خليفة بن خياط: "مات مطرف سنة ست وثمانين، وقيل في وفاته غير ذلك"([3]).

مر علينا قولهم إن أربعة فقط من القراء لم يشتركوا بثورة ابن الأشعث، لكن ما مدى دقة هذا الخبر الذي استثنى أربعة فقط من القراء، كان أحدهم الحسن البصري؟ سبب سؤالي أن هناك بعض النصوص التي تكلمت عن اشتراك الحسن البصري في الثورة، وسأقف هنا قليلا لأتابع بعد أن أتحدث عن البصري أولا، فإذا ما صح هذا النقل فإنه يثبت أن البصري اشترك في الحركة ولم يتخلف عنها، مما يدل على أن كل القراء والعلماء الآخرين اشتركوا في الثورة، وقد أخفيت أخبار بعضهم لأسباب سياسية وعقدية.

- الحسن البصري

كان مولده سنة ٢١ هجرية، وتوفي سنة ١١٠ هجرية، وتجد في أقوال المؤرخين ما يبدو وكأن الأصوات ارتفعت في مرحلة من مراحل الثورة بعد أن تكاملت قوات ابن الأشعث، وبعد أن كثرت معارك الكر والفر بين الطرفين مطالبة بوجوب إشراك الحسن البصري، الذي تقول الروايات إنه تخلف ولم يلتحق، بعد أن تم تضخيم أمر البصري إلى درجة تشبيهه بجمل عائشة الذي كان جند الجمل يتفانون دفاعا عنه، حيث ذكر خليفة بن خياط في تاريخه أنه: "قيل لابن الأشعث: إن أحببت أن يقتلوا حولك، كما قتلوا حول جمل عائشة؛ فأخرج الحسن"([4]). وهذا القول طبعا له أسبابه الخاصة، ولكنه لا يثبت، ولا ينفي اشتراك الحسن البصري بثورة ابن الأشعث.

---

[1] المصدر نفسه، ج٥/ص١٩٥- ١٩٦.
[2] المصدر نفسه، ج٥/ص١٩٥.
[3] المصدر نفسه، ج٥/ص٢٠٠.
[4] تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٨٦ ــ ٢٨٧، والبداية والنهاية، ابن كثير، م٥، ج٩/ص ٦٤.

نعم هنالك أقوال أخرى تثبت معارضة الحسن لكل خروج على السلطان، وهي كثيرة، منها قول أبي التياح: "شهدتُ الحسنَ وسعيدَ بن أبي الحسن([1]) حين أقبل ابنُ الأشعث، وكان الحسن نهى عن الخروج إلى الحجاج، ويأمر بالكف، وسعيد بن أبي الحسن يحضض، ثم قال سعيد فيما يقول: فما ظنك بأهل الشام إذا لقيناهم غدا فقلنا والله ما خلعنا أمير المؤمنين ولا نريد خلعه، ولكنا نقمنا عليه استعماله الحجاج، فاعزله عنا، فلما فرغ سعيد من كلامه، تكلم الحسن، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: يا أيها الناس إنه والله ما سلط الله الحجاج عليكم إلا عقوبة، فلا تعارضوا عقوبة الله بالسيف، ولكن عليكم بالسكينة والتضرع، فإن الله تعالى يقول: {وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ}([2])، وأما ما ذكرت من ظني بأهل الشام، فإن ظني بهم أن لو جاءوا فألقمهم الحجاج دنياه، ولم يحلهم على أمر إلا ركبوه، هذا ظني بهم"([3]).

ومنها عن سليمان بن علي الرّبعي، قال: لما كانت الفتنة، فتنة ابن الأشعث، إذ قاتل الحجاج بن يوسف، انطلق عقبة بن عبد الغافر وأبو الجوزاء وعبدالله بن غالب في نظر من نظرائهم، فدخلوا على الحسن، فقالوا: يا أبا سعيد، ما تقول في قتال هذا الطّاغية الذي سفك الدم الحرام، وأخذ المال الحرام، وترك الصلاة، وفعل وفعل؟ قال: وذكروا ما فعل "الحجّاج"، فقال الحسن: "أرى ألا تقاتلوا؛ فإنها إن تكن عقوبة من الله، فما أنتم رَادّيْ عقوبة الله بأسيافكم، وإن تكن بلاء فاصبروا حتى يحكم الله، وهو خير الحاكمين، قال: فخرجوا من عنده، وهم يقولون: نطيع هذا العِلْج؟ قال: وهم قوم عرب، قال: وخرجوا مع ابن الأشعث، فقتلوا جميعا"([4]).

وذلك لأن الحسن كما يتبين من أقوالهم؛ كان يؤمن بالأحكام السلطانية، ولا يخرج عليها، كما في حديث مالك بن دينار،قال: سمعت الحسن يقول: "إن الحجاج عقوبة من الله لم تك، فلا تستقبلوا عقوبة الله بالسيف، ولكن استقبلوها بتوبة وتضرع واستكانة، وتوبوا تُكْفَوْه".

---

[1] سعيدَ بن أبي الحسن هو أخ الحسن البصري،كما في البداية والنهاية، م٥، ج٩/ص ٦٤.
[2] المؤمنون:٧٦.
[3] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٧/ص١٦٤.
[4] المصدر نفسه، ج٧/ص١٦٣.

ولكن هناك قول للمطرف يتبين من خلاله أن الحسن كان ينهى عن الفتنة، ولكنه لم يكن يعمل بنهيه، قال مطرف: "ما أشبه الحسن برجل يحذر الناس السيل ويقوم بسننه"([1]). قبالة هذه الأقوال هناك أقوال أخرى تثبت انه اشترك بالثورة سواء بإرادته أم كان مكرها، وأقوال تثبت أنهم أجبروه لكنه هرب منهم، وأقوال تنفي خروجه بالمرة، منها:

ـ عن مسلم بن إبراهيم، عن القاسم بن الفضل، قال: رأيت الحسن بن أبي الحسن قاعدا في أصل منبر ابن الأشعث"([2])، ولا يجلس هذا المجلس إلا من كان قد خرج بإرادته، لشعوره بأنه صاحب قضية.

ـ عن حماد بن زيد، عن أيوب، قال: قيل لابن الأشعث: إن سرك أن يقتلوا حولك كما قتلوا حول جمل عائشة فأخرج الحسن، فأرسل إليه فأكرهه"([3])، حيث يتضح من هذا الأثر أن ابن الأشعث أخرج الحسن عنوة دون رغبته، ولهذا السبب، هرب ما إن أتيحت له الفرصة، بعد أن ألقى بنفسه في نهر، وهرب.

ـ عن سُليم بن اخضر، قال: حدثنا عون، قال: استبطأ الناس أيام ابن الأشعث، فقالوا له: اخرج هذا الشيخ، يعني الحسن، قال ابن عون: فنظرت إليه بين الجسرين وعليه عمامة سوداء، قال: فغفلوا عنه، فألقى نفسه في بعض تلك الأنهار حتى نجا منهم وكاد يهلك يومئذ"([4]).

ـ عن مالك بن دينار، قال: "لقيت معبدا الجُهني بمكة بعد ابن الأشعث وهو جريح، وقد قاتل الحجّاج في المواطن كلها، فقال: لقيت الفقهاء والناس، لم أر مثل الحسن، يا ليتنا أطعناه، كأنه نادم على قتاله الحجاج". وكما في حديث ابن عون، قال: كان مسلم بن يسار أرفع عند أهل البصرة من الحسن، حتى خف مع ابن الأشعث، وكف الحسن، فلم يزل أبو سعيد في علو منها بعد وسقط الآخر([5]). وقال سلمُ بن أبي الذيال: "سأل رجل الحسن وهو يسمع، وأناس من أهل الشام، فقال: يا أبا سعيد ما تقول في الفتن، مثل يزيد بن المهلب

---

[1] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص١٩٨، ترجمة مطرف بن الشخير.
[2] الطبقات الكبرى، ابن سعد،ج٧/ص١٦٥
[3] المصدر نفسه، ج٧/ص١٦٣.
[4] المصدر نفسه، ج٧/ص ١٦٣.
[5] المصدر نفسه، ج٧/ص١٦٥.

وابن الأشعث؟ فقال: لا تكن مع هؤلاء، ولا مع هؤلاء، فقال رجل من أهل الشام: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد؟ فغضب، ثم قال بيده، فخطر بها، ثم قال: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد، نعم، ولا مع أمير المؤمنين([1]).

ومن أخبار الحسن البصريّ ومحاولاته إطفاء الفتنة، قال أيوب السختياني: قال لي الحسن: ألا تعجب منْ سعيد بن جبير دخل عليّ فسألني عن قتال الحجاج، ومعه بعض الرؤساء، يعني أصحاب ابن الأشعث؟ وقال الحسن:"لو أن الناس إذا ابتلوا من قبل سلطانهم صبروا، ما لبثوا أن يفرج عنهم، ولكنهم يجزعون إلى السيف، فيوكلون إليه، فوالله ما جاؤوا بيوم خير قط"([2]).

نفهم مما تقدم أن الموقف المتباين من علاقة الحسن البصري بالثورة له دوافعه، وقد جيء به لأسباب معروفة، منها:

١. تحقيق مكاسب سياسية إعلامية.
٢. توهين موقف باقي القراء؛ الذين اشتركوا في الثورة.
٣. دعم نظرية الأحكام السلطانية التي امروا الناس بالسير عليها.
٤. اعتبار كل الذين اشتركوا في الثورة من القراء صغارا لا قيمة لهم لأن الكبار لم يشتركوا فيها.

لكن إذا ما كان موقف الحسن البصري بهذه الصلابة والتمنع، فلماذا لم يعدوه مع الذين امتنعوا عن نصرة ابن الأشعث، وعدوا بعض من اشترك فيها مع الذين لم يشتركوا؟ فمع أن هناك مؤشرات كثيرة على اشتراك البصري بالثورة، إلا أن أخباره عميت، حيث قال الزركلي في الأعلام: "وله مع الحجاج ابن يوسف مواقف، وقد سلم من أذاه"، وذلك لأنه كان ينهى أصحاب ابن الأشعث عن الخروج([3])، ولذا لم يحاسبه الحجاج. فنهيه عن الخروج لا يعني أنه لم يخرج.!

---

[1] المصدر نفسه، ج٧/ص١٦٤.
[2] المصدر نفسه.
[3] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥،ج٩/ص١٦٣.

أما ابن الأثير وابن كثير، وغيرهم، فادعوا أنه خرج، وأشترك، وأن ابن الأشعث أخرجه معه عنوة مكرها، قال ابن كثير: "إنما خرج معهم مكرها"([1])، وإذا أضفنا هذا الرأي إلى الرأي القائل: إنه كان ينتقد الحجاج ويشهر به، فذلك يعني أن مقومات الاشتراك متوفرة فيه. ولما كان الاشتراك مع ابن الأشعث حسب رأي بعض الفقهاء منقصة للمرء، لأنهم اعتبروها فتنة والمشترك فيها مفتون، وبرأيهم لا يصح أن يكون البصري مع المفتونين، لذا أنكروا اشتراكه من خلال الكثير من النقول القديمة والآراء الحديثة، ومن الآراء الحديثة، قول الدكتور عبد العزيز بن ندى العتيبي في بحثه المعنون (الحسن البصري والثبات أيام فتنة ابن الأشعث بعدم الخروج على الحجاج وبني أمية): "إنه لم يشترك في الحركة".! وهذا مخالف لقول العجلي في الثقات عن الأربعة الذين لم يشتركوا، ومخالف لأقوال الزركلي وابن كثير وابن الأثير وباقي المؤرخين.

- محمد بن سيرين:

أبوه مولى انس بن مالك، وأمه مولاة أبي بكر([2]) ولد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان، وكان نقش خاتمه أبو بكر ([3]) وفي سير أعلام النبلاء، عن انس بن سيرين، قال: "ولد أخي محمد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان"، وفي مكان آخر، عن انس بن سيرين: ولد أخي محمد لسنتين بقيتا من خلافة عمر([4]). وكان ذا مال وغنى، وكان يشتري الأراضي الزراعية والمزارع، عن بكار بن محمد، عن أبيه أن ابن سيرين اشترى هذه الأرض التي برستاق جرجرايا([5]). وكان مطيعا لهوى نفسه يشعر وكأنه اسيرها، وهو القائل: "نفسي تكلفني أشياء، وددت أنها لا تكلفني... ومن ترفه انه كان يغتسل كل يوم([6]). كان ابن

[1] المصدر نفسه، م٥،ج٩/ص١٦٣.
[2] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٧/ص ١٩٣، ترجمة ابن سيرين.
[3] المصدر نفسه، ج٧/ص٢٠٣
[4] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص٤٨٧.
[5] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٧/ص١٩٨.
[6] المصدر نفسه، ج٧/ص ٢٠٠.

سيرين تاجر قماش في سوق الكوفة([1])، وكان يلبس الثياب اليمنة والطيالسة والعمائم وثياب الكتان، ويخضب بالحناء والكتم أو بالصفرة([2]). وقال سليمان بن المغيرة: رأيت ابن سيرين يلبس الثياب الثمينة والطيالس والعمائم([3])، وفضلا عن ذلك كان صاحب ضحك ومزاح([4]).

وكان ابن سيرين شديد الثقة بما رواه معاوية بن أبي سفيان من السنة، ويقول: "كان معاوية لا يتهم في الحديث عن النبي"([5])، كما انه كان يمنع مخالفة السلطان حتى ولو بعمل لوجه الله، عن عبد الحميد بن عبد الله أن ابن سيرين سجن لدين عليه، وأن السجان قال له: إذا كان الليل فاذهب إلى اهلك، فإذا أصبحت فتعال. قال: لا والله لا أكون لك عونا على خيانة السلطان([6]). مات ابن سيرين سنة ١١٠ للهجرة، بعد الحسن البصري بمائة يوم، وكان عمره نيفاً وثمانين سنة([7]).

- خيثمة بن عبد الرحمن الجعفي الكوفي

قال الذهبي: "ما نجا من فتنة ابن الأشعث إلا خيثمة وإبراهيم النخعي، وكان سخيا جوادا يركب الخيل ويغزو"([8])، قال أحمد العجلي: كوفي تابعي ثقة، وكان رجلا صالحا، وكان يركب الخيل، وكان سخيا. وقال البخاري: مات قبل أبي وائل. قال شعبة: عن نعيم بن أبي هند، قال: رأيت أبا وائل في جنازة خيثمة وهو على حمار وهو يقول: واحزناه، أو كلمة نحوها. قال ابن سعد والذهبي: إنه توفي (رحمه الله) بعد سنة ثمانين([9]).

---

[1] المصدر نفسه،ج٧/ص ٢٠٢
[2] المصدر نفسه،ج٧/ص ٢٠٤
[3] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص ٤٩٥.
[4] المصدر نفسه، ج٥/ص٤٩٢
[5] المصدر نفسه،ج٥،/ص٤٩١
[6] المصدر نفسه،ج٥/ص٤٩٤
[7] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٧/ص ٢٠٦.
[8] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ ص٢٨٧
[9] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص٢٨٧، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥.ص٢٨٧.

ووجدت في البحار أن خيثمة روى عن الإمام الباقر (عليه السلام) في التوحيد، عن حمزة بن محمد العلوي، عن علي، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن علي بن عطية، عن خيثمة، عن أبي جعفر (عليه السلام) مثله إلى قوله: "خالق كل شيء"([1]) وقال في هامش الصفحة: "بضم الخاء المعجمة وسكون الياء المثناة وفتح المثلثة والميم والهاء. حكى عن جامع الرواة للفاضل الأردبيلي أن خيثمة هذا، هو خيثمة بن عبد الرحمن الجعفي الكوفي، وحكى العلامة في القسم الأول من الخلاصة، عن علي بن أحمد العقيقي أنه كان فاضلا، ثم قال: وهذا لا يقتضي التعديل، وإن كان من المرجحات". ولكن إذا كان خيثمة من أصحاب الأئمة ويروي عنهم، فهل يعقل عدم اشتراكه بالثورة على الأمويين، هذا إلا إذا ما كان قد مات قبل الثورة؟ وقد قيل: إنه ولد سنة اثنين للهجرة، وتوفي بعد سنة ثمانين، أي أنه كان قد تجاوز الثمانين من عمره حينما نشبت الثورة، وذلك قد يكون سبب عدم اشتراكه فيها.!

- إبراهيم بن يزيد بن الأسود النخعي

عن أبي معشر، عن إبراهيم: إنه كان يدخل على بعض أزواج النبي(ص)... فقال أيوب لأبي معشر: وكيف كان يدخل عليهن؟ قال: كان يحج مع عمه وخاله علقمة والأسود قبل أن يحتلم، قال: "وكان بينهم وبين عائشة إخاء وود"([2]).

الظاهر أن إبراهيم هو الآخر كان يبغي دفع الشبهة عن نفسه، عن الأعمش قال: قال لي خيثمة: تذهب أنت وإبراهيم فتجلسون في المسجد الأعظم، فيجلس إليكم العريف والشرطي، فذكرته لإبراهيم، فقال: نجلس في المسجد فيجلس ألينا العريف والشرطي أحب من أن نعتزل فيرمينا الناس برأي يهوي" ([3]).

ويبدو من سيرته انه كان مسالما يحب العافية، ويكره المخاصمة أياً كان نوعها، وفي الطبقات أيضا عن الحسن بن عمرو، قال: قال إبراهيم: "ما خاصمت رجلا قط"([4])، وقال

---

[1] بحار الأنوار - العلامة المجلسي، ج ٤/ص ١٤٩.
[2] الطبقات الكبرى، ابن سعد ج٦/ص ٢٧١ ترجمة إبراهيم
[3] المصدر نفسه، ج٦/ص ٢٧٣.
[4] المصدر نفسه .

له أحد جلسائه: علي أحب إلي من أبي بكر وعمر؟ فقال إبراهيم: أما إن عليا لو سمع كلامك لأوجع ظهرك، إذا كنتم تجالسونا بهذا فلا تجالسون"([1]).

وإذا صدق قوله: "ما خاصمت رجلا قط" فمعنى ذلك أن الرجل قد يكون مسالما بطبعه، ولم يكن مستعدا لخوض حرب مع أحد، حتى لو كانت مع المشركين. ولكن هناك أخبار أوردها ابن سعد تؤكد أنه كان ناقما على الحجاج، وكان يُحل لعنه، وموقفه هذا يشجع عامة الناس على إتباع ابن الأشعث في أقل تقدير. "عن سفيان بن منصور، قال: ذكرت لإبراهيم لعن الحجاج أو بعض الجبابرة، فقال: ألـيس الله يقول: ألا لعنة الله على الظالمين"([2])، وفي خبر: سمعت إبراهيم يسب الحجاج". وفي خبر ثالث عن سفيان عن منصور، عن إبراهيم، قال: كفى به عمى أن يعمى الرجل عن أمر الحجاج". وفي خبر رابع أن إبراهيم التيمي بعث إلى الخوارج يدعوهم، فقال إبراهيم النخعي: إلى من تدعوهم إلى الحجاج؟"([3]). بل إن سجوده شكرا لله حال سماعه خبر موت الحجاج يدل على أنه كان يحمل حقدا كبيرا في نفسه على الحجاج، لا يتناسب مع الموادعة والمسالمة التي يدعيها، عن حماد قال: بشرتُ إبراهيم بموت الحجاج، فسجد. قال حماد ما كنت أرى أن أحدا يبكي من الفرح حتى رأيت إبراهيم يبكي من الفرح"([4]).

بالمناسبة يرى ابن سعد أن إبراهيم التيمي كان هو الآخر من مبغضي الحجاج، وكان في واسط، فطلب الحجاج إبراهيم النخعي، فجاء الذي يطلبه، فقال: أريد إبراهيم، فقال التيمي: أنا إبراهيم، فأخذه، وهو يعلم أنه يريد النخعي، فأمر الحجاج بسجنه، فمات في السجن، فرأي الحجاج في منامه قائلا، يقول: مات في هذه الليلة رجل من أهل الجنة، فلما أصبح، قال: هل مات الليلة أحد بواسط؟ قالوا: نعم إبراهيم التيمي، مات في السجن. فقال: حُلُم نزغة من نزغات الشيطان. وأمر به فألقي على الكناسة"([5]) وأنا أوردت هذه الرواية لأنها

---

[1] المصدر نفسه ،ج٦/ص٢٧٥

[2] المصدر نفسه، ج٦/ص ٢٧٩ .

[3] الطبقات الكبرى، ج٦/ص ٢٧٩ .

[4] المصدر نفسه، ج٦/ص ٢٨٠

[5] المصدر نفسه، ج٦/ص ٢٨٥ ترجمة التيمي.

إن صحت تدل على استهتار الحجاج واستهانته بكل معتقد ودين، فهو حتى بعد أن عرف أن السجين هو التيمي وليس النخعي أمر برميه على كناسة المدينة([1])

يتشارك إبراهيم بعض الصفات مع باقي المتخلفين عن ابن الأشعث؛ إذ كان يقبل الجوائز والهبات ويفرح بها، بل كان يسعى وراءها ويبحث عنها، والظاهر أن هؤلاء الرهط كانوا مسالمين لأنهم يحبون الدنيا ويسعون خلف الأعطيات والجوائز ويدارون مصالحهم ليعيشوا دنياهم التي يحبون.عن عون، قال: "كان إبراهيم يأتي السلطان فيسألهم الجوائز"([2]) وكان يقبل جوائز وأعطيات المترفين، عن العلاء بن زهير الأزدي، قال: قدم إبراهيم على أبي وهو على حلوان فحمله على برذون وكساه أثوابا وأعطاه ألف درهم، فقبله"([3]). وعن الأعمش، قال: أهدى نعيم بن أبي هند إلى إبراهيم دنا من طلاء فقبله فوجده شديد الحلاوة فطبخه وجعله نبيذا([4]) وكان يرفض أن يرد هدية، عن فضيل بن عمرو قال: قال إبراهيم: كان يُكرَه للرجل إذا رزق في شيء أن يرغب عنه([5]) ولذا لا غرابة أن يتخلف إبراهيم عن ركب الثورة، وأن يشهد له الآخرون بهذا الموقف، عن يحيى بن سعيد قال: لم يكن إبراهيم مع ابن الأشعث([6]).

مات إبراهيم في ولاية الوليد بن عبد الملك سنة ست وتسعين، كما في الطبقات وحلية الأولياء. قال محمد بن سعد وغيره: "واجمعوا على انه توفي سنة ست وتسعين في خلافة الوليد بن عبد الملك بالكوفة، وهو ابن تسعة وأربعين سنة"([7]).

ونجد فيما تقدم من أخبار أن هناك مواصفات خاصة بالذين لم يلتحقوا مع ابن الأشعث، يشتركون بها فيما بينهم، منها:

- أنهم كانوا جميعهم أثرياء وقد جمعوا أموالا يخافون عليها.

---

[1] الكناسة: القمامة،وموضع إلقائها، أي المكان الذي تجمع فيه.
[2] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص٢٧٦.
[3] المصدر نفسه، ج٦/ص٢٧٧
[4] المصدر نفسه.
[5] المصدر نفسه، ج٦/ص٢٧٨.
[6] المصدر نفسه، ج٦/ص٢٨٢
[7] المصدر نفسه،ج٦/ص٢٧٧.

- أنهم كانوا يبحثون عن النساء الجميلات ويتزوجوهن مهما ارتفعت مهورهن، وبالتالي يتعلقون وينشغلون بهن.
- أنهم كانوا على علاقة حسنة بالسلاطين والولاة.
- أن حب الدنيا هو الذي أقعدهم.

ولكن هل من المعقول أن يكون هؤلاء الأربعة لوحدهم من يحمل مثل هذه المواصفات، أم أنها مثل كل المواصفات الأخرى مشتركة بين البشر، وتختلف درجة تقدمها أو تأخرها في السلوك الإنساني تبعا لقواعد تربوية ونفسية؟ هذا ما سنعرفه من خلال متابعة أسماء كثيرة أخرى لرجال لا يقلون عن هؤلاء درجة ومنزلة كلهم تخلفوا عن ابن الأشعث. وكم هو مدهش تجرؤ البعض في الجزم بأمور لا صحة لها، فحديث الأربعة المخلفون غير واقعي بالمرة، لأن هناك مئات التابعين ومن القراء تحديدا، لم يشتركوا مع عبد الرحمن، ولذا أرى هذا القول قد جيء به للتهويل وليس على سبيل الجزم، ومن الأدلة على بطلان ذلك أن ابن سعد في طبقاته عد ثلاثة أخوة أذكرهم على سبيل المثال والتقريب، هم: عطاء بن يسار: مولى ميمونة بنت الحارث الهلالية زوج رسول الله (ص) توفي سنة أربع وتسعين(١) وأخوه سليمان توفي سنة ثلاث ومائة، وأخوه عبد الملك توفي سنة عشر ومائة(٢) وهؤلاء ثلاثة كلهم لم يشتركوا في ثورة ابن الأشعث، وهناك كثير غيرهم، ولكنهم مهما كثروا كانوا قلة بالنسبة للعدد الكبير من القراء الذين اشتركوا بالثورة.!

إن الكم الكبير من مجتمع النخبة الدينية حينما يشترك كله باستثناء مجموعة صغيرة، حصرهم البعض في الأربعة المنوه عنهم أعلاه؛ في ثورة بقيادة ابن الأشعث المنحرف، يبين مقدار الهياج الجماهيري والغضب الشعبي الذي كان يعتمل في الصدور نتيجة ممارسات الحجاج القمعية المخالفة للشريعة، ومخالفاته للمقدس والموروث.

وللحقيقة هناك تنوع في سبل تعامل القراء مع ثورة ابن الأشعث خاصة والحركات الأخرى المعارضة للأمويين عامة، فباستثناء حركات الخوارج التي كانت ذات طابع

---

[١] الطبقات الكبرى، ج٥/ص ١٧٣-١٧٤.
[٢] المصدر نفسه.

خاص يستهجنه المجتمع غالبا، كان القراء بكل توجهاتهم يؤيدون كل عمل ضد الأمويين، لأن الأمويين خرجوا على قواعد الدين، باستثناء أولئك الذين حققوا منافع شخصية فضلوها على تدينهم ومجتمعهم. ثم لا ننسى أن القراء كانوا على ثلاث طبقات:

- طبقة الشيعة وهم المشهورون بروحهم الثورية المعارضة الرافضة للوجود الأموي.
- طبقة عامة المسلمين، الذين كانت أعمال الأمويين تحرجهم أمام تدينهم، لأنها غالبا تخالف روح الدين وتختلف مع روح عقيدتهم.
- طبقة الدهماء وهؤلاء كانوا محسوبين على القراء ولكنهم اقرب إلى العامة منهم إلى القراء.

وبالتالي لا يستغرب تلون وتنوع مواقف هذه الطبقات ومراوحتها بين تشجيع الثورة والإسهام فيها على كل حال، وبين تشجيع ومشاركة بما هو متاح، وبين معارضة لها وتأييد للحكام. وكان هذا التباين أحد أسباب المنهج الانتقائي في التعامل مع القراء بالدموية التي عرفت عن الحجاج، والتي أدت فيما بعد إلى ملء قلوب الكوفيين بالحقد على الحجاج والأمويين فاستمروا في محاولات إسقاط هذا الصنم ومن هم على شاكلته من الولاة والحكام إلى أن تحقق لهم ذلك بعد جهاد مرير.

الفصل الرابع

سعيد وطاحونة الموت

وهكذا دارت طاحونة الموت تحصد رقاب المسلمين المعتدلين بدون رحمة، وتقتص منهم بالذات دون غيرهم، بقسوة فريدة، حيث أفرزت الانتقائية نوعين من التعامل المتحيز مع صنفين من حملة العقائد:

الأول: المسامحة والعفو وغض الطرف والتساهل مع من يؤيد الأمويين أو ممكن أن يخدمهم. وهي صفات لمواقف سلطوية وصلت في أصعب وأشد حالاتها إلى مجرد التعزير أو السجن مددا قصيرة لا تأثير لها، ثم العفو بعدها، والتعويض على ما فات، وقد مورس هذا النمط من التعامل مع: المتواطئين، والمتعاونين مع السلطة الأموية، والمؤيدين لها، والسائرين على نهجها العقدي، والممتنعين عن دعم وتأييد الثوار، والذين التحقوا بالثورة قسرا. دون النظر إلى حجم مخالفتهم، بما فيهم أولئك الذين اشتركوا بالحرب فعلا، وحرضوا على الحجاج والخليفة.

الثاني: التنكيل الدموي المصحوب بالتطاول والذي تباين بين سب الرموز والعقيدة والطعن بالمقدسات، والاستهزاء، ومن ثم الموت المحتم لمن لم تتضح منهجيته العقدية بشكل جلي، ولمن كان معتدلا بعيدا عن النصب، ولمن كان يحب أهل البيت، وأخيرا لكل شيعي مهما كانت جريرته بسيطة تافهة. وبناء عليه نجد كما كبيرا من الشيعة الذين انضموا إلى حركة ابن الأشعث يتعرضون للقتل والمطاردة والمصادرة المصحوبة بالكلام اللاذع والقول الجارح والفعل الخسيس، وكما كبيرا من غيرهم يتم العفو عنهم، وفي بعض الأحيان الإحسان إليهم.! ومن الإنصاف التذكير بأن كل نوع من التعامل مورس مع صنف محدد، حيث مورس منهج المسامحة والعفو مع النخبة من الطبقة الثانية (طبقة عامة المسلمين)، ومنهج التنكيل مورس مع غالب أفراد الطبقة الثالثة (طبقة الدهماء من الناس) لأن هؤلاء لا احد يسأل عنهم وموتهم وحياتهم سواء، ومورس منهج الانتقائية مع الطبقة الأولى (طبقة الشيعة) ولاسيما أن أغلب أفراد هذه الطبقة التحقوا مع ابن الأشعث.

الأمة وثورة ابن الأشعث

عام ٨١ هجرية كان الغليان الشعبي ضد الأمويين قد وصل أعلى حدوده، ولم يكن مختصا بفئة دون أخرى، فالشيعة، والمعتدلين من السنة الحقيقيين، والخوارج، وغيرهم، كلهم كانوا يحملون حقدا كبيرا على الأمويين، وينتظرون اللحظة التي يندبهم فيها أحد القادة ليثوروا وينتقموا من الظالمين، وقد وجدوا جميعهم في ثورة ابن الأشعث المنفذ الذي كانوا ينتظرونه، ربما بسبب ظرفها الزماني؛ فانضموا إليها جميعهم، وكان غالبية الشيعة من أوائل من التحق بالثورة، ولذا يستعصي إحصاء أعداد الشيعة الذين اشتركوا مع ابن الأشعث في ثورته، ويؤكد اشتراكهم الكبير هذا على براءة سعيد بن جبير من تهمة الانتماء للثورة عقديا، فهو مثل كل الثوار الشيعة الآخرين؛ انتمى لينتقم.! ولا ضرر من ذكر بعض وجوههم وكبارهم، وبعض من كان من الشيعة في ذلك المجتمع والتحدث عنهم بإيجاز لأن ذلك يقودنا إلى معرفة نوع تعامل الحجاج معهم، وانعكاسات هذا التعامل على مواقف الشيعة الأخرى من حكم الأمويين وإسهامهم في تقويض حكمهم. ومن هؤلاء:

- الصحابي أبو لطفيل عامر بن واثلة الكناني

لا يعرف تاريخ مولده على وجه التحديد، وقد ذكر انه كان يقول: "ولدت عام أحد"([1])، وكان حامل راية المختار لما ظهر بالعراق، وحارب قتلة الحسين (عليه السلام)، واشترك مع ابن الأشعث، وهرب طويلا .

قال ابن حجر: "مات سنة مئة هجرية"([2])، وقال خليفة بن الخياط: أقام بمكة حتى مات سنة مائة أو نحوها، ويقال: سنة سبع ومائة، وقال جرير بن حازم: "رأيت جنازة أبي الطفيل بمكة سنة عشر ومائة"([3])، وقد أجمع أهل الحديث على أنه كان آخر الصحابة موتا. قال الذهبي: "هو آخر من رأى النبي (ص) وفاة"([4])، مات حتف أنفه.

---

[1] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص٣٨٨

[2] فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ج٢/ص ٧٥.

[3] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص٣٨٩.

[4] المصدر نفسه، ج٥/ص٣٨٩

- كميل بن زياد النخعي

صاحب الدعاء المعروف بدعاء كميل؛ الذي علمه له الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام). أختلف في تاريخ مولده فقيل: وُلِدَ قبل الهجرة بعدّة سنين في اليمن. وقيل: ولد في السنة السابعة للبعثة، ولكن قولهم انه استشهد عام ٨٢ وهو ابن سبعين عاما يعني أنه ولد عام ١٢ هجرية في زمن خلافة أبي بكر. وقولهم أنه عاش مائة سنة وقتله الحجاج حينما قدم الكوفة يعنون سنة ٧٥ يعني أنه ولد قبل البعثة.

كان كميل من كبار أنصار الإمام علي (عليه السلام) ومؤيّديه خلال حقبة خلافته. وعينه الإمام والياً على مدينة هيت، وذكر صاحب الزركلي: أنه شهد صفّين مع علي (عليه السلام) وسكن الكوفة وروى الحديث([1]). وكان من ضمن الشيعة الذين ثاروا على والي الكوفة الأموي سعيد بن العاص([2]).

اختلفوا في سنة مقتله، فقال ابن خياط وابن كثير: قتله الحجاج سنة ٨٢ هجرية ([3])، وذكر ابن كثير أنه: "روى عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وأبي هريرة، وشهد مع علي صفين، وكان شجاعا فاتكا، وزاهدا عابدا، قتله الحجاج، وقد عاش مائة سنة قتله صبرا بين يديه. وفي البداية والنهاية لابن كثير: "وإنما نقم عليه لأنه طلب من عثمان بن عفان القصاص من لطمة لطمها إياه، فلما أمكنه عثمان من نفسه عفا عنه، فقال له الحجاج: أومثلك يسأل من أمير المؤمنين القصاص؟ وذكر الحجاج عليا في غبون ذلك، فنال منه، وصلى عليه كميل، فقال له الحجاج: والله لأبعثن إليك من يبغض عليا أكثر مما تحبه أنت، فأرسل إليه ابن أدهم، وكان من أهل حمص، ويقال أبا الجهم بن كنانة فضرب عنقه"([4]). ولمثل هذا ذهب ابن الأثير في الكامل فذكر تهديد الحجاج لكميل بالموت وكيف أن كميل صمد وتحدى الحجاج، وقال له: "ايها الرجل من ثقيف لا تصرف على بنانك ولا تكشر

---

[1] الأعلام، الزركلي، ج٥/ص٢٣٤ ، والبداية والنهاية، ابن كثير، م٥،ج٩/ص٥٨.
[2] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٥/ص ٣٣
[3] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥،ج٩/ص٥٨
[4] المصدر نفسه، م٥،ج٩/ص٥٨

علي كالذئب، والله ما بقي من عمري إلا ظمء الحمار، اقض ما أنت قاض فإن الموعد الله، وبعد القتل الحساب" ... فأمر به فقتل([1]).

وهذا خلط وتدليس لا يتبين منه السبب الذي دعا الحجاج إلى الطعن بأمير المؤمنين علي (عليه السلام) ولا سببا لمطاردة كميل لدرجة انه قطع العطاء عن قبيلته (النخعيين) وهذا عمل لم يقم به من قبل، إلا من حيث كونه أحد المتهمين بقتل عثمان، حيث تجد في الروايتين قطعا واضحا، وكأن مقطعا من الحوار قد حُذف، فإذا رجعت إلى إرشاد الشيخ المفيد تعرف السبب. وقبل ذكر رواية الشيخ المفيد أقول: ذكرت الروايات أن الحجاج قتل كميل سنة ٨٢ أو ٨٣ للهجرة، وهذا يعني أنه قتل بعد المعركة الأخيرة مع ابن الأشعث، وفراره وفرار من اشترك معه في الثورة، فإذا كان الحجاج يطلب كميل بسبب عثمان أو لأي سبب آخر غير الاشتراك بالثورة، فأين كان عنه من سنة ٧٥ ولغاية سنة ٨٢ وهو معه بالكوفة، وهي حقبة أوقف الحجاج فيها جهده لمطاردة وقتل المعارضين؟ بمعنى أن كميل كان من المغضوب عليهم، وهم من الكثرة بحيث لا يمكن للحجاج القضاء عليهم بدون سبب ظاهر وهو ما يؤكده قول الحجاج: " لقد كنت أحب أن أجد عليك سبيلاً" كما في رواية الشيخ المفيد، فجاءت الثورة وجاء اشتراكهم بها ليكون السبب الوجيه الذي يعطي للحجاج شرعية مطاردتهم وقتلهم. ولذا جاء في رواية الشيخ المفيد: "فقطع الحجاج العطاء من قبيلة كميل، مما اضطر كميل لتسليم نفسه إلى الحجاج. قال: أنا شيخ كبير قد نفد عمري، لا ينبغي أن أحرم قومي أعطيّاتهم، فخرج فدفع بيده إلى الحجاج" وهنا بالذات دار الحوار بينهما، فانتقص الحجاج عليا بعد أن قال له كميل أن عليا أخبرني إنك قاتلي.! فالحجاج حينما رأى كميل، قال له: "لقد كنت أحبُّ أن أجد عليك سبيلاً. فقال كميل: لا تصرف عليّ أنيابك ولا تهدم عليّ، فوالله ما بقي من عمري إلّا مثل كواسل الغبار، فاقض ما أنت قاض، فإنّ الموعد الله وبعد القتل الحساب، ولقد خبّرني أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) أنك قاتلي. قال: فقال له الحجاج: الحجة عليك إذن، فقال كميل: ذاك إن كان القضاء إليك، قال: بلى قد كنتَ فيمن قتل عثمان بن عفان (رض)، اضربوا عنقه،

[1] الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج٤/ص١٤٦، إحداث السنة الثالثة والثمانين.

فضُربت عنقه"([1]) ومما يثبت أن الحجاج قتله بعد فشل الثورة وبسبب اشتراكه فيها أن هناك آخرون قدموا إلى الحجاج ليحكم عليهم بعد كميل، وأنه ألقى عليهم شرط الاعتراف بالكفر لكي يطلق سراحهم وهذا الشرط وضعه عبد الملك وأمر الحجاج أن يعمل به بعد فشل الثورة وليس قبلها، مثلما يتبين من رواية ابن الأثير عن محاكمة الشخص الذي تلى كميل. أما الذهبي، فقال: **"**فلما قدم الحجاج بن يوسف الكوفة دعا به، فقتله"([2]) وهذا خلط من الذهبي يعاب عليه لأن كميل اشترك بثورة ابن الأشعث، ولكونه من أصحاب علي الذين اشتركوا فيها طورد وقتل.**!**

لقد برزت انتقائية الأمويين في القتل في حادثة كميل بشكل لا غبار عليه، حيث يقتل المؤمن، ويترك المتهتك الدعي حرا، وحيث يطارد أهل المطلوب لكي يضيق عليه فيسلم نفسه، بينما تحول محاكمة المتهتك إلى مناسبة للضحك والمرح، روى ابن الأثير في الكامل أن الحجاج بعد أن قتل كميل النخعي صبرا؛ أتي بآخر من بعده، فقال له الحجاج: "أرى رجلا ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر، فقال له الرجل: أتخادعني عن نفسي؟ أنا اكفر أهل الأرض، واكفر من فرعون ذي الأوتاد، فضحك منه، وخلى سبيله.**!**"([3]).

- الحسن المثنى بن الإمام الحسن بن علي

ولد سنة ٤٤ وقيل إن ابن الأشعث دعا له بالخلافة وبايعه بالإمرة. هرب بعد فشل الحركة وبقي متواريا إلى سنة ٩٧ حيث قام الأمويون بسمه وقتله بعد أن عرفوا مكانه، إذ كان المؤيدون للبيت الأموي يتصيدون الفرص للإيقاع به، وبسبب خلاف بينه وبين الحجاج ذهب إلى الشام عند عبد الملك بن مروان، وكان الحسن قد أسرع إليه الشيب، فقال له عبد الملك: لقد أسرع إليك الشيب؛ ويحيى بن الحكم في المجلس، فقال له يحيى: وما يمنعه يا أمير المؤمنين شيبته أماني أهل العراق، كل عام يقدم عليه ركب يمنونه الخلافة. فأقبل عليه الحسن، وقال له: بئس والله الرفد رفدت، وليس كما قلت، ولكنا أهل بيت يسرع إلينا

[1] الإرشاد، الشيخ المفيد، ج ١/ ص٣٢٧
[2] دول الإسلام، الذهبي، ص٧٩
[3] الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج٤/ص١٤٦

الشيب"([1])، وقد بلغ الوليد بن عبد الملك أن الحسن يكاتب أهل العراق، فكتب إلى عامله على المدينة عثمان بن حيان المري: أنظر الحسن بن الحسن فاجلده مائة ضربة، وقفه للناس يوما، ولا أراني إلا قاتله([2]).

- عبد الله بن شداد بن الهاد الليثي

الفقيه أبو الوليد المدني ثم الكوفي. أمه سلمى أخت أسماء بنت عميس، كانت تحت حمزة (رض) فلما استشهد حمزة تزوجها شداد، فولدت له عبد الله في زمن النبي (صلى الله عليه وآله)([3]) عده خليفة بن خياط في تابعي أهل الكوفة. وعده ابن سعد في الطبقة الأولى من تابعي أهل المدينة. قال الذهبي: "خرج مع من خرج فقتل يوم الدجيل".([4]) وقال عنه ابن سعد: "وكان ثقة قليل الحديث، وكان شيعيا ... وخرج فيمن خرج مع عبد الرحمن فقتل يوم دجيل"([5]) وقال محمد بن عمر: كان يأتي الكوفة كثيرا، فنزلها، وخرج مع ابن الأشعث، فقتل ليلة دجيل سنة اثنتين وثمانين.([6]) وقال عطاء بن السائب فيما يبدو إشارة واضحة إلى تشيع ابن شداد وتحديه للأمويين: سمعت عبد الله بن شداد يقول: وددت أني قمت على المنبر من غدوة إلى الظهر، فأذكر فضائل علي بن أبي طالب ثم أنزل، فيضرب عنقي.([7]) وهذا يعني أنه كان متشددا في تشيعه، وهي صفة كانت ظاهرة في ذلك المجتمع وكأنهم يريدون من خلالها تحدي بني أمية، ومنهم: يحيى بن الجزار مولى بجيلة. قال يحيى بن سعيد القطان عن شعبة عن الحكم، قال: "كان يحيى بن الجزار يتشيع، وكان يغلو، قالوا وكان ثقة وله حديث"([8]) ومنهم سالم بن أبي حفصة. قالوا: "وكان سالم يتشيع

---

[1] تهذيب تاريخ دمشق، ابن عساكر، ج٤/ص١٦٧
[2] ينظر المصدر نفسه، ج٤/ص١٦٧
[3] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص ١٣
[4] دول الإسلام، الذهبي، ص ١٢٦
[5] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٥/ص٦١
[6] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص ١٤
[7] المصدر نفسه، الذهبي، ج٥،ص١٤
[8] طبقات ابن سعد، ج٦/ص ٢٩٤

تشيعا شديدا"([1]) يعني كان غاليا في تشيعه، وإذا ما كان الغلو بالتشيع موجودا في ذلك العصر، فمعنى ذلك أن هناك دوافع للغلو، فضلا عن ذلك كان هنالك متعاطفون مع التشيع، وهم كثر، وأغلبهم من أهل الكوفة، منهم على سبيل المثال المعتدلون.

معتدلون ومرجئة مع ابن الأشعث

من المعتدلين من غير الشيعة كان هناك مع ابن الأشعث جماعة، منهم:

- عبد الرحمن ابن أبي ليلى

قال الأعمش: رأيت ابن أبي ليلى وقد ضربه الحجاج وكأن ظهره مسح وهو متكئ على ابنه وهم يقولون: العن الكاذبين فيقول: لعن الله الكاذبين: آه، أو آه آه، ثم يسكت، فيقول: علي بن أبي طالب وعبدالله بن الزبير والمختار بن أبي عبيد. وأهل الشام كأنهم حمير لا يدرون ما يقصد، يظنون أنه يوقعها عليهم، وقد أخرجهم منها ورفعهم.([2]) وقال الذهبي: روي عن أبي حصين أن الحجاج استعمل ابن أبي ليلى على القضاء ثم عزله ثم ضربه ليسب أبا تراب، وكان قد شهد النهروان مع علي. وقال الذهبي: "كان عبد الرحمن من كبار من خرج مع عبد الرحمن بن الأشعث" ([3]).

وكان المرجئة كذلك من ضمن من اشترك بالثورة مع ابن الأشعث، وكان لهم بلاء حسن، وقتال شديد، ومنهم:

- ذر بن عبد الله بن زرارة بن معاوية من همدان

كان مرجئيا، وكان فيمن خرج من القراء مع عبد الرحمن على الحجاج ([4])، وكان يكفر الحجاج وجنده، عن الحكم، قال: "سمعت ذرا في الجماجم يقول، هل هي إلا برد حديدة بيد كافر مفتون"([5]).

---

[1] المصدر نفسه، ج٦/ص ٣٣٦
[2] سير أعلام النبلاء، ج٥/ص ٢٤٦ ترجمة ابن أبي ليلى.
[3] المصدر نفسه.
[4] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص٢٩٣
[5] المصدر نفسه، ج٥/ص٢٩٣

- طلق بن حبيب العنزي

قال عنه ابن سعد: "وكان مرجئيا"([1]) وكان سعيد بن جبير ينهى الناس أن يجالسوه "عن إسماعيل بن إبراهيم الأسدي عن أيوب قال: قال لي سعيد بن جبير لا تجالس طلقا" وفي رواية ثانية: رآني سعيد بن جبير جلست إلى طلق بن حبيب فقال: ألم أرك جلست إليه لا تجالسه، قال وكان ينتحل الإرجاء"([2]).

كل تلك الأسماء التي تقدمت سواء كانوا من الشيعة أو السنة أو الخوارج تم التعامل معهم بأسلوب وحشي، أقل ما يقال عنه أنه لا يمت إلى الإسلام بصلة، ومنحرف عن جادة الصواب غاية الانحراف، وبعيد عن القيم والمثل والأخلاق. ثم وفق نفس مقاييس الانتقائية تم التعامل مع فئة أخرى بأسلوب آخر، فيه الكثير من التهاون والتعاطف والرحمة وغض الطرف حتى عن الجرائم، وقد طبق هذا المنهج مع قراء اشتركوا في الثورة، وقاموا بنفس ما قام به الآخرون، ويستحقون مثل ما يستحق غيرهم من الخارجين على السلطة، ولكن الحجاج وعبد الملك بن مروان عفوا عنهم وأكرموهم، مثل فعلهم مع:

أصدقاء الأمويين مع ابن الأشعث

فضلا عن ذلك كان هناك الكثير من أصدقاء الأمويين ومن يشاركونهم المعتقد والتوجه الديني قد تخلوا عن ولائهم واشتركوا مع ابن الأشعث في ثورته، حيث كان هناك:

- أنس بن مالك

ومثل قولهم عن الحسن البصري، قالوا عن أنس، وشككوا في اشتراكه في الثورة، مع أن الكثير من المؤرخين جاءوا بحجج تثبت اشتراكه فيها، ولكن عدم محاسبته لأسباب يعرفها الجميع جعل آخرين يشككون في صحة تلك الروايات. ومن الذين أوردوا إثباتات عن اشتراكه كان ابن كثير، الذي قال: "عن عوانة بن الحكم الكلبي، قال: دخل انس بن مالك على الحجاج بن يوسف، فلما وقف بين يديه، قال له: إيه، إيه يا انس، يوم لك مع علي،

[1] المصدر نفسه، ج٧/ص٢٢٧
[2] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٧/ص٢٢٨

ويوم لك مع ابن الزبير، ويوم لك مع ابن الأشعث، والله لاستأصلنك كما تستأصل الشاة، ولأدمغنك كما تدمغ الصمغة. فقال أنس: إياي يعني الأمير أصلحه الله؟ قال: إياك أعني صك الله سمعك. قال انس: إنا لله وانأ إليه راجعون، والله لولا الصبية الصغار ما باليت أي قتلة قتلت، ولا أي ميتة مت، ثم خرج من عند الحجاج، فكتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره بما قال له الحجاج، فلما قرأ عبد الملك كتاب انس استشاط غضبا وشفق عجبا، وتعاظم ذلك من الحجاج"([1]) وحجتهم نستشفها من رسالة عبد الملك الى الحجاج التي جاء فيها قول عبد الملك للحجاج بعد ان عيره بأصله وصنعة أهله: "وثبت على رجل من أصحاب رسول الله(ص) بين أظهرنا فلم تقبل إحسانه، ولم تتجاوز عن إساءته، جرأة منك على الرب عز وجل واستخفافا منك بالعهد، والله لو ان اليهود والنصارى رأت رجلا خدم عزير بن عزري وعيسى بن مريم، لعظمته لشرفه وأكرمته وأحبته، بل لو رأوا من خدم حمار العزير أو خدم حواري المسيح لعظموه وأكرموه، فكيف وهذا انس بن مالك خادم رسول الله (ص)... فإذا قرأت كتابي هذا فكن أطوع له من خفه ونعله"([2]).

إن من يقرأ هذا الكتاب يجد فيه روح الانتقائية في أجلى صورها فالأمويين الذين قتلوا الصحابة يوم الجمل وصفين وحرب الإمام الحسن وقتلوا الحسين وأصحابه وقتلوا زيد بن علي وقتلوا من قتلوا من الصحابة الذين اشتركوا مع ابن الأشعث ولم يرمش لهم طرف، ثاروا لمجرد ان الحجاج تكلم بالسوء على انس بن مالك. وأسأل: لو كان غير أنس من وقف هذا الموقف وكتب إلى الخليفة يستعطفه، هل كان سيجيبه، ويهين واليه الحجاج بمثل هذه الكلمات الجارحة؟ أليست هي الانتقائية التي نتكلم عنها؟ وهي التي ملأت قلوب الناس حقدا على الأمويين.!

- طلحة بن مصرف

يسمونه شيخ الإسلام ، أبو محمد اليامي الهمداني الكوفي، تاريخ مولده مجهول. وكان عثماني الهوى بامتياز جعل المؤرخين يصفونه بهذه الصفة، قال المزي في تهذيب الكمال:

---

[1] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥،ج٩/ص ١٦٠

[2] البداية والنهاية، ابن كثير،م٥،ج٩/ص ١٦١ـ١٦٢ وسير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٤/ ص٤٨٧

"وكان عثمانيا يفضل عثمان على علي" وكان يكره الشيعة ويكفرهم، عن الحسن بن عمرو، قال: قال طلحة بن مصرف: "لولا أني على وضوء أخبرتك بما تقول الشيعة"(١) وفي سير أعلام النبلاء وحلية الأولياء: "لأخبرتك ماذا تقول الرافضة"(٢). والظاهر أن هذا الرجل كان يظن أن هناك الكثير من الأقوال التي تنقض الوضوء، أو انه كان يتصنع ذلك لكي يقولوا عنه انه على وضوء دائم، أو أنه على وفاق دائم مع الأمويين، ففي حلية الأولياء نقل أبو نعيم عن العلاء بن عبد الكريم قال: قال طلحة: لولا أني على وضوء لحدثتكم عن كرسي المختار"(٣).

فضلا روى أحاديث فيها طعم خاص مثل : "سألت عبد الله بن أبي أوفى: هل أوصى رسول الله (ص)؟ فقال: لا، فقلت: فلم أمر بالوصية ولم يوص؟ قال: أوصى بكتاب الله"(٤) خرج طلحة مع من خرج من قراء أهل الكوفة إلى الجماجم أيام الحجاج. وتوفي بعد ذلك سنة اثني عشرة ومائة(٥) وقد اقر بلسانه انه اشترك فيها، عن أبي جناب،قال: سمعت طلحة بن مطرف يقول: شهدت الجماجم فما رميت، ولا طعنت، ولا ضربت، ولوددت أن هذه سقطت هاهنا ولم أكن شهدتها"(٦) وهذا يعني أنه تأخر بالالتحاق بالثورة لأن معركة دير الجماجم بالرغم من طولها وقعت في أواخر أيام الثورة، أي انه خرج برضا نفسه دونما إكراه من أحد فالذين ادعوا أنهم أكرهوا خرجوا في أيامها الأولى.

نعم خرج مع من خرج من قراء أهل الكوفة ولكنه لم يحاسب لأنه كان يكره الشيعة لدرجة انه يرفض الحديث عنهم وهو على وضوء، ويرى أن مجرد التحدث عن الشيعة ينقض الوضوء.!! ولوجود صفات أخرى فيه، قال احمد العجلي: "كان طلحة يحب عثمان (رضي

---

١ الطبقات الكبرى، ابن سعد، ، ترجمته، ج٦/ص ٣٠٩
٢ سير أعلام النبلاء،ج٦/ص٣١ ، وحلية الأولياء، أبو نعيم، ج٥/ص١٥، ترجمة مطرف
٣ سير أعلام النبلاء،ج٦/ص٣١ ، وحلية الأولياء،ج٥/ص١٥.
٤ سير أعلام النبلاء،ج٦/ص٣١ ، وحلية الأولياء،ج٥/ص٢١
٥ الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص ٣٠٩
٦ سير أعلام النبلاء،ج٦/ص٣١

الله عنه) وقال موسى الجهني: "سمعت طلحة بن مصرف يقول: قد أكثرتم علي في عثمان، ويأبى قلبي إلا أن يحبه"([1]).

- عطاء بن السائب

قال ابن سعد وغيره: مات عطاء بن السائب سنة ست وثلاثين ومائة، قال الذهبي في ميزان الاعتدال وابن سعد في الطبقات: "توفي سنة ١٣٦"([2]) وقال أكثر من واحد من العلماء أنه خلط في آخر أيامه كما في قول الذهبي: "وكان من كبار العلماء، لكنه ساء حفظه قليلا في أواخر عمره"([3]).

قولهم: كان تغير حفظه بآخره واختلط في آخر عمره وقال بن علية هو أضعف عندي من ليث والليث ضعيف وقال بن علية لم أكتب عن عطاء إلا لوحا واحدا فمحوت أحد الجانبين قال وسألت عنه شعبة فقال إذا حدثك عن رجل واحد فهو ثقة وإذا جمع فقال زاذان وميسرة وأبو البختري فاتقه كان الشيخ قد تغير"([4]) يدل على أنه عمر طويلا وأنه كان رجلا حينما اشترك مع ابن الأشعث.

من الأحاديث المنكرة والمخالفة للعقل؛ التي رواها، قال: "كان عبد الرحمن بن أبي عاصم يواصل خمسة عشر يوما لا يأكل ولا يشرب([5]) ولتأكيد هذه المدة الخرافية اخرج أبو نعيم حديثين آخرين، جاء في الأول: "ويفطر في الشهر مرتين" وفي الثاني: "يفطر في رمضان مرتين"([6]) وهؤلاء هم الذين نشروا ثقافة المبالغة الأسطورية في المجتمع.

- مالك بن دينار

هو أبو يحيى مالك بن دينار البصري، كان مولى لامرأة من بني سامة بن لؤي.([7])، قال الذهبي: "علم العلماء الأبرار، معدود في ثقات التابعين. ومن أعيان كتبة المصاحف، ولد

---

[1] سير أعلام النبلاء،ج٦/ص٣١، وحلية الأولياء، ج٥/ ص١٩
[2] ميزان الاعتدال، الذهبي، على هامش سير أعلام النبلاء، ج٣/ص٧١.
[3] سير أعلام النبلاء،ج٦/ص٣٣٥، رقم ٨٦١ ترجمة عطاء.
[4] ينظر: المصدر نفسه، ج٦/ص ٣٣٦ـ ٣٣٨.
[5] حلية الأولياء، أبو نعيم، ج٥/ص٦٩
[6] حلية الأولياء، أبو نعيم، ج٥/ص٦٩
[7] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٧/ص ٢٤٣

في أيام عبد الله بن عباس وسمع من أنس بن مالك في بلاده، وحدث عن سعيد بن جبير والحسن البصري وآخرين. وحدث عنه سعيد بن أبي عروبة وطائفة سواه. وثقه النسائي وغيره، واستشهد به البخاري. وقال ابن سعد: وكان ثقة قليل الحديث"([1]).

قيل: إنه مات سنة سبع وعشرين ومائة. وقال يحيى وابن سعد: مات قبل الطاعون وكان الطاعون سنة إحدى وثلاثين.([2]) وقال خليفة بن خياط وابن المديني، وغير واحد: مات سنة ثلاثين ومائة.

- عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كبار الشعبي

ويقال: هو عامر بن عبد الله، وكانت أمه من سبي جلولاء([3])... ولد في إمرة عمر بن الخطاب لست سنين خلت منها، وقيل: ولد سنة إحدى وعشرين.. وعن احمد بن يونس: ولد الشعبي سنة ثمان وعشرين.. رأى عليا (رض) وسمع من كبار الصحابة([4]) وقال هو عن نفسه كما يروي عنه السري بن إسماعيل: "ولدت عام جلولاء"([5]).

روى الشعبي عن أكثر من خمسين صحابيا منهم: سعد بن أبي وقاص وأبي موسى الأشعري وأسامة بن زيد وعائشة وابن عمر والمغيرة بن شعبة وعبد الله بن عمرو بن العاص وسمرة بن جندب والنعمان بن بشر وحبشي والأشعث بن قيس وانس بن مالك، وغيرهم، ولكنه لم يرو ولو حديثا واحدا عن علي (عليه السلام).!

أقام الشعبي بالمدينة ثمانية أشهر هاربا من المختار([6]) وهذا يبين حقيقة معتقده، وإلا ما كان ليهرب من المختار.! وقد يكون سبب هروبه انه أهان أصحاب الإمام علي (عليه السلام) واستصغرهم وحط من قدرهم وأنف عليهم، ونافق رُشَيد الهَجَري (رحمه الله) وأدى على قتله، كما في الرواية التي أخرها الذهبي، وهذه الرواية بالرغم من طولها تستحق الذكر لأنها توضح منهج الافتراء الذي مارسه بعض القراء ضد أتباع أهل البيت،

---

[1] المصدر نفسه، ج٧/ص ٢٤٣
[2] المصدر نفسه.
[3] كانت جلولاء سنة سبع عشرة للهجرة.
[4] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص٢٧٠
[5] سير أعلام النبلاء، ج٥/ص٢٧٠، والطبقات الكبرى، ابن سعد،ج٦/ص٢٤٨
[6] سير أعلام النبلاء، ج٥/ص٢٧١، والطبقات الكبرى، ابن سعد،ج٦/ص٢٤٨

الرواية عن يزيد بن عياض عن مجالد، قال: كنت امشي مع قيس الأرقب([1]) فمررنا بالشعبي، فقال لي الشعبي: اتق الله لا يشعلك بناره، فقال قيس: اما والله قد كنتَ في هذه الدار وما تركته الا لحب الدنيا، قال فقلت ان كنت كاذبا لعنك الله قال فهل تعرف أصحاب علي؟ قال الشعبي: ما كنت اعرف فقهاء الكوفة إلا أصحاب عبد الله قبل ان يقدم علينا علي، قال قيس: أفلا تعرف أصحاب علي؟ قال: نعم. قال: فهل تعرف الحارث الأعور؟ قال: نعم لقد تعلمت منه حساب الفرائض فخشيت على نفسي منه الوسواس، فلا ادري ممن تعلمه. قال: فهل تعرف ابن صبور؟ قال: نعم، ولم يكن بفقيه، ولم يكن فيه خير. قال: فهل تعرف صعصعة بن صوحان؟ قال: كان رجلا خطيبا ولم يكن بفقيه. قال: فهل تعرف رُشَيد الهَجَري؟ قال الشعبي: نعم، بينما أنا واقف في الهجريين إذ قال لي رجل: هل لك في رجل يحب أمير المؤمنين؟ قلت: نعم. فأدخلني على رشيد، فقال: خرجت حاجا، فلما قضيت نسكي، قلت: لو أحدثت عهدا بأمير المؤمنين، فمررت بالمدينة، فأتيت باب علي فقلت لإنسان: استأذن لي سيد المسلمين، فقال: هو نائم، وهو يحسب أني اعني الحسن، قلت: لست اعني الحسن إنما اعني أمير المؤمنين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين. قال: أوليس قد مات،فقلت: أما والله انه ليتنفس الآن بنفس حي، ويعترق من الدثار الثقيل. فقال: أما إذا عرفت سر آل محمد فادخل عليه فسلم عليه. فدخلت على أمير المؤمنين فسلمت عليه وأنبأني بأشياء تكون. قال الشعبي: فقلت لرشيد: ان كنت كاذبا فلعنك الله، ثم خرجت. وبلغ الحديث زيادا فقطع لسانه وصلبه([2]).

ولا يخفى التلاعب الكبير في هذه القصة التي حرفها الشعبي وقلب معناها، واكبر دليل على ذلك أن ما أخبره به رشيد لا يستوجب القتل، ولابد وانه اخبره بما هو اكبر من ذلك بكثير فنقله بدوره إلى الطاغية ابن زياد الذي بادر إلى صلب رشيد. فضلا عن ذلك رشيد كان في الكوفة قرب علي فكيف لا يعلم بوجوده في الكوفة ويذهب إلى المدينة ليسلم عليه فيعلم حينها انه قتل وكأن خبر مقتل خليفة المسلمين لكم يسمع به أحد ثم أن الإمام الحسن

[1] قيس الأرقب: من أصحاب الإمام علي عليه السلام، ولذا كان الشعبي يخاف تأثيره على مجالد، فقال له: اتق الله لا يشعلك بناره.!

[2] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ ص٢٨٠

كان حينها في الكوفة وبويع بالخلافة فيها وكان رجال الشيعة أول من بايعه فكيف يخفى ذلك على رشيد؟.

وللرد على هذه الأكاذيب والافتراءات لا ضير في الإتيان بالقصة الحقيقية، قصة وسبب مقتل رشيد الهجري، ورواياتنا عنها، وهي موجودة في أغلب مصادرنا([1]).

أبو عبد الله، رُشيد بن عقبة الهَجَري، من أعلام القرن الأول الهجري، كان من أصحاب الإمام علي والإمام الحسن والإمام الحسين والإمام زين العابدين(عليهم السلام)، وبحكم منزلته القريبة أخبره الإمام علي (عليه السلام) كما اخبر مجموعة ممن هم بمنزلته بعواقب أمورهم، وكانوا بعد استشهاد الإمام يتذكرونها ويطربون لسماعها، عن فضيل بن الزبير، قال: مرّ ميثم التمّار على فرس له فاستقبل حبيب بن مظاهر الأسدي عند مجلس بني أسد، فتحدّثا حتى اختلفت أعناق فرسيهما. ثم قال حبيب: كأني بشيخ أصلع، ضخم البطن، يبيع البطّيخ عند دار الرزق، قد صُلب في حُبّ أهل بيت نبيّه (عليهم السلام)، يُبقر بطنه على الخشب. فقال ميثم: وإنّي لأعرف رجلاً أحمر له صفيدتان، يخرج لينصر ابن بنت نبيّه فيُقتل، ويُجال برأسه في الكوفة، ثمّ افترقا. فقال أهل المجلس: ما رأينا أحداً أكذبُ من هذين. قال: فلم يفترق أهل المجلس حتّى أقبل رُشَيد الهَجَري، فطلبهما، فسأل أهل المجلس عنهما، فقالوا: افترقا وسمعناهما يقولان كذا وكذا. فقال رُشيد: رحم الله ميثماً، ونسي: ويُزاد في عطاء الذي يجيء بالرأس مائة درهم، ثمّ أدبر، فقال القوم: هذا والله أكذبهم. فقال القوم: والله ما ذهبت الأيام والليالي حتى رأيناه مصلوباً على دار عمرو بن حُريث، وجيء برأس حبيب بن مظاهر قد قُتل مع الحسين (عليه السلام)، ورأينا كل ما قالوا.

وفي رواياتنا عن فضيل بن الزبير، قال: خرج أمير المؤمنين (عليه السلام) يوماً إلى بستان البرني، ومعه أصحابه، فجلس تحت نخلة، ثم أمر بنخلة، فلقطت، فأنزل منها رطب، فوضع بين أيديهم، فقال رشيد الهجري: يا أمير المؤمنين، ما أطيب هذا الرطب!

[1] الروايات حولها موجودة في الجمل للشيخ المفيد وتنقيح المقال وروضات الجنّات ورجال الكشّي والاختصاص، وغيرها.

فقال: يا رُشيد، أما أنك تصلب على جذعها. فقال رُشيد: فكنت أختلف إليها طرفي النهار أسقيها. ومضى أمير المؤمنين(عليه السلام) قال: فجئتها يوماً وقد قطع سعفها، فقلت: اقترب أجلي، ثمّ جئت يوماً فجاء العريف، فقال: أجب الأمير. فأتيته. فلما دخلت القصر إذا الخشب ملقى، فإذا فيه الزرنوق، فجئت حتى ضربت الزرنوق برجلي، ثم قلت: لك غذيت ولي أنبت، ثم أُدخلت على عبيد الله بن زياد، فقال: هات من كذب صاحبك. فقلت: والله ما أنا بكذّاب ولا هو، ولقد أخبرني أنك تقطع يدي ورجلي ولساني.قال: إذاً والله نكذّبه، اقطعوا يده ورجله وأخرجوه. فلما حمل إلى أهله أقبل يحدث الناس بالعظائم، وهو يقول: أيها الناس سلوني فإن للقوم عندي طلبة لم يقضوها، فدخل رجل على ابن زياد، فقال له: ما صنعت قطعت يده ورجله وهو يحدّث الناس بالعظائم؟ فأمر بقطع لسانه.

أما الشعبي الذي كان قد نافق رشيدا وتسبب بصلبه فكان فيمن خرج مع ابن الأشعث، وهرب مع من بقي من أتباعه، قال الذهبي: "كان الشعبي فيمن خرج مع القراء على الحجاج ثم اختفى زمانا وكان يكتب إلى يزيد بن أبي مسلم ليكلم فيه الحجاج([1]) فأمر الحجاج أن يؤتى به فجيء به. فأعتذر، فقبل الحجاج اعتذاره، وقال: أنت يا شعبي أحب إلي ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول ما فعلت ولا شهدت، قد أمنت عندنا يا شعبي. وقد جاءت قصة اعتذاره على لسانه، قال الشعبي: فسلمت عليه بالإمرة ، ثم قلت : أيها الأمير إن الناس قد أمروني أن أعتذر إليك بغير ما يعلم الله أنه الحق ووالله لا أقول في هذا المقام إلا الحق قد والله تمردنا عليك وحرضنا،وجهدنا كل الجهد، فما كنا بالأتقياء البررة، ولا بالأشقياء الفجرة ،لقد نصرك الله علينا ،وأظفرك بنا، فإن سطوت فبذنوبنا، وما جرت إليك أيدينا ،وإن عفوت عنا فبحلمك ، وبعد فالحجة لك علينا. فقال الحجاج لما رأى اعترافه وإقراره: أنت يا شعبي أحب إلي ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا، ثم يقول: ما فعلت، ولا شهدت، قد أمنت عندنا يا شعبي. ثم قال الحجاج: كيف وجدت الناس بعدنا يا شعبي؟ وكان الحجاج يكرمه قبل دخوله في الفتنة. فقال الشعبي مخبرا عن حاله بعد مفارقته للجماعة: أصلح الله الأمير قد اكتحلت بعدك السهر واستوعرت السهول

[1] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص٢٧٧

واستجلست الخوف واستحليت الهم وفقدت صالح الإخوان ولم أجد من الأمير خلفا. فقال الحجاج: انصرف يا شعبي، فانصرف آمنا.([1]).

من أقواله ضد الحجاج وجيشه: " أيها الناس قاتلوهم ، ولا يأخذكم حرج من قتالهم ، والله ما أعلم على بسيط الأرض أعمل بظلم ولا أعمل بجور منهم". وحينما تسمع أقوال الشعبي وتطلع على سلوكه؛ تعرف لماذا عفا عنه الحجاج، فمن أقواله التي أخرجها ابن سعد: "لو كانت الشيعة من الطير كان رَخَما([2])، ولو كانوا من الدواب كانوا حميرا"([3]) ومن سلوكه أنه كان ينهى عن اعتناق التشيع، ويكرر كلمة: "لا تكن شيعيا"([4]) ومن أقواله الأخرى: "أفرط الناس في حب علي كما أفرطت النصارى في حب المسيح"([5]).

ومن سلوكه الآخر أنه كان يرى حب باقي الخلفاء من السنة، عن خالد بن سلمة، عن الشعبي، قال: "حُب أبي بكر وعمر ومعرفة فضلهما من السنة"([6]).

وقال ابن سعد: "وكان شيعيا فرأى منهم أمورا، وسمع كلامهم وإفراطهم فترك رأيهم وكان يعيبهم([7]).

ويكفي ان الشعبي نال من صحابة رسول الله واتهمهم بشرب النبيذ، عن عطية السراج، قال: مررت مع الشعبي على مسجد من مساجد جهينة، فقال: اشهد على كذا وكذا من أهل

---

[1] ينظر: سير أعلام النبلاء، ج٥/ص٢٨٦، وطبقات ابن سعد،ج٦/ص٢٤٩

[2] اختلف العلماء في تصنيف طائر الرخم، قال بعضهم: إنه من فصيلة الدجاج بسبب استقامة منقاره ونبشه للقمامة، وهو يتغذى على النفايات والجيف ويأكل من بقايا صيد النسور والعقبان الكبيرة. كان العرب ومازالوا ينبزون الرجل الجبان بالرخمه نسبة إلى هذا الطائر ومازال البدو يصفون الرجل الجبان بأنه رخمه. وينقل التاريخ مهاترة وقعت بين معاوية ورجل من باهلة سمع معاوية يقول: والله لقد هممت أن أملأ سفينة من باهلة فأبعث بها إلى اليم، فإذا توسطوا غرَّقتهم! فأجابه الباهلي: إذن ما رضينا بعددهم من بني أمية. فشتمه معاوية قائلا: أسكت أيها الغراب الأبقع. فرد عليه الباهلي: إن الغراب ربما مشى إلى الرخمة حتى ينقر عينها. أما الحمار فيضرب به المثل في البلادة والغباء.

[3] الطبقات الكبرى، ابن سعد،ج٦/ص٢٤٨

[4] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص٢٨٠

[5] المصدر نفسه، ج٥/ص٢٨٠

[6] المصدر نفسه.

[7] الطبقات الكبرى، ابن سعد،ج٦/ص٢٤٨

هذا المسجد من أصحاب النبي ثلاثمائة يشربون نبيذ الدنان في العرائس"([1]) وتوفي الشعبي بالكوفة سنة ثلاث أو أربع أو خمس ومائة للهجرة([2])

- عطاء بن أبي رباح:

هو أبو محمد عطاء بن أبي رباح أسلم بن صفوان (٢٧-١١٤ هـ، وهو من أصول نوبية. كان من مولدي الجند ونشأ بمكة وتعلم على يد علمائها. ولد في "الجند" إحدى ضواحي مدينة تعز وتتبع المناطق الوسطى لليمن أثناء خلافة عثمان([3]). أسماه الذهبي: "الإمام شيخ الإسلام... وكان من أوعية العلم.. وكان ثقة فقيها كثير الحديث([4])، وربما لهذ السبب ادعوا أن الإمام محمد الباقر(عليه السلام) كان اقل علما منه، وأن الإمام كان قد اعترف بذلك أمام الملأ، كما في قول أبي عاصم الثقفي: سمعت أبا جعفر الباقر، يقول للناس، وقد اجتمعوا: "عليكم بعطاء، هو والله خير لكم مني.!" وقول آخر نسبوه له (عليه السلام) وفيه: "خذوا من عطاء ما استطعتم" وقول ثالث عن اسلم المنقري، عن أبي جعفر، قال: "ما بقي على ظهر الأرض أحد أعلم بمناسك الحج من عطاء([5]) ثم نقل الذهبي رواية تبين بطلان كل هذه الأقوال جميعها، أوردها عن ابن أبي ليلى، قال: "دخلت على عطاء فجعل يسألني، فكأن أصحابه أنكروا ذلك، وقالوا: تسأله؟ قال: ما تنكرون؟ هو أعلم مني"([6]) إذا أين كان الإمام الباقر عن أبي ليلى الذي هو أعلم من عطاء، فمدح عطاء وأغفله؟! علما أن هذه الروايات من سنخ الروايات التي قدمت سعيد بن جبير على الإمام زين العابدين، وتشم منها نفس النفاق والوضع والكذب.

ومن قصص الترويج له ما نقله الأصمعي، قال، دخل عطاء على عبد الملك بن مروان وهو جالس على السرير وحوله الأشراف، وذلك بمكة في وقت حجه وخلافته، فلما بصر

---

[1] الطبقات الكبرى، ابن سعد،ج٦/ص٢٥٢
[2] المصدر نفسه ج٦مص٢٥٥-٢٥٦
[3] ينظر: سير أعلام النبلاء، ج٥/ص٥٥٢
[4] المصدر نفسه.
[5] جميع الروايات من سير أعلام النبلاء، ج٥/ص٥٥٤
[6] المصدر نفسه.

به قام إليه فسلم عليه، وأجلسه معه على السرير وقعد بين يديه، وسأله عن حاجته.([1]) ويعني هذا أن عبد الملك كان يعرفه ويعرف منزلته ويقدره ويجله ويحترمه لهذا السبب. ثم نجد في رواية أخرى عن الزهري، قال: قال لي عبد الملك بن مروان: من أين قدمت؟ قلت من مكة، قال: فمن خلفت يسودها؟ قلت: عطاء، قال: أمِن العرب أم من الموالي؟ قلت من الموالي، قال: فبم سادهم؟ قلت: بالديانة والرواية([2]) وهذه الرواية تنسف كل ما جاء في الرواية الأولى من القواعد، حيث يبدو فيها عبد الملك وهو لا يعرف شيئا عن عطاء، بل لا يعرف إن كان من العرب أم الموالي.!

وصف الذهبي عطاء، بأنه: اسود اعور أفطس أشل أعرج، أصلع، ليس في رأسه شعر إلا شعيرات، قطعت يده مع ابن الزبير، ثم عمي ([3]) ولم يكن عطاء يحسن العربية، روى العلاء بن عمرو الحنفي، عن عبد القدوس، عن حجاج، قال، قال عطاء: "وددت أني أحسن العربية. قال: وهو يومئذ ابن تسعين سنة"([4])

كان عطاء يسعى إلى تقليد أبي هريرة الذي زعم أن له جرابين من العلم أظهر أحدهما وأخفى الآخر، ولاسيما وانه روى عن أبي هريرة الكثير من الأحاديث، فادعى أن عنده كذا وكذا ألف حديث لم يظهرها([5])، وفي هذا تقليد ممجوج لما صدر عن أبي هريرة، وإذا ما كان أبو هريرة صادقا، وأن الخوف هو الذي منعه من الإدلاء بمحتوى الجرابين فإن عطاء كان دعيا كذابا!

لم يكن عطاء أفضل حالا من غيره من الذين شفع لهم كرههم للتشيع عند الحجاج فعفا عنهم، فهو الآخر مثل الشعبي كان يطعن بالتشيع ويشنع على الكوفة وأهلها، وله في ذلك صولات، منها عن سلام بن سعيد البصري، قال: سمعت أبا حنيفة النعمان، يقول: لقيت عطاء بمكة فسألته عن شيء فقال: من أين أنت؟ فقلت: من أهل الكوفة. قال: أنت من أهل القرية الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعا؟ قلت: نعم! قال: فمن أي الأصناف أنت؟ قلت: ممن

---

[1] المصدر نفسه، ج٥،/ص٥٥٦
[2] المصدر نفسه، ج٥/ص٥٥٧
[3] المصدر نفسه، ج٥/ص٥٥٣
[4] المصدر نفسه، ج٥/ص٢٥٨
[5] ميزان الاعتدال، الذهبي، ج١/ص ٣٨٠ بهامش السير، ج٥/ص٥٥٥.

لا يسب السلف ويؤمن بالقدر ولا يكفر أحدا من أهل القبلة بذنب. فقال عطاء: عرفتَ فألزم"([1]).

اشترك عطاء بالثورة مع ابن الأشعث ضد الأمويين، وسلم من بطش الحجاج وفق الانتقائية الأموية المعروفة، وبعدها أصبح من المقربين للأمويين، وكان ينادي منادي بني أمية في أيام منى: "لا يفتي الناس في الحج إلا عطاء"([2]).

لقد اخترت هذه النماذج البسيطة للتدليل على أمرين مهمين:

الأول: الانتقائية المتطرفة والطائفية التي اتبعها الأمويون في تعاملهم مع من أشترك مع ابن الأشعث في ثورته ضدهم.

الثاني: للتدليل على نوعية القراء الذين اشتركوا مع ابن الأشعث في ثورته والتي يتبين من خلالها أن كل طبقات القراء اشتركوا بالثورة، وكان الشيعة أشدهم حماسا واندفاعا.

أما عن طرق تعامل الحجاج مع كل فئة فالحديث يطول، حيث كانت للحجاج أساليب تطبق على كل فئة من هذه الفئات، وكان له أسلوبا غريبا يختلف عن كل الأساليب الأخرى تعامل به مع الشيعة منهم ولاسيما مع سعيد بن جبير، وربما لهذا السبب تجد مصادر التاريخ تجمع على الحديث عن أسلوب الحجاج مع سعيد دونا عن كل الثوار، ولهذا مبرراته وأسبابه. هنا أود أن ألفت الانتباه إلى أن الباحث يجد في الطبقات وسير أعلام النبلاء وحلية الأولياء وعشرات الكتب التخصصية الأخرى عشرات الأسماء من التابعين القراء الذين قتلوا يوم الحرة سنة ٦٣ ولم يلتفت إلى أمر قتلهم أحد بالشكل الذي تناولوا فيه مقتل سعيد، فلماذا؟ لماذا كل هذا الاهتمام الزائد بسعيد خاصة، وأتباع أهل البيت عامة؟ ويتضح من خلال الإجابة على هذا السؤال المهم السبب الذي دفع الحجاج إلى تغيير أنماط تعامله مع الثوار، واختيار أقساها وأشدها وأكثرها دناءة مع أتباع الخط العلوي دون غيرهم. كما تؤكد أن هذا العسف بالشيعة هو الذين دفعهم إلى الاستمرار بالمحاولات لإسقاط الحكم الأموي خلال هذا القرن كله.

---

[1] الإرشاد، الشيخ المفيد، ج ١/ص٣٢٧.

[2] البداية والنهاية، ابن كثير، ج٩،ص٣٥٦.

محاكم التفتيش الإسلامية

مع كل المساوئ التي يمثلها قتل أكثر من مائة وخمسين ألف من المسلمين بيد السياسيين المسلمين وهي سمه اتصف بها الحكم الأموي، والموضوع الذي سنتوسع بالحديث عنه لاحقا؛ هناك سيئة أخرى وهي الانتقائية في القتل؛ فالقتل لم يكن على نسق واحد، بل تحكمت به ميول الحجاج بعيدا عن العدالة والإنصاف، ومن أساليب القتل تكاد تعرف جريرة المقتولين، ومقدار حقد الحجاج عليهم، وأسباب هذا الحقد. ولا تتضح صورة التباين إلا إذا ما عرفنا مَنْ مِنَ القراء اشترك بالثورة ومن تخلف عنها وكيف تعامل الحجاج مع كل واحد منهم؟.

لقد صب الحجاج جام غضبه على فئة واحدة من القراء نالت من بطشه ورعونته أكثر كثيرا من غيرها، فباستثناء قلة قليلة جدا من الذين لم يشتركوا مع ابن الأشعث، وهؤلاء بالتأكيد نالوا الحظوة والشرف عند الأمويين، قتل الحجاج أغلب القراء، ولكنه تشدد كثيرا مع بعضهم، وتساهل مع بعض آخر بانتقائية لها أسبابها، ولا يوجد مثلها إلا في محاكم التفتيش.

وقد يبدو من الغرابة الحديث عن وجود هذا النوع من المحاكم في دولة الإسلام الأولى في قرنها الأول، ولكنها حقيقة أفرزتها الأحداث السياسية، وسياسة الأحداث في مجتمع عاش أعلى مراحل الازدواجية بين الدين والسياسة، حتى بدا الدين وتعاليمه وكأنه مجرد سياسة وبدت السياسة ومناهجها وكأنها دين. والحديث عن محاكم تفتيش في الإسلام دافعه أن السلطة الدينية الإسلامية أي (أمراء المؤمنين) هم الذين أسسوها مثلما أسست السلطة الكنسية تلك محاكم التفتيش في المجتمع المسيحي.

محاكم التفتيش: سلطة قضائية كنسيه استثنائية ابتكرها البابا "كريكوري التاسع"([1])، إبان القرن الثالث عشر لقمع ما كان يعتقده جرائم بدع، وردة، وأعمال سحر في العالم المسيحي، واستمرت حتى القرن السادس عشر([2]).

---

[1] تاريخ الموريسكيين السياسي والاجتماعي والثقافي، دراسة في كتاب الحضارة العربية في الأندلس التي أشرفت على إعدادها الدكتور سلمى الخضراء الجيمي، ليونارد باتريك هارفي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٤١٩-١٩٩٨.

[2] جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده، نبيل عبد الحي رضوان.

أما قبل هذا التاريخ فكانت محاكم التفتيش في الواقع معروفة ولكن بأشكال اقتضتها الظروف والعقائد والسياسات، فبعد سقوط غرناطة آخر قلاع المسلمين في إسبانيا سنة ٨٩٧ هجرية ١٤٩٢م قامت محاكم التفتيش بما أطلقت عليه اسم (تطهير) أسبانيا من آثار الإسلام والمسلمين، وإبادة تراثهم الذي ازدهر في هذه البلاد زهاء ثمانية قرون من الزمان، فحرقت كتبهم وأجبرتهم على اعتناق النصرانية، ثم صبت على (الموريسكيين) أي المسلمين المتنصرين أنواع المظالم والقهر والاستبداد، واستمر عمل محاكم التفتيش إلى أن أرسل نابليون حملته إلى اسبانيا، وأصدر مرسوماً سنة ١٨٠٨م بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الإسبانية([1]). ويرى الأستاذ أحمد صبحى منصور أن: "المقصود بمحاكم التفتيش هي محاكمة الفكر، خصوصا الفكر الديني، وغالبا ما يكون ذلك لأغراض سياسية، أي ارتبطت محاكم التفتيش للمفكرين بحقيقتين، الأولى: أنها محاكمات في الفكر الديني وليس في الدين نفسه،لأن الدين إيمان وعمل صالح، والحكم فيه لله تعالى يوم القيامة، وليس لأحد غيره. الثانية: أنها محاكمات لتصفية حسابات سياسية ولتحقيق أهداف سياسية"([2]). وقال عن محاكم التفتيش: "إنها تستلزم تيارات سياسية ومذاهب دينية، والتيار الديني الحاكم هو الذي يقوم بمحاكمة خصومه وتكفيره والتخلص منه باسم الدين. وهذه المعطيات استقرت في القرن الثاني الهجري خصوصاً في بداية العصر العباسي الذي شهد موجة من محاكم التفتيش تحت اسم حركات الزندقة([3]). لكن المتتبع لسير الأحداث وتدرجها يجد أن بداية تأسيس محاكم التفتيش الإسلامية يعود إلى تاريخ أقدم كثيرا من التاريخ الذي حدده، وكانت البوادر قد ظهرت مع ظهور سياسة جمر المعارضين في الحروب أيام خلافة عثمان بن عفان، ثم ما وقع لأبي ذر الغفاري وعبد الله بن مسعود وغيرهم. وربما أقدم من ذلك، وقصة مقتل الصحابي الأنصاري الكبير سعد بن

---

[1] نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، وينظر: الأندلسيون المواركة، عادل سعيد بشتاوي.

[2] بداية محاكم التفتيش في تاريخ المسلمين، أحمد صبحى منصور، الحوار المتمدن-العدد: ٣٢٢٣ - ٢٠١٠ / ١٢ / ٢٢ الرابط
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=239257

[3] بداية محاكم التفتيش في تاريخ المسلمين، أحمد صبحى منصور.

عبادة، وحتى هذا التاريخ يبدو متأخرا نسبة إلى ما تعرض له المسلمون الأوائل من عذاب على يد عرب قريش المشركين في الأيام الأولى للبعثة المشرفة؛ الذي يكاد يؤشر التاريخ الحقيقي لميلاد محاكم التفتيش.

بعد هذه التواريخ برز دور محاكم التفتيش أثناء محاكمة زياد بن أبيه للصحابي الكبير حجر بن عدي وجماعته، وأثناء الحكم بالإعدام الذي أصدره الخليفة الأموي معاوية عليهم. ثم جاءت مذبحة كربلاء ووقعة الحرة وحرق بيت الله كنتائج لقرارات محاكم التفتيش، وجاءت فعال الحجاج مع من ثار من القراء مع ابن الأشعث وقبل وبعد هذا التاريخ لتثبت الوجود الفعلي لمحاكم التفتيش الإسلامية، حيث ظهرت إلى العلن، وتم الاعتراف بها وبشرعية أحكامها من قبل الأوزاعي وجماعته من الجبرية.

أمام محاكم التفتيش هذه تمت محاكمة القراء وكل من اشترك بالثورة مع ابن الأشعث، فمن ثبت أنه جبري مقتنع بأن الله هو الذي سلط الأمويين ومعهم الحجاج على رقاب المسلمين تمت تبرئته، ومن أثبت كرهه لعلي بن أبي طالب تمت تبرئته، ومن ثبت أنه ناصبي ومعاد للتشيع وللإسلام المعتدل، وجدوا له عذرا وتمت تبرئته، ومن كان عثماني الهوى لا يمتنع عن سب علي بن أبي طالب تمت تبرئته، ومن كان الدين لعقا على لسانه تمت تبرئته، ومن كان يهزأ بالدين ويحرف أقواله تمت تبرئته. أما غير هؤلاء فأخضعوا لعقوبات مختلفة تتناسب مع درجة ولائهم لعقيدتهم. فكيف تعاملت محاكم التفتيش الإسلامية مع الأسرى بشكل عام ومع الشيعة بشكل خاص ومع سعيد بن جبير بشكل أخص؟ وإذا ما كان لمحاكم التفتيش من فضيلة فهي أنها أسهمت في إذكاء العداء للأمويين في نفوس المسلمين، مما تسبب في انهيار دولتهم.

أهواء التعامل مع الأسرى

هناك في بطون كتب التاريخ مئات القصص الغريبة عن تعامل الحجاج مع أسرى ثورة ابن الأشعث حيث كان الحجاج يحاكم الأسرى حسب الهوى وليس وفقا لشريعة الإسلام أو لأي قانون إنساني آخر، ولذا قتل بدم بارد أكثر من مائة وثلاثين ألف أسير من جماعة ابن

الأشعث الذي وقعوا بيديه، ولكن بعض الناس عرفوا كيف يتنازلون للحجاج ويرضون طموحه فيتخلصون من شره، وبعضهم داهنه وجامله، وأبى المؤمنون منهم إلا الثبات.

لقد تعامل الحجاج مع الأسرى وفق الضغائن الراسخة في قلبه، والطمع الذي يملأ جوارحه، والولاء الكامل للأمويين، والحقد الدفين على التشيع وأهله. فأما عن ضغينته فيروى في هذا الباب أنه قتل محمد بن سعد بن أبي وقاص لمجرد أنه لم يبايع يزيدا، وقال له: "يا ظل الشيطان، أعظم الناس تيها وكبرا، تأبى بيعة يزيد بن معاوية وتتشبه بالحسين وبابن عمر، ثم صرت مؤذنا، وجعل يضرب رأسه بعود في يده حتى أدماه، ثم أمر به فقتل" ([1]).

وأما عن طمعه، فيروى أنه قال لفيروز بن حصين أحد الذين اشتركوا مع ابن الأشعث: "أبا عثمان ما أخرجك مع هؤلاء؟ فوالله ما لحمك من لحومهم ولا دمك من دمائهم؟ قال: فتنة عمت الناس، قال: أكتب إليَّ أموالك؟ قال: اكتب يا غلام ألف ألف وألفي ألف، فذكر مالا كثيرا، فقال الحجاج: أين هذه الأموال؟ قال: عندي، قال: فأدها، قال: وأنا آمن على دمي؟ قال: والله لتؤدينها ثم لأقتلنك. قال: والله لا يجمع بين دمي ومالي"([2]).

وأما عن الولاء الكامل للأمويين وتكفير من يختلف معهم، فيروى في هذا الباب أنه دعا عمر بن موسى وقام بسبه والتطاول عليه، فقال عمر: "أصلح الله الأمير كانت فتنة شملت البر والفاجر فدخلنا فيها فقد أمكنك الله منا، فإن عفوت فبجمالك وبفضلك، وإن عاقبت ظلمت مذنبين. فقال الحجاج: أما إنها شملت البر فكذبت ولكنها شملت الفاجر، وعوفي منها الأبرار، وأما اعترافك فعسى ان ينفعك، ورجا له الناس السلامة، ثم أمر به فقتل"([3]).

ويوما كان الحجاج يستعرض قوما من أصحاب ابن الأشعث، فقتل منهم جماعة، ثم جيء برجل فأمر بضرب عنقه، فقال: أيها الأمير، إن لي عليك يدا، قال: وما هي؟ قال: ذكر عبد الرحمن ـ يعني ابن الأشعث ـ يوماً أمك بسوء فنهيته. قال: ومن يعلم ذلك؟ قال: هذا الأسير الآخر. فسأله الحجاج فصدقه. فقال له الحجاج: فلم لم تفعل كما فعل؟ قال: وينفعني

---

[1] الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج٤/ص١٥١

[2] المصدر نفسه، ج٤/ص ١٥٠ـ١٥١

[3] المصدر نفسه، ج٤/ص ١٥١

الصدق عند؟ قال: نعم. قال: منعني البغض لك ولقومك، قال: خلوا عن هذا لفعله، وعن هذا لصدقه"([1]).

وذكر المدائني، يرفعه إلى رجل كان من أسرى الحجاج من أصحاب ابن الأشعث، قال: جعل الحجاج يقتل عامّة يومه الأسرى، وبقيت جماعة قليلة وأتى برجل ليضرب عنقه فقال: يا حجاج! والله لئن كنّا أسأنا الفعل فما أحسنت العقوبة ، ولئن كنا لزمنا الجناية فما كرمت في العفو. فقال: رده يا حرسيّ، كيف قلت؟؟. فأعاده. فقال الحجاج: صدقت والله، أفٍّ لهذه الجيف والجثث، أما كان فيها أحد ينبّهنا كما نبهتنا؟! أطلقوا عنه.

لكننا مع كل ذلك التشدد البغيض الذي نراه نجد الحجاج؛ وقد جيء له بخارجي، فقال له: أخارجي أنت؟ قال: لا والذي أنت بين يديه غدا أذل مني بين يديك اليوم؛ ما أنا بخارجي.! فقال الحجاج: إني يومئذ لذليل، وأطلقه([2])، هكذا بكل بساطة.! وقال ابن عساكر: "وأمر الحجاج بإحضار رجل من السجن، فلما حضر أمر بضرب عنقه، فقال: أيها الأمير أخرني إلى غد؟ فقال: ويحك وأي نفع لك في تأخير يوم؟ ثم أمر برده إلى السجن، فلما مشى قال:

عسى فرج يأتي به الله انه له كل يوم في خلقته أمر

فقال الحجاج: والله ما اخذ إلا من القرآن {كل يوم هو في شأن}، فأمر بإطلاقه([3]).

وإذا عدنا إلى تلك القصص نلحظ حقد وانتقام الحجاج الذي كان عاما شاملا؛ ينصب على كل من يعترض عليه وعلى أولياء نعمته الأمويين ولكنه تحديدا ينصب بشكل همجي فيه الكثير من الوحشية على أشخاص بعينهم دون سواهم. ونجده يميز حتى بين هؤلاء فيشتد على أكثرهم علما وأقربهم إلى فكر أهل البيت، وينتقم منه شديد الانتقام.

وبالرغم من كون الحجاج قتل مئات الآلاف من المسلمين صبرا، حتى قيل انه قتل أكثر من مائة وعشرين أو ثلاثين ألف أسير كما في رواية ابن كثير، عن هشام بن حسان، قال: "أحصوا ما قتل الحجاج صبرا، فبلغ مائة ألف وعشرين ألفا"([4]) وبالرغم من أن سجونه

---

[1] المصدر نفسه، ج٤/ص ١٥٤

[2] تهذيب تاريخ دمشق، ابن عساكر، ج٤/ص٦٤

[3] المصدر نفسه، ج٤/ص٦٥

[4] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥،ج٩/ص ١٦٣

كانت مليئة بآلاف الأبرياء، قال الأصمعي: عن أبي صم عن عباد بن كثير عن قحدم، قال: أطلق سليمان بن عبد الملك في غداة واحدة أحدا وثمانين ألف أسير كانوا في سجن الحجاج. وقيل: إنه لبث في سجنه ثمانون ألفا، منهم ثلاثون ألف امرأة، وعرضت السجون بعد الحجاج، فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفا، لم يجب على أحد منهم قطع ولا صلب"([1]).

أقول: بالرغم من هذا وذاك ومع هذه الشدة المفرطة نجد هناك تمايزا، يترجم بعضا يسيرا منه قول ابن الأثير: إن خالد بن عبد الله القسري ألقى القبض على ثلاثة ممن اشتركوا في ثورة ابن الأشعث؛ هم طلق بن حبيب ومجاهد وسعيد بن جبير، "فمات طلق في الطريق وحَبَسَ الحجاج مجاهد، وكان من أمر سعيد ما كان"([2]).

بالمناسبة هناك من الشيوخ السلفيين المدلسين من يرى أن طلق بن حبيب العنزي لم يشترك بالثورة بل كان يخنع الناس عن الاشتراك فيها، مستندين إلى رواية، عن عاصم الأحول، عن بكر المزني، قال: "لما كانت فتنة ابن الأشعث قال طلق بن حبيب اتقوها بالتقوى، فقيل له صف لنا التقوى فقال: العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله وترك معاصي الله على نور من الله مخافة عذاب الله". وهذا تدليس كبير يراد من ورائه الدفاع عن الحجاج والحكام الأمويين لأن الرواية أوردها ابن كثير في البداية مسبوقة بجملة: "وقد كان ممن خرج مع ابن الأشعث، وكان يقول.." ثم أورد الرواية([3])، وقالوا كذلك: إن الحجاج قتله مع سعيد بن جبير، ولم يصح. ثم قالوا: مات طلق قبل المائة، وقد ذكره البخاري في الأوسط فيمن مات بين التسعين والمائة وأخرج عن أبي معدان، قال: "سمعت حبيب بن أبي ثابت، قال: كنت مع طلق بن حبيب وهو مكبل بالحديد حين جيء به إلى الحجاج مع سعيد بن جبير". وقال مالك: "قتله الحجاج وجماعة من القراء منهم سعيد بن جبير"([4])، ويقال إنه سجن ثم أخرج من سجن الحجاج، وتوفي بعد ذلك بواسط.

---

[1] المصدر نفسه، م٥،ج٩/ص ١٦٣

[2] المصدر نفسه، م٥،ج٩/ص ١٢٣، سيرة طلق.

[3] المصدر نفسه.

[4] المصدر نفسه.

المهم أن القتل بالرغم من فشوه في الناس عامة ولم ينج منه إلا من أيد الحجاج والأمويين، إلا أنه أُختص بشكله الأكثر سوء وإيلاما وعذابا بالدرجة الأولى بالشيعة أو المتعاطفين معهم، ثم بالمسلمين المعترضين على سياسة الأمويين ثانيا، ثم بالمسلمين الرافضين للنهج الأموي ثالثا، ثم بالمعترضين على ظلم الحجاج رابعا، وأخيرا الدهماء من عامة الناس من الموالي وأتباع القبائل الضعيفة وأهل الأمصار؛ الذين يرهب قتلهم من يفكر بالخروج على السلطان. أما غير هؤلاء فقد تم العفو عنهم أو سجنهم. وحتى مع هذا التمايز كان هناك تمايزا في نوع القتل أيضا فمن كان أشد ولاءً للتشيع تعرض لأبشع أنواع التعذيب.

الشيعة ومحاكم التفتيش

عقليا ومنطقيا لا يبدو اشتراك سعيد مع ابن الأشعث سببا مقنعا للقتل، فكثيرون غيره ـ كما تقدم ذكره ـ عفا عنهم الحجاج، إذا لابد وان هناك أسبابا أخرى دفعت الحجاج إلى قتله والتخلص منه، فالحجاج ما كان ليقتل رجلا بوزن سعيد دونما عذر مقنع، نعم شرع الحجاج في تتبع أصحاب ابن الأشعث، فقتلهم بالجملة، ولكن يستحيل أن لا يقف عند أشخاص بعينهم ويعيد حساباته معهم بسبب تأثيرهم في المجتمع.

ومن المعروف والمتفق عليه أن الحجاج تعامل مع القراء بانتقائية واضحة فعفا عن بعض وحبس بعضا منهم وفر آخرون إلى أن ماتوا، ومن التوضيح أدناه يتبين تعامل الحجاج وكيف انه اختار الشيعة منهم، فقتل من امسكه وطارد من فر منهم، أما غيرهم فقتل بعضهم وعفا عن بعض وسجن بعضا. ومنه يتضح أن الحجاج بالرغم من ظلمه الكبير لم يقتل لمجرد حب القتل والتمتع برؤية الدم المسفوح فحسب، وإنما كان يقتل ضمن أجندة سياسية هدفها تحجيم المد الشيعي، وإفراغ التشيع من رموزه الفكرية.

لقد كان مع ابن الأشعث ـ كما أسلفنا ـ الكثير من العلماء وكبار التابعين بمختلف عقائدهم، منهم الصحابي أبو لطفيل عامر بن واثلة الكناني، والصحابي كميل بن زياد النخعي، والحسن المثنى بن الإمام الحسن بن علي، والحسن البصري وطلحة بن مصرف، وعطاء

بن السائب، ومالك بن دينار، والفقيه عبد الرحمن ابن أبي ليلى، وعامر بن شرحبيل الشعبي، ولابد أن أحد الأسباب التي دفعت سعيدا للاشتراك بالثورة، وهي كثيرة، كان السبب نفسه الذي دفع هؤلاء للاشتراك فيها. وهؤلاء جميعا لم يكونوا من أنصار ابن الأشعث، ولكنهم كانوا ناقمين على الحجاج وجرائمه والأمويين وأعمالهم، وعملوا جميعهم وفق قاعدة (عدو عدوي صديقي) فأعانوا ابن الأشعث عداء للحجاج وخليفته ونهجهم.

فضلا عن ذلك نرى أن بعض القراء قتلوا في المعارك، فلم يوجه اللوم إلى الحجاج بقتلهم، وبعضهم ألقى خالد القسري القبض عليهم في مكة وأرسلهم إلى الحجاج، فأرسل، منهم: سعيد بن جبير: وسنورد قصته كاملة. عطاء بن أبي رباح: لكن الحجاج عفا عنه بحجة انه مكي. عمرو بن دينار: لكن الحجاج عفا عنه بحجة انه مكي. طلق بن حبيب: قيل: مات في الطريق، وقيل: إن الحجاج سجنه ثم عفا عنه، وقد أوردنا قصته. مجاهد: اكتفى الحجاج بحبسه، فلما مات الحجاج أُطلق سراحه وأستعاد مكانته. ولم تورد كتب التاريخ قصصا عن الأسرى الشيعة، فالظاهر أنه قتلهم جميعهم وأخفى ذكرهم، وكانت هذه من أكبر المجازر التاريخية. والملفت للنظر أن مطاردة الحجاج للذين اشتركوا بالثورة لم تنته بإبادة الأسرى وإنما استمرت فاعلة إلى آخر أيام حياته. وخلال المقتلة العظمى وأيام المطاردة، فلتت بعض قصص محاكمة بعض الوجوه من الشيعة وباقي المسلمين، وهي تفضح الانتقائية الغريبة التي سار عليها الحجاج.

الفصل الخامس

غرابة التعاطي

تعامل الحجاج مع الشيعة عامة

نلحظ مما تقدم أن المؤرخين أنفسهم هونوا من تعامل الحجاج مع بعض الأسرى أو مع من ألقى القبض عليه فيما بعد، وأهملوا أحيانا ذكر الأسباب الداعية لذلك، أو أنهم يذكرون سببا مختلقا؛ غير حقيقي بالمرة، فمثلا، قالوا عن كميل رحمه الله: "فلما قدم الحجاج بن يوسف الكوفة دعا به فقتله"([1])، والسبب في ذلك: "إنما نقم عليه الحجاج لأنه طلب من عثمان بن عفان القصاص من لطمة لطمها إياه" أما عن اشتراكه بالثورة ضد الأمويين، فلم يتحدثوا عنه بتاتا.

أما الحسن المثنى بن الإمام الحسن بن علي أحد قادة الثورة؛ الذي بقي متواريا إلى سنة ٩٧ فقد قام الأمويون بسمه وقتله بعد أن عرفوا مكانه. وأما عبد الرحمن ابن أبي ليلى المتعاطف مع الشيعة، فقد ولاه الحجاج القضاء ثم عزله، ثم ضربه ليسب أبا تراب. وقالوا عن الحسن البصري إن ابن الأشعث أخرجه معه عنوة، ولذا لم يحاسبه الحجاج. وعفا الحجاج عن مالك بن أنس لأنه كتب إلى عبد الملك يستعطفه، فكتب الخليفة إلى الحجاج بذلك. وأما طلحة بن مصرف وهو عثماني الهوى ـ كما وصفه المؤرخون ـ فقد خرج مع من خرج من قراء أهل الكوفة إلى الجماجم، وتوفي بعد ذلك سنة اثنتي عشرة ومائة"، أي أن توجهه العقدي شفع له. نعم خرج ولكنه لم يحاسب لأنه كان يكره الشيعة لدرجة انه يرفض الحديث عنهم وهو على وضوء، لكيلا يبطل وضوءه. أما عطاء بن السائب ومالك بن دينار فلم تمس شعرة واحدة منهما، وعمرا طويلا حتى ماتا سنة مائة وثلاثين. مسلم بن يسار اكتفوا بتنزيل درجته بعد أن كان مقدما مكرما. وأما الشعبي فلم يصبه أذى وبقي مكرما معززا لدى الحجاج والدولة الأموية. وعفا عن عطاء وعمرو بن دينار لأنهما من أهل مكة([2]). لكننا نجد بالمقابل أن التعامل مع المتشيعين على خلاف ذلك، وحتى مع هذا التغير، نجده يتغير كذلك من شخص إلى آخر حسب منزلة الشخص العلمية والإيمانية، حيث كان الحجاج دائم البحث عن المتشيعين من القراء الثوار، وكان يتفنن في التعامل

---

[1] دول الإسلام، الذهبي، ص١٧٩

[2] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥، ج٩/ص١١٨

معهم بسوء وقسوة، ومن قصصه ما أورده ابن سعد في ترجمة التابعي عطية بن سعد بن جنادة العوفي. عطية هذا كان شيعيا هو وأبوه، عن سعد بن محمد بن الحسن بن عطية، قال: جاء سعد بن جنادة إلى علي بن أبي طالب وهو بالكوفة، فقال: يا أمير المؤمنين إنه ولد لي غلام فسمه. قال: هذا عطية الله. فسمي عطية، وكانت أمه أم ولد رومية(١)، خرج عطية فيمن خرج على الحجاج، فلما أنهزم جيش ابن الأشعث، هرب إلى فارس. فكتب الحجاج إلى محمد بن القاسم الثقفي أن أدع عطية، فإن لعن علي بن أبي طالب وإلا فأضربه أربعمائة سوط، وأحلق رأسه ولحيته. فدعاه فأقرأه كتاب الحجاج، فأبى عطية ان يفعل، فضربه أربعمائة سوط وحلق رأسه ولحيته ... ولما ولي عمر بن هبيرة العراق كتب إليه عطية يسأله الإذن له في القدوم، فأذن له، فقدم الكوفة فلم يزل بها إلى أن توفي سنة إحدى وعشرة ومائة"(٢).

أما سعيد بن جبير فقد كانت هناك طريقة خاصة ومميزة للتعامل معه، أسهب المؤرخون في الحديث عنها، حتى أن بعضهم بالغ وذكر أساطير أو هكذا بدت لمن يكره سعيدا ولا يريد له أن يرتفع في أعين الناس. فماذا عن سعيد؟ وكيف تعامل الحجاج معه؟ ولماذا عامله بهذا الأسلوب؟ وعلى أي شيء تدل هذه المعاملة القاسية؟ وما الرسالة التي أراد الحجاج أن يوصلها إلى المتشعبين من خلال ذلك التعامل الفج؟

فعلا تشعر بغرابة حالة محكمة التفتيش التي عقدت لمحاكمة سعيد دون باقي الثوار، حتى أنها شغلت حيزا كبيرا في كتب التاريخ وقصصه. أما القول المشهور بين الناس الذي لخصه الطبري بقوله: "وكان سبب قتل الحجاج إياه خروجه عليه مع من خرج عليه مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث"(٣) فهو مجرد قول لا ينبئ بحقيقة ما حدث، وفيه الكثير من الإعماء والتمويه والتدليس والكذب، فوفق هذا القول المبتسر من المفروض أن يتساوى ما تعرض له سعيد مع ما تعرض له مئات القراء وآلاف الثوار الذين قتلهم الحجاج أو أطلق سراحهم أو حبسهم في سجونه؛ دون أي ميزة تميزه. ولكن شيئا من هذا

---

١ الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص ٣٠٤

٢ ينظر: المصدر نفسه.

٣ تاريخ الطبري، الطبري، ج٦/ص ٣٦٦

لم يحدث حيث عُومل سعيد معاملة سيئة خاصة فيها الكثير من القسوة وروح الانتقام مع تشكيك واضح بعقيدته وفكره وعلمه، وصل إلى درجة تكفيره وإخراجه من الملة وحشره مع أهل الكتاب.

وأسأل: هل الحقد الذي خلفته جرائم وأعمال الحجاج في العراق هو الذي دفع سعيدا إلى الانضمام إلى جيش ابن الأشعث؟ أم أن حبه وولاؤه لأهل البيت هو الذي دفعه إلى ذلك؟ أم أن مشاركة القراء من أهل الكوفة والبصرة وأهل الثغور والمسالح في جيش ابن الأشعث بمجموعهم هو الذي شجعه للانضمام معهم؟ ولمعرفة كل ذلك يجب أن نعود إلى بدايات القصة!.

بدأت ملامح الاهتمام الغريب بقضية سعيد بن جبير من الرسالة التي أرسلها عبد الملك بن مروان إلى أهل مكة مع خالد بن عبد الله القسري، حينما عينه واليا عليها بدلا من مسلمة بن عبد الملك، والتي جاء فيها: "من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى أهل مكة، أما بعد: فإني وليت عليكم خالد بن عبد الله القسري، فأسمعوا له وأطيعوا، ولا يجعلن امرؤ على نفسه سبيلا، فإنما هو القتل لا غير، وقد برئت الذمة من رجل آوى سعيد بن جبير". ثم التفت إليهم خالد، وقال: والذي نحلف به، ونحج إليه، لا أجده في دار احد إلا قتلته وهدمت داره ودار كل من جاوره واستبحت حرمته([1]). فهذا الاهتمام الغريب لم يحض به أي شخص آخر مهما علت منزلته إلا سعيد. فرسالة الخليفة الأموي وتهديد خالد القسري كلاهما ينبئان بخطب جسيم لا حدود له، وغير مألوف بالمرة، ولا يمكن أن يصدر مثلهما إلا بحق أخطر وأعتى مجرم في العالم، أو اكبر إرهابي في الكون، أو من يهدد أمن البشرية، ويتوعد الحكم بالسقوط، فغير هذه الجرائم لا تستوجب مثل هذه الحدية.

ثم بانت ملامح الاهتمام أكثر في تعامل الحجاج مع سعيد بعد أن ألقي القبض عليه، وكان سعيد بن جبير قد جيء به مع من جيء بهم من أسرى أمام الحجاج، فلماذا يعفُ الحجاج عن الكثير منهم، ويذبح سعيدا وحده؟ سؤال مهم جدا، الظاهر أن جوابه سبب حرجا كبيرا للمؤرخين القدماء فبحثوا كعادتهم عن تأويل وتعليل ودس وتشويه عسى أن تضيع الحقيقة.

[1] الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، ج٢/ص٦٠

ولذا تراهم في سبيل تبرير سبب قتله بذلك الشكل الوحشي الغريب من دون القراء والعلماء الآخرين، جاءوا بأقوال غريبة وإدعاءات أكثر غرابة، منها:

أولا: أن سعيدا كان في الأصل موظفا حكوميا ضمن الكادر الإداري لجيش الخلافة الذي يقوده ابن الأشعث؛ وتحرك مع تحرك الجيش المتجه إلى حرب رتبيل، حيث قام الحجاج بتعينه مسئولا عن مالية وأعطيات جند ابن الأشعث، أي انه لم ينضم إلى الحركة كثائر مثل باقي القراء الثوار بعد أن تمرد ابن الأشعث، وإنما كمتمرد، أو منشق، وقتل لهذا السبب دون غيره. حيث قال الطبري وابن كثير: "إن الحجاج كان قد جعله على نفقات الجند حين بعثه مع ابن الأشعث، فلما خلعه ابن الأشعث خلعه سعيد"([1]).
بينما يرى آخرون أن الحجاج أرسل سعيدا إلى ابن الأشعث يحمل كتابا فيه رد على رسالة كان قد بعث بها ابن الأشعث إلى الحجاج، يوبخه ويبين له مساوئه. فلما وصل سعيد؛ جزع منه ابن الأشعث لأنه فقيه أهل العراق، فلم يظهره أمام الناس، وأخفى الكتاب عن جنده، وصار يختلي بسعيد، ويحثه على أن يخلع طاعة الحجاج ليقوي عضده، وكان سعيد لا يرى الخروج على الحجاج، ولكن ابن الأشعث ألحَّ عليه، وذكر له مساوئ نسبها إلى الحجاج، وكأن سعيدا لم يكن يعرف مساوئ الحجاج، فلما خلع ابن الأشعث طاعة الحجاج؛ كان سعيد من الذين خرجوا معه، وخلع طاعة الحجاج.

وهناك من قال: إن ابن الأشعث هو الذي أرسل سعيدا رسولا من قبله إلى الحجاج وقام الحجاج برد جواب الرسالة بيد سعيد، ولم يعتب عليه، ولم يقل له: فعلت لك كذا وأكرمتك، وما شابهها من الأقوال، إذ كان الأولى بالحجاج أن يستخدم تلك الكلمات في هذه الساعة بالذات، لكي يميل قلب سعيد، ويشعره بالذنب، ومن ثم يرسله إلى الجيش ليميل قلوبهم.! والظاهر أن هناك من انتبه إلى هذه المفارقة المضحكة، فقال: في إحدى المعارك أسر

[1] البداية والنهاية، ابن كثير، المجلد ٥،ج٩/ص١١٧، وتاريخ الطبري، الطبري، ج٦/ص ٣٦٦، والكامل في التاريخ، ابن الأثير،ج٤/ص٢٣٠.

سعيد، فلما أُتي به إلى الحجاج، عاتبه كما يعتب الوالد على ولده، فاسترضاه، فرضي عنه، وعفا، ورده إلى ابن الأشعث رسولا، ولكنه لم يرجع، فاستوجب القتل. ولو كان سعيد خائنا للعهد وتاركا للتكليف الذي كلفه به الحجاج ومتنصلا عن مهمته الوظيفية؛ ما كان ليعفو عنه الحجاج بهذه السهولة؛ وهو المعروف بالغلظة والشدة.

فضلا عن ذلك سبق وأن ذكرنا أن الحجاج ـ كما قال المؤرخون ـ أرسل عشرين واحدا من القراء مع ابن الأشعث، وكلهم انضموا إلى ابن الأشعث، وحاربوا الحجاج، فلماذا لم يعاملهم الحجاج مثل ما عامل به سعيدا، بعد أن ألقى القبض على بعضهم؟ ولماذا لم تتحدث الكتب التاريخية عن مصيرهم بشكل مفصل كما تحدثت عن معاملة سعيد؟ ألا يشتركون بجرم واحد مع سعيد؟ فلماذا التمييز والانتقائية؟

والملاحظ أن الخلط واللغط كثر في هذا الجانب ربما بسبب كلمة يدعون أن الحجاج قالها لسعيد في المحكمة، جاءت في رواية، عن وهب بن جرير بن حازم، عن أبيه انه سمع الفضل بن سويد يحدث، قال: "بعثني الحجاج في حاجة، فقيل: قد جيء بسعيد بن جبير... فقال له الحجاج: يا سعيد ألم أستعملك؟ ألم أشركك في أمانتي؟ قال: بلى"([1]). حيث فسرت كلمة (ألم أستعملك) على أن الحجاج استعمله على أعطيات الجند. بينما سكت أبو اليقظان عن كلمة (الاستعمال) ولم يتحدث عن المهمة الموكلة إلى سعيد عندما نقل هذا الحوار، فقال: "فأدخله على الحجاج إسماعيل بن أوسط، فقال له: ألم أقدم العراق، فأكرمتك؟"([2])، والإكرام لا يعني التوظيف في مهمة مع العسكر. بل إن خواتيم هذا الأثر تثبت أن سعيدا كان قد بايع ابن الأشعث والتزم ببيعته، مثلما يتبين من حواره مع الحجاج، حيث قال الحجاج: فما أخرجك عليّ؟ قال: "كانت لابن الأشعث بيعة في عنقي" والرواية عن مولى الحجاج، قال: "حضرت سعيدا حين أتي به الحجاج بواسط، فجعل الحجاج يقول: ألم أفعل بك؟ ألم أفعل بك؟ فيقول: بلى. قال: فما حملك على ما صنعت من خروجك علينا؟ قال:

[1] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص ٢٦٥، والبداية والنهاية، ابن كثير، م ٥،ج٩/ص١١٨، وتاريخ والطبري، الطبري، ج٦/ص ٣٦٨

[2] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص ٢٦٥.

بيعة كانت علي ـ يعني لابن الأشعث ـ فغضب الحجاج وصفق بيديه، وقال: فبيعة أمير المؤمنين كانت أسبق وأولى، وأمر به فضربت عنقه"([1]).

أنوه إلى أن للبيعة قدسية كان العلماء قبل غيرهم يعرفونها ويلتزمون بها، ولذا كان أئمة الجور يتعبون أنفسهم للحصول على بيعة المشهورين؛ وأمام الناس علنا، لأنهم يعرفون أن المشهورين لا ينكثون بيعتهم، وكلنا نعرف محاولات معاوية في تحصيل بيعة الحسين (عليه السلام) لولده يزيد، وهي البيعة التي عمل الحسين المستحيل لكي يتخلص منها. فضلا عن ذلك نعرف جميعا أن سعيد كان من أولئك القلة الذين يتمسكون بقدسية البيعة، لأنه يعرف أحكامها، ولذا من غير المعقول أن ينكثها ليبايع شخصا غير موثوق مثل ابن الأشعث، حتى ولو كانت بيعته للخليفة الأموي صورية، وهي لم تكن صورية، وإنما أخذت منه بالقوة مرتين واحدة في مكة والثانية في الكوفة، كما مر عليكم.

ثانيا: أن سعيدا لم يكن ضمن الجيش من أصله، ولم يكن ينوي الاشتراك بالثورة أساسا، ولكن القراء الذين انضموا إلى الثورة هم الذين أجبروه على الالتحاق، كما في قولهم: "ثم لم يزالوا به حتى فتنوه، وسار معهم"، بمعنى أنه كان جالسا في موضعه، ولما ألحوا عليه سار معهم والتحق بهم، بالرغم من علاقته الجيدة بالحجاج، فغضب عليه, وقتله وهذا الرأي يتعارض مع إدعائهم أن الحجاج أرسل سعيدا مع جيش ابن الأشعث، إذ لو كان سعيد مع الجيش أصلا ، فلما احتاجوا إلى قول: "حتى فتنوه، وسار معه؟ فكيف يسير إليهم وهو معهم أصلا؟.

ثالثا: أن علاقة الحجاج بسعيد كان علاقة قائمة على الود والاحترام؛ ولهذا السبب صرف الحجاج النظر عن طلب سعيد ومطاردته، فلما وصله سعيد مكبلا بالقيود بعد أن ألقى القسري القبض عليه، وأرسله إليه، أسف وتذمر، وقال: "لعن الله ابن النصرانية (يعني

[1] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص ٢٩٢ .

خالد القسري)، أما كنتُ أعرف مكانه؟! بلى والله! والبيت الذي هو فيه بمكة"([1])، ولكنه بالرغم من ذلك الحب قتله ليجعله عبرة لغيره. علما ان الحجاج لم يصرف النظر عن متابعة الفارين وبقي إلى آخر أيام حياته يطاردهم.

وتبدو كل هذه الأسباب غير مقنعة ولا تضاهي السبب الحقيقي الذي أغفله المؤرخون في نقولهم، وعتمت عليه الروايات، وهو تشيع سعيد، علما كانت هناك مؤشرات كثيرة على تشيع سعيد، فسعيد تتلمذ على يد ثلاثة من كبار أئمة أهل البيت، فحدث بما تعلمه منهم، ونشر ما أرادت السلطة أن تطويه في عالم النسيان، تحدث عن جواز الجمع بين الصلاتين، وعن مشروعية زواج المتعة، وعن الأحاديث المهدوية الصحيحة، فضلا عن مروياته في الأخبار التي نقلها عنه الطبري في تاريخه وابن خليفة الخياط عند ذكره معركة الجمل، ومحب الدين الطبري وغيرهم، تحدث سعيد عن فضائل أهل البيت تفسيرا وحديثا، فأغضب الحكام والولاة، فلم يجدوا أمامهم سوى الذبح حلا، وكان تمرد ابن الأشعث القشة التي قصمت ظهر البعير.

إن الحوارية التي دارت بين سعيد والحجاج تثبت كل ما تقدم، وتثبت كمية الحقد الذي كان الحجاج يضمره للتشيع ولكبار المتشيعين، وتثبت أن الحجاج كان ناقما على سعيد بشكل خاص لدرجة أنه حينما أُتي له بسعيد، كان يهم بالركوب وقد وضع إحدى رجليه في الغرز، فقال: والله لا اركب حتى تتبوأ مقعدك من النار؛ أضربوا عنقه، فضربوا عنقه، ثم قطعوا رجليه من أنصاف ساقيه ليستخلصوا القيود التي فيها، وهذا منتهى التوحش([2]).

فهل قتل سعيد تشيعه؟ ولماذا يتعرض سعيد من دونهم إلى المحاكمة العلنية والذبح؟ الأن الحجاج كان يرى في بقاءه فتنة اكبر من فتنة قتله، وذلك بسبب خطه العقدي، فاستعجل قتله بوحشية مفرطة؟ أم أن الحجاج كان يخشى خطر التشيع على دولة أسياده؟ وكان يقتل الشيعة المعروفين بهذا الشكل الدموي لكي يخيفهم.

---

[1] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥،ج٩/ص ١١٨.
[2] المصدر نفسه.

ولو فرضنا جدلا أن الحجاج عامل سعيدا كما عامل باقي أعداءه، هل كان سيجلب الانتباه إلى سبب هذه المعاملة؟ أم أنها ستضيع في زخم تلك المعاملات اللاإنسانية القاسية التي مارسها الحجاج؟ فهل يعني ذلك أنها كانت مقصودة، والغاية منها إيصال رسالة إلى الشيعة تحذرهم من مجرد التفكير بالتمرد؟ ولهذا عامله بشكل غريب يختلف عن معاملة الآخرين بكل صنوفهم.

إن المعاملة الخاصة جعلت المحكمة والحوار الذي دار خلالها محور حديث المؤرخين، حيث تناولها بعضهم بإيجاز شديد وأسهب البعض الآخر فأطال حد الملل. الرواة أنفسهم حاول بعضهم تلخيصها بعدة كلمات تمويهية كما في رواية عتبة بن الحجاج، قال: حضرت سعيدا حين أتي به الحجاج بواسط، فجعل الحجاج يقول: ألم أفعل بك؟ ألم أفعل بك؟ فيقول: بلى. قال: فما حملك على ما صنعت من خروجك علينا؟ قال: بيعة كانت علي، فغضب الحجاج وصفق بيديه، وقال: فبيعة أمير المؤمنين كانت أسبق وأولى. وأمر به فضربت عنقه"([1]). وبالرغم من غرابة هذه القصة إلا أن الذهبي وغيره أوردوها ولم يكذبوها. المهم هناك قبالتها رواية طويلة أخرى أوردها الذهبي، وقال عنها: "هذه رواية منكرة، صحيحة"([2])، وأوردها أبو نعيم في الحلية، تقول الرواية التي أوردها الذهبي: إن الحجاج لما ذكر له سعيد بن جبير، أرسل قائدا يسمى المتلمس بن أحوص في عشرين من أهل الشام، وحينما كانوا يطلبونه إذا هم براهب في صومعته، فسألوه عن سعيد، فدلهم عليه، فانطلقوا، فوجدوه يصلي، فقام معهم حتى انتهى إلى الدير، فطلب منهم الراهب الصعود إلى الصومعة خوفا من قدوم اللبوة والأسد، وكيف أن سعيدا رفض الصعود، وأعطاهم مواثيق أنه لن يصعد معهم، ولن يهرب، فبقي يصلي خارج الدير، فجاءت الأسود وربضت قربه، وحينما رأى الراهب ذلك أسلم صباحا على يد سعيد. وأخذه الجند، فلما قربوا من واسط وكان الوقت ليلا طلب منهم أن يمهلوه ليأخذ عدته للموت، فاطمأنوا

[1] سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص٢٩٢.
[2] المصدر نفسه، ج٥/ص٢٩٥

وأرسلوه، فعاد إليهم صباحا، فأدخلوه على الحجاج([1]). وهنا تنتقل الرواية لتسرد وقائع محكمة التفتيش الحجاجية بشكل مفصل يوحي لك أن هناك ألف دافع دفع الحجاج لاتخاذ هذا الموقف مع سعيد، كلها تدل على غضب الحجاج من تشيع سعيد وغضب وخوف الحجاج من التشيع عامة!

إن الحديث الذي دار بين سعيد والحجاج في هذا اللقاء يظهر بشكل لا لبس فيه المعتقد الحقيقي لسعيد، ومن خلاله تتأكد من تشيع سعيد وإلا ما الغاية من وراء أسئلة مثل: (فما قولك في علي، في الجنة هو أم في النار؟) و (فما قولك في الخلفاء؟) و(فأيهم أعجب إليك؟) فهذه الأسئلة يراد منها معرفة معتقد الشخص ولاسيما وأن المسلمين كانوا حينها منقسمين بين متشيع محب لعلي ومتوقف عند باقي الخلفاء وبين آخرين مؤيدين للخلفاء ومتوقفين عند علي، ومحبين للخلفاء عامة، وخوارج يرون كفر علي وكفر عثمان.

في بداية المحاكمة سأله الحجاج عن اسمه استصغارا لا جهلا، وإلا فهو يعرف سعيدا معرفة شخصية منذ أيام المدينة المنورة، أي قبل أن يصبح واليا على العراق، ثم إن الحوارات الأخرى التي أوردتها باقي الروايات تثبت جميعها أن هناك نوعا من العلاقة والقرب المكاني بين الحجاج وسعيد.

قال سعيد اسمي: سعيد بن جبير.

قال: أنت شقي بن كسير

قال: بل أمي كانت أعلم باسمي منك

قال: لأبدلنك بالدنيا نارا تلظى

قال: لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلها

قال: فما قولك في محمد؟

قال: نبي الرحمة وإمام الهدى

قال: فما قولك في علي، في الجنة هو أم في النار؟

قال: لو دخلتها فرأيت أهلها عرفت.

---

[1] حلية الاولياء، ابو نعيم، ج٤/ص٢٩١-٢٩٣.

قال: فما قولك في الخلفاء؟

قال: لست عليهم بوكيل

قال: فأيهم أعجب إليك؟

قال: أرضاهم لخالقي

قال: فأيهم أرضى للخالق؟

قال: علم ذلك عنده

قال: أبيت أن تصدقني

قال: إني لم أحب أن أكذبك

بعد هذه المرحلة نجد الحجاج ينتقل إلى مرحلة شراء الذمم بالمال والجواهر ليس لأنه كان يظن أنه قادر على شراء ذمة سعيد، وإنما لكي يؤكد للجالسين السبب الحقيقي وراء معاملة سعيد بتلك الطريقة المخزية، حيث تقول الرواية: ثم أمر الحجاج باللؤلؤ والياقوت والزبرجد فجمعه بين يدي سعيد، فقال سعيد: إن كنت جمعته لتفتدي به من فزع يوم القيامة فصالح وإلا، ففزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت.

وجرب الحجاج طريقة أخرى فدعا بالناي والعود، فلما َرب بالعود ونفخ بالناي بكى سعيد، فقال الحجاج: ما يبكيك؟ هو اللهو؟ قال: بل هو الحزن، أما النفخ فذكرني يوم النفخ بالصور وأما العود فشجرة قطعت من غير حق، وأما الأوتار فأمعاء شاة يبعث بها معك يوم القيامة.

ثبات سعيد بذلك الشكل الغريب وعدم خشيته من الموت أغضب الحجاج فقال: ويلك.

قال: الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار

فعرف الحجاج أنه هزم وان سعيدا لا يمكن أن يتزحزح عن موقفه العقائدي فتحول إلى أسلوب الترهيب كالعادة، فقال: اختر أي قتلة تريد أن أقتلك؟

قال: أختر لنفسك يا حجاج، فوالله ما تقتلني قتلة إلا قتلتك مثلها في الآخرة.

قال: فتريد أن أعفو عنك؟

قال: إن كان العفو؛ فمن الله، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر

قال: اذهبوا به، فاقتلوه. فلما خرج من الباب ضحك، فأُخبر الحجاج بذلك، فأمر برده فسأله: ما أضحكك؟

قال: عجبت من جرأتك على الله وحلمه عنك.

فأمر الحجاج بالنطع، فبسط، فقال: أقتلوه.

قال: وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض

قال: شدوا به لغير القبلة

قال: فأينما تولوا فثم وجه الله

قال: كبوه على وجهه

قال: منها خلقناكم وفيها نعيدكم

قال: اذبحوه

فتشهد، وقال: خذها مني حتى تلقاني يوم القيامة، ثم دعا، وقال: اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدي([1]).

أما رواية أبي نعيم في الحلية فتختلف في كثير من مبانيها عما أورده الذهبي، منها أن أبا نعيم ذكر أن الحجاج عد أسماء الخلفاء الراشدين وطلب رأي سعيد بكل منهم، ليس لجهل فيه، وإنما لأنه يعرف رأي سعيد مقدما وأراد أن يستخدمه لإدانة سعيد، لكن الرواة لم يلتفتوا إلى هذا المعنى وأوردوا على لسان سعيد أقوالا تخالف معتقده، وكان رأي سعيد موافقا لرأي الحجاج وفيه الكثير من التنازل والتوسل الذي لا يمكن أن يصدر عن سعيد، منه مثلا:

قال الحجاج: فما تقول في أبي بكر؟

قال: الصديق خليفة الله مضى حميدا وعاش سعيدا مضى على منهاج نبيه (ص) لم يغير ولم يبدل.

قال: فما تقول في عمر؟

[1] ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص٢٩٢- ٢٩٤ .

قال:الفاروق خيرة الله وخيرة رسوله مضى حميدا على منهاج صاحبه لم يغير ولم يبدل.

قال: فما تقول في عثمان؟

قال:المقتول ظلما المجهز جيش العسرة الحافر بئر رومة المشتري بيته في الجنة صهر رسول الله(ص) على ابنتيه زوجه النبي بوحي السماء.

قال: فما تقول في علي؟

قال: ابن عم رسول الله (ص) وأول من اسلم وزوج فاطمة وأبو الحسن والحسين

قال: فما تقول في معاوية؟

قال: شغلتني نفسي عن تصريف هذه الأمة وتمييز أعمالها([1]).

وأنا على يقين أن أجوبة سعيد لو كانت بهذا المعنى لكان الحجاج قد عفا عنه وأطلق سراحه، لا أن يقتله تلك القتلة الشنيعة القاسية. والظاهر أن أقوال سعيد الحقيقية في أجوبته على أسئلة الحجاج هو الذي دعاهم إلى وضع هذه الحوارية الزائفة.!

الغريب أنهم قبالة لطف الأجوبة تلك قلبوا صورة سعيد في جوابه على سؤال الحجاج عن نفسه، في تكملة الأسئلة أنه سأله عن نفسه، قال: فما تقول فيَّ؟

قال: أنت أعلم بنفسك

قال: بت بعلمك

قال: أعفني

قال: لا عفى الله عني إن أعفيتك.

قال: إني لأعلم أنك مخالف لكتاب الله تعالى، ترى من نفسك أمورا تريد بها الهيبة وهي تقحمك الهلكة، وسترد غدا فتعلم([2]).

ولكي يبعدوا الأنظار عن السبب الحقيقي، ادعوا أن هذا الجواب هو الذي أثار الحجاج فقال له: أما والله لأقتلنك قتلة لم أقتلها أحدا قبلك ولا أقتلها أحدا بعدك. فقال سعيد: إذا تفسد

[1] حلية الأولياء، أبو نعيم، ج٤/ص ٢٩٥.
[2] المصدر نفسه، ج٤/ص ٢٩٥.

علي دنياي وآخرتك([1]). ولكن ما جاء بعد هذه الحوارية من أفعال أوردوها بعفوية ولم ينتبهوا إلى قيمتها أوضح الصورة الحقيقية، وهي أن الحجاج كان يُكَفِّر الشيعة ويعمل على تخنيعهم وتركيعهم من خلال نشر فصول هذه المحاكمة، والتي أنكر فيها إسلام سعيد واتهمه بانه من أهل الكتاب!

فسعيد حينما أجلسوه ليذبحوه، قال: دعوني أصلي ركعتين فقال الحجاج: وجهوه إلى قبلة النصارى ([2])، وفي الطبقات، فقال: دعني أصلي ركعتين، وتوجه نحو القبلة. قال الحجاج: ما يقول لك؟ قال: قال: دعني أصلي ركعتين. قال: لا، إلا إلى المشرق"([3]).

وأن سعيدا كان أكرم على الله من الحجاج وأسياده أجمعين وأكثر إيمانا وأحسن عقيدة ومنهجا منهم، ولذا كبر رأسه المقطوع بين أيديهم مما أرعب أصحابهم المؤرخون، فأحجموا عن ذكر ذلك وذكره آخرون منهم دون ان يفطنوا إلى رمزيته، أورد أبو نعيم في الحلية، عن خلف بن خليفة، عن أبيه، قال: شهدت مقتل سعيد بن جبير، فلما بان رأسه، قال: لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، ثم قالها ثالثة فلم يتمها([4]).

وأوردها ابن سعد في الطبقات، عن مالك بن إسماعيل، قال: سمعت خلف بن خليفة يذكر عن رجل، قال: لما قتل سعيد بن جبير، فندر رأسه، هلل ثلاثا، مرة يفصح بها وفي الثنتين يقول مثل ذلك فلا يفصح بها"([5]).

وعن خلف بن خليفة، عن أبيه، قال: شهدت مقتل سعيد، فلما بان رأسه قال: لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، ولم يُتِمّ الثالثة. قال خلف بن خليفة، عمن حدثه: إن سعيد بن جبير لما ندر رأسه هلل ثلاث مرات. وفي كامل ابن الأثير: "فأمر به، فضربت رقبته، فبدر رأسه عليه كمة بيضاء لاطئة، فلما سقط رأسه هلل ثلاثا، أفصح بمرة ولم يفصح بمرتين"([6]).

---

[1] المصدر نفسه.
[2] ينظر: المصدر نفسه.
[3] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص ٢٦٤، سيرة سعيد.
[4] حلية الأولياء، أبو نعيم، ج٤/ص ٢٩١.
[5] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص٢٦٥، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٥/ص ٣٠٠.
[6] الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج٤/ص٢٢٩، في حديثه عن سنة أربع وتسعين.

وعجيب لأمة تدعي الإيمان وتهتم بعدد المرات التي هلل بها رأس سعيد كل هذا الاهتمام، ثم تغفل عن كرامة تكلم الرأس المقطوع وسبب قطعه.!

لقد استخدم الفصيل السياسي الإسلامي أسلوب تشويه السيرة في أكثر من مكان، ولأكثر من مرة، ومن مناسبة، ونجحوا في ذلك نجاحا كبيرا، ليس لأنهم أجادوا الصنعة واحكموا الخطة، وإنما لأن هناك بين المؤرخين وغيرهم؛ من كان يصدقهم في غثهم وسمينهم، ويعد كل ما يصدر عنهم وكأنه تشريع فقهي واجب ملزم لا تجوز مخالفته. وبالنسبة لسعيد بن جبير بدأوا في تشويه صورته تزامنا مع صعود نجمه العلمي والفقهي، لكي يطفئوا أنوار عقيدته التي تختلف عن عقيدتهم. وهناك في سيرة سعيد محطات تبدو للوهلة الأولى ليست ذات أهمية، ولكنها عند التحليل والتفكيك تثبت ان موقفهم منها تم اختياره بعناية تناسب وعيهم السياسي والفكري، ومن أساليب تحريفهم كان حديثهم عن مجمل حياة سعيد، أذكر منها للاختصار موضوعي تولي القضاء ونكث البيعة:

الأعاجم وتولي القضاء

وعجيب كيف ترى العجب العجاب فيما ورد في بعض المؤلفات التي تظهر الأمة في ذلك الوقت المبكر من عمر الإسلام متعصبة ترفض تعيين مولى بمنزلة سعيد بن جبير للقضاء في الكوفة، مع أنها تأخذ عنه أحكام وقواعد دينها، حيث ذكر المبرد: أن أهل الكوفة ضجوا عندما ولي سعيد بن جبير القضاء، وقالوا: لا يصلح القضاء إلا لعربي"([1]). وان الوالي العادل، السميع لرأي شعبه، الطيب، البسيط، الحجاج بن يوسف الثقفي، كان ديمقراطيا فاستجاب لمطالب الشعب، وعزل سعيدا عن القضاء، واستقضى أبا بردة بن أبي موسى الأشعري، لكنه لشدة عدله؛ أمره ألا يبرم أمرا إلا برأي سعيد بن جبير! ولكم أن تعرفوا مقدار التفاهة المضمرة في هذا النص!.

وكان سعيد بن جبير قبل ذلك التاريخ يكتب لعبد الله بن عتبة بن مسعود حيث كان على قضاء الكوفة ، وعبد الله بن عتبة بن مسعود كان قاضيا على الكوفة طوال مدة خلافة عبد

[1] الكامل، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، ج٢/ص٩٦

الله بن الزبير التي امتدت لتسع أعوام ، وحينما هزم الأمويون ابن الزبير لم يغيروا في وظائف كبار المسئولين في الكوفة لمجرد أنهم شغلوها لغيرهم، إلا بعد زمن.

ثم لا تلبث أن تكتشف أن السياسة والطائفية هما اللتان وقفتا وراء هذا الإدعاء الغريب، وأن الموالي أو في الأقل الموالي المؤيدين للحكومة ولاسيما منهم السائرون في ركاب بني أمية؛ شغلوا منصب القضاء في أكثر من مكان من العالم الإسلامي. وقد وجدت الدكتور محمد عمر شاهين يتماهى مع رأيي هذا مع أنه يعزو ذاك الموقف إلى العصبية وحدها ويغفل دور الطائفية والسياسة، كما في قوله: "إن الموالي عملوا في القضاء وفي مختلف العصور الإسلامية، وأن الروايات التي وردت تخالف هذا الرأي ما هي إلا استثناءات وجدت هنا وهناك وهي تعكس فهما قبليا وتنطلق من بيئة قبلية... فقد ذكر لنا الأصفهاني أن شريح القاضي (مولى كندة) ظل قاضيا على الكوفة من خلافة عمر بن الخطاب (رض) وحتى خلافة عبد الملك بن مروان، ولم يعترض عليه أحد. وعاصم بن الأحول، مولى بني تميم، كان قاضيا على المدائن، ولم يعترضوا عليه. وكان ابن كثير المقرئ قاضي الجماعة بمكة".([1]) ولم يعترض عليه أهل مكة. وعبد الملك بن عمير اللخمي حليف (مولى) بني عدي بن كعب. ولد في خلافة عثمان وكان يلقب: القبطيز، ولي القضاء بالكوفة قبل الشعبي([2])، ولم تنتفض الكوفة مطالبة بإقصائه.!

وتبحث في بطون كتب التاريخ، فلا تجد أحدا من العرب من أهل تلك الأقاليم بما فيها الكوفة يثور ويطلب إقالة أولئك القضاة، فلماذا يثورون على سعيد وحده؟ ولماذا لا تظهر عصبيتهم إلا مع سعيد بالذات؟ وفعلا نجد في تاريخنا الكثير من الموالي قد تسنموا منصب القضاء في تلك الحقبة بالذات، فعامر الشعبي كان على قضاء الكوفة، والحسن البصري على قضاء البصرة، وعبد الله بن يزيد على قضاء مصر، وكثيرون غيرهم. فلماذا لم تعترض الكوفة على تعيين الشعبي قاضيا وهو الذين يطعن جهارا بعلي بن أبي طالب (عليه السلام)، واعترضت بهذا الشكل الغريب على تولي سعيدٍ المنصب؟ ولماذا لم

---

[1] تاريخ الموالي، الدكتور محمد عمر شاهين، ص ٧١.

[2] ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص ٣١٥

تعترض البصرة على تعيين الحسن، ولم تعترض مصر على تعيين عبد الله؟ هل كانت البصرة ومصر أقل تعصبا للعروبة من الكوفة مثلا؟ ألا يدل ذلك على أن تعيينه في القضاء ورفض الناس لهذا التعيين كما يدعون كان واحدة من اثنين لا ثالثة لهما، وهما: إما أنه من أكاذيب الأمويين والمؤرخين طعنا به وتشويها لسيرته. أو أنهم عينوه ولم يكونوا يعرفون خلفيته العقدية، فظنوه سائرا على نهجهم، ثم لما تبين لهم منهجه، قاموا بعزله، واختلقوا هذه الكذبة، وأدخلوها في بطون كتب التاريخ، وصدقهم من صدقهم. ثم لماذا تقبل الكوفة سعيدا إماما في الفقه وإماما في الصلاة فيصلون خلفه، ولكنهم يرفضون تسنمه منصب القضاء؟ أيهما أكثر أهمية: القضاء أم الإمامة؟

ولكي تتضح الصورة لا بأس في مقاربة بسيطة بين قاضي الكوفة سعيد وقاضيها الشعبي، فالكوفة التي يقولون إنها رفضت سعيد؛ هي نفسها التي رضيت وباركت وجود الشعبي على رأس القضاء فيها، فمن الشعبي ولماذا لم يرفضه عرب الكوفة، لو كانوا حقا مصرين على موقفهم العروبي العصبي المتشدد ضد الموالي؟ فالشعبي هو الآخر مولى، فما حدا مما بدا؟

إن التأكيد على درجة المولى في الصدر الأول من تاريخ الإسلام، كان أمرا شبه مفقود، ثم لما جاء الأمويون بعصبيتهم الجاهلية المعروفة أحيوا مواته، فعاد التباين واضحا في الأقل من خلال مروياتهم التي تناولت هذا الجانب، وإلا فمن المستحيل أن تجد بين القراء الذين كانوا النخبة والشريحة المثقفة من الأمة من لا يعرف هذه الحقيقة ويعمل بها، ليدعي المؤرخون مثلا أن القراء يوم الجماجم أرادوا أن يؤمروا عليهم أبا البختري، فقال: "لا تفعلوا فإني رجل من الموالي فأمروا عليكم رجلا من العرب"([1]).

بينما يعرف المؤرخون قبل غيرهم أن الإمرة في الحروب بعد البعثة كانت غالبا للصحابة دون النظر إلى أصلهم، حيث قال ابن حجر في الإصابة: اخرج ابن أبي شيبة من طريق،

[1] المصدر نفسه، ج٦/ص ٢٩٢

قال: كانوا لا يؤمرون في المغازي إلا الصحابة، فمن تتبع الأخبار الواردة في الردة والفتوح وجد من ذلك شيئا كثيرا"([1]) والصحابة فيهم الحر وفيهم المولى.!

أو ليقول ابن كثير عن مبايعة عبد الرحمن بن الأشعث: والعجب كل العجب من هؤلاء الذين بايعوه بالإمارة وليس من قريش، وإنما هو كندي من اليمن([2]) وقد كانت مثل هذه الأقوال تسوق للتعليل والتأويل أكثر منها للتعبير عن واقع الحال، فقد قالوا عن مسلمة بن عبد الملك بن مروان الذي بقي برتبة قائد في الجيش منذ خلافة أبيه عبد الملك، ثم الوليد بن عبد الملك، ثم سليمان، ثم عمر بن عبد العزيز، وأخيرا يزيد بن عبد الملك دون أن يلي الملك أو حتى دون أن يرشح لمنصب ولاية العهد، قالوا بأن سبب ذلك أن أمه كانت أمة، مع علمهم أن يزيد الثالث الملقب بالناقص ولي الخلافة وكانت أمه أمة فارسية، ومروان بن محمد الملقب بالحمار ولي الخلافة وأمه أمة كردية.

إن مثل هذه الأقوال يأتون بها عادة لتغطية هفوات خلفائهم وأخطاء رموزهم لا أكثر.! ([3]) فالقصص متشابهة، قصة تعيين سعيد قاضيا، وقصة تعيين أبا البختري قائدا، وقصة تعجب ابن كثير من مبايعة عبد الرحمن بن الأشعث.

فضلا عن ذلك لم يكن منصب القضاء حينها بتلك الدرجة التي تطمح إليها النفوس، ولاسيما نفوس العُباد الزُهاد ليتقاتل الناس عليها، فلطالما رفضها الأوائل، وكم من القراء والعباد من رفضها استصغارا لها، وخوفا من تبعاتها ومسؤوليتها، وفي تاريخنا الكثير من القصص، منها في الطبقات أن عمر بن هبيرة دعا المسيب بن رافع (توفي سنة خمس ومائة) ليوليه القضاء فقال: "ما يسرني أني وليت القضاء، وأن لي سواري مسجدكم هذا ذهبا"([4])، ولذا أرى أن الذين يريدون تجريد سعيد من مرتبة القضاء إنما هم من المفلسين الذين كانوا يرون في القضاء درجة رفيعة ويتمنونها لا أكثر، أو أنهم أرادوا التأكيد على

---

[1] الإصابة ، ابن حجر، ج١/ص٩

[2] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥،ج٩/ص ٦٧

[3] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥ ج٩/ص ٦٧.

[4] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦مص ٢٩٣

ان سعيدا مولى من الموالي لكي لا تنسى الناس تلك الحقيقة، أو أن الكوفة التي كان سعيد مغرما بها لم تكن تحبه أو تحترمه.!

نكث البيعة ومنهجية القتل الأموي

وفي قصة أخرى من قصص التشويه صوروا سعيدا على أنه ناكث للبيعة، جاء في البداية والنهاية، وغيره: أن سعيدا حينما أوقف بين يدي الحجاج، قال له: فما حملك على الخروج عليّ، وخلعت بيعة أمير المؤمنين؟ فقال سعيد: إن ابن الأشعث أخذ مني البيعة، وعزم عليّ. قال: ويحك ألم أقدم مكة، فقتلت ابن الزبير، وأخذت بيعة أهلها، وأخذت بيعتك لأمير المؤمنين عبد الملك ... ثم قدمت الكوفة واليا على العراق، فجددت لأمير المؤمنين البيعة، فأخذت بيعتك ثانية؟"([1]).

إن ما حدث لسعيد لم يكن جديدا على المجتمع السياسي الإسلامي، فما من سنة من سنوات القرن الأول إلا وكانت مزخرفة وموشاة بالدماء الغزيرة، دماء الكوفيين التي تاجر بها الأمويون لتحقيق المكاسب والمغانم، ودماء أعداء الأمويين من المسلمين من غير الشيعة، ودماء الخوارج، ودماء الأعداء الآخرين الذين أراد الأمويون إذلالهم وسلبهم أموالهم ونسائهم وخيراتهم، ودماء قادتهم الذين خدموهم ودافعوا عن ملكهم وأمدوهم بالنساء والأموال، وأخيرا وليس آخرا دمائهم فيما بينهم حينما صاروا يتآمرون ويتقاتلون على كرسي الحكم. ويكاد العراق ولاسيما الكوفة أن يكون الأكثر نزفا من بين هذه الجموع، لأن الخلفاء الأمويون كانوا لا يحبون العراقيين ولاسيما أهل الكوفة، حتى أن عبد الملك بن مروان حينما أرسل الحجاج واليا على العراق بدلا عن أخيه بشر بن مروان الذي هلك، كتب إليه: "أن سر إلى العراقيين، واحتل لقتلهم، فإنه بلغني عنهم ما اكره"([2]). أي أن الخليفة أوصاه بقتل العراقيين لأتفه الأسباب، وقد كان الحجاج أهلا لهذه الوصية فعمل بها منذ لحظة دخوله إلى العراق، وكانت البصرة أول منازله، دخلها قادما من الحجاز، مع

[1] البداية والنهاية، ابن كثير، م ٥،ج٩/ص١١٨، وحلية الأولياء، أبو نعيم، ج٤/ص٢٩٠.
[2] الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، ج٢/ص٣٩

أن ابن عساكر يقول في تاريخه انه دخل الكوفة أولا قبل البصرة([1])، دخل البصرة ومعه أربعة آلاف رجل، فدخل المسجد، وصعد المنبر، وقال فيما قال: أيها الناس إن أمير المؤمنين عبد الملك قلدني بسيفين حين توليته إياي عليكم: سيف رحمة، وسيف عذاب ونقمة، فأما سيف الرحمة فسقط مني في الطريق، وأما سيف النقمة فهو هذا فحصبه الناس، فهجم عليهم جنوده الشاميين، فقتلوا منهم بضعة وسبعين ألفا حتى سالت الدماء إلى باب المسجد وإلى السكك ([2]).

ووفق هذه المنهجية نراه حينما يدخل الكوفة يستخدم الأسلوب نفسه من التهديد والتحقير وختم ذلك بقوله: "من كان في بعث المهلب فليلتحق به، فإني لا أجد أحدا منهم بعد ثلاثة أيام، إلا سفكت دمه، واستحللت ماله"([3]).

إن كره الحجاج للعراقيين لا غبار عليه فقد خطبهم بعد معركة دير الجماجم قائلا: "يا أهل العراق إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف ثم أفضى إلى الأسماع ثم ارتفع فعشش ثم باض وفرخ ثم دب ودرج فحشاكم نفاقا وشقاقا وأسعركم خلافا اتخذتموه دليلا تتبعونه وقائدا تطيعونه ومؤامرا تشاورونه"([4]). وفي تاريخ ابن عساكر: قال عوانة بن الحكم: سمعت الحجاج وأنا في السوق في صلاة الظهر فلما انصرف صعد المنبر، فقال: يا أهل العراق وأهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق وعبيد العطاء وأولاد الإماء ألا يرفأ الرجل منكم صلعه ويخسر حمل رأسه وحقن دمه ويبصر موضع قدمه والله ما أرى الأمور تمضي حتى أوقع بكم وقعة تكون نكالا لما قبلها وتأديبا لما بعدها"([5]). وبالتالي اعتمدت منهجية قتل الكوفيين التي انتهجها الأمويون سبيلين اثنين: الأول: سبيل الحرب الفكرية. الثاني: سبيل حرب الإبادة البشرية والسكانية.

---

[1] تهذيب تاريخ دمشق، ابن عساكر، ج٤/ص٥٦

[2] الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، ج٢/ص٤٠.

[3] تهذيب تاريخ دمشق، ابن عساكر، ج٤/ص ٥٦.

[4] المصدر نفسه، ج٤، ص٥٨

[5] المصدر نفسه، ج٤، ص٦٢.

الكوفيون الحرب الفكرية

مع أن القراء كانوا منتشرين على طول وعرض ساحة العالم الإسلامي إلا أن التواجد الأعظم لهم أو لقياداتهم الفكرية كان في الكوفة والبصرة، ثم تأتي بعد ذلك المدينة المنورة فمكة المكرمة، وبعدها خراسان ومصر والشام، فضلا، عدا ذلك كان الكوفيون قد أفادوا من وجود الإمام علي (عليه السلام) بين ظهرانيهم فدرسوا على يديه أسس الشريعة والتفسير والحديث وأحكام الفقه وغيرها. ولذا يحقق قتلهم أو مطاردتهم ومنعهم من الاستقرار النفسي والأمني؛ إلى الطرف الآخر مكاسب عظيمة لا تقدر بثمن، منها:

- أولا: إفراغ الكوفة من كوادرها العلمية في سعي لتجهيل الناس ومن ثم سهولة قيادتهم والتحكم بمصائرهم ومعتقداتهم.
- ثانيا: التخلص من قادة المعارضة الحقيقيين، إذ لا ينكر أن الخروج على الأمويين كان يقاد باستمرار من النخب الفكرية الكوفية.
- ثالثا: إضعاف التشيع عن طريق قتل القراء الذين كانوا يسهمون في تنوير الناس بعقائد التشيع وسنن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) واللائمة المعصومين (عليهم السلام)

والحديث عن الحرب الفكرية طويل يخرجنا عن موضوع البحث، وكان لابد لهذه الحرب أن تقرن بحرب أخرى تأخذ على عاتقها وضع تلك المخططات على أرض الواقع، وتنفيذها للحصول على النتائج المرتقبة، ولذا كان هناك نوعا آخر من الحروب، هو الحرب البشرية أو السكانية. من الغريب أن تجد إشارات إلى دور الكوفيين في الغزوات والفتوح حتى في بداية تمصيرها، أو في السنة الأولى لتمصيرها، ومن بين مجموعة من أقوال الخليفة عمر بن الخطاب عن الكوفة ودورها في رفد الجيوش بالمقاتلين نكاد نتأكد من صحة هذا الرأي، فالخليفة عمر بن الخطاب كان دائم التذكير بهذه المهمة، ومنها قوله؛ وذكر أهل الكوفة: "رمح الله وكنز الإيمان وجمجمة العرب، يجزّون ثغورهم، ويمدون

الأمصار"([1])، ومنها قوله: "العراق بها كنز الإيمان وهم رمح الله يجزّون ثغورهم ويُمدون الأمصار"([2]). وكتب عمر إلى أهل الكوفة: "يا أهل الكوفة أنتم رأس العرب وجمجمتها، وسهمي الذي ارمي به إن أتاني شيء من هاهنا وهاهنا"([3]).

والظاهر أن هذه الأقوال جاءت لأن للكوفة قدرة فائقة على رفد الجيوش بالمقاتلين، منذ دولة عمر حتى مع شعورهم بالغبن، لأن عمر في أكثر من مناسبة؛ فضل الشاميين عليهم، وكان يطيب خاطرهم بهذه الأقوال، وفي آخر مرة أشعرهم بالغبن طيب خاطرهم بأن بعث لهم عبد الله بن مسعود معلما، عن أبي خالد، قال: وفدنا إلى عمر فأجازنا، ففضل أهل الشام علينا في الجائزة فقلنا: يا أمير المؤمنين أتفضل أهل الشام علينا؟ فقال: يا أهل الكوفة أجزعتم أن فضلت آهل الشام عليكم لبعد شقتهم؟ لقد آثرتكم بابن أم عبد"([4]).

وبعد هذا التاريخ ولاسيما في حقبة خلافة عثمان؛ دُفِع الكوفيون عنوة إلى خوض حروب الغزو، فيما عرف بسياسة جمر المعارضين في الفتوح، فمات رجالهم ومحي ذكر الكثير منهم.

وحينما تولى الإمام علي (عليه السلام) خلافة المسلمين، هالهم ذلك وعزموا على إفشال هذه التجربة العلوية الكبيرة لأنها كانت امتدادا لعصر البعثة وأجوائه، وهذا ما لا يريدونه، فحولوا السيف السياسي المسلم نحو رقاب الكوفيين ليجزها وينحر الكوفيين أصحاب الإمام بلا رحمة في الجمل وصفين والنهروان وغزوات سرايا الأمويين على أطراف دولة علي (عليه السلام) فمات منهم الألوف.

ثم بعد استشهاد الإمام علي (عليه السلام) ومهادنة الإمام الحسن (عليه السلام) كان رجال الكوفة وقودا لوحشية الأمويين، ابتداءً من قتل الإمام الحسين (عليه السلام) وصحبه الأبرار، ولاسيما رجال الكوفة الذين كانوا معه، مرورا بقتل التوابين (رحمهم الله) وصولا إلى قتل المختار وعدة آلاف من الذين كانوا معه من الكوفيين بعد أن كانوا خلال حربهم

---

[1] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج ٦/ص٥

[2] المصدر نفسه.

[3] المصدر نفسه.

[4] المصدر نفسه، ج٦/ ص٩.

معه قد قتلوا ألوفا أخرى. وحينما انتصر مصعب على المختار قتل من أهل الكوفة ثمانية آلاف صبرا([1]).

وبعد هذه المحطات الدموية كان رجال الكوفة الصابرة وقودا لرعونة الحجاج ودمويته، ورافدا لجنود الغزو، وأداة وضعت كرها أمام أداة مكرهة مثلها فدمرت إحداهما الأخرى دفاعا عن النفس، فالحجاج فضلا عن قتله سادات الكوفة ورجالها الأبطال؛ كان يجند الكوفيين ويدفعهم لقتال أعدائه دون أن يلتفت إلى عدد من يموت منهم، ومنها على سبيل المثال قيامه سنة سبع وسبعين بإخراج خمسين ألف من مقاتلة الكوفة بإمرة عتاب بن ورقاء لمقاتلة شبيب الخارجي، ولما التقوا به أوقع فيهم القتل فانهزم من بقي منهم([2]). وفي سنة ثمان وسبعين، في غزوتهم ارض الروم، أصابهم مطر عظيم وثلج فأصيب بسببه ناس كثير([3]).

ثم في سنة تسع وسبعين غزا عبيد الله بن أبي بكرة رتبيل ملك الترك([4]) غزاه بأمر الحجاج الذي أوصاه أن يستبيح أرضه ويهد قلاعه ويقتل مقاتلتهم، فخرج في جمع من أهل الكوفة والبصرة يقدر عددهم بأكثر من خمسين ألفا، وحاصرهم الترك قرب مدينتهم العظمى حتى فنى أكثر المسلمين، ثم خرج من خرج من الناس صحبة عبيد الله من ارض رتبيل وهم قليل.. وقيل: إنه قتل من المسلمين (أهل الكوفة والبصرة) في تلك المعركة ثلاثين ألفا، ومات بسبب الجوع منهم خلق كثير أيضا.. وقد قتل المسلمون من الترك خلقا كثيرا أيضا، قتلوا أضعافهم([5]) حيث كانت البشرية مهددة بالفناء على يد هذا الدموي. وأعاد الحجاج الكرة سنة ثمانين، قال ابن كثير: "وفي هذه السنة جهز الحجاج الجيوش من البصرة والكوفة لقتال رتبيل ملك الترك... فجهز أربعين ألفا، من كل من المصرين عشرين ألفا، وأمر على الجميع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث"([6]).

---

[1] الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، ج٢/ص٣٢.
[2] ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، ج ٥/ص٢٣ .
[3] المصدر نفسه، ج ٥/ص٢٨
[4] المصدر نفسه، ج ٥/ص٣٤.
[5] المصدر نفسه، ج ٥/ص٣٧.
[6] البداية والنهاية، ابن كثير، ج ٥/ص٣٩

أقف عند هذا النقل والرقم الموجود فيه لأذكر أن هناك أكثر من مناسبة تحدث فيها المؤرخون عن عدد جيش ابن الأشعث الذي قاتل جيش الحجاج، وكان الرقم المشترك بينهم هو مائتي ألف، مائة من المقاتلين، ومائة من مواليهم، وهذا يعني أن مائة وستين ألفا من العراقيين انضموا إلى جيش ابن الأشعث بعد عودته وثورته على الأمويين.

ومع ابن الأشعث كان الكوفيون قد ألقوا مراسي حياتهم بحثا عن الحرية المفقودة، فخرج من الكوفة بالكوفيين والبصريين بعد معركة البصرة ومعركة الزاوية يريد دير الجماجم، "وكان جملة من اجتمع مع ابن الأشعث مائة ألف مقاتل ممن يأخذ العطاء ومعهم مثلهم من مواليهم([1])... وقدم في غبون ذلك إمداد كثير من الشام([2]) حيث وفد الشاميون لدعم قوات الحجاج لحرب العراقيين الموجودين مع ابن الأشعث، ودارت رحى أقسى معارك التاريخ الإسلامي حيث قتل من الجانبين خلق كثير لا يحصى.

ومن المؤكد أن سفك الدم لم يتوقف على الحجاج وحده، فخلال القرن الدموي كله كان الذبح بلا عدد، وكانت جمل مثل: "وقتلنا منهم عددا كثيرا " أو "وقتل الله منهم خلق كثيرا "، تتكرر مع حديثهم عن كل غزوة يغزونها، وكان البشر من المسلمين وأعدائهم يدفعون ضريبة الدم سوية لمجرد أن يتلذذ القائد بدمويته، ويشبع نهمه بالنساء والمال. ففي واحدة من قصصه يروي الطبري أن صمود سمرقند أزعج قتيبة بن مسلم الباهلي، فوقف في الرواق محتبيا بشملة؛ وهو يقول كالمناجي لنفسه: "حتى متى يا سمرقند يعشش فيك الشيطان؟ أما والله لئن أصبحت لأحاولن من اهلك أقصى غاية، قال سليم ناقل الخبر: فانصرفت إلى أصحابي، فقلت: كم من نفس أبية ستموت غدا منا ومنهم! فأخبرتهم الخبر([3])، وكانت طاحونة الحرب تدور في جميع الأنحاء، وكافة الاتجاهات، يروي ابن قتيبة أن علي بن رباح نقل خبر فتح الأندلس إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك، فخر الوليد

---

[1] أكثر من مائة ألف عبد أو مولى كان ضمن جيش ابن الأشعث وهو عدد مساو لعدد المقاتلين الأحرار، وذلك لأن الموالي كانوا يحاربون إلى جانب أسيادهم أملا بالحصول على حرية يمن بها عليهم السيد إذا لم يقتلوا في الحرب.

[2] بداية ابن كثير م٥،ج٩/ص٥١ .

[3] تاريخ الطبري، الطبري، ج ٦/ص ٣٦٠

ساجدا، فلما رفع رأسه أتاه فتح آخر، فخر أيضا ساجدا، ثم رفع رأسه، فأتاه آخر بفتح آخر، وخر ساجدا، فقال علي بن رباح: حتى ظننت انه لا يرفع رأسه(١).

وهنا أريد الإشارة إلى أن الكثير من المؤرخين يرون أن حروب الفتوح الأموية جاءت لتصنع عالما أفضل من خلال نشر الإسلام والسلام في العالم، ولكن الآلية التي نفذت بها حولتها إلى نوع من المضاربة الربحية أفقدها مهمتها الأصلية.! وهذا جزء صغير جدا من الحقيقة، فالحقيقة التي يتفق عليها العقلاء أن الحرب لا يمكن أن تصنع سلاما، وهي ليست الطريق الأفضل لصنع السلام، ولقد خاض العالم في عصرنا الراهن حربين عالميتين، كانت الثانية منهما قد حولت أوربا إلى منطقة سلام بعد أن كانت الحروب الداخلية بين الدويلات والإمارات قد أنهكتها، ولكنها لم تنجح في الحيلولة دون وقوع أكثر من خمسين حربا أخرى بين الدول، والتي نشبت في بقية أجزاء العالم خلال العقود الست التالية(٢)، وكانت أوربا سببا لنشوب عشرات الحروب الأخرى!.

والذي أراه أن فتوح الدولة الأموية جاءت متساوقة مع أسباب الحروب التي ألفها العالم في تلك الحقبة، فالحروب يومذاك كان تشن من اجل شرف شخصي أو لغرض الانتقام من هزيمة سابقة أو لمقتل شخص مهم، أو تشن من اجل طلب المال سعيا نحو الثراء، أو سعيا لتحقيق أهداف سياسية. ومن يبحث في حيثيات تلك الفتوح يجد واحدا أو أكثر من هذه الأسباب شاخصا فيها بوضوح، ولذا ممكن أن نصف الفتوح الأموية بجميع الأوصاف باستثناء وصفها بالعقائدية.!

إن الحديث عن الفتوحات الأموية يبين أن الدموية المفرطة كانت منهجا عاما في أغلب الأحيان، وان أخلاق الحرب الإسلامية تم التخلي عنها كليا، ولم تعد للهارب أو للأسير حرمة في حساباتهم، ففي سنة تسعين للهجرة، تم فتح بخارا على يد قتيبة بن مسلم الباهلي؛ الذي أراد من جانبه هو الآخر أن يماهي خالد القسري في الإجرام، فقال لجيشه بعد أن

---

١ الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، ج٢/ص٨٩-٩٠

٢ ينظر:لماذا تتحارب الأمم دوافع الحرب في الماضي والمستقبل، ريتشارد نيد ليبو، ص١١.

انهزم العدو من أمامهم: "من جاء برأس فله مائة"([1]) وفيها فتحت الطالقان، افتتحها قتيبة أيضا، فقتل من أهلها مقتلة عظيمة، وصلب منهم سماطين أربعة فراسخ في نظام واحد([2]). وفي سنة اثنين وتسعين غزا مسيلمة بن عبد الملك أرض الروم، وغزا طارق بن زياد الأندلس، وغزا قتيبة بن مسلم سجستان، وسالت دماء المسلمين وأعدائهم في كل هذه الوقعات. وفي سنة ثلاث وتسعين بعث قتيبة أخاه مالك إلى ملك خام جرد، فقاتله فقتله وقدم منهم على قتيبة بأربعة آلاف أسير، فقتلهم، وأمر قتيبة بسريره فأخرج، وبرز للناس، وأمر بقتل الأسرى، فقتل بين يديه ألف وعن يمينه ألف وعن يساره ألف وخلف ظهره ألف([3]). وفي سنة أربع وتسعين غزا العباس بن الوليد ارض الروم وفتح أنطاكية، وفيها غزا قتيبة الشاش وفرغانة ففتحوها واحرقوا أكثرها([4]). وفي سنة ست وتسعين غزا بشر بن الوليد الشاتية. وفيها فتح قتيبة كاشغر فسبى منها سبيا فختم أعناقهم ([5])، وغزا الصين فدفعوا له فدية عظيمة. وفي سنة سبع وتسعين جهز سليمان الجيوش لغزو القسطنطينية، وعين يزيد بن المهلب واليا على خراسان([6]) وفي عام خمس ومائة غزا مسلم بن سعيد الترك من جديد فلم يفتح شيئا([7]).

في كل هذه السنين كان البشر من المسلمين وأعدائهم يدفعون ضريبة الدم سوية لمجرد أن يتلذذ القائد بدمويته، وكان الذبح بلا عدد حيث تتكرر جملة: وقتلنا منهم أو وقتل الله منهم عددا كثيرا مع كل سرد لواحدة من تلك الغزوات. وبين هذه وتلك وقعت عشرات المعارك والحروب وحالات النهب والسلب في كل الأنحاء.

أما في الداخل فكان العلويون الثوار يتحركون كلما سنحت لهم الفرصة ويقدمون الشهداء تلو الشهداء، ففي سنة عشرين ومائة ارتكب الأمويون جريمة كبيرة من جرائمهم ضد

---

[1] تاريخ الطبري، الطبري، ج ٦/ص ٣٣٧.
[2] المصدر نفسه، ج ٦/ص ٣٣٧.
[3] المصدر نفسه، ج ٦/ص ٣٥٥
[4] المصدر نفسه، ج٦/ص ٣٦٤-٣٦٥.
[5] المصدر نفسه، ج٦/ص ٣٧٦
[6] المصدر نفسه، ج٦/ ص ٣٦٤-٣٦٥.
[7] المصدر نفسه، ج٧ /ص ١٤

العلويين بقتلهم زيد بن علي بن الحسين وأنصاره من الشيعة([1]) ثم قتلوا سنة خمس وعشرين ومائة يحيى بن زيد بخراسان([2]).

وكان الخوارج من جانبهم يخرجون هنات وهناك بإعداد معدوم، وأعداد متباينة، تكثر أو تقل حسب تأثير القائد، ولم يكن الخوارج يهتمون للعدد بقدر اهتمامهم بالموت العبثي بعد أن يوقعوا بالمقابل أفدح الخسائر التي يقدرون عليها، فمثلا في سنة إحدى وتسعين خرج شوذب الخارجي بالعراق على عمر بن عبد العزيز وهو من الحرورية في ثمانين فارسا فقط أكثرهم من ربيعة فقدم له الأمويون سما فمات([3]).

وكالعادة تجد هناك من يحاول لملمة فضائح المجازر لتبرئة الخلفاء من الدم البريء فكما وجدنا من حاول أن يبرئ يزيد من دم الحسين، نجد من حاول أن يبرئ عبد الملك بن مروان من جريمة قتل مائة وخمسين ألف مسلم، كما في العقد الفريد الذي قال: لما هزم الحجاج عبد الرحمن بن الأشعث وقتل أصحابه واسر بعضهم، كتب إليه عبد الملك بن مروان أن يعرض الأسرى على السيف، ومعنى يعرضهم على السيف: يخوفهم بالسيف، لا يقتلهم، فمن اقر منهم بالكفر خلى سبيله ومن أبى يقتله، فأتى منهم بعامر الشعبي ومطرف بن عبد الله بن الشخير وسعيد بن جبير، فأما الشعبي ومطرف فذهبا إلى التعريض والكناية، ولم يصرحا بالكفر، فقبل كلامهما، وعفا عنهما. وأما سعيد بن جبير فأبي ذلك فقتل"([4]). ومع ذلك تتفق كتب التاريخ أن الحجاج أمرهم أولا بالإقرار بالكفر تبعا لوصية الخليفة، ولذا قال ابن كثير: "ولما قدمت الأسارى على الحجاج قتل أكثرهم وعفا عن بعضهم([5])، وقال في مكان آخر: "فجعل يقتلهم مثنى وفرادى، حتى قيل: إنه قتل منهم بين يديه صبرا مائة ألف وثلاثين ألفا.([6])

---

[1] المصدر نفسه، ج٧/ص١٠٩
[2] المصدر نفسه، ج٧/ص ١٥٥
[3] المصدر نفسه،ج ٦/ص ٤١٣ـ٤١٤.
[4] العقد الفريد، ابن عبد ربه، ج٢/ ص ٣٩٤
[5] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥، ج٩/ص٦١
[6] المصدر نفسه، م٥، ج٩/ ص ٦٣

وقبالة منهجية العنف الأموي كانت هناك منهجية الدفاع الكوفي، إذ لا يعقل أن يستسلم العراقيون للذبح دونما مقاومة؛ وهم الذين علموا العالم معنى الثورة على الظلم ومحاربة الظالمين.

منهجية الدفاع الكوفي

كانت هناك منذ بداية قرن الدماء منهجية قتل أموية يهمها كثيرا أن تنتقم من الكوفة وسكانها الذين قاطعوا الأمويين، على سبيل المثال قبيلة همدان الكوفية العريقة التي كان الإمام علي(عليه السلام) يميل إليها بشدة وتميل إليه، فقاتلت في صفه في كل حروبه وأيدته، والتي أنقذت الإمام الحسن (عليه السلام) بعد أن طعنه الخارجي بتحريض أموي بالمدائن، حينما قاد جيشه لمحاربة معاوية. ميزة هذه القبيلة العربية أنها كانت القبيلة الوحيدة من دون كل قبائل العرب؛ التي لم يكن منها أحد مع معاوية وأهل الشام في صفين ([1]) إلا أفرادا كانوا يسكون غوطة الشام، ولا علاقة لهم بالأصل العراقي.

واعتمدت منهجية الدفاع الكوفية رجالا ونساءً على الرفض الكلي لحكم بني أمية وولاتهم، وكان هذا هو المسار العام للعلاقة بين الطرفين، يروى أنه بعد موت معاوية بن يزيد بن معاوية كتب عبيد الله بن زياد أمير البصرة إلى أهل الكوفة يطلب منهم أن يختاروا أحدا يدير شؤونهم، وكان يطمع بها لنفسه، بعد أن اختاره البصريون، ولاسيما وانه كان قد جعل على الكوفة عمرو بن حريث الخزاعي عاملا له. فصعد ابن حريث المنبر، وخطب الناس، فقال وكأنه يمتحنهم، مرددا ما خبره في دواخل نفوسهم، لكي يحرفهم نحو ابن الزبير، مستغلا لحظة الانفراج، لأنه كان يظن ابن الزبير أوفر حظا من ابن زياد في هذه المنافسة: لا حاجة لنا في بني أمية ولا في إمارة ابن مرجانة، إنما البيعة لأهل الحجر ـ يعني أهل الحجاز ـ فقال مؤيدوه: عمرو بن سعد يصلح لها، وهموا بتأميره. فأقبلت النساء الكوفيات المجاهدات، تقودهن نساء همدان ومعهن نساء كهلان والأنصار وربيعة والنخع، فدخلن المسجد يندبن الحسين (عليه السلام) ويذكرن الكوفيين بمصرعه، ويرفضن ابن

[1] مروج الذهب، المسعودي، ج٣/ص٩٩

سعد المجرم الذي قتله، فبكى الناس، واعرضوا عن عمرو. يقول المسعودي: "وكان المبرزات في ذلك نساء همدان"([1]).

لم تقف محاولات الدفاع الكوفي عند هذه الحدود، وإنما تجاوزتها كثيرا لتتحول فيما بعد إلى إحدى أهم آليات التغيير؛ التي أودت بإمبراطورية الأمويين وقوضتها، وأقامت إمبراطورية العباسيين التي كان لها هي الأخرى حروبا ضارية مع الكوفيين. وبالرغم من أن الكوفة لم تكن خالصة للتشيع إذ كانت هناك مجاميع أخرى بعضها متطرفة والأخرى من أنصار الأمويين والثالثة من الأمويين أنفسهم تعيش بها وتعايش أهلها، إلا أن الفعل الرئيس ينسب للكوفيين الشيعة الذين يحملون جروح التاريخ ومآسي الظلم أكثر من غيرهم.

[1] المصدر نفسه، ج٣/ص ٩٨

الفصل السادس

الكوفة جمجمة الإسلام وكنز الإيمان

الكوفة ومجتمعها بين المدح والذم

كنا قد تحدثنا عن الكوفة في الفصل الخامس من القسم الأول من هذا الكتاب، وقلنا إنها الحاضرة الغائبة، والواقع أنها كانت حاضرة في كل حين، حاضرة في قلوب الطيبين، وحاضرة في قلوب الطامعين، كان الطيبون يعدونها لاستقبال الفرح الأكبر في يوم الخلاص، وكان الطامعون يستغلونها لترفد جيوشهم بالمقاتلين الأشداء، وتمدهم بالعطاء والخير والنماء. وكان حديثنا عنها هناك مقتضب مختصر، جئنا به للتمهيد لما يجب أن نقوله عنها بعد أن أنهت مسيرة دموية امتدت على طول قرن كامل من تاريخ المسلمين، ولا بأس في الحديث عنها في هذا الموضع من البحث لأنها كانت صانعة الحدث ومع الحدث في كل حين.

قالوا: مَصَّر سعد بن أبي وقاص الكوفة في خلافة عمر بن الخطاب، سنة ١٧ هجرية الموافق لسنة ٦٣٨ ميلادية. وقيل: مصرت الكوفة سنة ١٨ أو ١٩هـجرية، لكن التاريخ الأول هو الأرجح قبولا والمعول عليه، ولاسيما وأن الطبري في حديثه عن سنة سبع عشرة للهجرة وعن فتح السوس، كان قد قال: "واجتمع الأعاجم بنهاوند، والنعمان على أهل الكوفة محاصرا لأهل السوس مع أبي سبرة، وزر محاصر أهل نهاوند من وجهه ذاك، وضرب على أهل الكوفة البعث مع حذيفة"(١) فهذا القول يعني أن أصح تاريخ لتأسيسها هو في سنة سبع عشرة للهجرة، وإلا كيف ضرب البعث عليها في سنة سبع عشرة، إذا كانت قد مصرت بعد هذا التاريخ؟

ويعني هذا فيما يعنيه أن الكوفة كانت منذ بداية تأسيسها قد بدأت ترفد القوات الإسلامية بأعداد من المقاتلين وصلت أحيانا إلى ثلث عدد سكانها، ففي فتح نهاوند كتب الخليفة عمر إلى عمار بن ياسر أن استنفر ثلث أهل الكوفة، وكتب إلى أبي موسى الأشعري أن استنفر ثلث أهل البصرة، فاجتمعوا وساروا حتى نزلوا على فرسخين من نهاوند(٢) فهل كانت الكوفة مجرد معسكر لتدريب وتخريج المقاتلين الأشداء، ليتم سوقهم إلى أرجاء المعمورة،

---

١ تاريخ الطبري، الطبري، ج٤/ ص٦٢.

٢ البدء والتاريخ، طاهر بن مطهر المقدسي، ص ٣٧٩.

يفتحون هذه البلاد أو تلك، أم أنها كانت مدينة تشبه باقي المدن؟ هل خطط لها لتكون مدينة أم معسكرا؟

قد يكون من السابق لأوانه الحديث عن العمل في نظم تخطيط المدن في مدينة الكوفة في تلك المرحلة. وتخطيط المدن، يعني: تنظيم التفاعل بين أوجه الحياة وتسهيلها، لأن التخطيط علم لم يكن قد أكتشف بعد في ذلك العصر، ولذا كانت العبثية هي الطاغية على آلية العيش في المجتمع الكوفي الأول، ولاسيما أن التحول الحضري للمجتمع الكوفي كان سريعا غير منتظم أو محكوم بقواعد تنظيم، واقتصر على تحول الكثير من البدو والأعراب وأبناء القبائل من أماكن سكناهم، أو مناطق تواجدهم إلى المدينة التي بنيت حديثا، وفي مثل هذه الحال يتأخر تغير أفعال الناس وطريقة حياتهم الموروثة التي نشأوا عليها، فالتخلي عن الموروث لا يتم إلا بعد مراحل من النشأة الجديدة، مما يخلق حالة هجينة تجمع بين التحضر والبداوة في جغرافية واحدة، فضلا عن الشعور بنوع من التحرر والهيمنة القبلية نتيجة السكن في مكان بعيد عن سطوة شيخ القبيلة وقدرته على المتحكم بمصائر أفرادها، والشعور بالأمان نتيجة تواجد عدد كبير من الناس في رقعة جغرافية واحدة.

وهكذا كان حال المجتمع الكوفي الأول، مع أنه كان هناك جيلا كاملا من المتعلمين الواعين الذين رافقوا الإمام علي (عليه السلام) أثناء قدومه إليها، أضيفوا إلى عدد من كان فيها من هذه الشريحة المتحضرة، سواء كانوا موظفين حكوميين أو علماء أرسلوا من العاصمة لإعمار المدينة والإشراف على مجتمعها وتعليمه قواعد الدين، أو أنهم تركوا العاصمة وسكنوا الكوفة لأسباب أخرى.

إن كل مجتمع يحمل مثل هذه المواصفات، وهذه التركيبة الهجينة يكون عادة قلقا، غير مستقر، يعاني الاضطراب. ولم تكن العاصمة (المدينة المنورة) مهتمة بهذا الأمر لعدم تأثيره عليها، لأن الكوفة بالأساس كانت مستوعبا لمن رفض الاضطراب الذي حصل في العاصمة بعد موت الرسول (صلى الله عليه وآله) وما تلاه طوال المدة من ١١ ولغاية ٣٢ هجرية. لكن مع تصاعد حدة الاضطراب الذي سببته حروب مانعي الزكاة وحروب

الردة، وما تلي ذلك من شدة وحدة وتضييق تميز به الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، بدأت الهجرة الحقيقية إلى الكوفة، وأثناء هذه المرحلة: "هبط الكوفة ثلاثمائة من أصحاب الشجرة وسبعون من أهل بدر"([1]) وربما لهذا السبب وصفها الخليفة عمر، بقوله: "بالكوفة وجوه الناس"([2]).

وكان بعض الذين قدموا إليها كرهوا نكث الأمة بيعة الإمام علي (عليه السلام)، وبعضهم لم يكن متوافقا مع الخلفاء، وبعضهم أرسل من قبل الخلفاء أنفسهم لإدارة الإقليم، وبعضهم اختارها ليكون بعيدا عن مناكفات باقي المدن، وآخرون تعنوها لكرههم للأماكن التي يتواجد فيها الأمويون بكثرة، فتعددت الأسباب ولكنها أسهمت في تنامي المجتمع الكوفي نموا غير منضبط. يتضح ذلك من الرسالة التي بعث بها الإمام علي (عليه السلام) إلى أهل الكوفة بعد أن دخلت قوات الجمل البصرة، والتي جاء فيها: "واعلموا أن دار الهجرة([3]) قد قلعت بأهلها وقلعوا بها([4]) وجاشت جيش المرجل([5]) وقامت الفتنة على القطب"([6]).

وهذا لا يعني أن الإمام وجه رسالته إلى جميع الكوفيين، وهو يعلم أن بالكوفة هناك أصناف أخرى من البشر، بينهم من يتمنى قتله وقتل أتباعه ومحبيه. وقد كانت عملية تنويع المجتمع الكوفي قد تمت بطريقين احدهما طبيعي، والآخر سياسي، فالأمويون عمدوا أن يسكنوا بها عددا كبيرا من أتباعهم الأمويين والشاميين، بدلا وعوضا عن الشيعة الذين رحلوهم إلى إيران([7]). لإحداث موازنة بين توجهات السكان.

---

[1] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص٩.
[2] المصدر نفسه، ج٦/ص٥
[3] دار الهجرة: أي المدينة المنورة.
[4] قلعت بأهلها وقلعوا بها: فارقت أهلها وفارقوها.
[5] جاشت القِدرُ: غلت، والمِرجل: القدر، والقطب: حديدة تدور عليها الرحى.
[6] جمهرة رسائل العرب، احمد زكي صفوت، ج١/ ص٣٣٧-٣٣٨، رسالة رقم٣٥٩.
[7] فتوح البلدان، البلاذري، مطبعة النهضة المصرية، ص ٥٠٧

ثم لا ننسى أن اختيار الإمام علي (عليه السلام) الكوفة عاصمة لدولة الإسلام؛ تسبب في توافد الصحابة والتابعين ووجوه القوم إليها، فتحولت قبلة للعلماء. وكان النمو السكاني([1]) فيها مرتفعا جدا بحيث تضاعف عدد أفراد المجتمع عشرات المرات خلال مدة قصيرة جدا. وفي هذا التاريخ أخذت الكوفة هويتها العلوية الشيعية، حتى مع وجود الخوارج والكثير من أعداء الإمام فيها. وقبل أن تأخذ هويتها الجديدة كانت الكوفة محط فخر الجميع، فحظيت بمديح لم تحصل عليه أي مدينة أخرى، ولا حصر للأقوال التي صدرت عن الأوائل في مكانتها، مثل أقوال عمر وعائشة وعبد الله بن عمرو بن العاص، وغيرهم. منها، كتب عمر إلى أهل الكوفة: "إلى رأس الإسلام"، وكتب إليهم: "إلى رأس العرب"([2]) وعائشة كانت تتمنى أن تصلي بمسجدها، عن عثمان بن المغيرة، قال: كنت جالسا مع سالم، فأتته امرأة لتستفتيه فحدثتنا، فقالت: "إن رأس عائشة في حجري أفليها، فقالت: ما من مسجد أحب إلي أن أكون قد صليت فيه أربع ركعات من مسجد الكوفة"([3]).

أما الإمام علي (عليه السلام) فقد استغل تواجده بها ليحدثهم عن مستقبلهم وعن مهديهم الذي ينتظرون، باعتبار أنها العاصمة المستقبلية للمنتظر القادم، فكثرت المدائح فيها، وكان الإمام يتغزل بالكوفة، وينعتها بأحلى الأقوال، وينداديها وكأنها تسمعه، يحذرها من سنابك خيل الأعداء وسيوفهم التي تترصد خطواتها. في عصر خلافته اتبع (عليه السلام) سياسة التثقيف المهدوي من جانب وتمجيد الكوفة من جانب آخر، وله في ذلك أقوال كثيرة، منها قوله: "الكوفة جمجمة الإسلام وكنز الإيمان وسيف الله ورمحه يضعه حيث يشاء، وأيم الله ليُنَصَرنَ الله بأهلها في مشارق الأرض ومغاربها كما انتصر بالحجارة"([4]) وحدث أنصاره وأصحابه بأحاديثه فشاع ذكرها بين الناس، عن سالم، عن سلمان المحمدي قال: "الكوفة قبة الإسلام وأهل الإسلام"، وعن كهيل عن سلمان، قال: "ما يدفع عن ارض بعد أخبية مع محمد(صلى الله عليه وآله) ما يدفع عن الكوفة، ولا يريدها احد خاربا إلا أهلكه الله،

[1] النمو السكاني يساوي: عدد الولادات ناقص عدد الوفيات زائد عدد أفراد الهجرة الوافدة ناقص عدد أفراد الهجرة المغادرة.
[2] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص٥.
[3] المصدر نفسه، ج٦/ص٩
[4] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ص٦.

ولتصيرن يوما وما من مؤمن إلا بها أو يصير هواه بها"([1]) وعن الركين الفزاري، عن أبيه قال: قال حذيفة: ما من اخبية بعد اخبية كانت مع النبي(ص) ببدر يُدفع عنها ما يدفع عن هذه، يعني الكوفة" وفي قول آخر عن سالم عن حذيفة: "ما يدفع الله عن اخبية على وجه الأرض ما يدفع عن اخبية بالكوفة ليس أخبية كانت مع محمد (ص)" وعن مغيث البكري عن حذيفة قال: "والله ما يُدْفَع عن أهل قرية ما يدفع عن هذه يعني الكوفة إلا أصحاب محمد الذين اتبعوه"([2]) وعن خيثمة عن عبد الله بن عمر قال: "ما من يوم إلا ينزل في فراتكم هذا مثاقيل من بركة الجنة" وعن سالم بن أبي الجعد عن عبد الله بن عمرة قال: " إن اسعد الناس بالمهدي أهل الكوفة"([3]).

الكوفة عاصمة الإمام

بعد أن خرج جيش الجمل قاصدا البصرة، خرج الإمام علي (عليه السلام) بجيشه، فلما انتهى إلى الربذة، أتاه عنهم أنهم قد أمعنوا يريدون البصرة فأقام بالربذة أياما، وكتب إلى أهل الكوفة، وفي كتابه ذاك بين سبب اختياره لها دون غيرها من البلدان، واختيار أهلها من بين الناس، كتب لهم (عليه السلام):"بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد فإني قد اخترتكم، وآثرت النزول بين أظهركم؛ لما اعرف من مودتكم، وحبكم لله عز وجل ولرسوله (ص) فمن جاءني ونصرني فقد أجاب الحق وقضى الذي عليه"([4]).

فضلا عن ذلك اختارها لأنها مدينته التي ستحيي ذكره عبر التاريخ، وفي نهاية التاريخ يوم يخرج الإمام المنتظر، كما في قوله: "هذه مدينتنا ومحلنا ومقر شيعتنا". اختارها لأنها أرض مقدسة، عنه (عليه السلام): "يا أهل الكوفة حباكم الله عز وجل بما لم يحب به أحداً، ففضل مصلاكم وهو بيت آدم وبيت نوح وبيت إدريس ومصلى إبراهيم الخليل ومصلى أخي الخضر (عليه السلام) ومصلاي، وإن مسجدكم هذا أحد الأربعة مساجد اختارها الله

---

[1] المصدر نفسه.
[2] المصدر نفسه.
[3] المصدر نفسه، ج٦/ص٩-١٠
[4] جمهرة رسائل العرب، احمد زكي صفوت، ج١/ص٣٢٦، رسالة رقم ٣٥٨.

عز وجل لأهلها". وكان علي عليه السلام يقول: "الكوفة كنز الإيمان وحجة الإسلام وسيف الله ورمحه يضعه حيث شاء والذي نفسي بيده لينتصرن الله بأهلها في شرق الأرض وغربها كما انتصر بالحجاز"

ولأن الكوفة المقدسة مدينته ومقر شيعته، فقد اختار أهلها ليكونوا أعوانه لنشر الدين، كما في قوله: "أنتم الأنصار على الحق والإخوان في الدين والجنن يوم البأس والباطنة دون الناس، بكم اضرب المدبر وأرجو طاعة المقبل([1]) وقوله الآخر: "يا أهل الكوفة إنكم من أكرم المسلمين، وأقصدهم، وأعدلهم سنة، وأفضلهم سهماً في الإسلام، وأجودهم في العرب مركباً ونصاباً، أنتم أشد العرب وداً للنبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته، وإنما جئتكم ثقة بعد الله بكم للذي بذلتم من أنفسكم".

وقد اشتهرت الكوفة بحب علي (عليه السلام) لها، لأنه كان يتغزل بها في ذهابه وإيابه، قال مالك بن دينار: "كان علي بن أبي طالب إذا أشرف على الكوفة، قال:

يا حبذا مقالنا بالكوفة أرض سواء سهلة معروفه ([2])

أما أصحابه المقربون فكانوا يعرفون ذلك، ويعرفون سبب الاختيار، حيث كان سلمان الفارسي (رحمه الله) يقول: "أهل الكوفة أهل الله، وهي قبة الإسلام، يحن إليها كل مؤمن" وأما بقية أهل البيت فقد أحبوها لمعرفتهم بجليل قدرها لدرجة أن الإمام الحسن (عليه السلام) قال عندما رحل عن الكوفة بعد معاهدة الصلح مع معاوية: "

وما عن قلبي فارقت دار معاشري هم المانعون حوزتي وذماري

ولمثله ذهب الإمام زين العابدين (عليه السلام)عن حنان بن سدير، عن أبيه قال: دخلت أنا وأبي وجدي وعمي حماماً بالمدينة، فإذا رجل في بيت المسلخ، فقال لنا: ممن القوم؟ فقلنا:

[1] بحار الأنوار، المجلسي، ج ٣٢/ص ٢٣٦.
[2] معجم البلدان، ياقوت الرومي، ص ١٥٠٨.

من أهل العراق، فقال: وأي العراق؟ قلنا كوفيون، فقال: "مرحباً بكم يا أهل الكوفة، أنتم الشعار دون الدثار"([1])

وعن الرضا (عليه السلام) في مدح أهلها: "يا أهل الكوفة، لقد أعطيتم خيراً كثيراً، وإنكم لممن امتحن الله قلبه للإيمان، مستقلون مقهورون ممتحنون يصب عليكم البلاء صباً، ثم يكشفه كاشف الكرب العظيم".

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله في الكوفة: " تربه تحبنا ونحبها" وعنه أيضا انه قال في تحصينها من شرور الأعداء: "اللهم ارمي من رماها وعادي من عاداها"([2]) وعنه في مدح أهلها: "أوتادنا، وأهل هذا السواد منا ونحن منهم "([3]) وعنه كذلك في مدح أهلها وتبيان فضلهم، ما نقله الشيخ الطوسي في أماليه، حينما دخل عبد الله بن الوليد في جمع من أهل العراق، على الإمام الصادق (عليه السلام): "فقال لهم: ممن انتم؟ قلنا من أهل الكوفة. قال: ما من البلدان أكثر محبا لنا من أهل الكوفة، لاسيما هذه العصابة، إن الله هداكم لأمر جهله الناس فأحببتمونا وابغضنا الناس، وبايعتمونا وخالفنا الناس، وصدقتمونا وكذبنا الناس، فأحياكم الله محيانا، وأماتكم مماتنا"([4]) أما قدسية الكوفة فتأتي من اختيار ومحبة الإمام (عليه السلام) علي وباقي الأئمة المعصومين (عليهم السلام) لها، وتأتي من طهر وقدسية مسجدها فقد رويت في مسجدها فضائل كثيرة، أخرج ياقوت الحموي في معجمه البلداني عن حبة العرني، قال: كنت جالسا عند علي (عليه السلام) فأتاه رجل فقال: يا أمير المؤمنين هذه راحلتي وزادي أريد هذا البيت، أعني بيت المقدس، فقال (عليه السلام): كل زادك وبع راحلتك وعليك بهذا المسجد ـ يعني مسجد الكوفة ـ فإنه أحد المساجد الأربعة ركعتان فيه تعدلان عشرا فيما سواه من المساجد، والبركة منه إلى اثني عشر ميلا من حيث ما أتيته، وهي نازلة من كذا ألف ذراع، وفي زاويته فار التنور، وعند الاسطوانة الخامسة صلى إبراهيم (عليه السلام) وقد صلى فيه ألف نبي وألف وصي وفيه

---

[1] أنتم الشعار دون الدثار: كناية عن قرب المنزلة، لأن الشعار أقرب إلى البدن من الدثار.
[2] بحار الأنوار، المجلسي ج٥٧/٢١٠.
[3] المصدر نفسه، ج٥٧ / ٢١٤.
[4] الأمالي، الشيخ الطوسي، ص١٤٤

عصا موسى، وشجرة اليقطين، وفيه هلك يغوث، ويعوق، وهو الفاروق، وفيه مسير لجبل الأهواز، وفيه مصلى نوح (عليه السلام) ويحشر منه يوم القيامة سبعون ألفا ليس عليهم حساب، ووسطه على روضة من رياض الجنة، وفيه ثلاث أعين من الجنة تُذهِبُ الرجس وتطهر المؤمنين، لو يعلم الناس ما فيه من الفضل لأتوه حبوا([1])

إن من يبحث في حيثيات هذه الأقوال يجد فضلا عما ذكرناه من أسباب؛ أسبابا أخرى وهي أن من فضائل الكوفة التي تربت ونشأت على نهج الإمامة المعصومة أنها كانت خزانة العلم والإيمان، عن عبد الجبار بن عباس عن أبيه قال: "جالست عطاء فجعلت أسائله فقال لي: ممن أنت؟ فقلت من أهل الكوفة، فقال عطاء: ما يأتينا العلم إلا من عندكم" وعن ابن عون عن محمد قال: "ما رأيت قوما سود الرؤوس اعلم من قوم خلفتهم بالكوفة من قوم فيهم جرأة" ([2]).

لكن الأمويين الذين لم يكونوا يحترمون المقدس ولا يأبهون به فكرا وجغرافية وسكانا، ما كان يهمهم تقويض الكوفة حجرا على حجرا، أو قتل أهلها جيلا بعد جيل، وكان في نظرتهم إليها الكثير من الاستهانة والتحقير والكره. وكان الشعور متبادلا حيث كان الكوفيون يبادلون الأمويين المشاعر ذاتها، لأن الأمويين لم يتركوا للكوفيين ولو مجرد فرصة صغيرة لكي يحبونهم أو يحترمونهم، بل أوغروا قلوب الكوفيين بأعمالهم التي أساءوا فيها إلى الكوفة وأهلها ومقدساتها وتاريخها، ولهم في ذلك مواقف مشهودة ومشهورة، أهانوا أهلها وكفروهم وأذلوهم فأسكنوا جنودهم معهم في مساكنهم، وأخذوا الماكث منهم بجريرة ثائرهم.

ربما لأن الكوفة كانت ولادة للثوار كان الحجاج خاصة والأمويون والزبيرون عامة دائمي التقريع والإهانة للعراقيين وكوفتهم، وهناك عشرات الأقوال التي حاولوا من خلالها الإساءة إلى الكوفة وأهلها لأنها بعظمتها وجليل قدرها وصمودها وإيمانها وإخلاصها وثباتها أذلتهم. ومن محاولاتهم في إذلالها تلك الخطب الجوفاء التي كانوا يرددونها على

---

[1] معجم البلدان، ياقوت الرومي، ص ١٥٠٧.

[2] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج٦/ ص١١

مسامع أهلها، ومنها خطبة للحجاج نقلها عوانة بن الحكم، قال: سمعت الحجاج وأنا في السوق في صلاة الظهر فلما انصرف صعد المنبر فقال: يا أهل العراق وأهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق وعبيد العطاء وأولاد الإماء ألا يرفأ الرجل منكم صلعة ويخسر حمل رأسه وحقن دمه ويبصر موضع قدمه والله ما أرى الأمور تمضي حتى أوقع بكم وقعة تكون نكالا لما قبلها وتأديبا لما بعدها([1])

وحينما هزم شبيب الخارجي جيش الحجاج سار نحو الكوفة بجيشه، وكان قد وفد إلى الحجاج سفيان بن الأبرد الكلبي وحبيب بن عبد الرحمن الحكمي من مذحج في ستة آلاف فارس ومعهما خلق من أهل الشام، فاستغنى الحجاج بهم عن نصرة أهل الكوفة، وقام في الناس خطيبا، فقال: "يا أهل الكوفة لا اعز الله من أراد بكم العز، ولا نصر من أراد بكم النصر، اخرجوا عنا، فلا تشهدوا معنا قتال عدونا، الحقوا بالحيرة، فانزلوا مع اليهود والنصارى"([2]).

أما الزبيريون فلم تكن نظرتهم لأهل الكوفة بأفضل من نظرة الأمويين والحجاج، فحينما قتل مصعب بن الزبير المختار وثمانية آلاف من الأسرى، ذهب إلى أخيه عبد الله في مكة ومعه رؤساء أهل العراق وأشرافهم الذين سارعوا إلى بيعة عبد الله، وقال له: أعطهم من هذا المال! فقال عبد الله: "جئتني بعبيد أهل العراق، وأيم الله لوددت أني اصرفهم كما تصرف الدنانير بالدراهم: عشرة من هؤلاء برجل من أهل الشام"([3]).

ذوي المجرمين

كما وطبق الأمويون والحجاج سياسة (ذوي المجرمين) التي كان معمولا بها في العراق قبل التغيير في ٢٠٠٣ والتي تخالف القاعدة الفقهية القرآنية: {ولا تزر وازرة وزر أخرى} وتخالف كل القيم الإنسانية؛ مع المسلمين عامة والكوفيين خاصة، لغرض إهانتهم وتخويفهم. وقصص هذه السياسة مع الكوفيين لا تحصى، منها قصة منع عطاء النخعيين

[1] تهذيب تاريخ دمشق، ابن عساكر، ج٤/ص٦٢-٦٣.
[2] ينظر البداية والنهاية، ابن كثير، ج ٥/ص٢٣.
[3] الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، ج٢/ص٣٢

قوم إبراهيم النخعي لكي يسلموه إلى الحجاج، وقد مرت عليكم، وفي تهذيب تاريخ دمشق([1])، قال الهيثم بن عدي: دخل رجل على الحجاج فقال: أصلح الله الأمير إني موسوم بالميل مشهور بالطاعة، خرج أخي مع ابن الأشعث فحلق على اسمي، وحرمت عطائي وهدمت منزلي، فقال الحجاج: أما سمعت ما قال الشاعر؟

جانيك من يجني عليك وقد تعدى الصحاح مبارك الجرب

ولرب مأخوذ بذنب قريبه ونجا المقارف صاحب الذنب

وكانت هذه السياسة متبعة في باقي الأقاليم، فحينما أرسل عبد الملك بن مروان خالد بن عبد الله القسري واليا على مكة بدلا عن أخيه مسلمة بن عبد الملك، خطبهم خالد، وقال في خطبته: "وقد برئت الذمة من رجل آوى سعيد بن جبير، ثم التفت إليهم، وقال: والذي نحلف به ونحج إليه، لا أجده في دار احد إلا قتلته، وهدمت داره ودار كل من جاوره واستبحت حرمته"([2]).

تكفير الكوفيين

فضلا عما تقدم هناك عشرات الروايات التي يبدو من خلالها أن الأمويين كفَّروا الكوفيين ليس في وقت محدد بعينه، وإنما منذ بداية القرن الدموي، في وقت كان فيه الكوفيون أكثر اعتزازا من غيرهم بإيمانهم وعقيدتهم ومؤازرتهم للإمام علي (عليه السلام)، ولو رجعنا إلى حرب الجمل التي وقعت في بداية القرن، سوف نجد اختلافا في الرؤية بين سيدتين كبيرتين من أمهات المؤمنين هما أم سلمة وعائشة. السيدة أم سلمة كانت ترى الحق مع علي ورجاله، وترى أهل الجمل أصحاب ضلالة ولم تكتف بهذا التصور بل أرسلت ولدها عمر بن أبي سلمة ليقاتل إلى جنب الإمام، وقد جاء ذلك في رسالتها التي بعثتها إلى الإمام، وفيها: "أما بعد فإن طلحة والزبير وأشياعهم أشياع الضلالة يريدون أن يخرجوا بعائشة

[1] تهذيب تاريخ دمشق، ابن عساكر، م٤/ص٦٤، والبداية والنهاية، م٥، ج٩/ص١٥٠.
[2] الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، ج٢/ص ٦٠و٦١.

إلى البصرة، ومعهم ابن الحزان عبد الله بن عامر بن كريز، ويذكرون أن عثمان قتل مظلوما، وأنهم يطلبون بدمه، والله كافيهم بحوله وقوته، ولولا ما نهانا الله عنه من الخروج، وأمرنا به من لزوم البيوت، لم أدع الخروج إليك، والنصرة لك، ولكني باعثة نحوك ابني عدل نفسي، عمر بن أبي سلمة، فاستوص به يا أمير المؤمنين خيرا"([1]).

والسيدة عائشة التي كانت من قادة جيش الجمل، جاء في رسالتها التي ردت بها على رسالة بعثها إليها مالك الأشتر (رحمه الله)، قولها: "أما بعد، فإنك أول العرب شب الفتنة، ودعا إلى الفرقة، وخالف الأئمة، وسعى في قتل الخليفة، وقد علمت أنك لن تعجز الله حتى يصيبك منه بنقمة ينتصر بها منك للخليفة المظلوم، وقد جاءني كتابك، وفهمت ما فيه وسيكفينيك الله، وكل من أصبح مماثلا لك في ضلالك، وغيك، إن شاء الله"([2]).

فمثل هذه المصطلحات الجارحة التي تتراوح بين الاتهام بالدعوة إلى الفتنة والفرقة، والاتهام بمخالفة الأئمة، وتحدي الله سبحانه وتعالى، ومن ثم الاتهام بالضلال والغي، حينما تصدر من السيدة بحق واحد من أكبر وأشرف صحابة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وفي ذاك الوقت المتقدم من عصر الإسلام أي سنة ٣٦ للهجرة، لا يمكن إلا أن تؤسس لثقافة التجاوز على الآخرين مهما كانت منزلتهم ودرجتهم، وحينما سن الأمويون لعن الإمام علي (عليه السلام) إنما استشرفوا ما في هذه الأقوال واتخذوه داعما لمنهجهم المنحرف، ولذا ليس غريبا أن يكفر عبد الملك بن مروان أهل العراق ولاسيما الكوفيين، ويطلب من الحجاج أن يحاسب من يقر منهم بالكفر على نفسه حسابا يسيرا.! وليس غريبا أن يكفر الحجاج سعيد بن جبير الذي طلب أن يصلي ركعتين قبل أن يذبحوه، فاستقبل القبلة، وهو يقول: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا مسلما وما أنا من المشركين، فقال الحجاج: اصرفوه عن القبلة الى قبلة النصارى الذين تفرقوا واختلفوا بغيا بينهم فإنه من حزبهم، فصرف عن القبلة([3]) ولقد أثبت الأمويون بعد حين أنهم أهل بكل

---

[1] جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، احمد زكي صفوت، ج١/ص٣١٦، رسالة رقم ٣٤٣.

[2] المصدر نفسه، ج١/ ص ٣١٦-٣١٧، رسالة رقم ٣٤٥.

[3] الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، ج٢/ص٦٣.

تلك الأقوال الجارحة التي نسبوها إلى أهل الكوفة الأبرياء، ولاسيما وأن أمراؤهم وخلفاؤهم هم الذين صرحوا بالكفر أو سكتوا عنه كما سيتبين لاحقا.!

مطاردة الكوفيين

مسألة أخرى من مسائل العداء الأموي الكوفي التي تسببت في إلحاق الأذى بالكوفيين ومن ثم دفعتهم إلى مناصرة الحركات الثورية للانتقام من الأمويين، والتي أدت إلى التحاق الكوفيين بالعباسيين، هي المطاردة المستمرة لهم، وتحديد تحركهم، وحرمانهم من اختيار أماكن السكن التي يأمنون فيها شرور الأمويين. ففي سنة إحدى وتسعين ولى الوليد بن عبد الملك خالد بن عبد الله القسري مكة المكرمة للمرة الثانية، فخطبهم مثل خطبته الأولى، فقال: "فإني والله ما أوتى بأحد يطعن على إمامه إلا صلبته في الحرم.. واعلموا أن قوما من أهل الخلاف يقدمون عليكم، ويقيمون في بلادكم، فإياكم أن تُنزلوا أحدا ممن تعلمون انه زائغ عن الجماعة، فإني لا أجد أحدا منهم في منزل احد منكم؛ إلا هدمت منزله.... والله لو اعلم أن هذه الوحش التي تأمن في الحرم، لو نطقت لم تقر بالطاعة لأخرجتها من الحرم، إنه لا يسكن الحرم وأمنه مخالف للجماعة"([1]).

أما سبب ذلك فلأن الحجاج بظلمه وعسفه اجبر أهل العراق والمعارضين على الهرب من الكوفة والبصرة إلى باقي الأمصار، وقد تم عزل عمر بن عبد العزيز عن الحجاز لأنه كتب إلى الوليد يخبره بعسف الحجاج أهل عمله بالعراق واعتدائه عليهم وظلمه لهم بغير حق ولا جناية، وان ذلك بلغ الحجاج فاضطغنه على عمر، وكتب إلى الوليد: إن من قبلي من مراق أهل العراق وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق ولجأوا إلى المدينة ومكة، وإن ذلك وهن"([2])، ولذا ترى عثمان بن حيان؛ الذي عين واليا على المدينة سنة أربع وتسعين، يأخذ رياح بن عبد الله ومنقذا العراقي فيحبسهما ويعاقبهما ويقيدهما ويرسلهما إلى الحجاج، ولم يترك بالمدينة أحدا من أهل العراق تاجرا ولا غير تاجر، وأمر بهم أن يخرجوا من كل

[1] تاريخ الطبري، الطبري، ج٦/ص ٣٥٠-٣٥١.
[2] المصدر نفسه، ج٦/ص ٣٦٢

بلد" ثم خطب فسب العراق والعراقيين، ثم قال: "فإني والله لا أوتى بأحد آوى أحدا منهم أو أكراه منزلا ولا انزله إلا هدمت منزله وأنزلت به ما هو أهله"([1])، وقال سعيد بن عمرو الأنصاري: "رأيت منادي عثمان بن حيان ينادي عندنا: "يا بني أمية بن زيد برئت ذمة الله ممن آوى عراقيا". وقال محمد بن عمر: وحدثنا عبد الحكم بن عبد الله بن أبي فروة، قال: "إنما بعث الوليد عثمان بن حيان إلى المدينة لإخراج من بها من العراقيين"([2]) وحينما ولي سليمان بن عبد الملك الخلافة سنة ست وتسعين عزل عثمان عن المدينة بعد أن أدى دوره([3]).

وإن كانت من حسنة لهذه السياسة القبيحة فهي أنها تسببت مثل باقي أعمال الأمويين المنحرفة في تنمية مشاعر الضغينة والحقد ضدهم وتأليب الناس عليهم بسبب مخالفاتهم الشرعية والإنسانية، وأعطت الكوفيين دافعا دائما للثورة ضد الأمويين كلما سنحت الفرصة إلى أن تحقق لهم ذلك بعد حين.

---

[1] المصدر نفسه،ج ٦ /ص ٣٦٥.
[2] المصدر نفسه،ج ٦ /ص ٣٦٦
[3] المصدر نفسه،ج ٦ /ص ٣٦٥.

الفصل السابع

بداية الانحدار

بداية الوهن

بدأ انحدار النظام الأموي منذ اللحظة الأولى التي وضعوا فيها أول حجر أساس لإمبراطوريتهم، لأنها كانت إمبراطورية شر ودماء؛ وكان الأمويون قد بدأوا تخريب إمبراطوريتهم في وقت مبكر من تأسيسها، وتحديدا مع بداية أول حرب داخلية بينهم يوم اغتالوا معاوية بن يزيد بن معاوية؛ الذي ولي الخلافة سنة ٦٤ للهجرة بعد موت يزيد بن معاوية([١])، أي مع ثالث خليفة لهم. حيث احتار المؤرخون في سبب موته بعد مدة يسيرة من تنصيبه، التي قيل: إنها ليست أكثر من أربعين يوما، وقيل شهرين([٢]). واحتاروا في سبب وفاته، فمنهم من رأى أنه سقي شربة (أي شربة سم) ومنهم من رأى أنه طعن، وهو ابن اثنين وعشرين سنة"([٣]).

ثم اغتالوا الوليد بن عتبة بن أبي سفيان؛ الذي تولى الصلاة على معاوية الثاني، ليكون الأمر له من بعده، بعد أن كبر التكبيرة الثانية من الصلاة، حيث طعن، فسقط ميتا قبل إتمام الصلاة([٤]).

وما من مؤرخ إلا وقد أدلى بدلوه في خلاف الأمويين مع بعضهم سواء كان محبا أم مبغضا لهم، وفي حديثه عن مسلمة بن عبد الملك بن مروان الأمير والقائد الأموي الذي خدم دولتهم وستة من حكامهم؛ دون أن يلي الملك، قال الدكتور عواد الأعظمي: "ولكنه كان فوق الشبهات والمطامع والأهواء والصراعات التي كانت تعصف بالخلافة الأموية"([٥])، فكم هي كبيرة وشهيرة تلك الصراعات التي كانت تعصف بالخلافة الأموية لتصبح مضربا للمثل، وتجعل الأمراء يعزفون عن الخلافة خوفا على أرواحهم؟

---

[١] من غرائب الصدف ان يزيد بن معاوية خلف اربعة عشر ولدا وخمس بنات، وقد انقرض هؤلاء كافة ولم يبق من عقب ليزيد منهم حيث لم يخلفوا فانقطع نسل يزيد ولم تبق له سلالة ولم يعرف له ذكر. ينظر: معاوية الثاني والتشيع في البلاط الأموي، المحامي محسن خزعل المحسن، دار ميزوبوتوميا، بغداد، ٢٠١٠، ص ١٢٨.

[٢] ينظر: مروج الذهب، المسعودي، ج٣/ص٨٥.

[٣] المصدر نفسه، ج٣/ص٨٦

[٤] ينظر: المصدر نفسه.

[٥] الأمير مسلمة بن عبد الملك، الدكتور عواد مجيد الأعظمي، ص٦.

وبالرغم من كون المرحلة الثانية من قرن الدماء تبدأ في عام ٨٢ هجرية مع ثورة الكوفة على الأمويين، إلا أننا ممكن أن نرجع بدايتها الحقيقية إلى تاريخ أقدم كثيرا، ونعود تحديدا إلى بداية قرن الدماء سنة ٣٢ هجرية، حينما تسلط الأمويون على مقاليد أمور المسلمين، وخالفت أقوالهم وأعمالهم شريعة الإسلام. ففي هذا الزمن بالذات قام الأمويون بتسييس الفتوح الإسلامية علنا وحولوها إلى آلية للتخلص من المعارضين، وقتل الأعداء المحتملين، وإشغال الناس بأمور تلهيهم عن رصد مخالفات الحكام، أو مجرد الاعتراض عما يقع من مخالفات، فضلا عن كسب الأموال، والحصول على النساء الجميلات. وإن كان ذلك قد حقق لهم مقومات القوة في زمن ما، فإنه تحول فيما بعد إلى عنصر من عناصر نخر الدولة والإسهام في تقويضها. وفي هذا التاريخ وضمن هذه التداعيات ولدت آلية سياسية دينية عرفت باسم (جمر المخالفين في الحروب) كان من حظ الكوفة أن تكون أكبر ضحاياها، وكان لها الفضل في إذكاء روح العداء الكوفي للأمويين وبالتالي الإسهام في إسقاط دولتهم.

جمر المعارضين في الحروب

إن سياسة جمر المعارضين في الحروب كانت إحدى أهم نقاط المشروع الأموي، وأكبر خططهم الإستراتيجية لتحقيق غاياتهم، ومنها إشغال المعارضين بأمور تمنعهم عن العمل ضد الدولة، من خلال إبعادهم عن مراكز المدن، وتعريضهم إلى القتل تحت غطاء ديني، أو إنهاكهم وإتعابهم وربما تعريضهم إلى عوق جسدي يمنع إسهامهم بفاعلية في حركات المعارضة. وهذه السياسة ليست جديدة على الأمويين فقد كانت من أهم فقرات مشروع النصف الأول من قرنهم الدموي، وكانوا قد اقترحوها في بداية تنامي قدراتهم الفكرية السياسية على الخليفة عثمان، اقترحها سعيد بن العاص في المؤتمر الذي عقده الخليفة عثمان لأمرائه على الأمصار بعد أن كثرت شكاوى أهل الأقاليم، ولاسيما الكوفة منهم، لتكون بديلا عن موافقة الخليفة على مطالب أهل الأقاليم، قائلا: "إنك إن فعلت هذا كان

أهل الكوفة هم الذين يولون ويعزلون، وقد صاروا حلقا في المسجد ليس لهم غير الأحاديث والخوض، فجهزهم في البعوث، حتى يكون هم أحدهم أن يموت على ظهر دابته"([1]).

وهنا قد يقول قائل: إن سعيد بن العاص كان يحاول لملمة الغضب وإطفاء نار الفتنة عندما أقترح على الخليفة هذا المقترح، ولا يوجد تأكيد على أن هذا الرأي يدل على وجود مؤامرة سياسية أموية في الأفق، وأقول لأصحاب هذا الرأي: لكن تكملة الخبر تؤكد أن هنالك مؤامرة كبيرة، وهناك متآمرون كانوا يؤججون نار الفتنة، ويشجعون الناس على التمرد، ويدعمون حراكهم بالمال، حيث ورد في الخبر نفسه أن عمرو بن العاص الذي كان حاضرا في المؤتمر خرج إلى المسجد بعد أن سمع مقترح سعيد "فإذا طلحة والزبير جالسان في ناحية منه. فقالا له: تعالى إلينا، فصار إليهما، فقالا: ما وراءك؟ قال: الشر، ما ترك [أي عثمان] شيئا من المنكر إلا أتى به وأمره به. وجاء الأشتر، فقالا له: إن عاملكم الذي قمتم فيه خطباء قد رد عليكم، وأمِرَ بتجهيزكم في البعوث بكذا وبكذا. فقال الأشتر: والله لقد كنا نشكو سوء سيرته وما قمنا فيه خطباء، فكيف وقد قمنا؟ وأيم الله على ذلك لولا أني أنفدت النفقة وأنضيت الظهر لسبقته إلى الكوفة حتى أمنعه دخولها. فقالا له: فعندنا حاجتك التي تقوم بك في سفرك! قال: فأسلفاني إذا مائة ألف درهم. قال: فأسلفه كل واحد منهما خمسين ألف درهم فقسمها بين أصحابه وخرج إلى الكوفة فسبق سعيدا وصعد المنبر وسيفه في عنقه ما وضعه بعد، ثم قال: أما بعد فإن عاملكم الذي أنكرتم تعديه وسوء سيرته قد رد عليكم فبايعوني على أن لا يدخلها فبايعه عشرة آلاف من أهل الكوفة" ([2]).

فما هي مصلحة طلحة والزبير في تأجيج الناس وتحريضهم على الخليفة وأمرائه على الأقاليم وهما ليسا أمويان؟ وما هو الدافع الذي يقف وراء تبرعهم بالمال لدعم الغاضبين على ولاة الخليفة من أهل الأمصار، لو لم تكن هناك تأثيرات مؤامرة كبيرة تحاك في الظلام وتستغل غضب الجماهير للإطاحة بالخليفة واستلام الحكم؟

---

[1] المستدرك، الحاكم، ج٢/ص ٣٥٥ ، وقد روي هذا الخبر بصيغ كثيرة، جاء في بعضها قول سعيد: "حتى لا يكون هم أحدهم إلا قمل فروته وقراد دابته!

[2] مروج الذهب، ٢ المسعودي، ج٢ / ٣٥٥.

كذلك نجد أن خروج طلحة والزبير للمطالبة بدم عثمان لا يتساوق أبدا مع دفعهم الأموال الطائلة إلى المعترضين على ولاته وحكومته والساعين إلى قتله أبدا.

فما هو الدافع لخروجهم إذن؟ وهل كانوا هم أنفسهم من المتآمرين، أم أن لعبة كبيرة انطلت عليهم وانخدعوا بها؟ أم أنهم كانوا يخططون لأنفسهم بعيدا عن المتآمرين؟

وأنا أعتقد أنهم لم يكونوا من بين صفوف أتباع المؤامرة الأموية، ولكنهم انخدعوا بفكر المتآمرين الأمويين وخططهم. وأن المتآمرين كانوا يرون في كل من يسعى إلى الخروج على خليفة زمانه سواء كان عمر أو عثمان أو الإمام علي نصيرا لهم، وميسرا لمشروعهم، أو أن محصلة عمله تعود بالنفع عليهم، ولذا كانوا يسهمون في دعمه وتشجيعه، لأن محصلة عمله تدعم مشاريعهم، مع أنها تضعف الآصرة بين المسلمين والروابط المجتمعية بينهم بما تخلفه من عداوات وسفك دماء.

ومن الغرابة أن تجد سعيد بن العاص قد تعلم هذا المنهج من الخليفة نفسه، يوم ثار عليه الكوفيون بسبب سوء أعماله، فكتب إلى الخليفة عثمان مستنجدا به، فاصدر الخليفة امرا بتجنيدهم وإرسالهم إلى الشام فورا لكي يسهموا في الفتوح تحت إمرة معاوية، وأخبر سعيدا أنه قد كفاه شرهم.! وقصة تلك الحوارية أوردها ابن شبة في تاريخ المدينة: عن عبيد بن محصن: كتب سعيد بن العاص إلى عثمان (رض): إن قبلي قوما يُدعون القراء، وهم سفهاء، وثبوا على صاحب شرطتي فضربوه ظالمين له، وشتموني، واستخفوا بحقي. فكتب عثمان (رض) إلى الذين سماهم؛ أَن يأْتوا الشام ويغزوا مغازِيهم. وكتب إلى سعيد: "إني قد كفيتك مؤونتهم فأقرئهم كتابي فإنهم لَا يخالفون إن شاء اللَّه. فأَقرأَهم سعيد الكتاب، فشخصوا إلى دمشق([1]).

ولم تكن المرة الأولى التي يرسل الكبار والحكام فيها معارضيهم إلى الحروب للتخلص منهم، فقد عمل الأمويون بجد للتخلص من كل المنافسين المحتملين، ولاسيما أولاد رموز الصحابة وكبارهم الذين كانوا يرونهم أكثر رغبة من آبائهم للعمل في المجال السياسي، مما يعني أنهم يشكلون خطرا كبيرا محتملا على المشروع الأموي؛ يجب التخلص منه

[1] تاريخ المدينة، عمر بن شبة، ج٣/ ص ١١٤٠-١١٤١.

بشكل لا يثير الريبة والشك، وليس هناك أسهل من طريق الغزوات العقائدية لهذا الغرض، وقد أشركوا فعلا عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر،وغيرهم في الفتوح. ويتبين من حديث البلاذري عن الجمر في الحروب وكأن الخليفة عثمان هو من كان يصر على إشراك هؤلاء في الفتوح (١)، ولذا جاء مقترح سعيد متناغما مع سياسة الخليفة وليس ابتداعا!

إن مسألة جمر المعارضين في الغزوات والحروب للتخلص منهم سمة معروفة ونهج كان متبعا طوال سنوات الفتح تقريبا باستثناء فتوح عصر البعثة، ولذا يعتقد المستشرق "هنري ماسيه" أنه: "يمكن أيضا أن يكون للخلفاء مصلحة في قذف رعاياهم في الغزوات ليبعدوهم عن العاصمة، ويربطوهم بالإسلام بواسطة الفتوحات والغنائم" (٢).

أصبح جمر المعارضين في حروب الفتوح بعد هذا التاريخ نهجا سياسيا يتبعه الخلفاء والأمراء علنا، ويروي اليعقوبي أن معاوية بن أبي سفيان "كان إذا بلغه عن رجل ما يكره، قطع لسانه بالعطاء، وربما أحتال عليه فبعث به في الحروب"(٣)، وربما لهذا السبب ترى الباحثين يختلفون في دوافع الفتوح،ولا يرجعوها إلى سبب محدد بعينه، وقد شكك الكثير منهم في صحة الإدعاء بأنها عقائدية.! وعليه قال الدكتور السيد عبد العزيز سالم أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية الآداب في جامعة الإسكندرية بمصر: "فبعضهم يرجع ظاهرة الفتوحات إلى أسباب اقتصادية، وجمهور آخر يرى أنها بدافع الجهاد، وفريق ثالث يرجح العامل القومي"(٤)، وهذا الرأي حتى وإن كان لم يتطرق إلى الجانب السياسي، إلا انه من دون شك أكد على حقيقة اختلاف النظر إلى أسباب الفتوح.!

ومن المؤكد أن سياسة جمر المعارضين في الحروب لم تكن خافية على الناس، ولاسيما من كان منهم قريبا من صناع الحدث، يذكر ابن الأثير أن عبد الرحمن بن الأشعث بعدما أخبر من معه بخلع الحجاج؛ قاموا يؤيدون قراره، وكان عبد المؤمن بن شبث بن ربعي

---

١ فتوح البلدان للبلاذري، ص ٢٢٨

٢ الإسلام، هنري ماسيه، ص ٨٧

٣ تاريخ اليعقوبي، ج٢/ص ٢٣٨.

٤ التاريخ السياسي والحضاري للدولة العربية، الدكتور السيد عبد العزيز، ص ١٩٧.

أحد الذين قاموا، فأشار إلى قضية الجمر بالحروب، فقال: "عباد الله إنكم إن أطعتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم، وجمركم تجمير فرعون الجنود، فإنه بلغني أنه أول من جمر البعوث، ولن تعاينوا الأحبة أو يموت أكثركم فيما أرى"([1]).

ومع كبير ما حققه جمر المعارضين في الحروب للأمويين من مكاسب، إلا أنه كان من جانب آخر أحد أهم الأسباب التي دفعت الناس إلى الثورة ضدهم، فان الجمر في الحروب جعل الناس يؤمنون أن الأمويين يسخرونهم لتحقيق المكاسب والمصالح لا أكثر، غير ملتفتين إلى حياتهم وعوائلهم ومصالحهم، ولا توجد أي مصلحة للدين في تلك الغزوات.

إن الحديث عن جمر المعارضين في الحروب في هذا الوقت المتقدم من عمر الإسلام وعمر السياسة الإسلامية يؤكد وجود التداخل والترابط بين قسمي قرن الدماء بما يجعل الحديث عن أي منهما مرتبطا بالآخر بشدة ومتداخلا معه لا يمكن فصلهما. ويؤكد وجود التداخل بين السياسة والدين، وهو التداخل الذي طبع ذلك القرن بكثير من الصفات، لم يكن الإيمان الخالص من بينها.

ولقد بلغ الأمويون شأنا عاليا في استنباط طرائق جديدة للجمر، تمثلت في فرض نوع من العقوبة على أهل البلدان المفتوحة عنوة تتمثل في وجوب تجهيز الجيش الإسلامي بعدد من المقاتلين وفق صفات هم يحددونها لكي يقاتلوا معهم في مناطق أخرى، وقد يقاتلون بني جنسهم، إرضاء للأقوياء.! إذ ورد في النقول التي تحدثت عن انتصارات الجيش الأموي على الأمم الأخرى عبارة: "وصالحهم على كذا رأس"، وهو مصطلح يقصد به وجوب قيام البلد المهزوم بتزويد جيش الأمويين بالعدد الذي تم الاتفاق عليه من الرجال، يقاتلون معه في جيشه، ويتم تقديمهم أمام الجيش الأموي في بداية الحروب لتقع المذبحة بهم أولا، ثم يتقدم العرب من خلفهم وهم بكامل قوتهم. وكانوا يختارون هذه الرؤوس بعناية كبيرة ووفق شروط انتقائية، كما في شرط قتيبة على ملك سمرقند المهزوم: "على أن يعطوه تلك السنة ثلاثين ألف رأس، ليس فيهم صبي ولا شيخ ولا عيب... وكان صالحهم قتيبة على

[1] الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج٤/ص١٣٠ وتاريخ الطبري، الطبري، ج٦،/ص ٢٦٤ .

مائة ألف رأس([1])، ومثله، أورده الطبري، عن الصلح مع ملك خوارزم: "وصالح مالك خوارزم صلحا مجددا... فصالحه على عشرة آلاف رأس وعين ومتاع"([2])، وفي الإمامة والسياسة في حديثه عن فتح هوارة وزناتة وكتامة: "فبلغ سبيهم خمسة آلاف رأس"([3]).

وقال عن فتح صنهاجة: "فبلغ سبيهم يومئذ مئة ألف رأس، ومن الإبل والبقر والغنم والخيل والحرث والثياب ما لا يحصى"([4])، وقال عن فتح سجوما: "وبلغ سبيهم مائتي ألف رأس، فيهم بنات كسيلة وبنات ملوكهم، وما لا يحصى من النساء السلسات اللاتي ليس لهن ثمن ولا قيمة([5])، وفي غزوة السوس بلغ السبي أربعين ألفا([6]).

ولما دخل قتيبة بن مسلم مدينة فيل، اضطر ملك خوارزم إلى قبول ما صالحه عليه. وقال الباهليون: "أصاب قتيبة من خوارزم مائة ألف رأس([7]).

وقد تكرر هذا الشرط ضمن شروط الصلح مع الأعداء عشرات المرات.! فعاب بعض ملوك العجم على العرب هذا الأسلوب، ففي معركة سمرقند سنة ثلاث وتسعين، كتب ملكهم غوزك إلى قتيبة بن مسلم: "إنما تقاتلني بإخوتي وأهل بيتي من العجم، فأخرج إلي العرب"([8]).

لقد حققت هذه السياسة القسرية للأمويين منافع كبيرة لأنها أمدتهم بمقاتلين لا تحصى أعدادهم مهمتهم القتال فقط إذ لا عطاء ولا فيء ولا مكسب لهم لأنهم يدورون في حلقة مفرغة تشبه حلبات المصارعة الرومانية إما الموت وإما الانتصار، ولكن لا يكسب شيئا في الحالين. وقد جاء في الإمامة والسياسة أن سليمان بن عبد الملك بعث أخاه مسلمة بن عبد الملك إلى ارض الروم ووجه معه خمس مئة وثلاثين ألف رجل، وخمس مئة رجل

---

[1] تاريخ الطبري، الطبري، ج ٦/ص ٣٥٨.
[2] المصدر نفسه، ج ٦/ ص ٣٥٤ ـ٣٥٥.
[3] الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، ج٢/ ص ٧٦.
[4] المصدر نفسه، ج٢/ص ٧٧
[5] المصدر نفسه ،ج٢/ص ٧٨.
[6] المصدر نفسه ،ج٢/ص ٨٢.
[7] تاريخ الطبري، الطبري، ج ٦/ص ٣٥٥ـ٣٥٦.
[8] المصدر نفسه، ج ٦/ص ٣٥٧.

ممن قد ضمه الديوان"([1])، فمثل هذا العدد من المقاتلين الذي بلغ قرابة الستمائة ألف مقاتل؛ ما كان ليتحقق لولا أعداد المقاتلين الأجانب الذي فرض عليهم التجنيد الإجباري.

تعود بداية الاستعانة بالآخر في الحروب إلى أيام الحرب مع الفرس في خلافة عمر بن الخطاب، حيث انضم سباه الاسواري قائد مقدمة جيش يزدجرد بجيشه إلى جيش المسلمين بصفة حليف، تلاه انضمام السياسجة والزط والاندغار، وهؤلاء جميعا من أهل السند كان الجيش الفارسي قد سباهم في حروبه، فلما انهزم أمام العرب وجدوها فرصة للبحث عن الحرية([2]).

أما فكرة حشد أعداد من أهل البلدان المهزومة للقتال إلى جنب المسلمين؛ فتعود إلى أيام فتح أذربيجان في خلافة عمر بن الخطاب أيضا، وكانت طوعية، تحشد الأمم التي تهزم أمام العرب بعض بنيها دون تحديد للعدد للقتال مع المسلمين، فتسقط الجزية عمن يشترك بالحرب([3])، ثم مع ازدياد الحاجة إلى المقاتلين بسبب اتساع رقعة زحف الجيوش تقدمت الفكرة باتجاه تحديد أعداد ثابتة من كل بلد، يحددها القائد العربي، ولا علاقة لها بالخراج أو الجزية، وإنما تصبح شرطا من شروط المهادنة أو المصالحة يتوجب على الدولة المهزومة أن تقدمه إلى الجيش العربي، حيث عرف نظام الرؤوس الذي تحدثنا عنه. وقد حول هذا الأسلوب جيش الدولة إلى قوة تخشاها الأمم، ولكنه أسهم من حيث لا يعلمون في تعجيل سقوطهم.

الانتقام

الأسلوب الذي استخدمه الأمويون في الداخل مع المسلمين ولاسيما الشيعة والمخلصين لدينهم من السنة، وفي الخارج مع سكان البلدان التي غزوها وفتحوها عنوة بقوة السلاح، ثم جندوا شبابها ليقاتلوا جيرانهم وأهلهم وأقربائهم من اجل قضية ليست قضيتهم، ليس فيها ما يخدم الإسلام أو يرغب الناس فيه، بل على خلاف ذلك خلقت حالة رفض مكبوت

[1] الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، ج٢/ ص١٠٢.
[2] ينظر: دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور خالد العسلي، ج٢/ص١٣٢.
[3] المصدر نفسه، ج٢/ص١٣٣.

ينتظر الفرصة للانطلاق محشوا برغبة شديدة بالانتقام، انتقام الشيعة من الأمويين، وانتقام شعوب البلدان الأخرى من الإسلام بقضه وقضيضه، بمعنى أنه لم يكن الشيعة أو السنة وحدهم يحملون الرغبة بالانتقام من الأمويين، بل كان هناك ذلك الحقد الكبير الذي خلفه الأمويون في قلوب الشعوب التي غزوها وسلبوها أموالها وسبوا نساءها وجندوا شبابها ليقاتلون بالنيابة عنهم في حروب عبثية لا ناقة لهم فيها ولا جمل، ولذا تجدهم ما إن يشعروا أن جيش الإمبراطورية مصاب بالوهن أو شعب الإمبراطورية مصاب بأزمة داخلية حتى يسارعوا للانتفاض والثورة على الأمويين للانتقام منهم، فمثلا وقع بالشام سنة تسع وسبعين طاعون عظيم كاد الناس يفنون من شدته، وحينما علم الروم بذلك تحركوا ووصلوا إلى أنطاكية، فأصابوا خلقا من أهلها([1]).

وقبلها في سنة ست وستين فيما عرف بعام الفوضى كان عبد الملك بن مروان قد سار بجيشه ينتظر نتيجة القتال بين ابن زياد وإبراهيم بن مالك الأشتر، فاتاه خبر مقتل ابن زياد، ثم أتاه خبر مقتل حبيش بن مدلجة؛ الذي كان على الجيش بالمدينة لحرب ابن الزبير، وخبر دخول ناتل بن قيس فلسطين من قبل ابن الزبير، ومسير مصعب إليها، وخبر خروج عبيد وأوباش ودعار الشام على أهلها، وخبر هروب السجناء من سجن العاصمة، وخبر إغارة الإعراب على حمص وبعلبك والبقاع. في هذه الفوضى العارمة جاءه خبر مسير الروم يريدون الشام، وفعلا هددوا أمن الإمبراطورية، ولأنهم كانوا أصحاب اليد العليا وكان بمقدرتهم اكتساح العاصمة ولو لبعض الوقت تجدهم "لم يقنعوا إلا بتنازل كبير من عبد الملك مقابل أموال وهدايا([2]).

إن ما حدث منذ فشل ثورة ابن الأشعث ولاسيما قتل مئات الألوف من المسلمين على يد الحجاج، وما رافق غزوات الأمويين ضد شعوب العالم الأخرى منذ عام ٨٢ هجرية بالرغم مما حققه من مكاسب للأمويين تسبب كذلك في توهين أركان إمبراطوريتهم فتحولت من كيان يبدو للناظر عظيما إلى بناء هزيل آيل للسقوط، وكان السقوط.

---

[1] ينظر البداية والنهاية، ابن كثير، ج ٥/ص٣٤.

[2] ينظر: مروج الذهب، المسعودي، ج٣/ص١١٢.

في هذه السنوات كانت الناس لما تزل تلعق جراحها وتستعيد ذكريات وجعها وتجتر أحزانها، ولم تكن مستعدة لخوض تحرك جديد ضد الأمويين، ولكن الأمويين الذين استساغوا الخوض في الدماء لم تهدأ نائرتهم وكانوا يبحثون عن أحداث يجددون بها نشاط جيوشهم لكي تبقى على استعداد لمواجهة أي طارئ، وكانوا يفرغون شحنات غضبهم من خلال الغزوات التي قاموا بها ضد الشعوب، حيث أرسل الحجاج قتيبة بن مسلم الباهلي واليا على خراسان فهيأ الأخير جندا لغزو أخْرُون وشُومان وسار بهم. ومن جهته غزا مسلم بن عبد الملك الروم([1])، ولم يكن ما تحقق في كلتا الغزوتين ذو شأن يستحق التضحية بأعداد كبيرة من البشر، ولكنه أظهر ضعف الإمبراطورية التي كانت تشهد مراحل السقوط. ومن مراحل السقوط كان التبديل المستمر للخلفاء والولاة والقادة الكبار الذين تحولوا بين ليلة وضحاها إلى مطاردين بعد أن كانوا يطاردون المسلمين وغيرهم دفاعا عن الحكام.

إن التربية الدموية التي نشأ عليها خلفاء وولاة الدولة الأموية إن كانت قد حققت لهم التمدد والمكوث في الحكم حينا من الدهر، فهي في ذات الوقت منحت أعداءهم قوة حقد مضاعفة أسهمت في تقويض الدولة، كما أن ما حققته الفتوح من مكاسب مادية ومعنوية وما أدخلته إلى المجتمع الإسلامي من أنواع الإماء وتفننهن ومهاراتهن أغرى الحكام بهن فصرفهم عن متابعة أمور الدولة إلى متابعة الغناء والطرب والتشبيب بتلك النساء الأجنبيات اللواتي سلبن لبهم فطاش فكرهم، وانشغلوا بهن عما سواهن. ولم تكن دعوة سعيد بن جبير على الحجاج: "اللهم لا تترك له ظلمي، واطلبه بدمي، واجعلني آخر قتيل يَقتِلُ من أمة محمد" ([2])، تخصه وحده، بل كانت عامة شاملة تخص جميع الأمويين الراضين بالظلم، وتخص الخلفاء قبل الولاة، وتخص من يعين على الظلم قبل الخلفاء، وقد استجاب الله سبحانه دعوة سعيد، فجعل الأمويين يهدمون أسوار دولتهم بأيديهم. ولم يأت تهاوي حكم الأمويين من

[1] تاريخ الطبري، الطبري، ج٦/ص٣٢٤.
[2] الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، ج٢/ص ٦٣

سبب أو دافع واحد فقد تعددت الأسباب والدوافع واجتمعت كل تلك الأسباب التي ذكرناها لتقوض دولتهم. وقد أخذت اتجاهات التقويض ثلاثة اتجاهات:

الأول: عداء مستشرٍ بين أفراد الأسرة الحاكمة.

الثاني: خوف متبادل بين الخلفاء وولاتهم بسبب تعود الخلفاء على القتل وسفك الدماء وتكدس الأموال الطائلة لديهم، وتدخل الولاة في شؤون الأسرة الحاكمة.

الثالث: خوف من تنامي قدرات القادة الميدانيين واتساع قاعدتهم الجماهيرية بما يبدو وكأنه سرق الأضواء من الحكام.

الأخوة الأعداء

كان الخلاف بين أفراد الأسرة الأموية الحاكمة أحد الأسباب المهمة التي أسهمت في سقوط الأمويين، وكنا قد أشرنا من قبل إلى أن دولة الأمويين ولدت وهي تحمل جينات السقوط في داخلها، لكن مرحلة تنفيذ عملية السقوط كانت قد بدأت فعلا سنة ست وثمانين في النصف من شوال؛ يوم هلك عبد الملك بن مروان بعد أكثر من واحد وعشرين سنة دموية، قضى تسع سنين منها يقاتل عبد الله بن الزبير وثلاث عشرة سنة حاكما مطلقا لا ينازعه المنصب أحد من الكبار([1]) حيث بويع بعده لابنه الوليد بن عبد الملك، الذي كان ينتظر الخلافة بلهفة وشوق لدرجة انه استعجل دفن أبيه ثم دخل المسجد، فأبن أباه ببضع كلمات بائسة، نصفها حمد الله فيه لأن الخلافة آلت إليه، فقال: "إنا لله وإنا إليه راجعون، والله المستعان على مصيبتنا بموت أمير المؤمنين، والحمد لله على ما انعم به علينا من الخلافة. قوموا فبايعوا([2]).

وقد مهد لها قبل ذلك الخلاف بين عبد الملك وأخيه عبد العزيز، ففي أيام عبد الملك كان عبد العزيز يصول ويجول ويصدر أوامر تخالف أوامر الخليفة، كما حدث سنة إحدى وثمانين يوم وجه عبد الملك موسى بن نصير إلى إفريقيا لمقاتلة البربر فرده عبد العزيز

[1] ينظر تاريخ الطبري، الطبري، ج٦/ص٣٢٠ .
[2] المصدر نفسه، ج٦/ص ٣٢٣.

من مصر إلى الشام، وبعث مكانه قرة بن حسان الثعلبي الذي لم يوفق، فهزم بها، وقتل غالب أصحابه. ولم ينجح عبد الملك في اخذ البيعة للوليد إلا بعد موت عبد العزيز بمصر سنة أربع وثمانين، وهذا واحد من الخلافات التي مهدت للخلاف الأكبر بين أفراد الأسرة الحاكمة([1]).

وحتى حينما نصب عمر بن عبد العزيز بعد هلاك سليمان بن عبد الملك، ثارت حوله المؤامرات لأنه خرج على أسس المنهج الأموي ومن المؤكد أنهم قتلوه.

وحينما ولي يزيد بن عبد الملك سنة إحدى ومائة عظم ذلك على الناس ومنهم من قريش وبني أمية وهموا أن يخلعوه، فأخذهم محمد بن مروان بن الحكم وسجنهم عشرين شهرا ثم دس لهم السم، فماتوا جميعا، وأقصى من سائر قريش ثلاثين رجلا بعد أن أغرمهم مائة ألف ألف، وباع عقر أموالهم ورباعهم، وحمل العذاب عليهم والنكال حتى أصارهم عالة يتكففون الناس، وصلب من الناس جملة ممن أَلِفَ هؤلاء إلى أن مات يزيد سنة ست ومائة ([2]) ثم استخلف بعده هشام بن عبد الملك سنة ست ومائة وهو الذي ارسل ابن هبيرة فقتل زيد بن علي (رحمه الله).

ثم استخلف الوليد بن يزيد بن عبد الملك سنة ست وعشرين ومائة، فأساء السيرة وانتحى على أهله وجماعته قريش، وأحدث الأحداث العظيمة، وسفك الدماء، وأباح الحريم، وكان مشتغلا بلهوه ولعبه([3]) ولما قتل خالد بن عبد الله القسري ثاروا عليه وقتلوه شر قتلة([4])، ثم استخلف يزيد بن الوليد بن عبد الملك لمدة ستة أشهر وبويع بعده إبراهيم بن الوليد فمكث ثلاثة أشهر ثم خلع وهرب، ثم بويع لمروان بن محمد بن مروان بن الحكم، وفي عهده انهارت إمبراطورية الدم وانتهى أول قرن إسلامي للدماء والإماء، لتبدأ قرون أخرى.!

---

[1] الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، ج٢/ص٦٤.
[2] المصدر نفسه، ج٢/ص١٤١-١٤
[3] المصدر نفسه،ج٢/ ص١٥٠-١٥١
[4] المصدر نفسه، ج٢/ ص١٥١-١٥٥

الدولة تأكل أولادها

كان الخلاف بين الخلفاء وولاتهم على الأقاليم قد أخذ هو الآخر أبعادا دموية، فتحول إلى منهج دموي وكأنه انتقام من كل تلك الدماء التي سفحها الولاة مثل زياد بن أبيه وسمرة بن جندب وعبيد الله بن زياد وخالد بن عبد الله القسري والحجاج بن يوسف، أوقعه الخلفاء أنفسهم على ولاتهم الظالمين، فأسهم ذلك في تعجيل انهيار الدولة ولاسيما وأنه تحول في أواخر أيام حكم الأمويين إلى موضوع مليء بالعبث حتى أن بعض الولاة لم يحكموا سوى بضعة أشهر ثم تم إبدالهم بآخرين، ومن تلك الخلافات بين الحكام والولاة الخلاف الذي كان بين عبد العزيز بن مروان والحجاج، وسببه أن الحجاج بعد أن فرغ من قتال الخوارج واستقر الأمر لعبد الملك، كتب إليه أن يبايع لابنه الوليد فرفض عبد الملك لأن أخاه عبد العزيز كان لما يزل حيا، فسمع عبد العزيز بالخبر، وكتب يوبخ الحجاج، فنشبت بينهما أزمة جعلت الحجاج يتخوف من تولي عبد العزيز الخلافة، وعبد العزيز يتوعد الحجاج بأنه سيقتله إن ولي الخلافة(١) كما كان بين الوليد بن عبد الملك والحجاج خلاف سببه أن سليمان بن عبد الملك طلب من الوليد أن يعزل الحجاج عن العراق، وقال له: يا أمير المؤمنين اعزل الحجاج عن العراقيين فإن الذي افسد الله به أكثر مما أصلح(٢).

إن فوضى تعيين وعزل الخلفاء والولاة تدل على حالة الفوضى العامة التي كانت تعيشها البلاد، ولو نظرنا إلى الأندلس وتابعنا تغيير الولاة فيها منذ سنة سبع وتسعين بعد قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير نجد أنهم ولوا مكانه أيوب بن حبيب ستة أشهر ثم الحارث بن عبد الرحمن ثلاث سنين ثن عنبسة سنتين ثم يحيى بن سلمة سنة وثلاثة أشهر ثم الهيثم بن عبيد سنة وشهرين ثم عبد الرحمن الغافقي أربع سنين ثم عبد الملك بن قطن الفهري سنة ثم بلج بن بشر القشيري ستة أشهر ثم ثعلبة بن سلامة خمسة أشهر (٣)، في وقت مكث الحجاج في منصبه واليا على العراق في زمن قوة الدولة عشرين عاما.!

---

١ المصدر نفسه، ج٢/ ص٦٣-٦٤

٢ المصدر نفسه، ج٢/ص٦٨

٣ الإمامة والسياسة، ج٢/ص١١٨-١١٩.

أما الطاغية المتجبر خالد بن عبد الله، فقد تعرض إلى الإهانة والقتل على يد الأمويين أنفسهم بعد كل الذي فعله لهم ومن أجلهم، ففي سنة عشرين ومائة عزله هشام واستعمل على العراق يوسف بن عمر، فحبسه وعذبه وأطلق سراحه سنة إحدى وعشرين ومائة فعاش سنين رعب كالذي تسبب به للعراقيين، وفي سنة ست وعشرين ومائة قدم يوسف الحيرة، فدعا به وبإبراهيم ومحمد ابني هشام، فمكث خالد يوما في العذاب، قال أبو زيد: حدثني أبو نعيم، قال: حدثني رجل، قال: شهدت خالدا حين أتي به يوسف فدعا بعود فوضع على قدميه ثم قامت عليه الرجال حتى كسرت قدماه، ثم على ساقيه حتى كسرتا، ثم على فخذيه، ثم على حقويه، ثم على صدره حتى مات.. وقيل وضع على صدره المضرسة فقتله في الليل ودفن بناحية الحيرة في المحرم من عام ست وعشرين ومائة([1]).

فضلا عن مساوئ هاتين الخلتين وتسببهما في زعزعة أمن واستقرار الدولة، كانت هناك سيئة ثالثة وهي الخوف الشديد من تنامي قدرات القادة الميدانيين واتساع قاعدتهم الجماهيرية والرقعة الجغرافية التي يحكمونها مع أبنائهم وأقربائهم ومواليهم؛ بما يبدو وكأنه واقع سرق الأضواء من الحكام، أو تحول إلى تهديد حقيقي بالانفصال أو ربما الزحف نحو العاصمة واستلام مقاليد الحكم. والأمويون بعد أن ذاقوا ترف ونعيم الخلافة ما كانوا مستعدين للتنازل عن ابسط متعهم وأصغر جزئيات حياتهم، فكيف يتنازلون عن الحكم، ويتركونه لغيرهم؟ وهم بعد أن سفحوا دماء مئات آلاف البشر من أجل الكرسي لا يصعب عليهم سفك دم هذا القائد أو ذاك لمجرد أنهم يشكون في درجة إخلاصه. وهذا هو ما وقع فعلا.!

فالحجاج الذي اختص بالمطاردة، مطاردة المعارضين والمغضوب عليهم، وبعد أن كوفئ على إخلاصه للأمويين، فأصبح أميرا للعراق كله والمشرق، توجه إلى قادة جنده الذين يستشعر خطرهم، لكي لا يقع بورطة أخرى مثل ورطته مع ابن الأشعث؛ وليقتص ممن يشك في إخلاصه، ومنهم أولاد القائد الكبير المهلب بن أبي صفرة، الذي حقق لهم أعظم الفتوحات، فحبس يزيد بن المهلب، وعزل حبيب بن المهلب عن كرمان، وعبد الملك بن

[1] تاريخ الطبري، ج٧ /ص ١٧٧-١٧٨

المهلب عن شرطته، وسجنهم([1])، ومكثوا في السجن من سنة ست وثمانين ولغاية سنة تسعين يعذبهم بعد ان أغرمهم مبلغ ستة آلاف ألف (ستة ملايين).

ثم اصطحبهم الحجاج معه إلى رستقباذ فجعلهم في عسكره وجعل عليهم كهيئة الخندق وجعلهم في فسطاط قريبا من حجرته وجعل عليهم حرسا من أهل الشام، فعل بهم كل هذا مع انه زوج أختهم هند([2]). وقيض لهم أن يهربوا من السجن مع مجموعة من السجناء، فلحقوا بسليمان بن عبد الملك مستجيرين به من الحجاج بن يوسف والوليد بن عبد الملك.

ثم عادت لهم الإمرة زمن سليمان بن عبد الملك الذي عين يزيد بن المهلب واليا على العراق، وأمره بقتل آل أبي عقيل ويبسط عليهم العذاب([3])، وحينما ولي عمر بن عبد العزيز، عزل يزيد بن المهلب عن العراق وسجنه بعد ان اتهمه بالاختلاس([4])، وفي سنة واحد ومائة هرب يزيد بن المهلب من حبس عمر بن عبد العزيز([5]) فلحق بالبصرة فغلب عليها، وخلع يزيد بن عبد الملك الذي عين خليفة بعد عمر، فحارب الأمويين، وأرسل خالدا ابنه إلى الكوفة وخطب البصريين، قائلا: إن جهاد أهل الشام أعظم ثوابت من جهاد الترك والديلم، وخرج من البصرة إلى واسط ومنها سار لقتال الأمويين الذين يقودهم مسلمة بن عبد الملك، فدارت المعارك في الأنبار والنخيلة والكوفة، وفي هذه المعركة اعترف القائد الأموي المتمرد بحقيقة الأمويين بقوله: ويحكم أتصدقون بني أمية أنهم يعملون بالكتاب والسنة وقد ضيعوا ذلك مذ كانوا؟.. ثم انهزم إلى واسط فالبصرة وانتهت حركته سنة اثنين ومائة ([6]).

ثم طال الغضبُ الحجاج نفسه، فحينما استخلف سليمان كان احنق الناس على الحجاج([7]).

---

[1] المصدر نفسه، ج٦/ص ٣٢٥

[2] ينظر: المصدر نفسه، ج ٦/ص٣٤٠

[3] المصدر نفسه، ج٦/ص٣٧٨

[4] المصدر نفسه، ج٦/ص٤١٤

[5] تاريخ الطبري، ج ٦/ص ٤١٩

[6] ينظر: المصدر نفسه، ج٦/ص ٤٢٨- ٤٤٤.

[7] الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، ج٢/ ص١٠٥.

أما موسى بن نصير القائد الذي افتخر أمام سليمان بن عبد الملك انه فتح الأندلس وأفريقيا، وابنه عبد الله كان على طنجة والسوس، وابنه مروان على الأندلس(١)، والذي خلع عليه الوليد ثلاث مرات، وأجازه بخمسين ألف دينار، وفرض لولده الشرف، وفرض لخمسمائة من مواليه (٢)، ما لبث أن نال حنق الوليد، فاستخرج منه تلك الأموال وهدده بالقتل حيث قاضاه على أربعة آلاف ألف دينار وثلاثين ألف دينار وخمسين دينار ذهبا طيبة وازنة، فإن أدى موسى الذي سمى أمير المؤمنين في كتابه، فقد برء موسى وبنوه وأهله ومواليه(٣)، فاغضب ذلك أولاده ومنهم عبد العزيز بن موسى، فخاف سليمان بن عبد الملك، واغتاله وهو في الأندلس(٤) وذلك سنة سبع وتسعين، وقدم برأسه على سليمان بن عبد الملك؛ حبيب بن أبي عبيد الفهري(٥)، وعزل عبد الله بن موسى عن افريقية وطنجة والسوس سنة ثمان وتسعين

وبالمقابل وجه خلفاء بني أميه سهام حقدهم إلى رجل آخر قدَّم لهم اجل الخدمات، وهو قتيبة بن مسلم الباهلي؛ الذي كان هو والحجاج قد أيدا وبايعا الوليد بعزل سليمان عن الخلافة وتعيين ولده عبد العزيز ولي عهد من بعده، فلما بويع سليمان دبر له مكيدة فقتله(٦)، لكي لا تتكرر مأساة ابن الأشعث ثانية، ولاسيما وان قتيبة هدد سليمان صراحة، فتطابقت واقعة قتيبة مع واقعة ابن الأشعث لتعلن حقيقة الترابط بين أطراف قرن الدماء، ولكن سليمان كان أكثر حكمة من الحجاج، فاستعجل قتل قتيبة ليخلو له الجو، وفعلا جاء الهذيل بن زفر يحمل رأس قتيبة ورؤوس أهل بيته، ووضعها بين يدي سليمان(٧) وفي رواية أخرى أن وكيع بن أبي الأسود بنفسه جلب رأس قتيبة إلى الخليفة الأموي سليمان(٨).

---

١ المصدر نفسه، ج٢/ص١٠٤.
٢ المصدر نفسه،ج٢/ص١٠٥
٣ المصدر نفسه، ج٢/ص١٠٧-١٠٨
٤ المصدر نفسه،ج٢/ص١١٠-١١١
٥ تاريخ الطبري، الطبري، ج٦/ص٣٩١.
٦ المصدر نفسه، ج٦/ص٣٨٠
٧ المصدر نفسه، ج٦،/ص٣٨٠
٨ المصدر نفسه، ج٦/ص٣٨٠

المال والإماء والغلمان والخمور

ومن عوامل سقوط الدولة الأموية فضلا عن جرائم سفك الدماء كان تكدس الأموال بيد الحكام والولاة والقادة الكبار بشكل غير مسبوق بالمرة، وغزو الإماء للمجتمع الإسلامي، وتدخلهن في كل مفاصل عمل الدولة والخلفاء. ولأن المال والإماء بطر ما دونه بطر، فلابد وان تكون ثالثة الأثافي حاضرة بينهما، وأقصد بها الخمور التي صارت تشرب علنا في كل الأوقات والمناسبات، فأذهلت الحكام عن واجباتهم، والقادة عن مسؤولياتهم. واتحدت هذه العوامل الثلاث سوية مدعومة بمنظومة سفك الدم؛ فأنشبت أظفارها في جسد الدولة المنهك ليتحول إلى جسد نازف مقبل على الموت ببطء بعد أن كان قد سبب الألم لكثير من البشر في كثير من البلدان.!

وقد أخرتُ الحديث عن المال والإماء لأسباب منها: أنهما كانا غاية أكثر من كونهما وسيلة، وقد استخدم الأمويون كل الوسائل المتاحة للوصول إلى تلك الغاية. وكان الحديث عنهما قد تداخل مع باقي الحديث عن القرن لعلاقتهما بكل ما تقدم.

ولكن هذا لا يعفينا من مسؤولية التحدث عنهما ولو بإيجاز فهما كانا الحافز والدافع لكل ما وقع في المجتمع الإسلامي في قرن الدماء الذي حكمه الأمويون بالنار والحديد منتظرين الفوز بالمال الكثير، والسكن الأثير، وجيوش النساء الأعجميات الجميلات واتخاذهن للتسري واللهو والطرب والغناء والخدمة وغيرها من مهام.

وإذا ما كان الإسلام قد حدد علاقة المسلم بالمال والنساء وفق قواعد حدية، فإن مخالفة تلك القواعد تدل أول ما تدل على ضعف العلاقة بين المخالف وتشريعات الإسلام، ولذا نجد أن هناك علاقة وطيدة بين المال والنساء والكفر تدلنا على علاقة الأمويين بروح رسالة الإسلام وعقيدته، أجدنا في غنى عن التوسع في الحديث عنها، ولكن لا بأس في الحديث عن جزئياتها.

يجد المتابع أنه منذ أوائل العقد الهجري الثاني أصبح تأثير الغنائم والإماء ظاهرا على مجمل الحياة العامة في الدولة، ولاسيما وان الغنائم والإماء كلاهما كانا بأعداد غفيرة لم تكن لدى العرب قدرة على إحصائها، فاكتفوا بالوصف والتشبيه بدل العد والإحصاء، يقول

المقدسي عن معركة المسلمين مع الفرس بقيادة رستم سنة سبع عشرة للهجرة: إن المسلمين: "جمعوا من الأموال مثل الآطام(١) والتلال، وأصاب رجل من بني نخع راية كانت للفرس تسمى "درفش كاويان" موصولة بالدر واليواقيت فقومت ألفي ألف"(٢) وقال عن وقعة نهاوند: "أصابوا من الغنائم والأموال ما لم يذكر في كتاب مبلغها"(٣) أو كانوا يقيموها أحمالا لكي يعرفوا حجمها وليس عددها، فحينما افتتح سعد المدائن أصاب من الخزائن ما بقي من الأموال وأواني الذهب والفضة؛ أربعمائة جمل، فبعث بها إلى الخليفة الراشد عمر مع سبى كثير، فأمر بها عمر فصبت في صحن المسجد(٤).

وحتى حينما قاموا بتوزيعها وعرفوا حصة الشخص الواحد، لم ينجحوا في معرفة عددها الكلي، فهم حينما افتتحوا السودان في زمن خلافة عثمان، قالوا: "إنهم غنموا ما لا يعد، فبلغ سهم الفارس من العين ثلاثة آلاف دينار، وسهم الراجل ألف دينار، وكان مع قائد المسلمين عبد الله بن سعد سبعون ألفًا من فارس وراجل(٥)، وبذا ممكن أن تقترب من الرقم الذي غنموه، إذا ضربت عدد الجنود وهم سبعون ألفا × المبلغ الذي استلمه كل واحد منهم. وقد حدث مثل هذا الأمر قبل هذا التاريخ وتحديدا في سنة سبع عشرة للهجرة، في وقعة جلولاء حيث: "أصابوا من صامت أموالهم ما بلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف درهم، وثمانية أرؤس من الدواب، والجارية، سوى سائر الآثار والأواني والفرش وسوى ما أخرج من الخمس(٦).

وهم حتى بعد أن تطورت مهاراتهم العلمية والحسابية، بدو في منتهى العجز أمام ضخامة الأموال التي كانت تنهال عليهم من أقطار الدنيا، فلجأوا مثل من سبقهم إلى التشبيه والتمثيل من خلال مصطلحات مثل: "فأصاب فيها ما لا يحصى" أو "ما لا يدرى ما هو" التي كررها ابن قتيبة في حديثه عن كل غزوة تقريبا، كما في قوله: "ومنها غزوة

---

١ الآطام: هي القصور التي كانت منتشرة في بعض ضواحي المدينة المنورة.
٢ البدء والتاريخ، المقدسي، ص ٣٧٧
٣ المصدر نفسه، البدء والتاريخ، المقدسي، ص٣٨٠
٤ المصدر نفسه، ص٣٧٨
٥ المصدر نفسه، ص٣٨٦
٦ المصدر نفسه، ص٣٧٩

البشكنس والإفرنج، فأصاب فيها ما لا يدرى ما هو" وقوله الآخر: "فأصبنا من السبي والجواهر ما لا يحصى"([1]).

إن مجتمعا يتحول خلال عقدين أو ثلاثة عقود من الزمن من أفراد يتقاسمون التمرة الواحدة ليعيشوا، ولا يعرفون قيمة الكافور التي تفوق قيمة الذهب، لأنهم لم يرونه من قبل بالرغم من وجوده على حدودهم([2])، إلى ملوك وخلفاء يحكمون العالم المعروف، يغزون الأمم ويصادرون أموالهم ويطأون نساءهم بالجملة، لابد وان يصدر عنهم من المخالفات بقدر تطرفهم، ومنها حبهم الشديد للمال بالرغم من عواقب هذا الحب الوخيمة. ولذا قال ابن كثير في حديثه عن غزو ابن الأشعث سجستان: "فاستحوذ على بلاد ومدن كثيرة من بلاد رتبيل وغنم أموالا كثيرة جزيلة، وسبى خلقا كثيرا([3])، وفي سنة إحدى وثمانين فتح عبيد الله بن عبد الملك بن مروان مدينة قالقيلا وغنم المسلمون منها غنائم كثيرة([4]).
وفي حديثه عن فتح الأندلس، قال ابن قتيبة: "وان المسلمين قد أصابوا مما كان مع لذريق ما لا يدرى ما هو وما قيمته" وقال عن فتح قرطبة: "فسار حتى فتح قرطبة وما يليها من حصونها وقلاعها ومدنها، فغل الناس يومئذ غلولا([5]) لم يسمع بمثله". وقال أيضا: "ثم أن موسى سار لا يرفع له شيء إلا هده يفتتح له المدائن يمينا وشمالا، حتى انتهى إلى مدينة الملوك وهي طليطلة، فوجد فيها بيتا يقال له بيت الملوك وجد فيه أربعة وعشرين تاجا، تاج كل ملك ولي الأندلس.. ووجد في ذلك البيت أيضا مائدة عليها اسم سليمان بن داود(عليه السلام) ومائدة من جزع، فعمد موسى إلى التيجان والآنية والموائد فقطع عليها

---

[1] الإمامة والسياسة، ابن قتيبة،ج٢/ص٩٢
[2] قال الطبري عن فتح المدائن سنة ست عشرة، متحدثا عن دخول جيش المسلمين إليها: "واتينا على كافور كثير، فما حسبناه إلا ملحا فجعلنا نعجن به، حتى وجدنا مرارته في الخبز" ينظر: تاريخ الطبري، ج٤، ص١٢-١٣
[3] البداية والنهاية،م٥،ج٩/ص٤٠
[4] المصدر نفسه، البداية والنهاية،م٥،ج٩/ص٤٣
[5] الغلول: هو ما احتجزه المحارب لنفسه من الغنيمة دون وضعه في غنائم المحاربين.

الأغشية ليس منها شيء يدرى ما قيمته. فأما الذهب والفضة والمتاع، فلم يكن يحصيه احد([1]).

وغزا قتيبة سمرقند، وفيها كثرت الغنائم، قالوا: "وسلبنا من جيد السلاح وكريم المتاع ومناطق الذهب ودواب فرهة" ثم صالحهم على ألفي ألف ومائتي ألف في كل عام([2]) وحينما فتح مسلمة بن عبد الملك عمورية غنم أكثر من مائتي ألف مثقال من الذهب والفضة سوى الأمتعة والبغال والحمير.. وبلغت غنائم نقفورية مائة وثمانين ألف مثقال من الذهب والفضة سوى الدواب والأمتعة والرقيق.!

وغزا قتيبة بيكند فأصابوا فيها آنية الذهب والفضة.. وصار في أيدي المسلمين من بيكند شيء لم يصيبوا مثله بخراسان([3]) وفي سنة سبع وثمانين غزا مسلمة بن عبد الملك أرض الروم، وسبى ذراريهم ونساءهم([4]) وفي سنة ثمان وتسعين تم غزو جرجان وطبرستان، معه أهل الكوفة وأهل البصرة وأهل الشام ووجوه أهل خراسان والري وهو في مائة ألف سوى الموالي والمماليك والمتطوعين([5]) وحينما اشتد الحصار على دهستان بعث كبيرها إلى يزيد بن المهلب: "إني أصالحك على أن تأمني على نفسي وأهل بيتي ومالي وادفع إليك المدينة وما فيها وأهلها. فصالحه ودخل المدينة فاخذ ما كان فيها من الأموال والكنوز ومن السبي شيئا لا يحصى وقتل أربعة عشر ألف تركي (من أهلها) صبرا([6]) واتى زياد جرجان فصالحهم على سبعمائة ألف درهم وأربعمائة ألف نقدا، ومائتي ألف وأربعمائة حمار موقرة زعفران وأربعمائة رجل على رأس كل رجل برنس على البرنس طيلسان وجام من فضة وسرقة من حرير([7]).

---

[1] الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، ج٢/ص ٨٨ـ٨٩
[2] تاريخ الطبري، ج ٦/ص ٣٥٧ـ٣٥٨
[3] المصدر نفسه، ج٦/ص ٣٢٨ـ ٣٢٩
[4] المصدر نفسه، ج٦/ص ٣٢٧
[5] المصدر نفسه، ج٦/ص ٣٩٧
[6] المصدر نفسه، ج٦/ص ٣٩٨
[7] تاريخ الطبري، الطبري، ج٦/ص ٣٩٩

وحينما تجتمع مثل هذه الأموال بيد النخبة تخلق بينهم نوعا من التنافر والتحاسد والتباغض والكراهية والتنافس، وهي كلها عوامل لها قدرة تفكيك أي مجتمع مهما كان قويا، وأي نظام مهما كان دمويا.

نجد كذلك أن الأمويين ما كانوا يجمعون المال للمتعة والجاه والرفاه فحسب، بل كانوا يجمعونه لشراء الذمم أيضا، وهي سياسة نقدية أسسها معاوية بن أبي سفيان الذي نافس الإمام علي على الخلافة، وحينما وجد نفسه محصورا بين جيش الخلافة بقيادة الإمام علي (عليه السلام) وجيش الروم، سالم وصالح الأعداء، ليتفرغ لقتال الخليفة المسلم، فصالح ملك الروم على مال يحمله إليه"([1]) وهي أول جزية عكسية دفعها المسلمون لأعدائهم.!

ولذا تجد الحجاج الذي انهزم في البصرة أمام جيش ابن الأشعث يلجا إلى الزاوية، فيعسكر فيها، ثم ينفق على جيشه مائة وخمسين مليون درهم لكي يحفزهم على القتال، ولا غرابة في ذلك طالما أنه على يقين أن ذلك المال يعوض من خلال الغزوات أضعافا مضاعفة، قال ابن كثير: "وانفق الحجاج على جيشه، وهو بهذا المكان، مائة وخمسين ألف ألف درهم"([2]).

لقد درت الفتوح على الأمويين أموالا ما كانوا يحلمون بها، ولذا كانت همهم الأكبر وغايتهم القصوى إدامة زخم الفتوح وتجنيد أكبر عدد من الجنود لإدامة زخمها، وهذه الأموال إن كانت قد أسهمت في تقوية نفوذ دولتهم، فإنها من جانب آخر أسهمت في تصاعد نسب انحطاطهم وبذخهم، كما خلقت طبقة من كبار الرأسماليين والإقطاعيين في الجغرافية الإسلامية، وهم قادة الجند الذين كانوا يأخذون حصة الأسد عند توزيع الغنائم، يقول الدكتور عواد الأعظمي: "لا شك أن مسلمة بن عبد الملك كان اكبر رجال إقطاع شهده العصر الأموي وهو لا يقل بذلك عن بقية الولاة والقواد وحتى الخلفاء الأمويين وقد ضارعهم أو فاقهم في المجال الإقطاعي... ولا شك أن مسلمة قد استغل منصبه كقائد للجيوش الأموية، وكوال شغل مناصب الإدارة على أقاليم متعددة شملت الجزيرة وأرمينيا

[1] مروج الذهب، المسعودي،ج٢/ص٣٩٥
[2] البداية والنهاية، ابن كثير، م٥،ج٩/ص٤٦

وأذربيجان، فاستطاع من خلال ذلك كله امتلاك الكثير من المقاطعات والأملاك الواسعة"([1]).

كما خلقت طبقة رأسمالية أخرى هم كبار التجار الذين كانوا يرافقون الحملات ويزودون الجند بما يحتاجون إليه من غذاء ومعدات مقابل مبالغ طائلة تستوفى من الغنائم وتدفع لهم، أو كانوا يقايضون بعض موادهم بكثير من الغنائم، وكان هؤلاء التجار أنفسهم يشترون غنائم الحرب العينية التي يصعب توزيعها مثل المجوهرات والعطور والحيوانات والأشياء الثمينة الأخرى بمبالغ مالية يسهل توزيعها على الجيش، وكانت هذه المبالغ أقل مئات المرات عن سعرها الحقيقي مما كان يحقق للتجار أرباحا خيالية([2]).

والظاهر أن بيع الذهب والفضة والأحجار الكريمة على التجار كان معروفا منذ الأيام الأولى للفتح، ففي فتح نهاوند سنة إحدى وعشرين للهجرة دل احد الأعاجم السائب على سفطين ليس فيهما إلا اللؤلؤ والزبرجد والياقوت فاحتملها إلى عمر، فطلب منه أن يدخلها بيت المال وعاد السائب إلى أهله بالكوفة، فجاءه رسول عمر يستدعيه، قال: فلما رآني عمر، قال: ما لي ولابن أم السائب، والله ما هو إلا أن نمت في الليلة التي خرجت فيها، فباتت ملائكة ربي تسحبني إلى ذينك السفطين يشتعلان نارا، يقولون لنكوينك بهما، فأقول أني سأقسمهما بين المسلمين. فخذهما عني فبعهما في أعطية المسلمين وأرزاقهم. قال: فخرجت بهما حتى وضعتهما في مسجد الكوفة وغشيني التجار فابتاعهما مني عمرو بن حريث المخزومي بألفي ألف، ثم خرج بهما إلى ارض الأعاجم فباعهما بأربعة آلاف ألف"([3])

إن هذه الأموال العظيمة لم تأت خالصة نظيفة، وإنما كانت نقوداً قذرة، ملطخة بالدماء، وشرف النساء السبايا اللواتي تركن أزواجهن وأطفالهن وأهلهن وتم بيعهن في سوق

---

[1] الأمير مسلمة بت عبد الملك، الدكتور عواد مجيد الأعظمي، ص١١٧ـ ١١٨.

[2] ينظر: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، الدكتور صالح العلي، ص٢٦٥.

[3] تاريخ الطبري، الطبري، ج٤/ص٧٩ـ٨٠

النخاسة.! فالغزوات الكثيرة كانت تهدف إلى الحصول على الأموال، إما عن طريق الغنائم أو عن طريق الصلح، ومع كل خليفة كان الصلح يتجدد للحصول على أموال جديدة حيث تتردد عبارة (وصالح فلان المدينة الفلانية صلحا مجددا)([1]) وتهدف إلى الحصول على حسناوات الأعاجم وتزويد عاصمة الخلافة بهن، وكان الجنود يفخرون بجرائمهم، ففي سنة ثلاث وتسعين دخل قتيبة بن مسلم بجيشه معسكر الأعداء في سمرقند ليلا فأبادوهم، وقال احد جنوده مفتخرا: "وأقمنا نحوي الأسلاب ونحتز الرؤوس حتى أصبحنا"([2]) ومن هذه الأموال المنقوعة بالدم البشري، قاموا ببناء القصور والقلاع بل حتى المساجد التي يعبد فيها الله رب الرحمة، الرحمان الرحيم، فمن هذه الأموال بنى الوليد سنة ست وتسعين مسجد دمشق على ارض كنيسة هدموها، فأوغر قلوب أهل الكتاب من سكان دمشق الأصليين، ثم لما تولاها عمر بن عبد العزيز شكوا ذلك إليه فخيرهم بين أن يبقي المسجد في مكانه أو يهدم كنيسة توما ويقيم المسجد مكانها لأنها فتحت عنوة فرفضوا ذلك([3])، وكأن المساجد لا تقام إلا على انقاض بيوت العبادة الأخرى لغير المسلمين.!

ومن هذه الأموال المغموسة بالدم أترفوا بالطعام والنساء حد التخمة لدرجة أن الطبري وصف سليمان بن عبد الملك بأنه كان صاحب نكاح وطعام وفي أيام حكمه كان الناس يسأل بعضهم بعضا عن التزويج والجواري([4])

ومن حق الخليفة أن يكون صاحب نكاح ما دام فقهاء الأمة لا يسيطرون على أنفسهم حينما يرون اللحم الأعجمي الأبيض مبذولا أمامهم كأرخص ما يكون، عن أيوب بن عبد الله اللخمي، عن ابن عمر، قال: "وقعت في سهمي جارية يوم جلولاء كأن عنقها إبريق فضة، قال ابن عمر: فما ملكت نفسي أن جعلت أقبلها والناس ينظرون"([5]). ولذا وضع ابن عمر قاعدة فقهية عن استبراء رحم الأمة، تقول: "فحيث تيقن المالك براءة رحم الأمة فله

---

[1] المصدر نفسه، ج٦/ص ٣٥٤ ـ٣٥٥
[2] المصدر نفسه، ج ٦ /ص ٣٥٩
[3] المصدر نفسه، ج ٦ /ص ٣٧٥
[4] المصدر نفسه، ج ٦ /ص ٣٧٣
[5] سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام؛ مع أحكام الالباني، أبو إبراهيم محمد بن إسماعيل الصنعاني، ج٢/ص٢٧٥.

وطؤها، ولا استبراء عليه، كما رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر (رض)، قال : "إذا كانت الأمة عذراء لم يستبرئها إن شاء" وذكره البخاري في صحيحه عنه([1]).

إن هذا الهوس الغريب قادهم إلى ازدراء جندهم الذين حققوا لهم النصر، ففضلوا الإماء عليهم في العطاء، يروي الطبري أن ولاية وكيع على خراسان كانت تسعة أشهر، وحل يزيد بن المهلب مكانه واليا عليها، بالرغم من علم سليمان بحقيقة يزيد، حيث قال عمر بن عبد العزيز لعبد العزيز بن عبد الله؛ وهو يحدثه: "العجب لأمير المؤمنين استعمل رجلا على أفضل ثغر للمسلمين، فقد بلغني عمن يقدم من التجار من ذلك الوجه، انه يُعْطي الجارية من جواريه سهم ألف راجل([2]). فهل من استهانة أكبر من هذه؟!

لقد بلغت درجة بطر قادة الجيوش الأموية الذي اتخموا بالمال والنساء، أنهم لم يطبقوا أي قاعدة من قواعد الخراج الإسلامية، ولجأوا إلى أسلوب كيفي يتواءم مع بطرهم الغريب، ففي حديثه عن فتح سمرقند أيام الأمويين، قال ابن المطهر: "ثم ولاها أسلم بن زرعة وكان غشوما ظلوما، فأخذ أهل "مرو" بأن يكفوا عنه نقيق الضفادع، فأخبروه بأن ذلك غير ممكن، فضاعف عليهم الخراج مائة ألف درهم"([3])، وذلك لأن الأحكام السلطانية التي أباحت للسلطان أن يوجع الظهر ويسلب المال؛ ومع ذلك تجب إطاعته هي التي أباحت لهم مثل هذا التلاعب الكيفي، ففي حديثه عن الاختلاف بين الجزية والخراج قال الماوردي: "إن الجزية نص والخراج اجتهاد..واقل الجزية مقدر بالشرع...والخراج اقله وأكثره مقدر بالاجتهاد"([4])

وهكذا تعرض المجتمع الإسلامي إلى غزوين خطيرين جدا، أحدهما اقتصادي، والآخر جنسي، فقادهم ذلك ليقعوا في براثن غزو ثالث لا يقل عنهما سوءً، وهو غزو الخمور

---

[1] زاد المعاد في هدي خير العباد، شمس الدين أبي عبد الله ابن القيم الجوزية، ص٦٣٥ فصل في هديه (ص) في الأقضية والأنكحة والبيوع، ذكر أحكام الرسول (ص) في الطلاق.

[2] تاريخ الطبري، ج٦ /ص ٣٩٤.

[3] البدء والتاريخ، ابن المطهر المقدسي، ص ٤٠٢.

[4] الأحكام السلطانية، الماوردي، الباب١٣ في وضع الجزية والخراج، ص١٤٢.

الذي تجدد بعد أن حجر عليه الإسلام.! إذ لم تقف معطيات الغزو عند حدود المال والنساء، وإنما قادتهم إلى اكتشاف أنواع جديدة من الخمور المسكرة التي لم يكونوا يعرفونها من قبل، فلم يتحرجوا عن تناولها، لأنهم كانوا ضعاف الإيمان، وقد وصل بهم ضعف إيمانهم إلى درجة التطرف، وهو ما يستحق أن نفرد له حديثا خاصا لوحده.! وهكذا يتبين أن هناك سلسلة من الأحداث قيدت الأمويين وقادتهم إلى مصيرهم المحتوم، بدأت بالتآمر، ثم الدم، ثم الغزو، ثم السلب، ثم السبي، ثم الخمر، ثم الكفر، وأخيرا السقوط في الهاوية.

الخمر والكفر والخلفاء

كان اختلاف الفقهاء في مسألة تحريم الخمر أحد الأسباب التي شجعت الناس على تناولها ربما مباشرة بعد عصر البعثة المشرفة، ومن ذلك الاختلاف ادعاء الإفتائيين والمفسرين أن الخمر حرمت على ثلاث مراحل، ثم اختلافهم في درجة التحريم، نتيجة اختلافهم في معنى (فاجتنبوه) في قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}([1])، فخلق ذلك الاختلاف نوعا من الفوضى الفقهية نتيجة الثغرات الكثيرة الموجودة في أقوالهم وأحكامهم التي وضعوها، وقد كان اغلبهم موظفين لدى الحكومة، فاستغل الخلفاء والمترفون هذه الثغرات لينفذوا منها، ليشربوا الخمر علنا ولاسيما بعد أن وفدت إليهم مع الغنائم أنواع جديدة من الخمور لم يكونوا يعرفونها وهم الذين اكتفوا من قبل بنقيع الزبيب إذا طبخ، ونقيع التمر إذا طبخ ونبيذ التين ونقيع العسل وعصير التفاح وشراب القمح أو الشعير أو الذرة، فالبلدان التي غزوها كانت تدين بديانات ما قبل الإسلام وهي أديان لا تحرم شرب الخمر ظاهرا، فاليهود قدسوا الخمر وكانوا يضعونها في مكان العبادة تقربا لله. وفي المسيحية أول ما بشر به السيد المسيح (عليه السلام) تحول المياه إلى خمر، هكذا يقول الكتاب المقدس المتداول اليوم.

[1] المائدة: ٩٠.

وهناك من يرى أن فكرة التحريم لم تكن موجودة حتى في الإسلام نفسه، ويدعي أن النهي وضع بعد قيام نزاعات قبلية بين من كانوا يشربون من الصحابة، فهؤلاء كما تقول الروايات عندما كانوا يشربون؛ كانوا يتذكرون أحداث الجاهلية فيقع الخلاف بينهم.! ثم ادعوا أن التحريم جاء للخمر لا للنبيذ، فبقوا يشربون النبيذ. والغريب أن هناك روايات تبيح شرب النبيذ حتى لو اسكر، ولا تبيح شرب الخمر حتى لو لم تسكر! وبناء عليه أباح بعض الفقهاء مثل أبو حنيفة شرب بعض النبيذ حتى ولو كان مسكرا، كما في قاعدته الفقهية: "يحد من شرب الخمر؛ وإن لم يسكر، ولا يحد من شرب النبيذ حتى يسكر.([1]) وقد وضعت هذه القاعدة استنادا إلى حديث أوردوه عن السيدة عائشة يبدو وكأنه يبيح الشرب بشرط عدم السكر، في سنن النسائي، عن سماك، عن قرصافة، عن عائشة، قالت: "اشربوا ولا تسكروا"([2]) بل جاء في أقوالهم ان النبي (صلى الله عليه وآله) كان يشرب النبيذ، عن عبد الملك بن نافع، قال: قال ابن عمر: رأيت رجلاً جاء إلى رسول الله بقدح فيه نبيذ؛ وهو عند الركن، ودفع إليه القدح، فرفعه إلى فيه، فوجده شديداً، فرده على صاحبه، فقال له رجل من القوم: يا رسول الله أحرام هو؟ فقال: علي بالرجل، فأتي به، فأخذ منه القدح ثم دعا بماء فصبه فيه، فرفعه إلى فيه، فقطب، ثم دعا بماء أيضاً صبه فيه، ثم قال: "إذا اغتلمت عليكم هذه الأوعية، فاكسروا متونها بالماء([3]).

جاء ذلك باعتبار أن شرب النبيذ كان يعينهم على هضم لحوم الإبل القاسية. والظاهر أن كبارهم وصغارهم كانوا يشربون النبيذ ولا يرون ضيرا في شربه، ففي كنز العمال عن عتبة بن فرقد، قال : قدمت على عمر بسلال خبيص فقال: ما هذا ؟ فقلت: طعام أتيتك به لأنك تقضي في حاجات الناس أول النهار، فأحببت إذا رجعت أن ترجع إلى طعام، فتصيب منه فقواك، فكشف عن سلة منها، فقال: عزت عليك يا عتبة، أرزقت كل رجل من المسلمين سلة؟ فقلت: يا أمير المؤمنين! لو أنفقت مال قيس كلها ما وسعت ذلك. قال: فلا حاجة لي فيه، ثم دعا بقصعة ثريد خبزاً خشناً ولحماً غليظاً وهو يأكل معي أكلاً شهياً،

---

[1] الأحكام السلطانية، الماوردي، ٢٢٨.
[2] سنن النسائي، م٤، ج ٨/ص٣٢٠.
[3] المصدر نفسه، م٤، ج/٨ ص: ٣٢٣ .

فجعلت أهوي إلى البيضة البيضاء أحسبها سناماً فإذا هي عصبة، والبضعة من اللحم أمضغها فلا أسيغها، فإذا غفل عني جعلتها بين الخوان والقصعة، ثم دعا بعس من نبيذ قد كاد أن يكون خلاً، فقال: اشرب، فأخذته وما أكاد أسيغه، ثم أخذه، فشرب، ثم قال: اسمع يا عتبة: إنا ننحر كل يوم جزوراً، فأما ودكها وأطايبها فلمن حضرنا من آفاق المسلمين، وأما عنقها فلآل عمر، يأكل هذا اللحم الغليظ ويشرب هذا النبيذ الشديد، يقطع في بطوننا أن يؤذينا([1]). وفيه أيضا أخبرنا سويد ... أن عمر بن الخطاب، قال إذا خشيتم من نبيذ شدته، فاكسروه بالماء. قال عبد الله: من قبل أن يشتد([2]). وفي مناسبة أخرى علمهم كيف يخففونه، في النسائي، عن سعيد بن المسيب، قال: تلقت ثقيف عمر بشراب، فدعا به، فلما قربه الى فيه كرهه، فدعا به، فكسره بالماء، فقال: هكذا فافعلوا([3]).

لكنك في عالم الغرابة هذا تجد في أكثر من مكان تحريما صريحا لصنع وشرب النبيذ، منه ما جاء عن ابن عباس: "من سره أن يحرم إن كان مُحَرِما ما حرم الله ورسوله فليحرم النبيذ" وفي حديث آخر: "اجتنب ما اسكر من تمر أو زبيب أو غيره([4]) بل هناك بينهم من كان يكره أن يبيع الزبيب لمن يتخذه نبيذا([5]) فلو كان حلالا، فلماذا يكره بيعه لهم؟

وفي الأحكام السلطانية: "كل ما اسكر كثيره أو قليله من خمر أو نبيذ حرام، حُد شاربه سواء سكر منه أو لم يسكر"([6])

وحتى الذين كانوا ينتبذون كانوا يشربونه ما دام حلوا لأنهم يعتقدون انه ما دام حلوا فهو ليس محرما، جاءت امرأة إلى ابن عباس، فقالت: إني انتبذ في جرة خضراء نبيذا حلوا فاشرب منه فتقرقر بطني؟ قال: لا تشربي منه، وان كان أحلى من العسل([7]) بينما نجد في

---

[1] كنز العمال، المتقي الهندي، ج ١٢/ص ٦٢٦ ، رقم٣٥٩٣٠.
[2] كنز العمال، المتقي الهندي، ج ١٢/ص ٦٢٧ و٣٥٩٣٦ وسنن النسائي، م٤،ج٨/ص٣٢٦.
[3] سنن النسائي، م٤،ج٨/ص٣٢٦
[4] المصدر نفسه، م٤، ج ٨/ص٣٢٢
[5] المصدر نفسه، م٤،ج٨/ص٣٢٨
[6] الأحكام السلطانية، الماوردي، ص٢٢٨.
[7] سنن النسائي، م٤ ج ٨/ص٣٢٢.

الأحاديث السابقة قولهم: إن عمر كان يخففه بالماء لشدة حموضته، لكي يستسيغه، وكان يعلم الناس كسره بالماء! وأن النبي علمهم كيف يكسرونه بالماء قبل شربه.!

هذا الاختلاف سواء كان نتيجة اختلاف في الفهم، أو كان مقصودا، أدى في وقت مبكر من عمر دولة الإسلام إلى تفشي ظاهرة شرب الخمور في المجتمع الأول، إلى درجة أن الخليفة عمر بن الخطاب، دعا أيام خلافته إلى رفع حد الشارب من أربعين إلى ثمانين جلدة بعد، ليحد من ظاهرة انتشار شرب الخمر([1]).

ذلك التناقض الصارخ في التحليل والتحريم، والتناقض الغريب في من يجب حده ومتى يجب عليه الحد، حيث ذهب أبو حنيفة إلى أن حد السكر ما زال معه العقل، حتى لا يفرق بين الأرض والسماء ولا يعرف أمه من زوجته. وحده أصحاب الشافعي بأنه ما أفضى بصاحبه إلى أن يتكلم بلسان منكسر"([2])، هو الذي جعل بعض الإفتائيين يتساهلون مع الخلفاء والأغنياء بشرب النبيذ، فلما جاءت الفتوح بالخمور المعتقة المخصصة للملوك صادرها الخلفاء، وشربوها دون وجل أو خوف من أحد، بتأييد المفتين.

ونتيجة ذلك أخذ الخلفاء الأمويون، وهم أساسا غير ملتزمين بالدين يشربون الخمور، فتبعهم الولاة والوجهاء؛ وصولا إلى الطبقات الغنية من أفراد الشعب، بما في ذلك القادة والجند، ولاسيما أن الأمويين لم يكونوا يتحرجون من شرب الخمر، ولا يعدون شربها مخالفة شرعية، بل يعدونه إسرافا على النفس. وهناك عشرات بل مئات قصص شرب الخمر، ولاسيما قصص شرب القادة والجنود لها، أما عن شرب القادة ففي فتح جرجان وطبرستان سنة ثمان وتسعين كان محمد بن عبد الرحمن بن ابي سبرة الجعفي احد القادة له لسان وبأس، غير انه كان يفسد نفسه بالشراب، ولم يكن الأمويون يتحرجون من ذلك، بل كانوا يعدونه إسرافا على النفس لا أكثر([3]).

وأما عن قصص شرب الجند للخمور، ففي سنة إحدى وتسعين وصل مسلم إلى بلخ، وغزا شومان، واخذ القلعة، فقتل وسبى الذرية، ووجد جنده الخمر أو النبيذ فانتبذ الناس،

---

[1] الأحكام السلطانية، الماوردي، ص ٢٢٨.
[2] المصدر نفسه، ص ٢٢٩
[3] تاريخ الطبري، الطبري، ج ٦ /ص٣٩٧-٣٩٨.

وشربوا حتى عبثوا وعاثوا وافسدوا([1]). إن استخدام كلمة (الناس) بدل بعضهم أو بعضا من الجند يعني أنهم جميعهم شربوا الخمر، وهذا شيء غريب أن يصدر مثله عن جيش يخوض حربا مقدسة باسم الجهاد في سبيل الله. وبالتالي نعرف ان تلك الغزوات لم تكن دفاعا عن دين الله بقدر كونها طريقا لاكتساب متع الدنيا: المال والنساء والخمور، وان هذا الحال المزري تسبب في غضب المؤمنين الذين يرون بأم أعينهم دماء الأبرياء تسفك في أطراف المعمورة ليتوفر للحكام ما يتمتعون به، فأسهم ذلك في تنمية روح العداء للأمويين، وهو الذي أنتج الثورة التي أطاحت بهم، ولاسيما وأن ملامح الكفر كانت بادية على كادر الحكومة الأموية خلفاء وولاة وقادة. ولأجل هذا وأشباهه التي سبقته ثار سعيد بن جبير وثار القراء وثار الأحرار، واستمرت ثوراتهم.

التصريح بالكفر

مع قتل الأئمة المعصومين ولاسيما الإمام الحسين (عليه السلام) وأصحابه الكرام، وقتل النفس المحترمة ولاسيما زيد بن علي ويحيى بن زيد وسعيد بن جبير، والاستهانة بالمقدس، ومطاردة المؤمنين الأبرياء، وإسقاط أهل الحق من العطاء، واتخاذ القتل وسيلة للمتعة والأنس، وسفك الدم البريء، وسبي الأعراض، وشرب الخمر، لا غرابه أن يكون الكفر صريحا دونما خوف من أله أو من عباده المؤمنين. وهو ما ظهرت بعض بوادره على بعض خلفاء وولاة الأمويين، ففي سنة تسع وثمانين وليَّ خالد بن عبد الله القسري مكة، وفيها أعلن كفرا بواحا، نقله عنه نافع مولى بني مخزوم، قال: سمعت خالد بن عبد الله يقول على منبر مكة وهو يخطب: "أيها الناس، أيهما أعظم؟ أخليفة الرجل على أهله أم رسوله إليهم؟ والله أولم تعلموا فضل الخليفة.؟ ألا إن إبراهيم خليل الرحمن استسقى، فسقاه ملحا أجاجا، واستسقاه الخليفة، فسقاه عذبا فراتا، بئر حفرها الوليد بن عبد الملك بالثنيتين،

[1] ينظر: المصدر نفسه، ج ٦ /ص ٣٤٨- ٣٥٠.

ثنية طوى وثنية الحجون"([1]) حيث جعل الخليفة الأموي أفضل من النبي محمد (صلى الله عليه وآله) وأفضل من النبي إبراهيم (عليه السلام).!

وحينما ألقى القسري القبض على سعيد بن جبير، وأراد أن يرسله إلى الحجاج، توسط رجل من أهل الشام في سعيد لديه، فرفض خالد قبول الوساطة لأن الخليفة كان يريد موت سعيد، وقال؛ وقد كان ظهره إلى الكعبة، قد استند إليها: "والله لو علمت أن عبد الملك لا يرضى عني إلا بنقض هذا البيت حجرا حجرا لنقضته في مرضاته"([2]).

وكان الحجاج قد سبقه في هذه العقيدة المنحرفة، ففي العقد الفريد، قال الحجاج: "إن خليفة الرجل في أهله أكرم عليه من رسوله إليهم، وكذلك الخلفاء يا أمير المؤمنين أعلى منزلة من المرسلين"([3])

ولم يكن القسري والحجاج وحدهما بهذا التفكير المنحرف فالتاريخ يؤكد ان جميع ولاة بني أمية كانوا مثلهما لا يحكمون بالعدل، ولا يحتكمون إلى الشريعة، فحين قتل قتيبة سنة ست وتسعين أمر وكيع بن أبي الأسود أن لا يسلبن قتيل، فمر ابن عبيد الهجري على أبي الحجر الباهلي، فسلبه فبلغ وكيعا، فضرب عنقه. وركب وكيع ذات يوم فأتوه بسكران فأمر به فقتل، فقيل له: ليس عليه القتل، إنما عليه الحد، قال: لا أعاقب بالسياط ولكني أعاقب بالسيف([4]) وكان يزيد بن المهلب يتصرف بالمال العام وكأنه ماله يحرم منه الناس ويجود به على ندمائه وجلسائه وأحبابه ومحضياته وغلمانه ([5]) وهذا يثبت أن ولاة وقادة الأمويين لم يكونوا يعرفون حدود الشريعة، ويثبت أن تلك الفتوح لم تكن إسلامية.!

هذه المساوئ التاريخية ولاسيما سفك الدماء في قرن كامل من الزمن كانت أهم أسباب سقوط الأمويين أملا في مستقبل يشعر فيه الإنسان بكرامته وإنسانيته، ولكن تحقق السقوط ولم يتحقق الأمل. وقد كان السقوط قد تم على مراحل منذ بداية تأسيس الدولة الأموية، ولكنه تصاعد بشكل كبير في أخريات أيام حكمهم وتحديدا في بداية المائة الهجرية الثانية.

---

[1] تاريخ الطبري، ج٦/ص ٣٣٤-٣٣٥ .
[2] الإمامة والسياسة ج٢/ص ٦١
[3] العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، ج٢/ص ٣٠١.
[4] تاريخ الطبري، ج٦/ص ٣٨٧
[5] المصدر نفسه، ج٦/ص ٤١٤

منحنى الانحدار

في حديث المؤرخين عن سنة إحدى ومائة ترددت عبارات تنبئ بوصول خط صعود الأمويين إلى أقصى حدوده، وبداية انحداره بشكل سريع ومزرٍ نحو الأسفل. وعن هذه السنة أوضح الطبري واحدة من حقائق النزول،فقال: "ففيها ضعفت همة الأمويين وتراجعت فتوحاتهم مع أنهم غزوا الترك"([1]).

وكان جُل هم الخلفاء الأمويين في هذه التواريخ المتأخرة من عمر إمبراطورية منصبا على عزل الولاة وتعيين آخرين باستمرار يدل على التخبط وسوء التخطيط وانعدام الثقة. واستمر العزل والتبديل إلى زمن سقوط دولتهم، ففي سنة عشرين ومائة مثلا وليّ جُديع بن علي الكرماني خراسان بعد عزل واليها جعفر بن حنظلة، ثم ما لبثوا ان عزلوه عنها، وعينوا مكانه نصر بن سيار([2]).

وفي سنة خمس ومائة اضطرب حبل بني مروان، وهاجت الفتنة بينهم، حيث خرج سليمان بن هشام من السجن، وكان محبوسا بعمان، فأخذ ما كان بعمان من الأموال واقبل إلى دمشق، وجعل يلعن الوليد ويعيبه بالكفر.. ووثب أهل حمص وطالبوا بدم الوليد([3]) ووثب أهل فلسطين والأردن على عاملهم فقتلوه([4]) وامتنع نصر بن سيار بخراسان من تسليم عمله لمنصور بن جمهور([5]) وبدأ خلاف مروان بن محمد، فكتب إلى الغمر بن يزيد يأمره بدم أخيه الوليد. ووقع الاختلاف بين أهل خراسان اليمانية والنزارية، كما اظهر الكرماني الخلاف لواليها النصر بن سيار، وانشقت المدينة إلى قسمين واحد مع الكرماني والأخر مع نصر([6])

---

[1] المصدر نفسه، ج ٦ /ص ٤٤٧
[2] المصدر نفسه، ج ٧ /ص ١٠٥
[3] تاريخ الطبري، الطبري، ج ٧/ ص ١٧٩
[4] المصدر نفسه، ج٧ /ص ١٨٢
[5] المصدر نفسه، ج٧ /ص ١٨٩
[6] المصدر نفسه،ج٧/ص١٩٢ـ١٩٥

واستمر الوضع المضطرب إلى سنة سبع وعشرين ومائة، فانتفض أهل حمص ... وثار أهل الغوطة، وولوا عليهم يزيد بن خالد القسري.. وخرج أهل فلسطين.([1])

وخلع سليمان بن هشام بن عبد الملك مروان بن محمد ونصب الحري([2]) وفي هذه السنة ظهر أمر عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الذي دعا لنفسه في الكوفة فهزموه([3]) فشخص إلى المدائن فبايعه أهلها والتحق به بعض أهل الكوفة والكثير من عبيدها فخرج إلى الجبال وتمكن سنة تسع وعشرين ومائة من الغلبة على فارس، ثم قتل([4])

وخلال أكثر من عشرين سنة من الانحطاط المستمر كان العباسيون يبنون قواعد انطلاقهم لتقويض الدولة الأموية نهائيا، وكان نجمهم في صعود دائم ونجم الأمويين في أفول، وقد أفاد العباسيون من تسارع الأحداث وكثرة الانشقاقات وتفشي العداء بين أفراد البيت الأموي وتردي الأوضاع العامة وانشغال الخلفاء بالإماء والمخنثين، والأهم من ذلك حقد الناس ولاسيما الكوفيين على الأمويين.

وفي الإحصاء التاريخي نجد أن سنة إحدى ومائة للهجرة كانت الانطلاقة الأولى للدعوة العباسية، وفي سنة اثنين ومائة ظهرت الدعوة العباسية في الأقاليم، وفي سنة خمس ومائة كثر دعاة العباسيين في الأقاليم، وفي سنة تسع ومائة كان علي بن محمد أول من قدم خراسان من دعاة العباسيين([5]) وفي سنة عشرين ومائة وجهت شيعة بني العباس بخراسان إلى محمد بن علي بن عباس سليمان بن كثير ليعلمه أمرهم، وفي سنة أربع وعشرين ومائة بدأ أمر أبي مسلم الخراساني([6]) وفي سنة ست وعشرين ومائة كتب إبراهيم إلى شيعة بني العباس في خراسان ينعى لهم محمد بن علي ويبلغهم تنصيب نفسه([7]) وفي سنة

---

[1] المصدر نفسه، ج٧/ص ٢١٥ـ ٢١٦
[2] المصدر نفسه، ج٧ ،/ص ٢٢٣
[3] المصدر نفسه، ج٧/ ص٢٠٨
[4] المصدر نفسه، ج٧، ص٢٥٩
[5] المصدر نفسه، ج٧/ ص٣٢
[6] المصدر نفسه، ج٧/ص١٣٥
[7] المصدر نفسه، ج٧/ص٢٠٢

سبع وعشرين ومائة كان إبراهيم بن محمد في مكة تجبى له الأموال ويصدر أوامر تعيين القادة([1]) وفي سنة ثمان وعشرين ومائة وجه إبراهيم بن محمد أبا مسلم إلى خراسان أميرا عليها([2]) وفي سنة تسع وعشرين ومائة أظهر أبو مسلم الدعوة العباسية في خراسان([3]) وفي سنة ثلاثين ومائة دخل أبو مسلم مرو ونزل دار الإمارة([4]) والتحق به قحطبة بن شبيب مع جيشه فوجهه إلى نيسابور([5]) وفي سنة إحدى وثلاثين ومائة تحول أبو مسلم من مرو إلى نيسابور، وفي سنة اثنتين وثلاثين ومائة بويع لأبي العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس السفاح بالمدينة بالخلافة ([6]) وكانت نهاية قرن مليء بالأحداث الجسام، ولاسيما المذابح الدموية التي لم يسلم من شرها بر ولا فاجر، وكان من تمسك بدينه من المسلمين، وأهل بيت النبوة والأئمة الأطهار (عليهم السلام) وشيعتهم وأهل الكوفة خاصة والعراق عامة أطهر وقود لنزق الأمويين ودمويتهم التي استمرت قرن كامل من الزمان.

وانتهى القرن

وفي سنة خمس وعشرين ومائة كانت كل مراحل الانهيار قد تجمعت سوية لتبدو للناظر وكأن السقوط الذي كان الأمويون يحذرونه أقرب إليهم كثيرا مما كانوا يتوقعون، ولاسيما بعد أن بويع سنة خمس وعشرين ومائة للوليد بن يزيد وكان يسمى الوليد الناقص لخلاعته ومجونه ولهوه وملذاته والسكر ومنادمة الفساق([7]) فما لبثوا أن قتلوه سنة ست وعشرين ومائة، وتولى الخلافة من بعده يزيد بن الوليد الناقص، وصولا إلى مروان الحمار، لتنتهي دولة الأمويين بين الناقص والحمار.! ولتبدأ مرحلة جديدة، تنتظر أن تذبح ألف سعيد وسعيد!

---

[1] المصدر نفسه، ج٧/ص٢٢٧
[2] المصدر نفسه، ج٧/ ص٢٣٩
[3] المصدر نفسه، ج٧/ ص٢٤٦
[4] المصدر نفسه، ج٧/ص٢٦٣
[5] المصدر نفسه، ج٧/ص٢٧١
[6] المصدر نفسه، ج٧/ص٢٩٣.
[7] تاريخ الطبري، ج٧ /ص.١٥٨

وهكذا نجد أنه من سنة ٣٢ ولغاية ١٣٢ للهجرة وقعت الكثير من الأحداث التي لم تكن مفصولة ولا مقطوعة عن بعضها في حقب مختلفة، وكانت كل حقبة منها مرتبطة بما حدث في الحقبة التي قبلها، وكل هذه الحقب انقسمت إلى قسمين رئيسيين كل منهما ٥٠ سنة، تبدأ الأولى من سنة ٣٢ ولغاية سنة ٨١، وتبدأ الثانية من سنة ٨٢ ولغاية سنة ١٣٢، وكل ما حدث في مجموع حقب الخمسين الأولى كان الأساس لما وقع في مجموع حقب الخمسين الثانية، بل إن كل أحداثها تقريبا جاءت وهي تحمل بعضا من سمات وصفات وجينات وفكر ومكر تلك الخمسين الأولى.

الخمسين الثانية على العموم تأثرت بشدة بالأحداث الجسام التي وقعت في الخمسين الأولى بدءً من استيلاء الأمويين على مقاليد أمور العالم الإسلامي في النصف الثاني من خلافة عثمان بن عفان، وقتل الإمام علي (عليه السلام) وطعن الإمام الحسن (عليه السلام) ومصرع الإمام الحسين (عليه السلام) وجميع أصحابه مرورا بمذبحة بيت الله الحرام، ومقتل ابن الزبير وكثير من أنصاره، ومذبحة واقعة الحرة الدموية التي استبيحت فيها الدماء والأعراض، ثم ثورة التوابين، وثورة المختار الثقفي، ومقتل الإمام زيد وأصحابه، وخلالها وعلى مراحل مختلفة شدة القتل بالخوارج الذين خرجوا بدفعات متتالية غير منسقة، لكنها مؤثرة ودموية، ولذا كانت الوطأة عليهم شديدة، وصولا إلى المذبحة المروعة لأصحاب ابن الأشعث التي قتل فيها أقل من مائتي ألف بقليل، حيث قتل في معاركها الشرسة ما لا يقل عن ستين إلى سبعين ألفا من الجانبين، وقتل الحجاج الأسرى صبرا؛ وهم بحدود مائة وعشرين أو ثلاثين ألفا، فضلا عما قُتل من الشاميين.

ولا يمكن المرور على هذه الأحداث الرهيبة مرور الكرام، كيف وفيها قتل ابن بنت رسول الله وأصحابه الميامين، وفيها أحرق بيت الله الحرام، وفيها استبيحت مدينة رسول الله وأعراض نسائها، وفيها ذبح مئات الآلاف من المسلمين من الصحابة والتابعين؟

لذا لا غرو إن كان لها كامل الصلاحية بالتدخل في أحداث ما تلاها من حراك، فغالبا ما كان الحراك المتأخر مبنيا على واحد أو أكثر من أحداثها. بل إن من نتائج ما حدث في

الأولى وجوب وقوع التغيير في الثانية، ولو لم يقع التغيير فيها لبدا وكأن كل تلك الدماء الزكية بما فيها دم الحسين والعلويين قد ذهبت هدرا.!

أما أهم شخصيات السوء في الحقبة الأولى فهم: معاوية، يزيد بن معاوية، زياد بن أبيه، عبيد الله بن زياد، سمرة بن جندب. عن عامر بن أبي عامر، قال: كنا في مجلس يونس بن عبيد، فقالوا: ما في الأرض بقعة نشفت من الدم ما نشفت هذه، يعنون دار الإمارة، قتل بها سبعون ألفا. فسألت يونس، فقال: نعم من بين قتيل وقطيع، قلت: من فعل ذلك؟ قال: زياد ابن أبيه، وابنه عبيد الله، وسمرة بن جندب([1]).

ومن الشخصيات التي شهدت قسما من المرحلة الأولى وقسما من الثانية:خالد بن عبد الله القسري، والحجاج بن يوسف، وفي كلا المرحلتين كان الخلفاء وقادة الجيش أسوأ شخصيات تلك المراحل.

كان حديثنا في فصول القسم الأول عن الحقبة الأولى لغاية ثورة محمد بن الأشعث، واقتصر حديثنا في القسم الثاني على أحداث بعض ذلك التاريخ وما بعد ذلك التاريخ وصولا إلى نهاية قرن الدماء، بعد أن مهدنا له بأحداث خاضها الأمويون هنا وهناك بحثا عن المال والإماء والمكاسب تحت غطاء "الفتوح الإسلامية" التي سلبوا شرعيتها وأضفوها على حروبهم العبثية ، يخدعون بها بسطاء المسلمين، ويسوقونهم قطعانا، في وقت أعلنوا فيه كفرهم الصريح في أكثر من مناسبة كما في أقوال خالد القسري في مقارنته بين الله والخليفة الأموي والنبي والخليفة الأموي.!

ولم يكن ما حدث في سنة ١٣٢ هجرية مجرد تبديل لنظام حكم بقدر كونه بداية مرحلة جديدة من مراحل جهاد المسلمين المخلصين ولاسيما الشيعة والكوفيين ضد سياسيين قرشيين آخرين ليسو غرباء عن الأمويين ولكنهم أعداء لهم، والعداء بينهما شخصي وسياسي أكثر منه عقدي، ولذا نلحظ دمويتهم تتساوق مع دموية الأمويين، والتزامهم بالمنهج العقدي الأموي يبدو واضحا في الكثير من جوانبه، وعدائهم للتشيع وعسفهم

[1] سير أعلام النبلاء، الذهبي،ج٤/ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

بالشيعة وبالكوفة لا يقل عن عسف وظلم الأمويين، ولذلك حديث آخر يأتي في حينه إن شاء الله، حيث نجد أن تاريخنا الذي يسمى "التاريخ الإسلامي" حلقات مترابطة موصولة مع بعضها، لدرجة أن كل ما يحدث اليوم إنما هو من نتاج الأمس البعيد، ومن تداعيات مع حدث في السقيفة، وما وقع يوم الشورى، وما وقع سنة ٣٢ للهجرة، وان قادم الأيام وما يقع فيها سيكون مكملا لحلقات هذا التاريخ وإلى ظهور قائم آل محمد (عجل الله فرجه الشريف)

أما الذي سوغ للحكام والأمراء الولوغ بدماء المسلمين في قرن الدماء فهي منظومة الأحاديث الموضوعة الكاذبة؛ التي مررها وعاظ السلاطين، وأجازوا من خلالها للمجرمين مثل ذلك العتو الذي أحرق الأخضر واليابس، وحول الأمة إلى قطيع يقاد بالسيوف لتحقيق رغبات الولاة والحكام المنحرفة، إذ ما المانع إذا ما كان الله سبحانه سيدخلهم مع كل جرائمهم تلك إلى الجنة؟!

لقد امن الحكام غضب الله لان بعض القراء والإفتائيين من وعاظ السلاطين أوهموهم بأقوال لا أصل لها في الشريعة، ولذا تجد الذي ذبح سعيد بن جبير صبرا يأمل مثل كل الأتقياء دخول الجنة، لان شيوخ الضلالة نقلوا له عن سعيد حديثا موضوعا يقول: "إن الله تعالى ليرحم يوم القيامة، حتى يقول: من كان مسلما فليدخل الجنة"([1]) سواء كان هذا المسلم قد قتل أكثر من مائتي ألف بريء صبرا بالسيف، أو كان قد فجر سيارة مفخخة، وقتل بها عشرات الأبرياء. وهو الحديث الذي إذا ما صدق ـ وليس بصادق ـ يعني أن سعيد بن جبير أعطى للحجاج وثيقة تدخله الجنة دون حساب لأنه مسلم مثل باقي المسلمين، وكأنهم لم يسمعوا بآية { قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}([2]).

---

[1] حلية الأولياء، أبو نعيم، ج٤/ص٢٧٩ ترجمة سعيد بن جبير .

[2] الحجرات: ١٤.

المراجع

- الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري (٢١٣-٢٧٦هـ)، تحقيق: علي شيري، منشورات الشريف الرضي، (د.ت)

- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت،١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

أصل الشيعة وأصولها، مقارنة مع المذاهب الأربعة، محمد حسين كاشف الغطاء، دار الاضواء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٠.

- أصول التشيع عرض ودراسة، هاشم معروف الحسني، دار القلم، بيروت، (د.ت)

الأئمة الأربعة، حياتهم، مواقفهم، آرائهم، عبد العزيز الشناوي، مكتبة الايمان، مصر، ٢٠٠٤.

- الأخبار الطوال، أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري (ت ٢٨٢هـ)- تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: الدكتور جمال الدين الشيال، دار إحياء الكتب العربي - عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٦٠م

- الإسلام، هنري ماسيه، ترجمة: بهيج شعبان، ط٣، تعليق: الدكتور مصطفى الرافعي والشيخ محمد جواد مغنية، منشورات عويدات، بيروت،١٩٨٨.

- أثر اليهود والنصارى والمجوس في التشيع، أبو علي المرتضى بن سالم الهاشمي، مشكاة الإسلامية، (د.ت).

- أحكام الروافض، شبهاتهم كيفية التعامل معهم، الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله السحيم، كتاب الكتروني، شبكة مشكاة الإسلامية

- الإمام الشافعي وموقفه من الرافضة، أبي عبد البر محمد بن كاوا، كتاب الكتروني، مكتبة مشكاة الإسلامية

- أسنى المطالب في شرح روض الطالب، زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري، زين الدين أبو يحيى السنيكي (ت ٩٢٦هـ)، دار الكتاب الإسلامي (د.ت)

- الاستغاثة في بدع الثلاثة، أبو القاسم الكوفي علي بن أحمد بن موسى بن الإمام محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ت ٣٥٢هـ) كتاب الكتروني، مكتبة الشيعة.
- أنساب الأشراف، جمل من أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر - بيروت، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م
- ابن عباس وأموال البصرة، دراسة وتحليل، السيد جعفر مرتضى العاملي،المركز الإسلامي للدراسات، ٢٠٠٤
- إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري، تحقيق: عادل بن سعد - السيد بن محمود بن إسماعيل، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤١٩ ــ ١٩٩٨
- اختيار معرفة الرجال المعروف بـ رجال الكشي، الشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي، تحقيق: جواد القيومي الأصفهاني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم المشرفة، ١٤٢٧هـ
- الاختصاص، أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي الملقب بالمفيد(ت ٤١٣هـ)، مؤسسة التاريخ العربي،بيروت، ٢٠٠٩
- الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت ١٣٩٦هـ)،ط١٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢.
- الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان البغدادي، نشر وتحقيق: مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث، ١٩٩٥
- الأندلسيون المواركة، عادل سعيد بشتاوي، القاهرة، ١٤٠٣هـ ـ١٩٨٣م
- الأمالي، الشيخ الطوسي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، ١٤١٤ هـ
- الأمير مسلمة بن عبد الملك، الدكتور عواد مجيد الأعظمي، اتحاد المؤرخين العرب، بغداد،١٩٨٠

- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ابي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي (ت ٤٥٠هـ) ط٢، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر،١٣٨٦هـ ـ١٩٦٦م
- بحار الأنوار الجامع لدُرر أخبار ألائمة الأطهار، محمد باقر المجلسي، ط٢، مؤسسة الوفاء، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
- براءة الشيعة من الغلو والغلاة، باقر شريف القرشي، دار المرتضى، بيروت،(د.ت)
- البدء والتاريخ، المطهر بن طاهر المقدسي (ت٣٥٥هـ)، تعليق: كليمان هوار، تقديم: الدكتور محمود إسماعيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠
- البحر الزخار، مسند البزار، أبو بكر أحمد بن عمر بن عبد الخالق المكي البزار (ت٢٩٢هـ)، مؤسسة علوم القرآن، بيروت
- البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، عمر بن علي بن أحمد الأنصاري ابن الملقن سراج الدين أبو حفص، تحقيق: مصطفى أبو الغيط عبد الحي - محمد عبد الله بن سليمان - ياسر بن كمال، دار الهجرة للنشر والتوزيع، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٦م.
ـ البحر الزخار المعروف بمسند البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله - عادل بن سعد - صبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.
- تاريخ الأمم والملوك، أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ـ٣١٠هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م
- تاريخ اليعقوبي، احمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي (ت ٢٩٢هـ) تعلق: خليل المنصور، دار الاعتصام، إيران، ١٤٢٥هـ
- تهذيب تاريخ دمشق الكبير، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر(ت٥٧١هـ) ترتيب: الشيخ عبد القادر بدران،دار المسيرة، بيروت،١٣٩٩هـ ـ١٩٧٩م

- تـاريخ الخلفـاء، جـلال الـدين السـيوطي (ت ٩١١) تحقيـق: محمـد محـي الـدين عبـد الحميد،مكتبة الشرق الجديد، بغداد ـ دار العلوم الحديثة، بيروت، (د.ت)
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المعروف بتفسير السعدي، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: سعد بن فواز الصميل، دار ابن الجوزي، ١٤٢٢ هجرية
- تحفـة الأحـوذي شـرح جـامع الترمـذي، محمـد عبـد الـرحمن بـن عبـد الـرحيم المباركفوري،تحقيق: رائد بن أبي علفة، دار الفكر، بيروت،
- تفسير القرآن العظيم ـ تفسير ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي أبو الفداء عماد الدين، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، ١٤٢٠ ـ ١٩٩٩
- تاريخ بغداد، احمد بن علي الخطيب البغدادي،ط٢، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت،٢٠٠٤
- تاريخ المدينة، عمر بن شبة زيد بن عبيدة بن ريطة النميري البصري، أبو زيد (ت ٢٦٢هـ) حققه: فهيم محمد شلتوت، طبع على نفقة: السيد حبيب محمود أحمد، جدة ـ السعودية، ١٣٩٩هـ.
- تاريخ الموريسكيين السياسي والاجتماعي والثقافي، دراسة في كتاب الحضارة العربية في الأندلس التي أشرفت على إعدادها الدكتور سلمى الخضراء الجيمي، ليونارد باتريك هارفي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٤١٩-١٩٩٨
- تاريخ خليفة بن خياط، خليفة بن خياط الليثي العصفري أبو عمر، ط٢، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار القلم, مؤسسة الرسالة، دمشق, بيروت، ١٣٩٧هـ
- تاريخ الموالي، الدكتور محمد عمر شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١١
- التـاريخ السياسـي والحضـاري للدولـة العربيـة، الـدكتور السـيد عبـد العزيـز، دار الكتـاب الحديث، القاهرة،١٤٣٢هـ ـ ٢٠١٢م
- تهذيب الأسماء واللغات، يحيى بن شرف بن مري النووي، الشافعي، تحقيق: الشيخ علي معوض والشيخ عادل عبد الموجود، إدارة الطباعة المنيرية – القاهرة.

- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، جمال الدين بن أبي الحجاج يوسف المزي، تحقيق: دكتور بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٣هـ.
- تهذيب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني أبو الفضل شهاب الدين، تحقيق إبراهيم الزيبق وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة.
- تقريب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني أبو الفضل شهاب الدين، تحقيق أبو الأشبال صغير أحمد شاغف الباكستاني، دار العاصمة.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر بن عبد البر القرطبي، إشراف: وزارة الشؤون الإسلامية بالمغرب، كتاب الكتروني، مكتبة مشكاة.
- التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، الدكتور صالح العلي، ط٢، بيروت، ١٩٦٩.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود شكري الآلوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- التشيع في الأندلس، الدكتور محمود علي مكي، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد ـ مصر، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م
- ثورات الشيعة منذ استشهاد الإمام الحسين (ع) وحتى اليوم، سعيد رشيد زميزم، دار القارئ، بيروت، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م
- جناية البخاري، إنقاذ الدين من إمام المحدثين، زكريا أوزون، مراجعة: مصطفى عبد الرزاق، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ٢٠٠٤.
- جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، مؤسسة الرسالة، الرياض، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م
- الجامع لأحكام القرآن،تفسير القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي أبو عبد الله، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م
- حديث الثقلين، نجم الدين العسكري (ت ١٣٩٠هـ)، دار الأمير للنشر، ط٤،
- الحضارة العربية الإسلامية، الدكتور علي حسني الخربوطلي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠١١م

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الإمام الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، دار الفكر للطباعة والنشر (د.ت)
- حكم لقمان، محمد الري شهري، دار الحديث للطباعة والنشر، قم، طهران، ط٣، ١٣٩١هـ
- جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده، نبيل عبد الحي رضوان، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨
- جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، احمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٣٧
- الخوارج والشيعة، يوليوس فلهاوزن، ترجمة عبد الرحمن بدوي، القاهرة ١٩٥٨م
- الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، محمد ضياء الدين الديس، القاهرة، ١٩٦١
- دور علماء الشيعة في مواجهة الاستعمار، سليم الحسني، ط٢، مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م
- دول الإسلام، شمس الدين أبي عبد الله الذهبي (ت٧٤٦هـ)، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م
- ديوان الضعفاء والمتروكين، شمس الدين بن عثمان بن قايماز الذهبي(٦٧٣-٧٤٨هـ)، تحقيق: لجنة من العلماء، دار القم،بيروت،١٤٠٨هـ -١٩٨٨م
- دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام والعهود الإسلامية المبكرة، الدكتور خالد العسلي، إعداد الدكتور عبد السلام رؤوف، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة، بغداد، ٢٠٠٢
- ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، محب الدين أحمد بن عبدالله الطبري، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٤

- رجال الكشي، اختيار معرفة الرجال، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ)، تحقيق جواد القيومي الأصفهاني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، ١٤٢٦هـ.
- رسالة من أهل سنة الحبيب النبي محمد (ص) إلى الشيعة، جمع وترتيب محمد السيد محمد، مكتبة مشكاة
- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار،أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (٤٦٧ـ ٥٣٨هـ)، تحقيق: عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي، بيروت،١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢م
- رجال البرقي، أحمد بن محمد بن خالد البرقي، كتاب الكتروني
- زاد المعاد في هدي خير العباد، شمس الدين أبي عبد الله ابن القيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م
- السيرة النبوية، ابي محمد عبد الملك ابن هشام المعافري، تحقيق: الشيخ محمد علي القطب والشيخ محمد الدالي بلطة، المكتبة العصرية، بيروت،١٤٢٣هـ ـ٢٠٠٢م
- سنن ابن ماجة، محمد بن يزيد بن ماجه، تحقيق فؤاد عبد الباقي ، المكتبة الإسلامية، اسطنبول
- سنن الترمذي، الجامع الكبير، محمد بن عيسى الترمذي (ت٢٩٧هـ)، تحقيق: محمود محمد محمود،دار الكتب العلمية، بيروت،
- سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، سنة النشر: ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م
- السنن الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي(ت٤٥٨هـ)، دار الفكر (د.ت)
- سنن النسائي، بشرح جلال الدين السيوطي وحاشية السندي، دار الجيل، بيروت، ودار الحديث، القاهرة، ١٤٠٧هـ ـ١٩٨٧م
- الشيعة في الميزان، محمد جواد مغنية، مؤسسة إحياء الكتب الإسلامية، قم، إيران، ١٤٢٧
- الشيعة وفنون الإسلام، حسن الصدر،مؤسسة السبطين عليهما السلام العالمية

- الشيعة هم أهل السنة، الدكتور محمد السماوي التيجاني، قم.
- الشيعة في التاريخ، الشيخ محمد حسين الزبن،ط٢، مطبوعات السيد مرتضى الرضوي، مكتبة النجاح، مطبعة العرفان، ١٩٣٨
- الشيعة والتصحيح، الصراع بين الشيعة والتشيع، موسى الموسوي، كتاب الكتروني، المشكاة
- الشيعة والدولة القومية ١٩١٤- ١٩٩٠، حسن العلوي،
- الشيعة، هاينس هالم، ترجمة محمود كبيبو، شركة الوراق للنشر المحدودة، بغداد، ٢٠١١
- شيعة ممدوحة وأشياع مذمومة، سبط الإمام المجدد ابن دقيق العيد أبو الفتح القشيرى أبو كفاح الدين أحمد بن محمد السعيد العزيزى، مصر، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧م، كتاب الكتروني، مكتبة مشكاة الإسلامية
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة، هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي أبو القاسم، تحقيق: أحمد سعد حمدان، دار طيبة - الرياض، ١٤٠٢
- صفات الشيعة ، فضائل الشيعة ، الشيخ الصدوق، طبع ضمن كتاب علي والشيعة : نجم الدين العسكري
- صحوة الشيعة، الصراعات داخل الإسلام وكيف سترسم مستقبل الشرق الأوسط، ولي نصر، ترجمة سامي الكعكي،دار الكتاب العربي، بيروت
- صحيح مسلم، ابو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦-٢٦١هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت،١٤٢٠ هـ -٢٠٠٠م
- صحيح مسلم بشرح النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٢
- صحيح البخاري بحاشية السندي، ابو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، طبعة دار الفكر، بيروت بغداد، ١٩٨٦
- صحيح البخاري، طبعة دار إحياء التراث العربي،٢٠٠١

- صحيح ابن حبان، تحقيق: أحمد شاكر، دار المعارف، ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٢م
- صحيح الجامع الصغير وزياداته، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي، كتاب الكتروني، المكتبة الوقفية
- صحيح وضعيف الجامع الصغير، محمد ناصر الدين الألباني، كتاب ألكتروني، برنامج منظومة التحقيقات الحديثية، إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية
- صفة الغرباء، الشيخ سلمان بن فهد بن عبد الله العودة، كتاب الكتروني
- الطبقات الكبرى، ابن سعد، تقديم: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ت)
- طبقات الحفاظ، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (٨٤٩ -٩١١ هـ، ١٤٤٥- ١٥٠٥م)، دار الكتب العلمية، بيروت
- عبقات الأنوار في إمامة الأئمّة الأطهار، السيّد حامد حسين الموسويّ اللَّكْهَنويّ (١٢٤٦- ١٣٠٦هـ)، ترجمة وتحقيق السيد علي نور الدين الميلاني، مؤسسة البعثة ـ قسم الدراسات الإسلامية، طهران، ١٤٠٥هـ
- العقد الفريد، ابو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، ط٢، تحقيق: الدكتور محمد التونجي، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٩م
- العبر وديوان المبتدأ والخبر، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون(ت ٨٠٨هـ)، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت،(د.ت)
- عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى، السيد مرتضى العسكري، المجمع العلمي الإسلامي، قم ١٩٩٧
- عقائد السنة وعقائد الشيعة التقارب والتباعد، صالح الورداني، عربية للطباعة والنشر، ١٩٩٥
ترتيب كتاب العين، للفراهيدي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ١٤١٤هـ
- العراق في العصر الأموي، ثابت إسماعيل الراوي، ط٢، منشورات مكتبة الأندلس،بغداد، ١٩٧٠

- العالم الإسلامي في العصر الأموي، الدكتور عبد الشافي محمد عبد اللطيف، دار السلام، القاهرة ـ مصر.٢٠٠٨م
الغدير في الكتاب والسنة والآدب، عبد الحسين احمد الاميني النجفي، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٨٧هـ ـ١٩٦٧م
- فتح الإله في فضح الشيعة وفرخها حزب الله،أبو الحسن حافظ بن غريب بن حافظ،مراجعة الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الحميد حسونة،مشكاة الإسلامية.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية وعلم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: هاني الحاج، المكتبة التوفيقية، مصر.
- فتح المغيث بشرح ألفية الحديث، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي (ت ٩٠٢هـ)، تحقيق: علي حسين علي، مكتبة السنة، مصر، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م، كتاب الكتروني
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني(٨٥٢ هـ) ، دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م
- فرق الشيعة، أبي محمد الحسن بن موسى النوبختي، تصحيح: هـ. ريتر، جمعية المستشرقين الألمانية، اسطنبول ١٩٣١
- الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة، ابن صباغ المالكي،ط٢، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٨م
- الفصول المهمة في معرفة في تأليف الأمة، عبد الحسين شرف الدين، منشورات مكتبة النجاح، مطبعة النجف،١٣٧٥هـ.
- فجر الإسلام - احمد أمين، ط٣،مطبعة لجنة التأليف والنشر،١٣٥٤هـ ـ١٩٣٥م
- الفصل في الملل والأهواء والنحل، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري، تحقيق: محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل
- الفرق المتفرقة بين أهل الزيغ والزندقة، عثمان بن عبد الله بن الحسن الحنفي
الفهرست، أبو الفرج محمد بن إسحاق النديم، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت

- الفاضح لمذهب الشيعة الإمامية، حامد الإدريسي، كتاب الكتروني، مكتبة مشكاة الإسلامية
- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، عبد القاهر بن طاهر البغدادي(ت٤٢٩هـ ـ١٠٣٧م)، ط٣،دار الآفاق، بيروت، ١٩٧٨
- فرق أهل السنة جماعات الماضي وجماعات الحاضر، صالح الورداني
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دارالريان للتراث، سنة النشر: ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م
- فتوح البلدان لأبي الحسن أحد بن يحيى البلاذري (٢٧٩ هـ)، تحقيق: الدكتور صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة.
- قاموس لاروس الكبير
- كشف اللثام عن دعوى الرافضة اللئام حب آل البيت الكرام، علي العلي الكعبي، كتاب الكتروني، مكتبة مشكاة الإسلامية
- كشف الغمة في معرفة الأئمة، أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي(ت ٦٩٣هـ)، دار المرتضى، بيروت،١٤٢٧هـ ـ٢٠٠٦م
- كشف الالتباس في معرفة أحوال ابن عباس، علي الأحراري، النجف الأشرف، ١٤٢٠هجرية
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري، المعروف بالمتقي الهندي،ط٥، تحقيق: صفوت السقا وبكري (ت ٩٧٥هـ) مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ ـ١٩٨١م
- الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير (٥٥٥ـ٦٣٠هـ)،ط٢، تحقيق: الشيخ خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت،١٤٢٨هـ ـ٢٠٠٧م
- الكامل، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، ط٣، تحقيق: الدكتور محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م

- لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (ت: ٧٤١هـ)، تحقيق: تصحيح محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٥هـ
- لماذا تتحارب الأمم دوافع الحرب في الماضي والمستقبل، ريتشارد نيد ليبو، ترجمة: الدكتور إيهاب عبد الرحيم علي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت
- مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق: أحمد صقر، مؤسسة العطار الثقافية، قم، ١٤٢٨هـ
- مسند الإمام علي (عليه السلام)، السيد حسن القبانچي، تحقيق الشيخ طاهر السلامي
- معجم أحاديث الإمام المهدي، مؤسسة المعارف الإسلامية، قم، ١٤٢٨هـ
- موسوعة عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن، السيد محمد مهدي السيد حسن الموسوي الخرسان، مركز الأبحاث العقائدية، ١٤٢٨هـ
- المراجعات، السيد عبد الحسين شرف الدين، ط١٨، تحقيق: الشيخ حسين الراضي، دار الصادق للطباعة والنشر، كربلاء، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م
- معالم المدرستين، السيد مرتضى العسكري، ط٦، المجمع العلمي الإسلامي، قم، ١٩٩٦م
- الميزان في تفسير القران، السيد محمد حسين الطباطبائي، صححه واشرف على طباعته: الشيخ حسين الأعلمي، منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٧
- معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي شهاب الدين أبو عبد الله(ت٦٢٢هـ/١٢٢٥م)، دار صادر، ١٣٩٧هـ - ١٩٩٣م
- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي (ت٧٣٩)، دار المعرفة، بيروت،١٩٥٥
- المستدرك على الصحيحين، ابو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، ط٢، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٢هـ -٢٠٠٢م
- مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، الدكتور عبد العزيز الدوري، طبع بغداد، ١٩٤٩

- الملل والنحل، الشهرستاني، ط٢، تخريج محمد بن فتح الله بدران، منشورات الشريف الرضي، مكتبة الانجلوالمصرية، القاهرة، سلسلة الدراسات الفلسفية والاخلاقية
- مع الاثني عشرية في الأصول والفروع، دراسة مقارنة في العقائد، الدكتور علي السالوس، كتاب الكتروني، موقع البينة.
- المجوسية الرافضية الشيعية الصفويه الإيرانية، أبوعبدالله الحذيفي، كتاب الكتروني، مكتبة مشكاة
- مسند الإمام أحمد، عبد الله بن أحمد بن حنبل، تحقيق : الدكتور محمد سعيد سالم القحطاني، ١٤٠٦، دار ابن القيم، الدمام
- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني أبو العباس تقي الدين، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م
- الموسوعة العربية الميسرة، ياسين صلواتي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت
- مع التابعين، عمرو خالد، دار نهضة، مصر
- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ط٦، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ذوي القربى، قم،١٤٣١هـ
- مختار الصحاح، محمد بن ابي بكر بن عبد القادر الرازي(ت٦٦٠هـ)، ط٤، إعداد محمد حلاق، دار إحياء التراث، بيروت،١٤٢٦هـ -٢٠٠٥م
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث،ط٤، مكتبة الشروق الدولية:،١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م
- موسوعة العلامة الإمام مجدد العصر محمد ناصر الدين الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، إعداد شادي بن محمد بن سالم آل نعمان، مركز النعمان للبحوث والدراسات الإسلامية وتحقيق التراث والترجمة، صنعاء - اليمن، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

- المعرفة والتاريخ، أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي (ت ٢٧٧هـ) تحقيق: الدكتور أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠١ هـ
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي اليمني المكي أبو محمد، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م
- معرفة الثقات، الحافظ أبي الحسن أحمد بن عبدالله بن صالح العجلي الكوفي (ت ٢٦١) تحقيق: عبد العليم عبد العظيم البستوي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م
- مقدمة في أصول التفسير، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني (٦٦١-٧٢٨)،ط٢، تحقيق: الدكتور عدنان زرزور، دار القران الكريم، الكويت،١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م
- مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي أبو حاتم الدارمي البُستي (ت ٣٥٤هـ)، تحقيق: مرزوق على إبراهيم، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، مصر ١٤١١هـ - ١٩٩١م
- المفيد من معجم رجال الحديث، محمد الجواهري، ط٢، المحلاتي، قم، المطبعة العلمية،١٤٢٤ هـ. ق
- المزارات ومراقد العلماء في الحلة الفيحاء، السيد حيدر بن السيد موسى وتوت الحسيني
- مستدركات علم رجال الحديث، الشيخ علي النمازي الشاهرودي، مطبعة حيدري، طهران
- المتعتان بين النص والاجتهاد، طاهر الموسوي، دار الغدير للطباعة والدراسات والنشر، ١٩٩٨
- موسوعة السير، معاوية بن أبي سفيان شخصيته وعصره - الدولة السفيانية، الدكتور علي محمد الصلابي، ط٦، دار المعرفة، بيروت، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (٣٤٦هـ - ٩٥٧م)، تحقيق: أمير مهنا، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت، ٢٠٠٠م

- مجموع فتاوى ابن تيمية، تقي الدين ابن تيمية، مجمع الملك فهد، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م
- موسوعة تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، شمس الدين الذهبي، دار الكتاب المصري، القاهرة
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال - ذيل ميزان الاعتدال، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي أبو عبد الله شمس الدين العراقي، تحقيق: علي محمد عوض - عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م
- معاوية الثاني والتشيع في البلاط الأموي، المحامي محسن خزعل المحسن، دار ميزوبوتوميا، بغداد
- نشأة الشيعة والتشيع، الشهيد محمد باقر الصدر، تحقيق الدكتور عبد الجبار شرارة، ط٤، مركز الدراسات الإسلامية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م
- نشأة الشيعة الإمامية، نبيلة عبد المنعم داود، دار المؤرخ العربي، بيروت
- نور الأبصار في مناقب آل البيت الأطهار، مؤمن الشبلنجي،ط٢، دار المعرفة، بيروت، ١٤٣١هـ - ٢٠٢٠م
- نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي محمد بن ابي احمد الحسيني، وشرح عبد الحميد بن هبة الله ابن ابي الحديد، دار المعرفة ودار الكاتب العربي، بيروت
- النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، الدكتور صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م
- نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد الله بن ضيف الله الرحيلي، الرياض، السعودية، سلسلة دراسات في المنهج٩، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، كتاب الكتروني
- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة الطبعة الرابعة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، احمد بن محمد المقري التلمساني، منشورات الشيخ محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٤٩

- الوشيعة في كشف شنائع وضلالات الشيعة، الدكتور صالح الرقب، مكتبة مشكاة، ط ٢٠٠٣
- وفيات الأعيان وأنباء الزمان، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (٦٠٨- ٦٨١هـ)، تحقيق: دكتور إحسان عباس، دار الثقافة، مصر، ١٩٦٨
- وقعة الحرة أو حركة المدينة المنورة، السيد حيدر السيد موسى وتوت الحسيني
- هوية التشيع، الدكتور أحمد الوائلي، ط٣، دار الكتاب الإسلامي، إيران، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م
- هذه هي الشيعة، باقر شريف القرشي، دار الخليج للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٦هـ ١٩٩٦م
- ينابيع المودّة، سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي،مؤسسة الأعلمي، بيروت

النشرات والجرائد والمجلات

مجلة جامعة صنعاء للقانون والدراسات الإسلامية، العدد العاشر، ٢٠٠٩
مجلة البحوث الإسلامية، المملكة العربية السعودية، العدد الخامس عشر من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة ١٤٠٦هجرية
نشرة المنتدى – منتدى الفكر العربي برئاسة الأمير الحسن بن طلال ولي العهد الأردني السابق، العدد سبعين، المجلد ٦ ، تموز ١٩٩١

مواقع الكترونية

- منتدى الكفيل، الرابط http://www.alkafeel.net/forums/showthread.php?t=٢٢٦١٣

- مؤسسة السبطين، في رحاب: حكم الإتيان بقول آمين في الصّلاة، الرابط

http://shiasite.net/ar/index.php?option=com_content&view=article&id=19013:%D9%81%D9%8A-%D8%B1%D8%AD%D8%A7%D8%A8-%D8%AD%D9%83%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%AA%D9%8A%D8%A7%D9%86-%D8%A8%D9%82%D9%88%D9%84-%D8%A2%D9%85%D9%8A%D9%80%D9%86-%D9%81%D9%80%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%91%D9%80%D9%84%D8%A7%D8%A9&catid=991:%D9%81%D9%8A-%D8%B1%D8%AD%D8%A7%D8%A8-%D8%A3%D9%87%D9%84-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%8A%D8%AA&Itemid=1133

- موقع راغب السرجاني، موضوع بعنوان (أصول الشيعة) نشره في نيسان ٢٠٠٩، الرابط

http://islamstory.com/ar/%D٨٪A٣٪D٨٪B٥٪D٩٪٨٨٪D٩٪٨٤_%D٨٪A٧٪D٩٪٨٤٪D٨٪B٤٪D٩٪٨A%D٨٪B٩٪D٨٪A٩

- موقع ملتقى أهل الحديث، الرابط http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=٢٤٩٣٨

- مركز الفتوى السعودي، الرابط

http://www.islamweb.net/fatwa/index.php?page=showfatwa&Option=FatwaId&Id=١٠٩٨٦

- موقع الكوراني، رابط http://www.alameli.net/books/index.php?id=١٠٠٣

- مركز الأبحاث العقائدية، مكتب آية الله السيد السيستاني، http://www.aqaed.com/faq/١٧٥٣/

- موقع دار الحديث الالكتروني، الرابط

http://www.mybawaba.com/islam/dar_alhadieth/details.asp@id=٥٠٠.htm

- موقع موسوعة النابلسي، الدكتور محمد راتب النابلسي، الدرس ١٥ـ٢٠، سيرة التابعين الأجلاء، التابعي سعيد بن جبير، الرابط

http://www.nabulsi.com/blue/ar/art.php?art=5316&id=114&sid=659&ssid=678&sssid=679

- تخريج أسانيد التفسير، الرابط http://www.ibnamin.com/tafsir_takhrij.htm

- شبكة السنة وعلومها، موقع سعودي، الرابط،

http://www.alssunnah.com/main/articles.aspx?article_no=5482

- موقع بيان الإسلام للرد على الافتراءات والشبهات، موقع مصري، الرابط

http://www.bayanelislam.net/Suspicion.aspx?id=03-02-0050&value=&type=

- قصة موسى والخضر، أبو إسحاق الحويني الأثري حجازي محمد شريف، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، الدرس الثامن، http://www.islamweb.net
- الموقع الرسمي للشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز على شبكة الانترنيت، الرابط http://www.binbaz.org.sa/mat/10320
- موقع الشيخ عبد الحق التركماني، الرابط http://turkmani.com/com_studies
- بداية محاكم التفتيش في تاريخ المسلمين، أحمد صبحى منصور، الحوار المتمدن-العدد: ٣٢٢٣ - ٢٠١٠ / ١٢ / ٢٢ الرابط http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=٢٣٩٢٥٧
- مقتل الحسين/ السيد عبد الرزاق المقرم، الرابط
http://www.m-alhassanain.com/kotob%٢٠hossain/magateel/maghtal%٢٠hossain%٢٠llmogharam/index.htm
- من فوائد أَبي محمد الأبنوسي، موسوعة الحديث، كتاب الكتروني، الرابط
http://library.islamweb.net/hadith/display_hbook.php?indexstartno=0&hflag=&pid=548375&bk_no=1702&startno=39

الفهرس

الإهداء 3
المقدمة 5

القســـــــــــــــم الأول

٣٢- ٨١ هجرية

الفصل الأول: الخط الديني..... 13
مقدمات لدخول البحث 14
معنى التشيع 15
ولادة التشيع 19
حقيقة الولادة 40
نشأة التشيع 45
الشيعة تفسيرا 47
الفصل الثاني: التقسيم فوائد ومضار..... 51
هل التشيع انفصال عن الأصل أم تركيز لخلاصته؟ 53
لماذا التشيع؟ 65
دور التشيع في التفرق 60
الفصل الثالث: الصحابة خيارات ومواقف 63
الصحابة والتابعون 64
طبقات الصحابة 70
الوعي والتلقي 73
إحصاء الصحابة الشيعة 77
الفصل الرابع: التابعون 79

مَنْ التابعون؟ 81
طوبى لمن رآني 84
طبقات التابعين 88
خير الناس قرني 89
تأشير بوادر انحدار الأمة 95
سعيد وأفضلية التابعين 97
تحريم الكتابة 100
الفصل الخامس: كماشة الفوضى 107
تباين الحديث عن سعيد 108
الكوفة والحدث المرتقب 109
نبذة من سيرة سعيد 111
التناقض في التفاضل 128
سعيد ومعلموه 125
المعلمون الحقيقيون 138
تحريف روايات التلمذة 141
الفصل السادس: الانتماء وأثره..... 155
سعيد والسنة النبوية 156
سعيد والتطبيق العملي للسنة 166
الفصل السابع: سعيد وثورات عصره..... 171
سعيد والثورة الحسينية 172
سعيد وثورة ابن الزبير بمكة 173
سعيد وثورة المدينة ووقعة الحرة 174
سعيد وثورة التوابين بالكوفة 175
سعيد وثورة المختار بالكوفة 177

القســـــــــم الثاني

٨٢ ـ ١٣٢ هجرية

الفصل الأول: أطراف المعادلة..... 185

القراء وثورات عصرهم 186

فتنة أم ثورة 196

النسب الأشعثي 200

الفصل الثاني: الثورات العصر..... 209

أسباب الثورات ضد الأمويين 210

الفصل الثالث: أحداث ما بعد الثورة..... 227

الحجاج بعد الثورة 228

قراء مفقودون 231

الفصل الرابع: سعيد وطاحونة الموت..... 245

الأمة وثورة ابن الأشعث 247

معتدلون ومرجئة مع ابن الأشعث 252

أصدقاء الأمويين مع ابن الأشعث 253

محاكم التفتيش الإسلامية 265

أهواء التعامل مع الأسرى 267

الشيعة ومحاكم التفتيش 271

الفصل الخامس: غرابة التعاطي..... 273

تعامل الحجاج مع الشيعة عامة 274

الأعاجم وتولي القضاء 287

نكث البيعة ومنهجية القتل الأموي 291

الكوفيون الحرب الفكرية 293

منهجية الدفاع الكوفي 300

الفصل السادس: الكوفة جمجمة الإسلام وكنز الإيمان..... 303
الكوفة ومجتمعها بين المدح والذم 304
الكوفة عاصمة الإمام 308
ذوي المجرمين 312
تكفير الكوفيين 313
مطاردة الكوفيين 315
الفصل السابع: بداية الانحدار..... 317
بداية الوهن 318
جمر المعارضين في الحروب 319
الانتقام 325
الأخوة الأعداء 328
الدولة تأكل أولادها 330
المال والإماء والغلمان والخمور 334
الخمر والكفر والخلفاء 342
التصريح بالكفر 346
منحنى الانحدار 348
وانتهى القرن 350